ستراتيس تسيركاس

مدن جامحة

الجزء الثالث

الخفـــاش

ترجمها عن اليونانية: **خالد رءوف**

المركز القومي للترجمة

2544

سلسلة الإبداع القصصي



ستراتيس تسيركاس ولد فى القاهرة (1912-1980): روائى يونانى كبير، قضى شطرًا كبيرًا من حياته فى مصر التى شكلت جزءًا أساسيًا من عوالمه الروائية.

"مدن جامحة" عنوان ثلاثيته الشهيرة التى كُتبت أجزاؤها على التوالى فى سنوات: 1961 ، 1962، 1965.

وهذه الثلاثية عمل روائى تجريبى، تقع أحداثه فى أورشاليم والقاهرة والإسكندرية وأثينا وباريس، خلال الفترة الأخيرة من الحرب العالمية الثانية ثم بعدها بقليل. والعمل - كما يقول صاحبه - لا يعد رواية تاريخية، هى رواية من الخيال الذى يأخذ أدواته من هنا وهناك، لكنه يستخدمها بطريقته.

ترجم صموئيل بشارة الرواية الأولى من الثلاثية "مدن جامحة"، وراجعها وقدم لها نعيم عطية فى دار القاهرة 1998، ويسعد المركز القومى للترجمة أن يقدم ترجمة الجزء الثانى والثالث، وهذا هو الجزء الثالث.

مدن جامحة

الجزء الثالث

الخفاش

رواية

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2544
- مدن جامحة (الجزء الثالث): الخفاش
- ستراتيس تسيركاس
- خالد رعوف
- اللغة: اليونانية
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة:
ΑΚΥΒΕΡΝΗΤΕΣ ΠΟΛΙΤΕΙΕΣ
Η ΝΥΧΤΕΡΙΔΑ
ΣΤΡΑΤΗΣ ΤΣΙΡΚΑΣ

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

مـدن جـامـحـة

الجزء الثالث

الـخـفـاش

رواية

تــألـيـف : ستراتيس تسيركاس

ترجمها عن اليونانية : خـالد رءوف



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

تسيركاس ؛ ستراتيس ، ١٩١١ – ١٩٨٠
مدن جامحة (الجزء الثالث) : الخفاش
راوية / تأليف : ستراتيس تسيركاس
ترجمة : خالد رءوف
القاهرة – المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٦
١ – القصص اليونانية
(أ) رءوف ، خالد (مترجم)
(ب) العنوان ٨٨٣

رقم الإيداع : ٢٦٢٦٠ / ٢٠١٤
الترقيم الدولى 2 - 0039 - 92 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

تــنــبــيــه

إلى القارئ حسن الظن، بالطبع. وأيضا للآخرين، مثلما قال كفافيس في قصيدته غير المنشورة «تدخلات الآلهة» :

الآن هو يفعل هذا الشيء،

بمرور الزمن؛ سيفعله آخرون كما يشاءون

ثم نبدأ من جديد.

مدن جامحة هي رواية من الخيال. وهي ليست بالطبع ما قد نسميه رواية مفتاح. لو أن هناك تشابها أو تطابقا في الحوارات مع شخوص حقيقيين فهى بالتأكيد محض مصادفة لا أكثر. إذ إن الخيال يأخذ أدواته من هنا وهناك، أينما يجد - لكن يستخدمها بطريقته، ولاحتياجاته، مثل نحات يأخذ من الموديل الأنف، ومن الآخر الجبهة ومن الثالث الأذن ... إلخ، لكي يصنع عملاً فنيا مبتكرا هو بالطبع ليس (بورتريهًا) لشخص محدد ممن عمل معهم من قبل. ليس هناك شخصية حقيقية في مدن جامحة.

ثلاثية «مدن جامحة» ليست سيرة ذاتية، ولست أنا مانوس سيميونيذيس.

العمل لا يعد رواية تاريخية بالمعنى الضيق، أي الزمني. لكن تم الاستعانة بالكثير من الأحداث في الشرق الأوسط في تلك الآونة من أجل صنع الرواية.

التاريخ يصنع نفسه بطريقة تجعل النتيجة النهائية تقفز من بين خلجات صدامات الرغبات لشخصيات كثيرة تكونت بدورها في خضم ظروف حياتية معقدة. هكذا أيضا هي الإجراءات والأفعال اللانهائية للقوى المتوازية التي من داخلها يقفز الحدث التاريخي. لكن يمكن اعتبار هذا نتاج قوة تتجه نحو الصورة الكلية، حيث نجد عمل الرغبة الذي يحدث تلقائيا وبلا وعي. لأن ذلك الذي قد يريده كل شخص قد يمنع الآخرين وينتج عنه شيء لايريده أحد.

فرانز كافكا

(خطاب إلى j.Bloch 21 سبتمبر 1980)

« إلى الظلام نذهب وفي الظلام نسير...»

الأبطال يسيرون في الظلام.

يورغيوس سيفيريس

« المحطة الأخيرة»، (cava dei Tirreni 5 أكتوبر 1944)

بعيدا؛ في بداية القطار سُمع صوت ماكينة البخار تصفر بهيستيرية. في الخارج كانت أرض الدلتا تبرق تحت ضوء القمر. ظل أسود أمام خلفية فضية: جاموسة منحنية تشرب من قناة. صفوف أشجار الكافور ثم صفوف أشجار التوت بعدها. في الجوار في بناية منخفضة بعض نباتات الصبار محاطة بسور منخفض مصنوع من الطين. مكان للصلاة، حظيرة أو مقبرة، لا يوجد بشر، الحقول سكنت صامتة دون حركة. فقط أشجار النخيل بقيت وحيدة ومطواعة تقفز من داخل البيوت الطينية وتؤرجح عاليا أوراقها التي تشبه السيوف مثل ريش هدهد غاضب. في دمنهور خلف نافذة الجامع ظهر القمر، من حينها وهو يجري معنا. يختفي تارة ويظهر تارة أخرى، وجهه المبهج يبتسم ويصمت وكأنه سيمر فوق عربات القطار ثم يندم ويبقى في الخلف وكأنه ملَّ منا جميعًا ونحن كالنمل نجري ذهابًا وإيابًا على الوادي البُنيّ، مطاردين ومُطَارَدين من معاناة نبيلة أو حمقاء، لكن من سيقوم بالفرز. بأي ملقط سيمسك بها، ومن أي كومة قش؟

فا - سي - لي ! فا - سي - لي ! غا - ري - لاااا !، سمعت عجلات القطار تصيح بينما سائق القطار يبذل قصارى جهده كي لا نتأخر. ثبت ذهني عند فاسيليس. لو هو موجود في الإسكندرية ستكون الأمور أكثر بساطة، سوف أسأله. أي مصلحة لديه كي لا يخبرني بالحقيقة؟ أي صداقة، أي عقيدة وأي مصلحة سيضعها فوق النضال؟ ليكن فقط في الإسكندرية. لم يكن فانيس

متأكدا. قرأ وأعاد قراءة رسالته الموجزة: ماذا يقصد بحق الجحيم؟ كان غاريلاس يجب أن يكون في بني غازي، كيف تركوه يغادر من هناك؟

بدأ الهواء داخل القاطرة يتغير شيئًا فشيئًا؛ أتت روائح رطبة، رائحة سمك ومراكب. إننا نقترب. لابد أننا قد مررنا قدر ساعة من دمنهور، ستون كيلومترا بقيت كي نصل. راحت الصافرة تصيح مرة أخرى مهددة. ظهر المحصل في زي رث، قال لي بشكل رسمي: « سيدي جابر ».

أعلم، إنها المحطة القادمة قبل الإسكندرية بخمس دقائق، سأنزل هنا. راح يتفحصني وراحت ملامحه تأخذ تعبيرات متباينة بين الجدية والارتياب والابتسام. فجأة حيّاني مشيرًا بيده إلى جبهته ثم أعاد الحركة مرة أخرى، راح يناديني بلقب «بك» وهو ينظر إلى الشبكة فوق رأسي. لم يكن لدي أمتعة ولا صناديق، ولا حتى جريدة. أعطيته قرشين بقشيشا. حياني منحنيا، نظر مرة أخرى إلى الشبكة موبخا ثم غادر. دق برفق على الباب المجاور وقال بالإنجليزية: « سيدي جابر ستيشان ».

نهضت وتحركت كأنني ذاهب إلى دورة المياه. كان القطار يخفض سرعته بهدوء، الغبار كان يحوم في الممرات، بعيدا كان القمر يجري فوق مساحة ناعمة ولامعة، ليس البحر، هل تكون البحيرة أم المستنقعات؟ سرت متراجعا في عربات الدرجة الثالثة. أتعرقل في حزم من القماش والأقفاص، الركاب واقفون يتأهبون، يتكلمون جميعا بإشارات كبيرة، يلملمون جلابيبهم على سيقانهم ويمسكونها بكفوفهم ويرفعونها كي يتحركوا

بحرية. رائحة عرق كريهة، مزيج من رائحة البصل والتراب. تحت أقدامنا جلجلة القضبان وصرير السلاسل. سرت جاهدا حتى أصل إلى شرفة العربة الأخيرة. مع المسافرين خلسة وغير الصابرين أقفز أنا أيضا في عتمة الليل. القمر الصغير الأحمر في العربة الأخيرة صار يبتعد ببطء. توقف على مسافة مائة متر. تركت الآخرين يمرون أمامي، بعضهم سار في طريق عكسي في الظلام وهم يتعرقلون في العوارض.

تسلقت العوارض. الجدار كان إسمنتيًا. ستوجد بقعة مكسورة في مكان ما، صبرا. على يميني حركة الشارع، أرى سيارات الليموزين تنزلق بأنوار مغلقة والإسفلت يلمع تحت ضوء القمر. على يساري تبدو مزارع الذرة وقصب السكر. تلك السنام ذات الأذرع المعلقة لابد أنها أشجار موز. ها هي السياج الحديدية على مبعدة ثلاثين مترا من الفانوس الأحمر: لم يبقَ سوى هيكله الحديدي، أحد قضبان السياج كان منحنيا فمررت بسهولة، وطأت قدماي رصيف شارع أبي قير. كمسافر غير شرعي أدرت ظهري نحو محطة القطار. بعد قليل أشعل سيجارة، أضع يديّ في جيوبي وأعبر إلى الرصيف المقابل. أغير مساري فجأة وأتجه نحو الشارع؛ في اتجاه المستشفى. على الجانب الآخر من الطريق كانت الأنوار الخافتة وحركة محطة القطار، الظلال تتزاحم، على اليمين أبواق السيارات التي تدور ماكيناتها، ما علاقة كل هذا بسائرٍ ليلي يذهب إلى بيته في هدوء؟

لم أكن أعرف الإسكندرية جيدًا؛ لكن أمي كانت قد ولدت هنا، وهنا تزوجها أبي وجاء بها عروسا إلى كيفسيا. لكن شهرا لم يكفني في

خريف العام الماضي. لكي أتعرف على مدينة كهذه أحتاج إلى شهور، أيام طويلة وخالية. كي أتجول فيها بلا هدف، أسلك شوارع لا أعرف إلى أين تؤدي، أكتشف أماكن وأفنية داخلية ورخاما ملطيًا، نقوش على أبواب حديدية معشقة، جامعا صغيرا بخطوط صفراء ووردية مثل قمصان لاعبي الكرة، بجواره شجرة لها جذع لامع وأوراق مليئة بالعصافير. أتوقف أمام الأبواب القديمة وأقرأ تواريخًا محفورة على الحجارة وأتأمل: هذا لم يلتهمه الحريق، ذاك بُني في نفس سنة ميلاد أمي... أسمع إلى أسماء الشوارع ومخيلتي تسير من عالم هيرودوت وبلوتارخ إلى الآن مع المرابين وتجار الأقطان. أدخل إلى مقاهٍ قديمة، حيث المرايا التي تعلن عن ماركات نبيذ وكونياك ومقويات كلها منسية اليوم، ورائحة التبغ قد تخللت أعماق مقاعد الخوص الغائرة، ومفارش الجوخ المهلهلة على طاولات البلياردو، وعلب الطباشير والمسحة، مع صوت الجرسون الجهير الحاد يصدح ويطلب المشروبات باليونانية ... كان لابد أن تكون لديّ الحرية لأكون بين الناس والعمال، في الميناء، في الأسواق، في بيوتهم، في المصانع وفي المراكز، في الأضواء، داخل الضوء. ذلك الشهر قضيته محبوسا في طابق أرضي، شيء أشبه بسكن مشترك أو سكن خاص بعمال الموانئ عند محطة كليوباترا على الكورنيش. كنت أخرج في الليل للتعاون مع الرفاق، لكن كنا نرتب اللقاءات في الأماكن التي يمكنني فقط أن أذهب إليها بسهولة أو أتذكر أسماء الشوارع التي كنت أتعرف عليها على عجل ليلاً وعقلي كان مسلوبا نحو الأخبار التي ينقلها المذياع، حرب العلمين، انسحاب روميل. شرقا ناحية شارع أبو قير، كان المستشفى اليوناني. قضيت هناك عشرة أيام في يناير. ولا حتى في تلك

الفترة فكرت أن أسأل إذا كان لا يزال هناك أي أقارب لأمي، أبناء عمومتها أو أبنائهم. كنت أعرف فقط أن في منطقة الرمل وفي منطقة كنيسة الرسول إلياس على أن أبحث، إذا ما قررت.

والآن للمرة الثالثة، مرة أخرى خارج عن القانون ، وفي الخريف مرة أخرى، ليلاً. كنت أسير في طريقي بهدوء حتى المستشفى. تسللت من بوابة القديسين نحو الحديقة سيرا بجوار الحائط حتى وصلت إلى جناح الموظفين. حلقة الوصل كان أحد الطباخين، بدين وقصير ومشوش بعض الشيء لكنه رفيق أهل للثقة.

ـ آه ! فوجئ عندما رآني أمامه ودفعني بكرشه في الظلام نحو الممر: هل رأوك وأنت تدخل؟

طمأنته وقلت له إن مخبرى المحطة لم ينتبهوا لي عندما وصلت، وسألته إذا كان ذلك السكن الجماعي في كليوباترا لايزال قائما.

ـ قال لي، هيا أسرع، بالكاد ستلحق بالأرملة. لديها موعد في العاشرة.

"الأرملة" كان كنية شخص اسمه ثاناسيس، بحار سابق، الآن هو عسكري برتبة عريف أول ذو وجه طويل ممتلئ بالتجاعيد، كان مثل الأرملة الباكية، لا يكف عن الشكوى، كان يشكو من كل شيء، لكن لم يكن أحد يسبقه في المبادرة وسرعة البديهة. كان يتسلل كالقط، لا ينتبه أحد متى يغادر؛ سيظهر بعد قليل برأس منحنٍ وخلسة يمرر إليك شيئا من رابع المستحيلات أن يوجد بالإسكندرية: أنبوبة مصحح، شريطا أسكتلنديا لحلة

شتوية، شراب الميرك النادر من أجل أوجاع البطن. لا يدري أحد هل كان يسرقها أم يقترضها أم يبتاعها، لم يكن يقول قط. لكن الأمر الغريب أن هذا الدميم كان يحصل على الكثير من النساء، لم يكن لديه الوقت الكافي لينسق مواعيده الغرامية: مربيات، وممرضات، ومعلمات، وخادمات، ويونانيات، وأجنبيات.

فتح لي بنفسه، كان يرتدي ملابس مدنية. في الحقيقة كان يُحضّر نفسه لموعد غرامي. أدخلني إلى غرفة المائدة؛ كان فوتيروس يقرأ منحنيا.

ـ قال الأرملة: يا نيكو، انظر، لقد جاء سيميونيذيس.

ـ قال متفاجئا دون أن يرفع عينيه: مثل موسم الجليد جاءنا، لابد أنه عرفني من صوتي عندما كنت أتحدث مع ثاناسيس عند الباب. التفت ونظر إلي من أعلى إلى أسفل. كانت صلعته قد نمت وكانت تبرق تحت المصباح العاري، ثم قال بشكل لاذع وهو يعود بعينيه إلى الأوراق: هل ستمكث طويلاً؟

جلس الأرملة ينظر إلينا.

ـ هناك امرأة تنتظرني. ستنتظر كثيرا. ربما يكون هذا جيدا. لكن سأخرج فلا تحتاجونني.

قال فوتيروس ممتعضا: اجلس يا ثاناسيس. هناك أمور مهمة لابد أن تتحدث فيها.

سألت : هل غاريلاس في الإسكندرية؟

ـ من، فاسيليس؟ من أين أتيت؟

ـ من القاهرة، أجاب عني الأرملة.

ـ هل رأيت فانيس؟ سأل فوتيروس ثانيةً.

ـ هو من أرسلني. كنا معا حتى الظهيرة.

ـ ولا يرف فانيس أن غاريلاس لا يستطيع التحرك من بني غازي؟ ما هذا؟ أسرى يحرسون أسرى.

قاطعه فوتيروس : دعك منه يا ثاناسيس، لنرَ ماذا يريد.

كل هذا كنت أعرفه لكن الرسالة الموجزة التي تلقاها فانيس كانت تشير إلى أن غاريلاس ربما يكون في الإسكندرية. بالتأكيد أسأنا الفهم. أعني أنا من أسأت الفهم لأن فانيس قال من البداية إن هذا مستحيل. لكن يحدث أحيانا أن أمنياتنا تؤثر على تقديرنا.

ـ هذا ما بدا لنا من الرسالة، قلت وأنا أُحمِّل سكرتارية المنظمة نصف الخطأ كي أتخلص من فوتيروس.

صار بياض عينيه يلمع تماما مثل صلعته. ثم سأل متهكما.

ـ وجئت من القاهرة إلى هنا لأنكم... كنتم تعتقدون؟

ـ لا، ليس لهذا. جئت لأتسلم فرع التوعية. ها هي مذكرة بهذا، قلت وأنا أخرج من جلدة ساعتي أمر التكليف من فانيس المكتوب على ورق سجائر. على أي حال، أكملت: ما زال لدينا اتصال مع غاريلاس من بني غازي، أليس كذلك؟

ـ وفيم تريده؟

كان فوتيروس المسئول عن الأسطول الحربي والتجاري. الاتصالات مع بني غازى كان يقوم بها البحارة. حسنا كان لديه الحق في أن يسأل. لكن لن أقول له، لن أقول لأي أحد. كان فانيس حازما: بالنسبة لنا انتهى الأمر. حدثت أخطاء جسيمة، قررنا عقوبات مشددة، انتهى. الآن تأتي أنت لتنبش في الأمر من البداية. وأنا أقول لك إن هذا الأمر غير مسموح به، وأنت تصر. لكن على مسؤوليتك، ها أنا أنبهك. ستكون عاقبة الأمر وخيمة بالنسبة لك يا سيميونيذس، فكر ثانية في الأمر.

لكنني كنت قد اتخذت قراري: سأدفع كل ما أملك كي أكشف حقيقة هذا السر. لم يكن الفضول هو ما يحركني فحسب، ولا حتى حقد شخصي كما قال فانيس في لحظة غضب. كان هناك عطش كي أعرف وأفهم، شهوة الباحث والعالم. أحداث يوليو التي أدت إلى تسريح اللواء الثاني لم أتحدث فيها، كنت مازلت في طرابلس سوريا في طريق عودتي من الفرات. التفسير الأول الذي جاءنا من فلسطين كان محض سخف، لم يُشبع أحدا منا: « فاشيون، متخفون ومعلنون، يونانيون وإنجليز، يثأرون لهزيمتهم في مارس». هذا لم

يفسر شيئا على الإطلاق، كان مجرد شعار للاستهلاك. لكن بعد ذلك جاءت دلائل أخرى: أن زملاءنا كانوا يُعذبون في السجون الإنجليزية، أمر من وزير الحربية بألا يرسلوا جنودا يونانيين إلى هناك، إصرار قيادة اللواء أن ترسل آخرين، كانوا يعلمون أنهم سيمثلون للتحقيق. صدام صلاحيات، نفاق الوزير أم رغبته في الخضوع إلى القائد؟ ستُكشف حقيقة هذه القصة في يوم ما. لنصف الأمر أنه كان فخا، استفزازا للانتقام، كي لا يعرقلوا خطواتنا؛ لكن لب الأمر لم يكن هنا: لماذا فر الملازم، لماذا سمحنا للجنود أن يملأوا رشاشاتهم، أن يضربوا القائد، أن ينتهكوا المبادئ؟ صرنا نصرخ شهورا وشهورا: « انتباه، يقظة، كانوا ينتظرون ذريعة كهذه لكي يفتكوا بالجيش الحر»، والآن؟ كان بالطبع الكمين الذي نصبه بعض الفلول، المقامرون الحشاشون وعصابات منظمة من قبل الفاشيين في الشرطة العسكرية، ثم جاء اغتيال بجمليون... وبعدها؟ هكذا راحت السيطرة تماما من بين أيدي المناضلين المتمرسين، الضئيل التافه وغاريلاس، أين كانا في أكثر مواقع القيادة مسئولية؟ في الاجتماع تم التحقيق في الأحداث وتمت عقوبة الرفيقين، لمرة أخرى لم يمكنني الوجود: كان الإنجليز يجرونني نحو السجن في حيفا. حاجة تاريخية، قال الضئيل التافه كما علمت من اعترافاته. قل بوضوح إننا وقعنا في الفخ يا أخي! قاطعه غاريلاس: دُسنا على قشرة الشمام كمبتدئين حمقى، انتهى. غضب الجنود، صحيح؛ لكننا فقدنا السيطرة، حاصرتنا مدرعات الإنجليز، صادروا أسلحتنا، أخذوها منا وانتهى الأمر، فتتوا الجيش الثاني. لنعترف بمسؤولياتنا كاملة، أنهى كلامه منهارا. كانت تنتظره على الأقل عقوبة الشطب.

لكن لماذا فقدنا السيطرة؟ سألت فانيس عندما تقابلنا في القاهرة.

– ماذا تريد أن تقول؟ قال بهدوء رغم أنه ضم التجاعيد الصغيرة حول عينيه الكستنائيتين.

– أقول إن الفاشيين كانوا يريدون أن يحلّوها، كانوا يريدون هذا كثيرا، وإن فشلت كل استفزازاتهم، بالتأكيد كان هناك آخرون يحاولون. لكن الذريعة منحناهم إياها نحن. لماذا؟

كان الآن فانيس ينظر إليّ غاضباً؛ كان يبدو جميلاً عندما كان يخلع قناعه التقليدي الذي اعتاد أن يرتديه.

– أتريد أن تقول إن هناك شخصا تعمد أن يختلق السبب؟

– ليس تعمدا، ليس عن قصد. لكن غاب الحذر، يقظة المسؤولية الثورية، التي في اللحظات الحاسمة واللحظات الأخيرة تختار بهدوء وبعمق أفق الهجوم والدفاع أو الانسحاب التكتيكي. ولدينا كما أقول لك حدثان، أو، إذا أردت؛ ارتياب في حالتين تعاملت فيهما القيادة بمجازفة: بدلاً من أن تهدئ النفوس زادت في إثارتها.

حينها حدثني فانيس عن كراهيتي الشخصية وإلقاء التهم جزافا.

– أجبته بأننا سنسأل غاريلاس. إنه الوحيد الذي بإمكانه أن يرشدنا إلى طريق لحل هذا اللغز.

– يا سيميونيذس، ناداني الأرملة. لماذا صمت؟ قلت لأجلس ربما لديك شيء تخبرنا به.

ذهنيا، كنت ما زلت في فلسطين تحت شمس يوليو الحارقة، كنت أرى الأسنان المطبقة والعيون الدامعة للجنود، عندما كان واحد تلو الآخر يقبل سلاحه ويسلمه للضابط الإنجليزي. لابد أن فوتيروس قد ملّ من انتظار الإجابة، لماذا كنت أريد غاريلاس. ربما غاص في القراءة مرة أخرى متصنعا عدم الاهتمام بوجودي. عندما قال إنه ليس لدينا شيء مهم كي نتحاور، كان يريد أن يغير الموضوع، إنه لايراني ذا أهمية. ليس لأمر شخصي، ربما كان يحبني في أعماقه عندما فتح لي قلبه ذات مرة؛ لكن هذا كان موقفه دائما تجاه المثقفين.

لم نلتق منذ شهر مارس أنا وفوتيروس، في خلال سبعة أشهر تقريبا وإن حدث خلالها أمور شديدة الصعوبة ! إنهم يجهزون بحورا من الدماء، قال لي المرحوم ريتشارد آنذاك، كان هذا أحد الأمور، إدراك عقل متمرس. لكن الآن لدينا أحداث أخرى. تفرق المحاربون إلى وطنيين درجة أولى وثانية وثالثة، عمليات التصفية. السير حتى الفرات؛ السجون الإنجليزية: تفكيك الجيش الثاني. كانوا يريدون تفكيك كل ماهو قائم. كانوا يريدون حراسا مخصيين، لم يريدوا محاربين. ربما لم أظهره، لكن الهواجس السوداء كانت تغمرني. سحابة حمراء غطت على عقلي، شيء أشبه بقلق ميتافيزيقي، ليس خوفا؛ ربما كان ذعرًا من نبوءة بكوارث ستحل ولا مفر منها.

في مارس، قال الأرملة كي يجعلني أتكلم- قطعت أكبادنا عندما حشر لنا الإنجليز ميتراكيس في الحكومة. ثمة شيء غامض في هذا الشأن. الآن فينيزيلوس يضربنا بالغاز المسيّل للدموع في ميناء جيراكا كي نخرج من السفن الحربية التي أحضرناها من كريت رغم المخاطر.

أكمل فوتيروس: والآخر يطلب من المحاكم العسكرية قطع رأس واحد على الأقل من الجيش الثاني وإلا كما يقول لهم، لن يترك الإنجليز أحدا منا يعود إلى اليونان.

سألت: وما هو رأي الجالية هنا؟

– حدث ثمة حشد، بعض النساء والبنات والعجائز. لكن هل تريد أن تعرف أسبابهم في القيادة؟ سأل الأرملة ونهض: أسسوا منظمة سياسية لحفظ النظام... تريكوبيس، ثيوتوكيس وتسالذاريس وميتاكساس ! قرأت بيانهم. ينشرونه ببركة بطريركهم هنا.

– دعك منهم يا ثناسيس، يمارسون جنونهم.. لقد اقتربت نهايتهم. قاطعه فوتيروس وهو يضم فمه ممتعضا: كلهم؛ سلة من سرطان البحر. فولغاراكيس يتلقى الأوامر من مصانع البارود، ميتراكيس ينفذ أوامر الإنجليز، تسوذيروس لا يقول سوى «Yes» وفي الخفاء يُسِرُّ القول إنهم وضعوا الجواسيس ليراقبوه، وكارابانايوتيس وفينيزيلوس كل همهم هو أن يتخلصوا من تسونيروس، أما بانايوتاكيس كانيليوبولوس فيلقي خطبا انتخابية عن ... روميليا الشرقية.

– قال: إن بريطانيا تمسك بكل الخيوط.

– قال فوتيروس: لقد سقط شعري طيلة هذه السنوات وأنا أقول لكم. لم يسمع أحد رغم كل ما كان يحدث. في النهاية سيأكلون رءوسنا. الأحداث تقول هذا. إن الوقت يقترب.

بالتأكيد. من سوريا وحتى برقة حيث يعسكر الآن اللواء الأول وحتى السرية الثامنة التي تم تشكيلها من "غير المرغوبين" المعادين للفاشية من اللواء الثاني، كانوا يحرسون بلا سلاح معسكرا من الأسرى الألمان، لكن في السفن أيضا، التجارية والحربية، وفي المطارات والخدمات والوزارات والثكنات، داخل كل تجمع للجالية، الصحفيين والعلماء والفنانين، في كل مكان ينبض فيه الضمير اليوناني، العجين يختمر وينتفخ. هناك شغف أن يتصالح الجميع ويُعَمِّدُوا الروح اليونانية مرة أخرى في نهر الأردن، ليخرجوا أنقياء، هذا ما كانت تطلبه دماء القتلى، ما كانت تصيح به أفواه الجوعى في الوطن الأسير. شغف يُعجز الجيش والقادة والطيارين. بجواري فوتيروس يجلس مخلصا وغاضبا، تتصاعد أنفاسه معبأة بالثقة والإيمان. مد يده وأعطاني رسالة صغيرة كانت في يده لأقرأها. كان الأرملة قد أحضرها لتوه. مساعد القبطان، أضحوكة جالونات الذهب، يتقدم. خمس عقدات، بكل بساطة ووضوح. العجين يختمر وينتفخ.

متفقون، ليس لدي مانع، قلت. لكن عملاء الإنجليز في اليونان ينشرون الانقسام؛ وإن ممثلي المقاومة جاءوا إلى القاهرة وعادوا دون أن يفعلوا

شيئا. باندوليرو استسلم، تحررت جُزر كو وليروس ونيكارا وساموس، لكن الحلفاء لا يسمحون لنا بأن نرسل قوات. هم لا يريدوننا محررين. إما حراسا أو في السجون.

قال الأرملة: أتدري كيف يبدو لي الأمر يا سيميونيذس؟ شهر العسل قد انتهى مع الحلفاء. عندما كنا نحارب في ألبانيا كانت فترة الخطبة؛ أما الزواج فقد تم في الساعات العصيبة في ستالينجراد. منذ ذلك الحين بدأت تتعكر الأجواء، والآن نحن على مشارف الطلاق...

– حتى لو كان ما تقوله حقيقيا، من يجرؤ على الصراخ، قلت مقاطعا: إن هتلر يمسك أوروبا بأظفاره دائما.

قال فوتيروس وقد ارتسم الاشمئزاز على وجهه: أي هتلر وأي تشرشل؟

قلت مسترجيا: يا نيكوص، ليس وقت هذا الكلام. الأمر يحتاج إلى التروي.

– لا ينقصنا سوى التروي الآن. وما الجديد؟

– هيا لأريك غرفتك، قال الأرملة الذي كان يخشى اشتعال الشجار.

ـ كانت غرفة في العمق، بها نافذة خروج للطوارئ تفتح لأعلى وتخرج نحو أطلال. أعطاني المفتاح. خرجنا بعدها إلى الكورنيش لاستنشاق هواء البحر قليلاً.

رتبت أوضاعي في السكن المشترك، أعدت قراءة صفحات صحيفة الملاح المنوعة ووضعت خطة لتطويرها، التواصل مع فانيس كان يتم بشكل طبيعي. بدأت في الخروج ليلاً للعمل والتشبيك. حتى الآن كل شيء كان يحدث عبر فوتيروس. بصعوبة شديدة سلمني صلاحياته: آلية النشر كانت بمساعدة الأرملة، الاتصالات مع ذوينا في وزارة الملاحة، قيادة الأسطول، اتحاد العمال البحارة، مع اليونانيين المناهضين للفاشية بالإسكندرية وآخرين. الأشياء المتعارف عليها على كل حال. لكنني لاحظت أنه عند كل تحسن في أداء العمل كان يتفاخر أكثر مني. خلال أسبوعين عادت علاقاتنا جيدة. هكذا؛ تذكر وحده ذات ليلة أن يقول لي إن لديه شخصًا من أجل بنغازي. في التو جلست وكتبت لغاريلاس. طويت الرسالة في ورق مقوى ولصقتها جيداً، كتبت الاسم عليها ودونت.. خاص جداً.. وضعت توقيعي بالأحرف الأولى على موضع اللصق وسلمتها.

في القاهرة، لخص لي فانيس الأمر سريعا بينما كنا نفترق؛ الوضع، أسلوب عملنا، الاحتمالات، مهمتي في الإسكندرية، مَنْ سأقابل، مكان سكني، في أي إطار يمكنني أن أرتجل. وفجأة كأنه تذكر شيئا: والآن انظر؛ قال وهو يمسك بيدي: المؤامرات والحيطة تعرف كل شيء عن هذا، جميل وطيب. لكن ستتعرف على أناس كثيرين ومختلفين. لا تدري أيا منهم سيكون نافعا لك في الأيام الحرجة. لهذا لابد وعلى الفور أن تجد مكانا احتياطيا. عند أبناء بلدك أو عند أقارب بعيدين أو زملاء قدامى لك من الدراسة، بيت أو حجرة، داخل عائلة ليس لها أي علاقة بالتنظيم. بين أناس بسطاء ولكن شرفاء، أن يهتموا

لأمرك دون أن يسألوك أين تذهب أو ماذا تفعل. مثل عائلة خاذزيفاسيليس التي عرفتها في أورشليم. عندما تجده؛ انسه على الفور. ولابد ألاّ يعرف أحد بهم من الرفاق لا القريب منهم ولا البعيد.

مساء يوم أحد وقت الغروب، بدأت أنفذ وصية فانيس. عندما خرجت من المنزل المشترك واجهت بحرا أحمر اللون وسماء حمراء، وكأن كل شيء مازال يحترق؛ غربت الشمس بعظمة بديعة. انحرفت يمينا لأستقل ترام الرمل، وللحظة ظننت أنني أدرت ظهري ليوم دام وهرولت نحو أحضان عالم أزرق. في رواق الترام الذي حشرت نفسي فيه كانوا يتكلمون اليونانية والعربية والإنجليزية. كبارا وصغارا كانوا في عجلة ليذهبوا إلى بيوتهم قبل حلول الظلام بعد عرض مسرحي أو سينمائي مسائي. من محطة لأخرى راح الترام يفرغ من ركابه. رأيت مقاهي شعبية يحمل جارسوناتها المقاعد والطاولات للداخل ويعدون الستائر الداكنة ليغطوا الأبواب والنوافذ. تملكني خوف أن يحل عليّ الليل في مناطق جديدة لا أعرفها فأضل الطريق. لكني نزلت في محطة جناكليس، لم يحل الظلام بعد، رحت أقرأ لافتات المحلات. إحدى اللافتات كانت بالإنجليزية تقول "هنا تُغسل وتُكوى الملابس البيضاء". صيدلية لشخص يُدعى منصور. محل بقالة "ليمنوس الجميلة"، "خضراوات توماس وسيان". اتجهت صاعدا من شارع أبي قير؛ كانت ساعة هادئة في حي هادئ. أمام إحدى الفيلات التي كان يحرسها شاويش في زيه الرسمي الأبيض. بعدها مربيتان تثرثران واقفتين قبل أن تفترقا وتجرا خلفهما عربات الأطفال. على جانبي الشارع أشجار استوائية كبيرة بجذوع

لامعة وأوراق كثيفة تشبه المظلات. لابد أنها شجرة البونسيانا. آه لو رأيتها مزهرة! كما لو أن العالم قد ارتدى ملابس العيد، كان يهلوس محموما، سكندريا في الرقة عندما انتهينا واحتفلنا بنهاية المسيرة إلى الفرات ثم وقعنا في جحيم آخر على التبة مع العقارب. عضه عقرب سام إلا أن الرفيق نجا. أين يذهب عقل الإنسان؟ تعجب فيما بعد عندما ذكرته بما قاله: إنها أشجار جميلة دون شك، لكني لا أذكر أنني قد انتبهت لها يوما. لم ألتقط لها حتى صورة فوتوغرافية. لابد أن تذهب إلى الإسكندرية في شهر يونيو، فالمدينة تكون في قمة عظمتها. الآن نحن في الخريف. هل سأبقى حتى أرى أشجار البونسيانا مزهرة أبدا؟ أفضل ألا أراها ولتنته الحرب كي نرى كم من البشر بقوا أحياء على الضفة الأخرى من البحر.

وصلت سريعا إلى كنيسة الرسول إلياس. كنت أحسب أنني سأجدها مفتوحة، وأنني سأشعل شمعة وسوف أسأل خادم الكنيسة. عندما بدا الفناء فورا خابت توقعاتي. كانت هناك حجرات صغيرة في كل الأنحاء مثل زنازين بأبواب مفتوحة على مصراعيها، مطلية بالجير، نظيفة جدا وأمامها أصص زرع؛ كانت تذكرني بحي اللاجئين. القس وخادم الكنيسة كانا يجلسان متقابلين متسلقين على أحد المقاعد، ووضعا بينهما لعبة الطاولة على الضوء الخافت القادم من الحجرات الصغيرة. على مقربة منهما كان بعض النساء يجلسن في دائرة على مقاعد منخفضة يتجادلن. تظاهرت بأنني ذاهب نحو الكنيسة. أرسلوا نحوي طفلا يونانيا حليقا حافي القدمين. ذهب بي نحو النساء. فآثرت أن أكف عن المراوغة.

- هل تعرفون أين يقيم أنتوني؟

- أنت من اليونان؟ لابد أنه من اليونان؛ أليس كذلك؟ سألت امرأة خبيثة.

- نعم.

- وفيم تريد أنتوني، هل أنت من الشرطة؟

- تمهلي يا فوتيني، قالت عجوز بشعر أبيض وهي تمسد على نبات ريحان منفوش خلف مقعدها. كم تقدر عمر أنتوني الذي تسأل عنه يا ابني؟

كان للهواء رائحة زكية. شعرت برطوبة خفيفة تنزل مع ظلام الليل إلى ظهري. كنت أحسب سنوات خادزيفاسيليس في عقلي، فلابد أنهما في العمر نفسه.

- حوالي ثمانين سنة، قلت.

- ها ها، لا إنه لايسأل عن توني، إنه يبحث عن أنطوان، منحك عمره. مرت سنوات منذ أن تركنا. كان سيكون عمره نحو المائة الآن، لابد أنك لم تعرفه على مايبدو.

- الحق معك، قلت. هل هناك أي أقارب له؟

- لديه ابنة تعيش في بورسعيد، أرملة ولديها أولاد. لكن ماذا كان اسم زوجها...

ـ هنا في الإسكندرية ليس له أحد؟

ـ ليس له سوى أحد أبناء إخوته وهو شرطي...

ـ أي شرطي يا فوتيني، كفي، لقد ربيناهم نحن، قاطعتها العجوز. لا يابني، لا ندري أين يقيم. لكن سأقول لك شيئاً آخر، دعك من هذه. لدينا هنا بارسخوس فوليانيس.

ـ إنه يسأل عن قريب لأنطوان، قاطعتها الخبيثة. عائلة فوليانيس ليس لها أي علاقة.

ـ فوليانيس الذي في القاهرة؟ سألت.

ضحكت الخبيثة مرة أخرى. دخلت في الحوار امرأة ثالثة كانت تتحدث ببطء وبنغمة واضحة. خادم الكنيسة كان يحرك النرد في كفه طويلاً قبل أن يلقيه بينما كان ينظر شذرا. يبدو أنني قد ضايقته بعدم رحيلي.

ـ باراسخوس أيضا يكون أحد أبناء إخوته لأنطوان. حسنا قلت هو قاهريّ. لكن مرت سنوات كثيرة منذ انتقاله للإسكندرية. لقد أخذه خوريميس / بيناكيس إلى مكاتبه. هل أنت يا بني تكون ابن أماليّا ولا تقول لي؟

لابد أن هذه السيدة التي تتكلم في عمر أمي. حتى إنها ترتدي نظارتها مثلها وتلقى برأسها للخلف مثلها أيضا .. كنا صديقتين لا نفترق، قالت. كيف يحدث أحياناً أن يكون لصحبة ما الملامح والحركات نفسها ؟

ـ لا، قلت. هناك سيدة تُدعى خادزيفاسيليس في أورشليم طلبت مني أن أسأل.

ـ لا نعرفها، قلن.

رجعت للخلف وأنا أحييهن. نظرت إلى الكنيسة كأنني كنت أريد بالفعل أن أشعل تلك الشمعة. في العمق داخل الظلال كان هناك قنديل قرمزي كبير يحترق. أيقونات القديسيين الذهبية ترتعش متلألئة. قطعت العجوز إكليل نبتة الريحان وأعطتني إياها.

– لترافقك في الطريق، قالت مبتسمة وهي تميل برأسها على كتفها كأنها خجلة.

سرت في الظلام وأنا أشم رائحة الريحان وأفكر في حركتها الوديعة. بعد البحر الذي يفصلنا وجدت شكل أمي. إيماءات كهذه، طريقة أماليًا، دماثة هادئة بلا رياء، تلك الأشياء الصغيرة العابرة على أى حال كانت تجعلها فريدة في عيني، ها أنا أراها الآن منتشرة في العجوز، في المرأة الأخرى ذات الصوت المنغم، وفي المرأة الخبيثة ذات العقل القلق. لأول مرة بعد سنوات وأنا أسافر بعيدا عن البيت، شعرت أنني ألمس جذوري بقدم، إنني لم أكن غريبا كلية. ولكن قبل قليل، رفضت أمي، قلت إنني لست ابنها.

وجدت باراسخوس بسهولة. ألقيت نظرة في دليل التليفونات. موظف في مكتب تصدير كبير، لابد أن لديه تليفونا بمنزله. تركت أسبوعا يمر واتصلت به في صباح يوم الأحد باكرا. وددت أن أتجنب المقابلات في الخارج

وفي الأماكن العامة، وكيف سنتعرف ومثل هذه الأمور. ولكي يفهم من أنا قلت له اسم الراحلة أمي بالمعمودية: فاسيليكي. كانت جدتانا شقيقتين. أجابني بأنه في هذه اللحظة يصنع القهوة. يبدو أنه يعيش وحيدا، عازبا. ركبت سيارة تاكسي وأعطيت السائق العنوان.

كان يسكن في الطابق الرابع في بناية فخمة إلا أنها قديمة ومهترئة بعض الشيء وليس بها مصعد ولا بواب، عند بداية الذراع الغربية على الكورنيش. فتح لي الباب مبتسما كأننا نعرف بعضنا من سنوات. كان معتدلاً بلا إفراط، به مسحة من الحزن وشيء مألوف. كانت الغرف واسعة عالية الأسقف مفروشة ببساطة حكيمة؛ المكتبات في كل مكان محملة بالكتب الفرنسية والإنجليزية؛ نقوش على شكل كلاب صيد وخيل، لوحة أكوريل لماري لورنسن، أخرى زيتية لكاليماخو من فترته التعبيرية. كان يعيش وحيدا تماما، في رفقة غليوناته وأنواع الأتبغة التي يخلطها بنفسها من أنواع التبغ الإنجليزية والهولندية والأمريكية بعناية شديدة، سيجار هافانا رفيع ومقطع جيدا. على إحدى قطع الأثاث السميكة بالطبع ستكون زجاجات الجين والويسكي. كان يكبرني بعام واحد، وهذا الأمر بالطبع خلصه من التجنيد في جيش كانيلوبولوس. بدأ الشيب يدب في قمة رأسه. كان أسود الشعر ذا وجه حليق بعناية، يرتدي ملابس ثمينة وبسيطة. قصير: يبدو إنجليزيا. قلت له. نزع الغليون عن فمه ببطء وراح يضحك وهو ينظر إلى المبسم المبلل.

•

ـ الشيء نفسه كان يقوله رجلنا العجوز أنطوان. لكن أعتقد أنه كان لا يحبني. كلما أعجبت به كان ينفر مني. ربما كان لا يصدقني. عموما لم تكن لديه مقدرة أن يتحمل مهتزي القرار والمتأملين. كان تلقائيا جدا وصريحا. كان شخصية رائعة.

ـ لدينا ابن عم يدعى أنتوني في الشرطة قلت.

أخرج الغليون من فمه مرة أخرى. كانت عيناه في تلك اللحظة تدوران بقلق كأنه كان يبحث في كومة من الذكريات؛ اشتد بريقهما؛ ثم ابتهج راضيا.

ـ أتعتقد؟ مرت سنوات كثيرة لم أره. عرفت أنه قد صار لاعب كرة محترفا أو مدربا أو شيئا آخر مثل وظيفة عاطلة. ليس غريبا بالطبع أن يصبح شرطيا... من قال لك هذا؟

بدأت أحكي له عن الأحد الماضي في كنيسة النبي إلياس فلمع وجهه فجأة.

ـ هكذا، تعرفت على الساحة؟

لم أفهم ما يقصده. إذا كان يقصد فناء الكنيسة...

ـ لا؛ الساحة، قاطعني. ألم تكلمك العمة أماليّا عن الساحة؟ ولا حتى أمك بالمعمودية؟ خسارة... لابد أن نذهب سويا. بالنسبة لنا ولمن عاش هناك، هي الجنة بعينها. لا، لم أعبر بالشكل الصحيح. هي شيء آخر، مثل وطن

شكل وجداننا، منحنا الكرامة والأخلاق. كم جيل مر بها منذ أن بنيت: ثلاثة، أربعة أجيال؟ كلهم أقارب هناك. يكفي أن تقول الساحة فتجد الآخر عجوزا كان أو صبيا، يسلم كل أسلحته.

بينما كنا نتحدث فتح لي باب الشرفة. حينها ظهر البحر صافيا ولامعا، فسُلبت أنفاسي. في السماء كانت سحب كبيرة متوقفة. أمامنا، فوق جزيرة فاروس الأثرية تقبع قلعة قايتباي ثقيلة وصامتة، كانت صورتها كاملة تنعكس على سطح الماء مثل لوحة أكواريل سياحية. انحنينا كي نرى الميناء الشرقي صاعدين حتى الرمل. كان لدي الشعور أننا في إفريز استاد قديم أو حلبة. عند خليج السلسلة في اليمين السفلي — لوخياس سترابون ، قال باراسخوس — بالمدافع المموهة وأجهزة العرض والإضاءات من أجل ممرات الطائرات، لابد أن هناك غرفة تبديل الملابس. سيفتح باب ما ويدخل الثور. وبعدها، انحناءات الشاطئ الثعبانية وانحرافاته وتموجاته، الخلجان المفاجئة المفتوحة والرمال الناعمة الصفراء. أشار باراسخوس بإصبع ممدود بعيدا ليشرح لي. اتخذ من إحدى البنايات بجوار السلسلة مركزا عليه لافتة براقة ثم شرق المستشفى اليوناني على شارع أبي قير. بينهما كانت مقابر الشاطبي. هناك تذوب عظام أنطوان، ليعيد للأرض المواد القليلة التي كان قد اقترضها منها كي يعيش. لم يأخذ معه شيئا كما لم يترك لذويه شيئا، سوى الذكريات.

- إيه. لو قام أنطوان من مرقد! ، قال. بعصاه ونعل حذائه وخطوته الثقيلة. كم كانت روحه ستبتهج لينظر إلى الإسكندرية اليوم صورة مطابقة

لما كان يتخيله. كان سيبرم شواربه ويمسد قفاه ويقول لنا، ضعوا في عقلكم هذا الأمر بقوة، نحن مجرد ضيوف، ماذا تظنون؟ جئنا، ومكثنا طويلاً أنجبنا أولادا وأحفادا. عظيم. لكن رب البيت كان نائما. ماذا ظننتم؟ لابد أن نوقظه أقول.أن نطلب منه الإذن، ليقول لنا تفضلوا، ليتم الأمر بالشكل الصحيح، لكي نتعايش نحن أيضا. لأنه لو استيقظ ذات مرة، وسيستيقظ لا محالة، ووجدنا جالسين هنا، سيعطينا ركلة في مؤخراتنا ليلقينا في البحر. ولن نستطيع أن ننطق ببنت شفة لأن الحق سيكون معه. لا تستمعوا يا أغبياء إلى هؤلاء الناعمين أصحاب الياقات الكرتونية. هؤلاء أجانب. يتحدثون لغات أجنبية في بيوتهم، ويتعاملون مع الأجانب ويصلّون كأجانب. عقلهم هناك، أن يخطفوا قدر استطاعتهم ليذهبوا إلى أوروبا لينفقوا مانهبوا. هذه ليست أرضهم، لا يتألمون لها. هذه الأرض مثل دجاجة سمينة وبيضها كثير، مثل أسماك البوري التي تأتي في شهر أغسطس ونلتقطها بالشبكة بسهولة. لكن لكي يثبت في الشباك يحتاج إلى شجاعة ومجهود ولهاث وأقدام ثابتة. أنّى لنا نحن الضيوف. هذه الأرض تبحث عن صاحبها. أعطها لهؤلاء، فهي أرضهم، وسوف ترون. سيمتلئ الساحل بالناس، سيبنون العمارات والمصانع، المدارس والمسارح، سيفتحون شوارع وأزقة، سيقيمون المقاهي لتجلس وتشرب شراب المستكا وتتحدث عن الرب. سيزرعون الحدائق. كل هذا الصفار سيغطى بطرابيش حمراء وملايات اللف السوداء مثل أزهار الخشخاش التي تنتشر كل ربيع.

ـ هل كان العم اشتراكيا يا باراسخوس؟

- لم يكن شيئا، كان له ربه الخاص. كان لديه عقل وقلب وكان عادلاً. لكن الإسكندرية التي كان يحلم بها أراها الآن أمامي ولا أبتهج. كانت تبدو أكثر جمالاً في حلم العم أنطوان.

- لماذا لا تجلس وتكتب قصته؟ أليس لديك ميول للكتابة؟ قلت وأنا أشير خلفي نحو رفوف الكتب.

أخرج ثانية الغليون من فمه ثم قال وهو يبتسم بغموض:

- من يدري؟ لكن تعال لأريك شيئا عن الساحة.

أخذني للداخل، أحكم إغلاق أبواب الشرفة وقادني نحو غرفة النوم. كان الفراش موضوعا بميل في منتصف الغرفة.

- لو رسمت خطا من هنا ستجد نفسك في الساحة بالضبط. يبدو لي الفراش هكذا كما لو أني أتمدد في قارب. أمواج النوم تأخذني إلى وطن روحي. أعتقد أني أسمع أصوات البنات وهن يمسكن بعضهن من الوسط ويخرجن للتنزه في وقت الغروب بين الأشجار والبساتين؛ حتى إنني أشعر برائحة الياسمين.

على الكمودينو كانت صورة كبيرة في إطار فضي. فتاة بشعر أسود مموج تنظر بحدة للأمام وتعض على شفتها العليا. أمام الإطار وضعت بترتيب بعض القواقع وصدفة أفروديت ونجمة البحر وقنفذ بحر فارغ.

- متى سوف تتزوج؟ سألت.

- أبدا، قال دون أن يخرج الغليون من فمه.

- هل هي على قيد الحياة؟ سألت وأنا أشير بذقني نحو الفتاة.

- متزوجة. وأنت؟

- أنا، قلت مازحا، أنا مثل البحارة. لدي فتاة في كل ميناء. عندما أجد فتاة أحلامي سأجعلك وصيفة العريس.

- هل ستمكث وقتا في الإسكندرية؟

- سأغادر في الظهيرة. إلى سوريا مرة أخرى. أنا في إجازة لكني لم أفكر أن أبحث عنك قبل اليوم. ما رأيك في أن أكتب إلى ابن العم الآخر أنتوني؟

- هل أنت مهتم بكرة القدم؟

ضحكنا. لم يسأل ولا مرة واحدة عن الجرح الغائر في رأسي. لكنه كان ينظر إليه طيلة الوقت. نهضت كي أغادر. حينها طلب مني أن أكتب على كارنيهي رقمي هواتف منزله ومكتبه. سيسعد كثيراً برؤيتي مرة أخرى، لو صُدف الحرب أتت بك إلى الإسكندرية فأنت تعرف الطريق الآن.

- لكن ماذا، ماذا أعطيك للذكرى؟

خطف غليونا أسود منقوشا كان أمامه.

- ضعه في جيبك، إذا لم تكن مدخنا فهو تحفة قيمة أيضا. صنع في جنوة.

تم الوداع بحميمية.

II

انحنت نانسي من النافذة وهي تدفع مصراعيهاً بقوة حتى لا تغلقها الريح ثانية؛ خلفها كانت تسمعه يحوم على حوائط غرفة النوم. شعرت على وجهها بأنفاسه الرطبة. انحنت أكثر. النافذة كانت تحت آخر حروف اللافتة الكبيرة: VILLA PROTEUS.

كانت تريد أن تصيح في البحر: وأنت، وماذا عنك أنت؟

ربما قالت هذا بالفعل، من يكون قد سمعها؟

الليلة كان البحر الأبيض المتوسط يخور ، ينبح هائجا من بعيد، يأتي على الشاطئ ليلعق زبده، ثم يعاود القفز مرة أخرى بأمواج هادرة. بعيدا في الخلف كانت هناك أمواج أخرى تندفع مثل كلاب الرعي الألمانية داخل البحر الغاضب متقافزة تغطي أشرعة السفن ثم تختلط بالأمواج المهزومة العائدة بعد أن تغطي الرمال وتنثرها، كانت تصل إلى صدًادات الأمواج ثم تنهار وتصرخ مع آخر أعلى رعشة للزبد، وتملأ الرصيف والشارع بالمياه.

كانت الرياح الشمالية تهب قوية وباردة؛ تخدش جدار البناية الأصفر، وتتسلق فجأة الطوابق الثمانية؛ رجرجت اللافتة الكبيرة على سطح البناية فكادت أن تنزعها، بعدها انطلقت نحو المقابر والأحياء الشعبية والحدائق

والترعة والملاحات. بدا القمر الخريفي خلف السحب التي تغادر بسرعة، يضيء من بعيد البنايات المتكدسة عند الميناء الشرقي أو قلعة جزيرة فاروس بعيدا عنها ، ثم اختبأ مسلما المدينة إلى ظلام الليلة الحربية. على ساحل الكورنيش كانت تمر بين الحين والآخر كاميونات بأضواء مغلقة؛ صيحات الجنود كانت تُسمع مرحة وغاضبة عندما كانت تبللهم الأمواج.

عند اللسان الذي يشكل الخليج ناحية اليمين، أضيء كشاف؛ أُطفئ؛ ثم أضيء ثانية. أرسل أشعته فسارت فوق السحاب ثم توقفت في مكان ما كأنها وجدت سرة السماء ثم خفت فأضاء انحناء الميناء بريشة واحدة، ثم انطفأ. سحبت نانسي مصراعي النافذة. في كفيها الجافتين شعرت بإحساس بغيض، خليط من طلاء الزيت المقشر والرطوبة والغبار، تقريبا بعدها مباشرة شعرت بمقاومة المزاليج الصدئة. أغلقت وتحسست مفتاح الضوء في الظلام. بعدها سارت بعينها بفتور داخل الحجرة. الأثاث المجهول، الملاءات المتسخة. شعرت بوخزة في قلبها عندما تذكرت ملاءات أخرى مصنوعة من الكتان. الطاولة العرجاء والهاتف. صامت، صامت، صامت. كانت تحدق فيه دون جدوى لأيام تلو أيام على أمل أن يدق ولو بطريق الخطأ، فقط من أجل التشويق، المرآة المُخضرّة ذات البقعة الرمادية على ارتفاع مستوى القلب تبدو كعفن، كميدوزا أو كفوهة بركان من مكان ميت على القمر. ستائر النافذة كانت لها رائحة مبيد حشري، رائحة عفنة تسللت إلى السجادة المنحولة وظهر الأريكة الرمادية الباهتة أيضاً في غرفة الجلوس.

كانت نانسي تسمع، تنظر، تتنفس فيصيبها الإحباط. لعنة شهور. جسدها كان يؤلمها، جفت بشرتها، كانت متصلبة وخشنة تحت الأصابع مثل بردية متربة. آه، تشارلز! لقد أحضروه من بغداد إلى القاهرة من أجل تجهيز أحد المؤتمرات للكبار. في قاعة مينا هاوس تقابلا فجأة، بدا عليه بعض الارتباك اللحظي لكنه أمسك يدها بمودة الأزواج. فهمت ارتباكه من لمسة يده: عزيزتي كما ترين؛ الترّمل لا يناسبك. من فضلك حاولي. ثم وضع قناع السفير وأدار لها ظهره فظهرت أرادفه السمينة المختنقة تحت الكورسيه. لكنه لم يرد أن يطلقها ولا حتى أن يفتح الموضوع.. من ثلاثة قرون وحتى الآن لم يحدث طلاق في عائلة كمبل !

هناك، كأنما بدافع الخوف أو الاشتياق، أخذ الزر يحكها في ظهرها. هذا على الأخص ما كانت تشعر به... كل هذه الليالي التي لا تنسى، نانسي نائمة على ظهرها ورون يحك برفق وبصبر لا يكل أعلى ظهرها وبين كتفيها، حيث كان يصعب عليها أن تصل بيدها. وهي كانت تشعر بالعسل يَقطُر مثل شريان أبيض من جانب شفتيها ويبلل وسائد جوينتلين وفراو فيلدمان، أو في تاورمينا وفي كل فنادق نورماندي وفلاندر، حيث استلقيا في ذاك الصيف الملتهب في عام ١٩٣٨. أبدا، لن تجد ثانية أصابعه الحكيمة ذات الأظافر المربعة المقصوصة أبدا- صار دخانا ورمادا- داخل حطام حديد طائرته المحترقة المحطمة. التي لم تره هي ولا حتى لمسته. فقط مجرد شاهد جغرافي على بعد مائتي ميل من الإسكندرية في عمق الأفق حيث تلال الرمل تأخذ ألوان الأرض في سيناء. ربما هنا، وربما بعد بضعة أميال نحو الأسفل.

وبيتر بجوارها يهدئ من روعها: آسف، أعتذر بشدة ليدي نانسي. عندما وعدتك كنت أحسب أنه عند وصولنا سينتهي الأمر... وهي راحت تسير في اتجاه لافتة الجمجمة: **خطر مميت**. تسللت من تحت الأسلاك الشائكة وراح بيتر يصيح: هذا انتحار بين، هل جننتِ؟ مر عام ولم يجدوا الوقت حتى ينظفوها. ولا هم سيفعلون، فيم يهمهم، هنا ليست أرضهم. ونانسي غارقة في اليأس، أخذت أزهار الأقحوان وراحت تنثرها وهي تبكي بنحيب غير عابئة ببيتر الذي كان يساعد بإحضار الأزهار من الجيب، التي ملأوا بها المقعد الخلفي. حتى في هذه اللحظة لم يتركونا يا رون.

من الصحراء ذهبت مباشرة إلى ذلك البنسيون الذي كان يذكره دائما روبي المسكين. كان قد أرسلها هو مع رون إلى البنسيون الآخر في أورشليم وإلى أرارات عالمهم الذي كان يغرق. جاءت إلى ذلك البنسيون ذي اللافتة الغريبة. لكن لماذا يا ميسز بروكس تسمونها فيلا؟ لأن بها حديقة يا ميسيز كمبل، هذا أكثر شياكة أليس كذلك؟ ما يسمونه حديقة كانت بعض الأقفاص بها أشجار تشبه النخيل ، مهملة على السطح الذي كانوا يستأجرونه أيضا من صاحب البناية لإقامة الحفلات المفتوحة بالحدائق من آن لآخر قبل الحرب، أما الآن فتستخدمه بعض النساء من الزبائن المميزين لحمامات الشمس... ميس بروكس بخطوتها المتراقصة والمعطف الملقى على كتفيها بعشوائية والسيجارة على جانب شفتيها وعينيها نصف المغلقتين كانت تتحدث الإنجليزية بطلاقة لكن كل شيء فيها كان يقول إنها من طينة حوض البحر المتوسط... جاءت إلى هذا البنسيون المزعج لكنها لم تتركه. ربما

كان المنظر أو الراحة النسبية أو ربما كانت ذكرى روبي المسكين ووحدتها. كانوا يؤجرون شققا مفروشة فقط، خمسة، الطابق الثامن بأكمله. في إحداها كانت عائلة بروكس تسكن مع خادمة يونانية عجوز...

كيف وإلى أي مدى يكون إيقاع الحياة غير منتظم. أمر غريب. أحياناً أنت مثل وتر قيثارة مشدود. وأحياناً تعيش داخل ضوء الغسق، تفتقد الأحاسيس صفاتها وتذوب في بعضها، التناقضات تمتزج وتصير توليفة واحدة... وأحيانًا أخرى تعبر الصحراء والفضاء، والعفن والضجر.

كانت الشقة بزاوية نحو الجنوب الغربي: ممر ضيق به المطبخ والحمام الذي كانت له رائحة الغاز لأن الشفاط والسخان كان به عطل بالتشغيل، حجرة المعيشة كان به شرفة تطل جنوبا نحو المدينة فوق أرضية من الحجارة الصفراء والحمراء تشبه قليلاً الأديرة التوسكانية وأكثر التكنات النابوليتانية. نافذة غرفة النوم كانت تطل غرباً على البحر .. ميزة كبيرة بالطبع، لكن في الصيف.

في الليلة الأولى كانت متعبة ومنهكة من الفشل في الصحراء، قاومت بحزم محاولات التحقيق من مسز بروكس. خلعت ملابسها وأخذت جرعة مضاعفة من اللومينال ودخلت تحت الشراشف التي كانت لها رائحة أعشاب البحر وأغلقت الضوء. استيقظت على طرق الباب. دخل أحد وأغلق خلفه الباب في الصباح. ظنت في نعاسها أنها في شقتها في بارك لين التي أعارتها لهم جوينتولين، وصادف أن رون نزل ليجلب بعض الفاكهة والنبيذ وهي نائمة

في سعادة وتستيقظ على صوت الباب... لابد أنها الخادمة العجوز. لابد أن تنهها عن هذا وإلا بأي وحدة ستتنعم إذا كانوا يدخلون ويخرجون بحرية.

ـ سألت. من هناك؟

ـ بروتياس شخصيا، أجاب شخص بفخر وهو يدخل مباشرة إلى غرفة النوم دافعا مقعده المتحرك، رجل عجوز: جون بروكس، عرًّف نفسه. لست والد مسز بروكس التي تعرفت عليها، وإن كان الحق سيكون معك لو افترضت هذا. أنا كما ترين زوجها القَعيد.

كان يتحدث مثل جينتلمان، لكن طريقة نطقه لكلمة «مسز» أوضحت خلفيته المتواضعة. لابد أنه ليس في كامل قواه العقلية. كان يرتدي طربوشا داكن الحمرة، أقرب إلى لون القرميد، كان يحدد شعره الأشيب وبشرة وجهه الوردية. كان لون عينيه رماديا فاتحا صار داكنا ، ولمعت عيناه عندما جذبت نانسي الشراشف فوقها... في عروته وضع وردة من وسام جوقة الشرف، وسلسلة تتدلى من جيبي صدريته القطنية التي نسي أن يحكم أزرارها السفلية ! هل قرأ ما بعينيها؟ بسرعة أمسك بالعجلة بيده اليسرى و دار بالمقعد نحو المخرج وبيده اليمنى حرًّك فوق رأسه منظارا ميدانيا.

ـ في البداية الواجب، قال وقد أدار ظهره. جئت للتفتيش الصباحي.

سمعته يغلق باب الشرفة ويلف مقعده، ثم يصفر بمرح كما لو كان وحده. احمرت أذناها. حسنا، الحرب، الارتباك، الألفة: لكن إلى هنا، ومن شخص إنجليزي؟ ستنتهز الفرصة وتتجه الآن نحو الخزانة وتخرج روبا

وتلبسه قبل عودة هذا العجوز الشاذ... ثارت أعصابها ووضعت قناع الليدي نانسي جيرالداين ألبرتا إليزابيث كمبل بارون أرجيدايل، وهو اللقب الذي تشمئز منه أكثر من الصراصير.

- إيه، أنت، صاحت.

سُمع صوت المقعد مرة أخرى وظهر عند الباب ونظر إليها.

- اخرج ! قالت له كما لو كان كلبا. ولا تأتِ إلى هنا مرة أخرى إلا إذا عرفت أنني خرجت.

- تحت أمرك يا سيدتي، قال منصاعا وقد تدلت أذناه.

بعد قليل دقت زوجته الباب. طلبت من نانسي أن تسمح لها ببضع دقائق فقط. كانت منزعجة من بروكس غير اللائق، هكذا قالت لها. العمر والعجز ومرارته من ظلم أوقعوه عليه. ينبغي ألا تعيريه اهتماما. فهو سريع النسيان. بالأمس أخبرته بأن الشقة قد استُئجرت ثانية. هنا سكنت لعامين ميس وولوبانك ابنة عانس لأحد الأشخاص البارزين، كانت تفهمه جيداً وكانت بينهما ألفة. دخل وهو يعتقد أنها مازالت تسكن هنا...

- لكن يا سيدتي، فكرة أن تقدمي نفسك على أنك مسز كمبل ! هناك الكثيرون باسم كمبل، لكن الليدي كمبل ابنة السير تشارلز هي واحدة لابديل لها.

كل هذا لم يكن مقنعا، كان تمويها. فهو حينما دخل عرَّف نفسه، إذن كان يعرف أن تلك العانس ليست موجودة. ثم، كيف عرفت من تكون؟ فهي لم تظهر جواز سفرها لأحد.

ـ كيف عرفت من أنا؟

ـ لقد استنتج بروكس هذا. من طريقتك وأسلوبك.

ـ لابد أن أعترف أنني كنت حادة بعض الشيء.

لكن لمرة أخرى. نانسي التي لا تتغير لم تستطع أن تحتفظ بالأفضلية. تراجعت على التو وانسحبت فاستفادت الأخرى.

ـ على أي حال ليدي كمبل، لن يضايقك مرة أخرى. اسمحي له مرة واحدة ليقدم اعتذاره إليك. هل هذا المساء مناسب؟

ـ أوه، يا له من أمر الآن. ليأتِ الآن إذا أراد. لكن انسوا موضوع الليدي وماي ليدي. فهذا يضايقني كثيرا.

ـ متخفية، قالت الأخرى وهي تخفض رموشها المطلية بمغزى. لا عليك. ستجدين فيَّ صديقة كتومة نصوحة.

لقد ذهب عقلها إلى أمور أخرى. لكن نانسي لمرة أخرى لم تنهرها. يا للعيب إذا كان على المرء أن يصحح للناس دون توقف، لن يتبقى وقت لأي شيء آخر.

بعد ذلك أحضرت الخادمة العجوز الفطور، وضعت الصينية على الطاولة الصغيرة في غرفة المعيشة ثم راحت ترتب في صمت وبطء ويعلو وجهها شيء أشبه بالعديد المتشائم. أخذتها نانسي نحو الحمام وأشارت

لها إلى السلة. طلبت منها أن تضع هناك الملابس البيضاء المتسخة وبعد ذلك ترى ماذا ستفعلان من أجل التنظيف. كانت تحدثها والعجوز تحرك رأسها بإيجاب، يبدو أنها تفهم الإنجليزية.

كان بروكس ينتظر العجوز في الخارج حتى تخرج؛ فور أن سُمع صوت غلق الباب سُمع على الفور صوت المقعد المتحرك في الشقة. مر من أمام نانسي التي كانت تنتظر كلماته الأولى حتى تقاطعه وتقول له إنها قد نسيت الأمر برمته. لكنه دخل وذهب إلى باب الشرفة أولاً وفتحه وتكلم من الخارج؛ من الشرفة وهو ينظر من منظاره إلى البحر.

ـ كما كنا نقول، التفتيش الصباحي يستند إلى موقف. لأنه كما تذكرين بالطبع وكما قال هومير، العجوز المعصوم من الخطأ يخرج في الظهيرة من ارتعاش المياه التي يولدها الريح فجأة على سطح البحر، هناك أمام جزيرة فاروس.

بدت كأنها تتذكر جيدا ذلك الـ هومير.

ـ هناك، داخل الكهوف المقببة، أشار بعيدا وهو يحرر يده اليمنى: ستمضي ألف سنة تقريبا قبل أن تأتي النجدة من قراص النبات ليملأها بالحجارة من أجل مناره... هناك، داخل الكهوف يتربص من الفجر مينلاوس مع ثلاثة من رفاقه من طروادة. محشورين في الرمال وملتفين بجلد الفقمة التي سلختها من أجلهم إيذوثيا ـ مممم ! ابنة من ذهب ! لم كانت ترغب فيه؟ أود أن أعرف، جبهته المزينة أم الفاجرة المفضوحة التي كان يجرها خلفه؟

جاءت نانسي ووقفت ثانية أمام المقعد المتحرك. تحت ضوء اليوم الجديد، كان البحر يبرق شفافاً في الأفق. بالقرب من الشاطئ بعض النوارس كانت تحط على الماء وتتمايل برفق مثل حفنة من الزنابق نثرت بعشوائية. قال لها رون ذات مرة إن صراع بروتياس مع مينلاوس كان تنويع لأسطورة ثيتيس وبيليوس. هكذا كانت الربة البحرية في كهف على شاطئ ثيسالونيكي تحارب بضراوة وصمت، تحولت إلى نار وماء وأسد وثعبان وحبار، لكن بيليوس لم يهبها وأسرها بين ذراعيه ولم يتركها حتى عندما بصقت في وجهه حبرها. حتى ثناها واتحدا في عناق إلهي. ومن العالم القديم اتجه الحوار نحو جيلبرت ماريف والنقد القاسي الذي وجهه له إيليوت على ترجمته ليوربيدس. هكذا جاء ذكر هيلين، في مصر. كانت تذكر ذلك المساء في المقهى ذي المرايا وبداخلها تحرك شيء أشبه بالخوف أو الأمل، كأنها كانت تتحدث مع هيلين، كان رون يعني نانسي نفسها التي كانت تنتظر في القاهرة، عندما كان تشارلز في خطر وكاد أن يُقتل خارج أسوار بغداد من متمردي رشيد علي. انظري إلى ذلك الشعور عن شيء لم يُحكَ حينها بوضوح وربما لم يكن من الأساس، الآن ومع الثرثرة مع العجوز الماكر اتضح واكتمل. معمارية الذاكرة وبلورات العقل، الشعر... لم يعد شيء بمقدوره أن يمحوها، وليختفِ رون، ولتمت نانسي غدا أو بعد غد. إن مقاومة ثيتيس وتحولات بروتياس، وحزن هيلين في مصر، رون ونانسي أمام المرآة يحفران اسميهما بدبوس على إطارها، تمايل البحر مع النوارس، كان كل هذا يترك صدى في النور مثل أوتار القيثارة نفسها وتخلط الأساطير بالذكريات، الماضي مع اليوم في إحساس جديد لا يقهره الوهن.

ـ ولا حتى أفهم اشمئزاز الشاعر من رائحة الفقمة: ثقيلة وسامة، رائحة كريهة ميتة وتوصيفات كهذه. لابد أن الجنوبيين لديهم أنوف حساسة.

وجدت نانسي هذا مضحكا فضحكت. توافقا دون أي شكليات أخرى.

ـ آه نعم، عزيزتي، صاح بروكس وهو يدير رأسه. لن يحدث أن يخدعنا أيّ مينلاوس بعد الآن. ليس ثمانية مسوخ، بل أكثر وأكثر من ثمانية تحولات تنتظره.

سارت يده الحرة بهدوء فوق تنورة نانسي الصوفية إلى أن وجد العظمة المتحركة في الركبة وضغط عليها مستمتعاً، كأنه شرد بمقامرته هذه. بينما كان يجب أن تغضب من ثقته الزائدة، لم تتحرك نانسي على الإطلاق. أمسكت يده بهدوء ووضعتها على ذراع المقعد.

ـ حقيقة، كيف حال تشارلز العجوز؟

ـ هل تعرفتما؟ سألت وقد احمرت وجنتاها.

ـ بالتأكيد! لكن أعتقد أن جلاب باشا، السير جون محمد فيلبي، تشارلز وأنا كنا فقط من بقينا من الراحل الخالد بيورو.

ـ هل كنتم في المكتب العربي مع لورانس؟

ـ ربما.

ـ غريب. لكن المسكين...

تماسكت. بعدها، عندما ستقابل بيتر مرة أخرى لابد أن تسأله إذا كانت سماجة العجوز تستحق العناء لأن روبي لم يُنَبّهها عندما أعطاها عنوان البنسيون. أخذت من يده المنظار وحاولت أن تنظر من خلاله. كان منظارا بحريا قويا جدا. أوضح لها بروكس كيف يُستخدم، وفجأة رأت أمامها مدمرة مموهة باللونين الرمادي والبني ومدافع مضادة للطائرات موجهة نحو السماء؛ كانت رائعة. فتحته خلف بوابة فاروس نحو الشمال الغربي - كريت، مالطة أم صقلية؟ خفضت نانسي المنظار وسارت به نحو الجهة الغربية للميناء. العجوز الداعر ! كان يتلصص على حياة الناس. تلك الفتاة بالشعر المصبوغ بالأكسجين، ربما تبدو كأنها تنتمي للجنس السامي. يا له من أمر سيئ أن تحلق إبطيها بماكينة الجيليت ! ربة بيت ترتدي منديلاً برتقاليا تنشر غسيلها على سطح المنزل. هناك شرفة عليها علم.. سويدي؟ نعم، أجابها بروكس الذي فهم أن عينيها تتجهان إلى هناك: إنها قنصلية السويد. موقع متميز هي هناك منذ ١٨٧٠. اليوم هي عديمة الفائدة. لكن ذلك المبنى هل ترينه، هو ملك للقنصل... لم تكن تسمعه. في إحدى الشرفات كان هناك رجلان يتحاوران، حيث كان أحدهما... يا إلهي، هكذا في أول يوم؟! ومن هذا بجواره... لابد أن ترصد البيت أولاً، لونه، الحي. آه، ضاع ! والعجوز الداعر حاول مرة أخرى أن يمد يده المحمرة المملوءة بالعروق المنهكة... لا،لا، لابد أنه كان شبحا، إنه مجرد انعكاس لوحدتها. لم تعد تجد الشرفة، ولا حتى البيت. وضعت المنظار بقوة على الأصابع التي تجرأت مرة أخرى.

- شكرا لك، قالت بجفاف. الآن لابد أن أغادر.

وهي تنتظر المصعد بعد ذلك سمعت شجار الخادمة. كان بروكس يجيب عليها بشكوى باكية كأنه يعترف بشيء. كان يتحدث اليونانية. كان صوته به شيء درامي، طبقاته مشروخة، كما لو كانت تعشش فيه ذكريات عنكبوتية وباردة.

لكن في الليل هبت الرياح الشمالية وراح البحر يصرخ. صوت شخص يندب داخل مروحة السخان مثل العديد. راحت نانسي وأغلقت باب الحمام. بعدها جلست أمام التواليت أخرجت من الدرج أنبوبة ليومينال وذهبت نحو الضوء لترى كم بقي منه. ضبطت نظرتها في المرآة. كانت تنظر برقة، تقريبا بعشق، المنوم الذي سيمنحها ليلة أخرى بلا أحلام، وبلا كوابيس. لكن في البداية كان لابد أن تضع كريما على يديها. دست أصابعها في قارورة ثم نظرت لوجهها ثانية في المرآة. التجاعيد حول فمها ازدادت عمقا وتحيط بفمها مثل طوق. ثم دق الهاتف. صوت مرتعش، مثل جرس أشبه بجرس دور السينما الصغيرة قبل انتهاء العرض وقبل إشعال الأضواء في القاعة. بحثت حولها عن خرقة لتمسح يديها دون جدوى. في النهاية أمسكت بسماعة الهاتف بيدها الدهنية.

- أجابت وهي تلهث: نعم؟

- عزيزتي انتظري حتى أوصلك بالخط الذي طلبك.

كانت السيدة بروكس. صوتها كان به نبرة تهكمية منتصرة بالتأكيد.

- نعم؟ قالت نانسي مرة أخرى.

ـ ليدي نانسي، معذرة...

بيتر. مر من الإسكندرية. كان يريد أن يريها شيئاً. موعد في صالة فندق سيسل؟ لكن هل ستجد «تاكسى» ؟ هل سيمر ليأخذها؟

ـ مستحيل يا بيتر. أنا الآن أرتدي بيجامة النوم، وليس لدي رغبة أن أرتدي ملابسي مرة أخرى. لماذا لا تأتي أنت؟

ـ مم ! التدفئة يا ليدي نانسي. أريد أن أقول إنه ليس هناك تدفئة جيدة في هذه الـ ...

لم يكن هناك أي تشويش. لكن نانسي كان لديها إحساس مؤكد أن مسز بروكس تتابع كل كلمة. كان بيتر يعاني باستمرار من كريزة الملاريا، كان يعيش دائما بهذا القلق.

ـ ألا تحمل دائماً معك زجاجة ويسكي؟

عند الحاجة اشترِ زجاجة كاملة وتعال. سأرافقك.

ـ ممم !

من قال هذا، مسز بروكس أم بيتر؟

ـ إلا إذا كنت مدفوعا من قبل زوجي، قالت نانسي بمكر.

ـ ليدي نانسي، أنا لا أفهمك.

- بيجامة، مشروبات كحولية، شقة مغلقة. تكفي شهادة واحدة حتى يستطيع تشارلز أن يحصل على الطلاق. وسوف يحصل عليه بالتأكيد. السيد بروكس لن يرفض خدمة كهذه لزميل سابق في البيورو العربي.

الآن تأكدت نانسي أن شخصا ترك الخط بالفعل، فصوت بيتر الآن كان يُسمع بوضوح.

- بروكس في البيورو العربي؟ إنه لا يصلح لأن يكون حاجبا. أعلى منصب ممكن أن يصل إليه هو مفتش للمراجل في بلدية الإسكندرية.

في النهاية أقنعته بأن يأتي. ثم ارتدت روبها. في شهر أكتوبر كانت تختنق في البيجامة الكستور في حين أنه كان يتحدث عن التدفئة... أحضرت أكوابا من المطبخ، أفرغت مكعبات الثلج في طبق بعد أن أخرجتها من البراد ووضعت كل شيء على الطاولة في غرفة المعيشة. فيم يريدها؟ ماذا سيريها؟ لن تُصعَّب عليه الأمر، سترافقه في الشراب.. لكن ماذا لو طالت يداه؟ شعرت بأن أذنيها تحترقان. تخيل لو كان يظن أن الفراق من أجل الطلاق كان دعوة مباشرة ... ماذا سيكون رأيه فيها؟ هكذا كان يحدث لها دائما، كانت تتحدث بكل ما لديها من عفوية وسذاجة ، أما الآخر... أي سذاجة؟

هل كانت تعرف نفسها جيدا؟ عقلها الباطن ...

عندما سُمع طرق الباب، هبت نانسي نحو المرآة، فتحت يديها بارتباك، أحكمت رباط الروب على وسطها، وأومأت بطريقة تعني «ماذا سأفعل لك؟ حاولي النجاة قدر ما تستطيعين»، ثم فتحت الباب. بيتر بشريط رتبة

الموظفين النظاميين الأحمر على خوذته ورافعا ياقة معطفه، دخل بهدوء إلى الشقة وهو يدوس بنعل حذائه على الأرض برفق محنيا ظهره بشكل كوميدي ثم قال خائفا:

- كيف حالك ليدي كمبل؟ امرأة سليطة بسيجارة مطفأة كانت تنتظر عند المصعد أرشدتني نحو بابك.

- للأسف، قالت نانسي وارتسم على وجهها تعبير حزين. هذا يخرب كل خططنا.

ضحكا بشدة. استمرت نانسي في الكوميديا فسحبت مزلاج الباب. ثم دست يدها في جيب معطفه وسحبت الزجاجة وراحت تفحصها. لقد بدأ في الشراب قبل أن يأتي. علقت يدها في ذراعه وسحبته برفق نحو غرفة المعيشة. مر عليها وقت طويل لتشعر نشوة الفخر بالانتصار السهل: كانت تشعر امرأة مرة أخرى. فعلى أي حال كان هذا هو أول رجل يدخل الشقة، بروكس لا يُحسب. أخذت خوذته من يده؛ لن يخلع معطفه، كانت تعلم هذا. قالت له أن يجلس بارتياح على المقعد وهي ستتقوقع أمامه على الأريكة. غطت الهاتف بالخوذة. فكانت بصمات أصابعها المدهنة تلمع من أثر الكريم على الهاتف. نزعت غطاء الزجاجة ورفعته وهي تنظر إليه بتساؤل.

- ربما دوبل، قال بيتر وهو يبعد عنه طبق الثلج. وهذا الهواء، قال متضايقاً. هل تعتقدين أن يهدأ حتى الصباح؟ لابد أن أستيقظ مبكراً لأذهب للقاهرة. لقد جئت من بنغازي. قضيت أربعة أيام في الكتيبة اليونانية. ضيافة رائعة وأشخاص نبلاء.

لماذا يقول لها كل هذا؟ أخذت نانسي ثلجا بيدها ووضعته في كأسها. قطعة، اثنتين، ثلاثة. اقشعر بدن بيتر ثم وضع يده في جيبه سريعا وأخرج منه قمعا ورقيا مليئا بالفستق. أفرغ الفستق على المنضدة وأعطاها الدفتر. كان من النوع الرخيص وغلافه أخضر ومطويا. قدم لها سيجارة فرفضت، سأل إذا كان بوسعه التدخين فسمحت له. الدفتر كان فارغاً إلا من بضعة سطور باليونانية في الصفحة قبل الأخيرة بخط يد روبي. فهمت نانسي العنوان بسرعة. كانت أبيات رثاء. ثم بدأت تقرأ بترو، بعد أن مررت كلمات بالعامية لم تفهمها. لكنها كانت كثيرة. بعض الكلمات كانت أجنبية لكن ريتشارد كتبها بحروف يونانية. هل كان يمزح؟ ماذا تقول الأبيات؟ ماذا يريد أن يقول غير أنها توضع على القبر؟ شربت كأسها جرعة واحدة ثم أعادت الدفتر لبيتر ورجته أن يساعدها. قالت له إن الأبيات الوحيدة التي فهمتها كانت من هومير. كان جيلبرت ماريف يلقيها عليهم دائما وكان يحملها لوقت طويل معه، ولديه حق في هذا. وانظر كيف على شاهد قبر يتوافق كامبريدج مع أكسفورد...

- هي توليفة، ليدي...

رفعت هي إصبعها ناهية: نانسي فقط.

- معذرة، لكنه من الصعب علي ألا أقول.. هي توليفة، كوكتيل، وريتشارد نفسه لم يكن يعرف أن له أي قيمة جمالية. فقط مثل وثيقة إنسانية تعني شيئا. المذهل هو أنه في سبعة أبيات استطاع المسكين أن يكثف

أصداءً كثيرة، ملغياً قاعدة عدم التداخل التي لا تخترق. أنا على الأقل أسمع إيليوت، أريانو، يوربيدس، ستاندال، يوليوس قيصر، ريلكة، فرانسوا فيغون، بودلير، هومير، شكسبير، عمر الخيام. وومیلاغرو وبالطبع كريناغوراس.

- بيتر، لماذا تعذبينني؟

راح يترجم معها كلمة بكلمة:

مقبرة روبرت

وصل حتى مدينة ثابساكو عند الفرات وسقط

عراف وبائعة هوى متجولة في وحدة بريطانية

ازدادت قوة الاحتمال للتريض

ليشبع كلب الداخل من الطيور الجارحة

قعقة السيوف تُسمع عبر مجرى المحيط

ليأتِ الموت للأقزام في ساعة نحس

ليكن الموت شمعة والدنيا فقاعة وجنون

انحنت نانسي على كأسها الفارغة وبكت في صمت بدموع كبيرة.

ـ إنه مريع، قالت. أتفهم يابيتر؟ مات يائسا. كلمة «الدنيا» ليست مقتبسة من «الخيّام». إنها من عبارة كان يقولها عربي في القاهرة. لقد ذبل من حب لم يكتمل، سقط ولم يشأ أن يعيش: الدنيا خلاص، انتهى العالم. كتب روبي نلك في خطابه الأخير. وانظري، إذا وضعنا هذا بجوار النظرة العامة للعالم من هومير وأيضا لشكسبير، الضوضاء والجنون. أووه، إلى هذا الحد كان معذبا ...

ـ لكن لو قمنا بالمقاربة بين بائعة الهوى والكلب الداخلي....

ـ أجل، فهمت كل شيء. بمعنى أنه صار مثل بيت بغاء متنقل للعسكر، لكي يخفف من عناء المسيرة، وفي الوقت نفسه كان يتنبأ بالنهاية المريعة لإمبراطوريتنا. يا للقوة المدمرة التي تكتسبها الكلمات عندما تتواءم مع أصابع فنان حقيقي ماهر! حقّرَ من نفسه، سلم جسده للرذيلة بينما روحه كانت تصرخ عاليا مع الطيور الجارحة فوق البحر فوق البشر، وعدوانيتهم، وفوق الموت. لكن لماذا كتب باليونانية؟ لمن كان يخصصها؟

ـ لمن طلب منك أن تعطي "بورتريه ساباتيه"؟

ـ آه، أتعرفين؟

ـ لكني أخذت أنا أيضا نسخة من وصيته المعروفة.

ـ أنا لم أتسلم شيئا. يبدو أن الخطاب تاه بين أورشليم والقاهرة...

أعطتني جويندولين «بورتريه ساباتيه» كي أسلمه كما أعرف إذا ما طُلب مني. لكن الآن، هل سترسلينني كي أقرأ الوصية؟

ـ هل مازال البورتريه لديك؟

ـ ما هذا السؤال؟! بالطبع لدي.

ـ هل يمكن أن أراه؟

ـ إذن فأنت من سيطلبه مني؟ سألت محبطة.

ضحك بيتر. أخذ الزجاجة وصب ويسكي بنفسه. صب لنانسي أيضاً وهو ينظر إليها في عينيها.

ـ لا، من أجل الرب، قال. أريد فقط... أريد أن أراه ثانية لأنه... بحيرة من البنفسج المصقول، من قال هذه العبارة؟

انتباه! قالت في نفسها. فيم يريد أن يورطها هذا الرجل ذو البشرة الشمعية؟ هذه العبارة سمعتها في أبريل من فراو أنا وقد قالها مانوس عن عينيها، وهي كتبتها إلى روبي، أم لم تكتبها؟

ـ أنت يا بيتر، قلت لي إن آخر مرة تحدثت فيها مع ريتشارد كانت في الخامس عشر من مارس. هل تقرأ الآن رسائل الأموات؟

أصابته. ظهر هذا في حركة أصابعه حين راح يفك أزرار معطفه باحثاً عن شيء. أخرج أربعة مظاريف وأعطاها إياها. كانت رسائلها الأخيرة إلى روبي. سليمة تماما.

- إن المخابرات تحتفظ برسائله منذ شهر مارس. لست في حاجة أن أقول لك إنه بالإضافة إليّ هناك أكثر من عشرة أشخاص قد قرأوا هذه الرسائل.

ماذا تفحصون فيها؟ ألم تسمعي ابدأ عن العنبر المظلم؟

من حسن الحظ أن لا أحد فيهم لديه الوعي والخيال الذي كانوا يربونه فينا في أكسفورد. لكن لماذا كان خطابك في يوليو...

في يوليو، قدمت لها إيمي بوبريتسبرج اعترافا مؤلما ومتناقضا. بين أشياء كثيرة أسرت لها بأن مانوس قد أصيب في رأسه في الفترة التي قتل فيها رون تقريبا في الصحراء. مرت شهور، لكن نانسي كانت قد كتبت في التو إلى روبي بأن يبحث في مستشفيات المنطقة، ربما يجد أي أثر له. لم تكن روبي تعرف حينها أن روبي كان غائبا «في مهمة، مجهول العنوان» ، كما كان يقول الختم على المظروف.

- ... يوليو سيحل لغز اختفاء كالويانيس المطلوب،استمر بيتر. هذا هو من جذب روبي نحو المتاهة والقضايا اليونانية، مما سبب موته أيضا، كان أحد جيرانه في القاهرة يُدعى مانوس سيميونيذيس، كان ملازما في الجيش. ولديه جرح غائر كبير في جبهته.

- غير معقول يابيتر. لم يخفَ علي بيتر شيء. كان يعرف أنني كنت أبحث عن هذا الشخص، كان رون يحبه كثيرا.

بأم عينها وبمنظار بروكس، رأت من تلك الشرفة عند الميناء الشرقي هذين الرجلين. الآن سيتضح إذا كان حقيقة أم مجرد سراب.

ـ ماذا حدث في النهاية؟ سألت بلا مبالاة. هل قبضوا عليه؟

تنهد بيتر بارتياح. صب ويسكي في كأسه.

ـ سيميونيذيس، هذا هو الاسم الحقيقي له وليس كالويانيس، كما كان يقول لكم في أورشليم، شارك في مسيرة الكتيبة من حلب إلى الرقة. كيف يتخيل أنه على بعد أميال منه على الضفة الأخرى من الفرات في "دبيسة"، كتب له روبي آخر رسائله، في أبيات شعر. حدثت في تلك الأثناء أحداث جنونية في الكتيبة الثانية ثم تم تسريحها. في التوقيت نفسه أو بعده بقليل تم تسجيل وجود سيميونيذس في فلسطين عند محطة القطار في حيفا. من حينها اختفت آثاره. لم يكن في بنغازي في اللواء الذي تم تشكيله من رديف الكتيبة الثانية.

ـ من هناك أتيت، أليس كذلك.

ـ ليدي نانسي، قال بيتر ولم يخفِ نبرته العدوانية. إننا في حرب. العواطف هي نذير شؤم. أتريدين أن تقولي إنني ذهبت إلى بنغازي كي أقبض على ... صديقكم الغريب؟ أقول لكم لا، إن إدارة الأركان تعرف كيف تستخدم رجلاً في كفاءتي في أمور أكثر جدية. بمناسبة وجودي هناك فكرت في أن أبحث عنه بتروٍ ودون أن يشعر أحد، صدقيني. لكن سأكرر النصيحة التى أعطيتها لروبي لكنه لم يصغ لها مع الأسف. لا تتدخلي في الشئون

اليونانية. لا تدعي حبك للتاريخ القديم يجرفك، من الشغف بالحضارة في جامعاتنا. لم تعاشري اليونانيين، أعني اليونانيين المعاصرين. الشأن اليوناني كله به شيء من المغناطيس، هو بالضبط مثل حقل ألغام مغناطيسي في عرض البحر. يحتاج إلى درع مزدوجة كي تقتربي منه. درع خاصة من أجل الحفاظ على النفس على الأقل، وللحفاظ على قناعات حضارتنا وقيمنا. وإلا سيجذبونك إلى أعماق ظلماتهم وتهلكين. على قدر ما ترينهم ودودين في حياتهم اليومية وفي صحبتهم، على قدر ما يصبحون وحوشا عندما يتعلق الأمر بالسياسة. إنهم بربريون، متوحشون وأجلاف. فجأة يفهم المرء أنهم لم يخرجوا قط من بدائيتهم، من مجتمع ميكينس الوحشي ومن طيبة القديمة.

نهضت نانسي وذهبت إلى غرفة النوم. نظرت إلى الفراش المرتب وتوقفت للحظة. تساءلت بم كان يذكرها، لكنها لم تجده في الحال. فتحت خزانة الملابس وأخذت «بورتريه ساباتيه». كانت تحتفظ به ملفوفا بالقطن والمشمع للحفاظ عليه من الرطوبة. ضجت من وجود بيتر الذي سيجبرها أن تنزع عنه اللفائف ثم تضعها ثانية. لكنها كانت الطريقة الوحيدة كي يسرع بالمغادرة. هذا، ربما ستفتح إحدى النوافذ. كان البحر المتوسط يزوم في الخارج، الرياح الشمالية تصفر بجنون. نعم، لكن ماذا عن حظر التجوال؟ هناك حل وسط، فكرت في أن تفتح باب الحمام. دخل النحيب من مروحة التهوية إلى ممر غرفة المعيشة.

ـ ها هو قالت. هو مازال ملفوفا منذ جئت إلى الإسكندرية. على أي حال الرجل ليس هنا.

أصابته مجددا. لكن الآن اكتفى بيتر بأن يرفع كتفيه وينظر خلفه إلى الممر.

ـ هل فتحتِ نافذة ما؟ سأل.

ـ الحمام فقط، حتى يذهب بعض من الدخان.

ـ أوه، معذرة، قال وهو يطفئ سيجارته التي أشعلها لتوه. عندما أغادر اطفئي المصابيح وافتحي النوافذ. سيتغير الهواء سريعا.

نهض. بقي البورتريه مغلفا على الأريكة. أخذ خوذته. آثار الأصابع المدهنة لاتزال تلمع على سماعة الهاتف.

أخذ يدها وقبلها. غطت هي الزجاجة وبصعوبة حشرتها في جيب معطفه.

ـ قالت له، بقي نصفها تقريبا. هل تريد أن أشعر بالذنب إذا أصابتك نوبة ما. لكن إذا سمحت لي سأحتفظ بالدفتر والفستق.

والرسائل الأربع، كان لابد أن تقول. لكن الرسائل كانت لها بالتأكيد. سحبت المزلاج بهدوء. بأي أفكار أدخلته وبأي أفكار تُخرجه من الباب نفسه الآن ليغادر. هو، بدا مترددا. ذهبت نانسي وضغطت على زر المصعد. اصطفق أحد أبواب السطح غير المغلقة وأدخل هواء.

ـ تصبحين على خير يا نانسي، أحلامًا سعيدة. أعدك أنني لا أريد شرا

بأحد. على العكس تماما.

ـ من الأفضل أن تنسى الأمر، إن استطعت، قالت وهي تغلق الباب ببطء خلفه.

الأنبوبة، بسرعة، كي تنام. ستطفئ الأنوار وتفتح زجاج النوافذ فقط. صفير الهواء، صوت الأمواج سيعطيها إحساسا كاذبا بأنها على سطح البحر، بينما ببطء وبالتأكيد سيجذبها مغناطيس نحو بحر الألغام بلا دروع، بلا درع واحدة. وستترك نفسها تذهب بلا تحفظ، عارية كما كانت دائما مع رون.

III

هل تعود جنة الحب الغضة من سنوات الطفولة بالشكوى والدموع؟

وماذا بعد؟ صفر. هنا توقفت المحاولة، الوحيدة، أن تترجم شيئا كنت تصدقه، ومازلت تعتقد أن صداه مازال يتردد مع تنهدات الطفولة المفقودة. ما الذي أوقفك؟ طعم العيون؟ هل كان لاذعا أن تعيش بعقلك ما لم تستطع أن تشعره بأصابعك، عصفور دافئ في كف متعرق وقليل من الرعشة في الأعماق تحت الفانلة السوداء للتمويه المتناقض. صيحات البوم غير المرئي في الليل هنا وهناك تحت سماء بلا نجوم. قلبها، قعقعة المطاردة البرية التي تجذبها وتوقظها ويسلمها للظلام ثم يدفعها للخلف مباشرة. وأنت، طفل قليل الحيلة. وهي تندفع لتنفجر مع كل صيحة.

والآن ماذا تفعل بالقلم في يدك في هذا البيت الخاوي؛ عمَّ تُنقب، عمَّ تحفر، إلى أين تريد أن تخرج؟

كل شيء هنا، قلت: هنا يُدفع الثمن. كأنما هذه المهانة الأخيرة لتوني تواسيك لأنك كنت تتألم، لأنك كنت تغار منه كثيرا. ومن العدل أن تتساءل الآن من كان المخطئ؟ أي قدر، أي صدفة أو ربما النشأة؟ وكيف أن توني، الذي بدأ بمقومات كثيرة، يئول به الأمر هكذا! مَن المخطئ؟ إذا كان هناك

مخطئ. ثم: مَن الذي خرج رابحا من الاثنين على أي حال؟ ماذا تفعل بإنسانيتك؟ بالكتب والغليونات واللوحات والأسطوانات؟ الكرامة الأنيقة المتزمتة، يتمتع باحترام عميق بصرف النظر عن المجتمع السكندري؟ بالنسبة له كانت تنام وتصحو متقوقعة داخل الأوراق، بالنسبة له كان يشق خديها في ضوء الصيف الكبير، بالنسبة له حطم شبابها الجميل. هذا هو كل شيء، وإن لم تعطه أبدا أي قدر من الاهتمام، لا يستطيع أحد أن يأخذ منه ذلك، بالنسبة له كل هذا حدث. كم مر من الزمن، ثلاث سنوات منذ رأيتها آخر مرة؟ متى نسف موسيليني « إيلي»؟ تعرف، قلت له، يبدو أنه يمكن أن نعلم أين تعيش، فلانة. آه يافيلسوف، قال لك، أمازلت تذكر تلك العاهرة السمراء؟

كان جميلاً، آنذاك. كان يشبه نصف إله في ذلك الصيف الذي لا ينسى. عامان بعد الدمار. شمس المساء ذهّبت شعره والزغب على خديه وذقنه. ساقاه كانتا سمراوين من الشمس والبحر. كان يرتدي قميصا أزرق وبنطالا سبور كاكي اللون عليه حزام الكشافة وصندل. يبتسم لك واثقاً بأنه لا يليق بك إلا مقعد في العربة الأخيرة ويناديك: باراسخوس ! وأنت تنسى ماذا كنت تخطط لأربع ساعات وحيدا في القطار تصيح: توني، يا توني، هنا ! تحبه كثيرا، واضح. فهو ابن خالتك الأول، تقريبا في العمر نفسه فهو يكبرك بعام واحد، في ذلك الصيف أتممت الرابعة عشرة.

عُد قدر ما تستطيع إلى الماضي كي تتذكر، هو كان دائما الأوروبي وأنت كنت العربي. كل ما يرتديه يناسب جسده، عليك الملابس كانت تبدو

غير مرتبة وكأنها ليست لك. كان يحلق شعره تانجو، أليست خسارة أن نقص شعرا كهذا؟ أنت كانت أمك تجز شعرك بالماكينة فتبدو كأنك هارب من مطبخ سفينة. السباحة والصيد وصيد الأسماك كانت بالنسبة له ابتهاجا ومجدا. تساهل، وتحامل على وجه الخصوص في النساء. بالنسبة لتوني، الذي كان يشبه الأمراء.

تَيَتَم وهو في الحادية عشرة، أخذته أمك إلى البيت وكنتما تنامان في الحجرة نفسها. في البكور كل صباح تذهبان إلى المدرسة نفسها، المسافات طويلة في القاهرة. باقي العائلة تولّى أمرها الأعمام. لكن أمه مرضت ولم يكن بيد الطبيب شيء ليفعله، قال إنها لابد أن تُعزل. أرسلوها إلى الإسكندرية لتعيش مع الجد في كوخه في الرمل. نعم بالطبع الطقس هناك رطب بعض الشيء، لكن أين المال من أجل رحلات للسفر إلى الخارج والمصحات؟ لابد أن نعصر قلوبنا حتى لايصاب الولد بالسل، كانت تقول الأم بالمعمودية. مر عام والخالة تحتمل العزلة وبعدها تذمر الجد الدائم أثار أعصابها. أرسلت خطابا تطلب فيه ابنها، كانت تريده بجوارها، تسمع خطواته، ولا شيء آخر. أقسمت بأنها ستتبع كل إرشادات الطبيب، أطباق منفصلة، حمام منفصل، تغوط منفصل. ستمنعه أن يدخل حجرتها، لن تقبله، لن تحدّثه عن قرب، فقط تريد أن تسمع صوته، أن تفخر به وهو يذهب إلى المدرسة، هو ابنها، حملته في بطنها تسعة أشهر على أى حال. هذا، أساءت أمي فهمه: هل تظن المسكينة أرغيرو أنني سآخذ منها ابنها؟ هناك أخان لتوني أحدهما أكبر منه والآخر أصغر منه، لم يطلبهما أحد ولم يتشاجر أحد من أجلهما، أمي راحت

تجهز الملابس بعصبية، وترتق الجوارب والسراويل الداخلية، سيحتاج إلى حذاء. أخذت الأم بالمعمودية الحقيبة والهارمونيكا وأخذته معها إلى الإسكندرية. بنفسها رتبت تقسيم الكوخ، فصلت الطناجر والأطباق، طلبت أن يصنعوا مرحاضا ثانيا، وراح الجد ينشر الألواح الخشبية ليصنع غرفة وغطاها بالصفيح والتبن ثم بمنشار رفيع راح يفتح في الباب نافذة على شكل هلال في مستوى البصر كي ينظر منه الولد أثناء قضاء حاجته. لقّنَت الأم بالمعمودية كل شيء للجد. لا يعنيكِ يا امرأة، فهمت كل شيء. لقّنَت الشيء نفسه للخالة أيضا، أمي لماذا تصرين؟ هل سأضر ابني؟ شرحت لتوني كيف ينظف ملابسه، الجد سوف يعتني بالطبخ. ذهبت بعد ذلك إلى كنيسة الرسول إلياس وأشعلت شمعة ثم ذهبت إلى كنيسة أخرى صغيرة بعيدا في سيدي بشر للقديسة باراسكيفي أشعلت شمعة، أخرى. وهي تعُد العُدَة للعودة إلى القاهرة سأل توني: وماذا عن المدرسة؟ لقد نسيت هذا الأمر برمته. في الجالية قالوا لهم إنه سوف يخسر سنة لا محالة. ولأنه سوف يحتاج اللغة الفرنسية يوما ما، لماذا لا يبدأها من الصغر؟ أخذوه فورا إلى مدرسة الفرير في باكوس. المدرسة الفرنسية على مبعدة ميل من كوخ الجد، كان يلتقي الأولاد في الساحة أربع مرات في اليوم. بدأوا في المراسلة التي كانت كلها كتابة عن الجوائز والكتب والمجلدات المذهبة والميداليات التي كانوا يعطونها إياه في الفرير حيث أحبوه. قلَت رسائله في الصيف وصارت مقتضبة.

عندما تأكدوا في القاهرة أن الفصل بينهما في الكوخ يسير على

مايرام أرسلوا الأخ الآخر لتوني في العام الآخر كي يقضي الصيف معهم لأنه نحف كثيرا بسبب الهواء الملوث في الحيّ العربي، والمواعيد الغرامية مع الداعرات من مدرسة الفتيات، وهو ما أنهته أمي. لقد جاء دورك لكي تقضي الإجازة في الإسكندرية للسبب نفسه بالطبع وليس بسبب العاهرات. قاوم الأب بعض الشيء، كان يحب عائلة أمي، لكنه كان يخشى المرض كلما سمع صوت سعال قفز مرتعدا. لكنه نزل على رغبتك في الليل عندما رجوته وأنت تنظر إلى عينيه. لأنك لم تكن فقط تشتاق إلى صحبة توني. في صغرك وقبل الأمراض، كانت هناك كل يوم مسيرات بالأعلام اليونانية وطبول الكشافة، بسبب تحرير إزمير أو انتصارات الجيش في الجبهة الداخلية، قضيت صيفا كاملاً مع الجد، وتعرفت على البحر والبساتين والسير حافياً والصيد بالنبال وصيد الأسماك بطرق مختلفة. لكن بقى لديك الحنين لتلك الحدائق التي لم يكن لديك الوقت الكافي كي تتفحصها أو لأنها كانت ممنوعة، وهناك كنت تظن أن الجنة توجد، وطن الروح. كان شوقك أعمى، تحسسها بذاكرتك ساهدا في الظلام حتى تدمع عيناك.

البحر، وكأنك تمتص بفتحتي أنفك رائحته الرطبة، الشعاب، وسرطانات البحر، الصنوبر المطحون كان يطلي الشباك باللون الأحمر والرياح الشرقية للمتوسط تغير أنفاسها في انعكاس الشمس وانحدار الأمواج. هكذا، دون أن تراها بعد، فقط الرائحة. محظوظ. محظوظ جدا أن يعيش الصيف والشتاء هناك حيث الضوء الأخضر مثل نبات يانع يدثر عابري السبيل وأعمدة الإنارة والأشجار والمحال بمعنى غريب. غريبة لكن

ودودة مثل وعد بسعادة قصيرة ومستمرة، بتفاؤل. لكن كيف تدري أنت الذي تنظم كل شيء، السعادة والحزن، الحق في أن تعيش بجوار البحر ربما يكون ثمنه اليُتم أو أمًّا مسلولة!

تنتظر على محطة الترام بحقيبة مكتظة، خرجت وحيدا من محطة القطار، قفز توني من على القضبان وراح يسير بين الذرة. لم يكن لديه تذكرة للدخول وإن كان الجد قد أعطاه نقودا، لكنه لم يشأ أن يعطيها للصوص كما أسماهم، وإن كان هناك زغلول حينها في سدة الحكم، سيسقط فيما بعد في نوفمبر بعد مقتل لي ستاك. تنتظر وفجأة تراه يصل أمامك ويشير لك إلى B الذي يغادر. ويصيح فيك، لنذهب إلى شوتس، هل تظن أنهم قد حجزوا لك غرفة في سان ستيفانو؟ لابد أن تستقلا ترام باكوس الذي يخدم أحياء الرمل الشرقية، بينما V يتجه غربا بمحاذاة الشاطئ فيمر على كل الشواطي ذات الأسماء الرنانة: ستانلي، جليمونوبولو سان ستيفانو، لوران، فيكتوريا. أخذ توني الحقيبة منك وعندما وصلتم إلى B نزل أولاً من على السلم الملفوف. جلستما على مقعد في لوج وأخفيتما الحقيبة خلف أقدامكما. سألك، هل سوّدك الفحم إلى هذه الدرجة؟ أجبته، سنرى عندما أستحم. لم تتبادلا القبل ولا حتى تصافحتما، بعد كل هذا الوقت، فقط: كيف حال القاهرة، أكل شيء على ما يرام؟ وأنت أجبت: نعم، شكرا، وماذا عنكم؟ فجأة أمسك بذراعك وراح يتحسسه: يا مسكين، بعضلات كهذه لا تستطيع أن تحمل إبريق ماء. الطلمبة ! عندما كنتما تنسيان إغلاق الصنبور كانت الأم تحكي دائما عن الكوخ، كيف أن هناك أزمة في المياه ومشقة الطلمبات.

يقترب المحصل، أظهر له توني بطاقة الاشتراك. هل هي حقيقية؟ سألته عندما غادر المحصل. بالطبع، من نقود الفرير. ولماذا لم تكتب هذا لي؟ فعلاً، لكنك تسأله بالفعل: لماذا قبلتها؟ غمز لك بعينه: أساعدهم في المكتبة. لكن بعد خمسة عشر يوما سينتهي عملي وستضيق بي الأمور. لكن فيم تريد العمل في الإجازة؟ غمز بعينه مرة أخرى.

محطة فلمنج؛ محطة؛ كان سقفها خشبيا مُعشَّقًا على هيئة مبنى بوذي نوافذه الصغيرة عليها زجاج ملون وحولها النجيل والأزهار. ناظر المحطة عقيد سابق في جيش القيصر، يرتدي قبعة مطوية، كازاخستانية، وصافرته معلقة مثل غليون تحت شواربه الصفراء. بونجور مون كولونيل. الصباح الجميل كله لكم سعادة صافيناز هانم. ما الأخبار سيادة العقيد؟ لقد اقتربت نهايتهم يافخامة الهانم، اقتربت نهاية هؤلاء الشيوعيين، ديدان لينين واليهود القذرين. أحسنت قولاً يا كولونيل. إيه، فوجلا جالير! أطلق صافرته؛ يد نحيفة بقفاز من الدانتيل خرجت من نافذة الدرجة الأولى. هو، يضرب بكعب حذائه ويُحيّي بشكل عسكري وينحني. يعرفونه، العجوز هي ابنة إحدى جواري عبد الحميد والمأجور سليل أتامنو بوجاتسيف يعرفون أنهم يلعبون فقرتهم في أوبريت شخصي. اضحك حتى يمر الوقت والطريق. لكن أنت لا تفهم، فقط بعد ذلك، متأخرا جدا، عندما يرتدي هتلر غطاء الرأس الأسود في نيرمبرج ويرفع البلطة.

محطة باكوس، محطة؛ على اليمين قرميد نوتردام دي سيون، الكاتدرائية. أشجار الأوكاليبتوس، أشجار البونساي وأشجار البلوط

وأشجار السرو. عمارات. مقاه. القصابون يعلقون ذبائحهم أمام المحال على خطاطيف. بقالون وبائعو الأسماك والفاكهة. بشر كثيرون، عمال، مستأجرون ومصطافون يرتدون قبعات من الخوص مصفرة من بواقي الشتاء السابق يلعبون الطاولة ويشربون القهوة ويتحاورون. خليط من العرب واليونانيين لكن الأغلبية من المالطيين والإيطاليين. يشير لك توني خلف الجرس الكبير هناك حيث مدرسته. بينما يسير الترام ثانية، من على ارتفاعكم ترون ماذا يجري في الشقق. توني واقفا ينحني تحت السياج. حول المنضدة سيدات؛ يشربن الشاي. فتاة ترتدي قميص نوم تقترب بخدها نحو حديد النافذة لتجرب حرارته. أطفال يرقصون وهم يلوّحون بأعلام ورقية بألوان علم إيطاليا. بنت بشعر كستنائي تمشطه وهي تنظر للخارج تتابعك. عيناها تضحكان، شفتاها تنطقان: تشاو. يجلس توني ثانية. على شفتيه حبر من توت مسروق. ما اسمها؟ تسأل. من؟ قال لك وهو يعقد حاجبيه. دعك من هذا، فلست أعمى. آه، تلك في النافذة، ومن أين لي أن أعرفها؟ حينها يحل عليك الخدر. لم يعد كما كان. لقد تغير.

محطة صَفَر؛ لكن الترام لا يتوقف، صارت اختيارية. الآن القضبان ترسم انحناءً كبيرا في أحد الممرات. على اليسار، الحوائط مطلية باللون البنفسجي ونوافذ حديدية بالأعلى: خلفهم ثمة سرايا. على اليمين حائط أخضر قاتم من تين صيفي مزروع بكثافة. ماهذا؟ تسأل وأنت تشير على السياج المنفرة. إنها لمستر باركر، يقول لك سمكها عشرة أمتار، من صَفَر إلى شوتس، لا تمرر ولا حتى قطة؛ أتذكره؟ كيف أذكره، لم يعد كما كان

أبدا، فأنت تعرف مقتطفات فقيرة من قصته. كان إنجليزيا من الجهاز السري، والمهربون اليونانيون علّموه شرب الأوزو والقيثارة ثم بعد ذلك تعلم اليونانية وصار مستأجراً لإحدى الغرف في الساحة، على مبعدة من الكوخ. لكن هذه كانت مساحة كبيرة جداً، كيف اشتراها؟

محطة شوتس، محطة: تنزلون.

المطر يضرب قرميد الكوخ، أنت مستيقظ. متأخرا في الليل وتوني يتنفس في الركن الذي تقع فيه أريكته. تسمع الجد من الجوار ينهض متأوها يذهب نحو النافذة ليغلقها. نافذتكم تبقى مفتوحة. ومنها تسمع صوت سقوط المطر يسقي الأرضية الرملية. تفتح نصف عينيك، الأوزو بالأمس، مقدار عقلتين منحوك نوما غبيا. مستيقظا وتحلم. امرأة تقف خارج النافذة تطرق بقدميها في غير صبر. تحرك بعصبية شعرها الطويل الأسود المبلل الذي يلمع.

تنهض على كوعيك، تسمع قلبك يضرب، رائحة الأرض تتصاعد مثل أنفاس عميقة وهادئة، كأنها تصعد من صدر تلك الواقفة في الخارج تحت المطر. يظهر البرق من بعيد وتختفي المرأة. عيناك تتثاقلان من النعاس، لم تشبع نوما. تغوص في النوم مرة أخرى والمطر يرحل وهو يدوس على القرميد.

في الصباح تستيقظ وحيدا. هدوء، يدخل الضوء من النافذة لامعاً ومبهجاً. تسمع من بعيد صوت البحر على امتداد الشاطئ يتنفس بهدوء

وصبر، وبالقرب منك، خارج الغرفة طيور ترفرف فوق الشجرة. بين صوت البحر وصوت الطيور يمر بين الحين والآخر صوت الترام كقذيفة احتفالية تأتي من بعيد.

مستلقيا تستمتع بشعور الإجازة. شوق الشهور صار حقيقة. موجة من أمل قوي تهدهدك. من الآن فصاعدا، تقول، لاشيء، ولا أي شيء من الآن فصاعدا يستطيع أن يؤلمك. يجعلك تقفز واقفا. تهرول نحو الخارج بالبيجامة. كان توني وحده يدفع الطلمبة؛ مرتديا سروال بحر صوفيًّا أسود بحزام أبيض من الكتان. تقترب صامتاً وتأخذ العتلة الرافعة من يده. يبتسم لك، هل كانت ابتسامة مودة أم تحذيرا؟ تلقي فجأة كل ثقلك على العتلة التي تبتعد دون مقاومة، تقع أنت بوجهك على الأرض. تنهض دون أن تنفض عنك التراب وتمسك ثانية بالعتلة بحرص تجرب كيف تنزل وتجد بنفسك إيقاع الطلمبة. لقد نجحت، تقول، لكنه مازال يبتسم، ثمة خطأ تفعل. امتلأ الدلو حتى منتصفه لكن يديك ترتعشان. أرني مرة واحدة كيف تفعلها، ترجوه. يزيحك، ينحني بجسده ببطء ثم ينزل بالعتلة لأسفل. يسمع صوت الماء يقفز من فم الطلمبة. يعود توني فينحني بالعتلة فتصعد وحدها، ثم يسمع صوت الماء مرة أخرى ! مياه أخرى. بعد قليل، صارت الطلمبة وتوني يتنفسان معا، ومن صنبورها يتدفق شريان غليظ مثل ذراعه. أهم شيء هو الإيقاع. وفي التو تفهم أنك لا يمكنك أبدا أن تصل إلى هذه الدرجة من الكمال. لابد أنه خلق من طينة أخرى؛ أما أنت، فمن أجل أن تستطيع أن تعيش وحدك لابد أن تقوم بثلاثة أضعاف مايفعله توني وبلا أي وسامة.

كنت نائما. قال العجوز ألا نوقظك ثم غادر باكرا، حتى يسرق له الأولاد بعضا من البشملة غير الناضجة. أنت، تريد أن تلقي باللوم على الأوزو لكنك تتذكر الحلم وتصمت حتى لا يستخف بك. حول الطين كانت الأرض جافة، ربما قد جففته الشمس في تلك الأثناء. تسأل: هل تسقط الأمطار في يوليو؟ يجيب هو: في الصيف؟ لا أنكر أن هذا قد حدث أبداً. لكن أسرع، سيبرد الشاي. كيف حال العمة؟ تسأل. دعك منها الآن. ففي الصباح لا ترغب في أن يحدثها أحد.

يتركك وحيدا مع الطلمبة. تملأ الدلوين وتجرب أن ترفعهما معا. مستحيل. ترفع بكلتي يديك الدلو الأول وتنحني حتى لا تبتل، تتحرك ببطء وتذهب. لو رآك أحد...

- توني، يُسمَع صوت فتاة.

تتوقف. لا ترى أحدا. سينادونه من منزل عائلة تسرفولو.

- توني، نادوا ثانية.

- سمع صوت نباح من منزل السويسري.

- نعم؟ تجيب أنت.

- ستذهب إلى الشاطئ اليوم؟

- نعم سنذهب، قلت.

ـ لكن أنت لست توني، قالت البنت.

ـ وأنت من تكونين؟

ـ أنا ثاليا...

يظهر توني من نافذة غرفة الطعام ويشير لك: أغلق فمك، اخرس ! تأخذ الدلو الثاني للداخل. من هذه؟ تسأله. من تكون؟ من هذه، لقد صرت لحوحا ! هذه ابنة صاحبة البقالة ما دامت تريد أن تعرف. يسكنون بجوار منزل تسرفولو. عندما يختص الأمر بالذهاب للشاطئ لا أكون قذرا. لكن لا يأتي أحدهم إلى هنا. ولا حتى يمرون من هذا الشارع، يفضلون أن يعبروا حوله. لكن لماذا؟ تسأل.

يشير لك توني برأسه إلى غرفة الخالة: يخافون، ألا تفهم أننا نعيش في كارنتينة؟ الآن فقط فهمت لماذا يحتاج إلى بطاقة اشتراك الترام. حتى يذهب إلى أحياء أخرى حيث لا يعرفون.

لقد برد الشاي الذي له رائحة المريمية. بجوار الكوب شريحتان رفيعتان من الخبز، قال توني عن الجد إنه هكذا يرحب بك لأنه يعطيني أنا شريحة واحدة . إنه عجوز، لكن لن يعجبك أن تسمعه يقولها.

بالأمس عند الغروب راحت الخفافيش تحوم فوق قطعة الأرض، من بعيد كان صوت ترومبيت مكتوم يصيح. كان بائع الجيلاتي المتجول يدور بين البساتين والقصور ينادي على الغرانيتا. عندها سمعت سعال الجد

وصوت دق عصاه الذي كان يبعد بها الحصى من طريقه بينما كان يقترب. هرولت نحوه وقبلت يده. صامتاً وبيد عصاه لمس قمة رأسه. كان يرتدي قبعة بنية رديئة بلا شريط ، ملابسه قديمة معلقة على جسده النحيف. حذاؤه السميك به أربطة وكان طين البساتين الأصفر التصق بنعله فصار كأنه نعل إضافي. كان أسمر اللون من الشمس وبه حدب بسيط مثل كل طوال القامة عندما يحل عليهم العجز. لا يرتدي رابطة عنق، ربما ولا قميصا حتى. كان شاربه أبيض وأشعث، محروقا في المنتصف من السجائر. من سنوات طويلة كانوا يقولون إن عمره سبعون عاما، لكنه يشبه الأشجار الجافة التي يصعب أن تحدد عمرها.

جلس على الطاولة وعندما أعطاه القبعة ليعلقها على المسمار رأيت أن رأسيكما متشابهان: بيضاوي الشكل وحليق. الأم أرسلت معك ثلاث علب دخان وأوراق سجائر. هه، هه، وهي من النوع الغالي، بارك الرب فيها، قال مبتهجا. وضعت كل نقودك على الطاولة، وضعت جنيها في يده المتسخة بالطين، هذا من أجل طعامي، قلت. وهذه خبئها لي معك، هي رسوم عودتي، أما هذه فأعطها لي في يوم ميلادي، سنذهب أنا وتوني إلى السينما، و... بقيت بعض القروش. ضحك الجد واستدار فمه الأهتم، حفرة سوداء لها رائحة أعقاب سجائر: وتلك هي من أجل أن تأكل شيئا كل مساء في سان ستيفانو، هه، هه ! لا تتعجب، فالبحر سيفتح شهيتك؛ هل تأكل الفاصوليا؟ كنت تعرف هذا من المرة السابقة، في الظهيرة والمساء الفاصوليا لا تتغير، فقط يتغير ما يصاحبها، أحيانا الجرجير، وأحيانا الفلفل الأخضر وأحيانا

أخرى الطماطم، في الصباح الشاي فقط، لكن في أيام الأحاد كان الطعام خضارا مطبوخا أو كوسة بالبطاطس، ومرة كل شهر كان اللحم. وكل ما يرسل الرب من صيد بريّ أو سمك.

ـ إيه، لأقوم الآن، قال، اليوم سنأكل في الخارج. أنتوني، أين أنت؟ اذهب لتحضر لي الأوزو.

كان توني يصلح شيئا في مكان ما. ظهر بزجاجة صغيرة من الصيدلية. كان على وجهه الدهشة والإعجاب.

ـ لتأتِ إلينا باستمرار يا باراسخو، سمع صوت العمة من الحجرة المجاورة.

ـ لا تتأملي يا أرغيرو، فهي تدفع ثمن مجيئه هنا غالياً قال الجد.

نظر توني إلى النقود فوق المشمع.

ـ غبي، قال لك، غبي.

قالها بلا صوت مثل فتاة باكوس.

كان الدرب يقطع قطعة الأرض بشكل مائل، يمر بين الكوخين. الكوخ الشمالية كانت للجد أما الأخرى فكانت أقوى وأكبر وكانت لأخي الأم بالمعمودية أنطوان. كل قطعة الأرض كانت محاطة بالأسلاك الشائكة المثبتة

على دعائم. لكن الأسلاك لم تكن تحمي شيئا. لم تكن قوية بالقدر الكافي. بدو المنطقة الذين مع الأسف كانوا يعيثون بها هم ونساؤهم وعنزاتهم. كانوا يأتون بالليل يحطمون الدعائم ثم يغادرون. أصاب الجد الضجر من إصلاحها في كل مرة يكسرونها حتى جاء الوقت وتوقف عن إصلاحها تماما. هكذا تشكل الدرب. في المساء عندما تنصبون طاولة الطعام بالخارج، كان من الغريب أن تشاهد عائلات البدو وأطفالهم نصف العرايا تحملهم نساؤهم ويُلبسن عنزاتهم سراويل صغيرة متسخة ليغطوا أضرعتها. الرجال كانوا يلتحفون الكوفيات الصوفية ويمررون العصي خلف ظهورهم، يأمرون نساءهم اللاتي كن يسألن بصوت مكتوم وباقتضاب وهن مختبئات خلف أخمرة الوجه الصوفية ومتزينات بخرز أزرق وعملات مزيفة. كانوا يمرون. ومن لم يكن منهم يعرف الجد كان لا يلقى أي تحية. والأكثر غرابة كان في عز الظهيرة عندما يمر كلب متشرد مهرولاً محني الرأس يذهب ليقضي حاجته دون أن ينظر يمينا ولا يسارا كما لو كان يسير في حقله.

أول من سكن في قطعة الأرض هذه هو أنطوان. كان من خيو، وفي الزلزال الكبير في عام 81 فقد ابنته الصغيرة أمام عينيه. رأى الأرض تنشق وتبلعها. والمرحومة العمة أنجيليو أصابها الجنون سقطت تحت أقدامه وترجته: خذنا من هنا يا أنطوان، أستحلفك بروح طفلتنا أن تذهب بنا حيث تشاء، فهذه الأرض هنا ملعونة من الرب. ركبوا السفينة مع لاجئين آخرين إلى حيث تذهب بهم. الأم الروحية والجد كانوا أيضاً على السفينة: في أورشليم نادوا عليهم، هنا ستذهبون، سنأتي نحن أيضا، هناك ستجدون

فاسيليكي. لكن سفينتهم رست بهم في الإسكندرية. في الميناء كان ثمة كونت على عربة يتفحص اللاجئين بعدسة مكبرة. كان أنطوان فحلا طويلا ووسيما. نادى عليه، تعال إلى هنا، أتريد أن تعمل؟ فسأله أنطوان بربك من أين أنت: أنا من خيو أيضاً، لكني من القدامى جاء جدي إلى هنا بعد المذبحة. مرحى يا ريس، سآتي. وجاء بهم الكونت إلى صحراء الرسول إلياس، أشار لهم إلى الأرض الفضاء قائلاً: رتبوا أموركم هنا. ثم أخذ أنطوان على العربة وراحا يتجولان. أترى كل هذا، هي لي، كل هذه الأرض لا تأتي ولا بقطعة خبز. ستكون لها قيمة بالطبع لكن متى، أين ستكون عظامنا عندئذ. أنا، كما ترى، أريدك الآن أن تكون حارسا. أترى ذلك التل هناك، والآخر الذي بجواره الممتلئ بالأعشاب البرية؟ هذا المثلث هو أفضل موقع.

هل تجيد الصيد؟ نعم أجابه أنطوان، أصيد اليمام وطائر الحجل والدجاج البري... حسنا، هنا أريدك، كي تحرس لي هذا المكان، لأن هناك بعض النصابين الإنجليز يأتون إلى هنا ويطلقون رصاصهم دون أن يطلبوا مني تصريحًا. انظر جيدا وانتبه حتى لا يصيبك أذى، ستكون داخل بيتك. سأرسل لك المواد اللازمة كي تبني بيتا...

لا، لا أريد بيتا، أريد كوخا، قاطعه أنطوان. كوخ؟ ألهذا الحد أخافك الزلزال؟ ليكن كوخا، ماذا عسانا أن نفعل. سأعطيك بندقية وعشرة خراطيش في الشهر وعشرين فرانكا. في الشهر؟ سأل أنطوان. في السنة يا خيوتي في السنة؛ تجيد الصيد كما تقول، لابد أنك كنت صياد أسماك أو مزارعا في حقول يوسفي في خيو، ماذا تريد، الشيطان؟ هنا لا توجد أبقار كي

تحلبها، أنا هنا البقرة. يا ريس، قال له أنطوان، اجعلهما قطعتين من الذهب وسأحضر لك الإنجليز معلقين من أقدامهم مثل الدجاج. اتفقنا، قال الكونت والتزم بوعده حتى النهاية.

في البداية دق أنطوان الخيمة ثم راح يصنع الكوخ. رأى سنوات سوداء، لكنه عرف أياما سعيدة. أنجب أبناء كثيرين، بعضهم مات، آخر قُتل في حرب البلقان، آخر تغرَّب في اليونان وأمريكا. بناته كن جميلات فتزوجن زيجات هنيئة، كن يشبهنه، أكبرهن أنشأت فندقاً في بور سعيد فأتت به إلى جوارها عسى أن تغيِّر له رأيه وتبقيه معها، فقد كان يريد في شيخوخته الآن أن يعود إلى خيو، كي ترقد عظامه بجوار فرجنيو. لم يواسِه شيء قط على فقدانه لتلك البنت الصغيرة. كوخهم بقى مغلقاً حتى الآن والمفاتيح يحملها الجد ولا يعطيها لأحد.

لكن الكوخ كان يحرسه بالأساس شجرة المستكة. اعتنى بها لمدة أربعين عاما، كان جذعها أشبه بالقلعة وبها تجويف يتسع لشخص، أغصانها كبيرة وممتدة، قوية وملتوية فوق الكوخ من الدرب وتصل حتى قرميد الكوخ الآخر. أوراقها كانت كثيفة ومعتمة وغامضة بعض الشيء، كان يستحيل أن تعرف عندما ترفع عينيك إذا ماكان المتسلق عليها هو قط أم شخص صعد للحراسة. عندما يأتي الربيع كانت تمتلئ بأزهار صفراء مثل قبعات صغيرة مليئة بالعسل، كانت هذه الأزهار تسقط وتسقط مثل المطر فتفترش مثل سجادة حول الشجرة العجوز، وحول المقعد الذي كان أسفلها. عندما كان يأتي النحل والدبابير، كانت هذه الكتلة الضخمة تمتلئ بالطنين. كل الأزهار

التي كانت تنجو منهم كانت تتكوم بالتالي في كومات وعناقيد كثيرة. وعندما ينتهي الصيف كان لونها يتحول إلى اللون الأحمر وتجف وكأنها مصنوعة من السلاحف البحرية، وهكذا كانت تبقى حتى أعياد الميلاد. الأجانب الذين لم يكن لديهم المال ليحضروا من بلادهم مستلزمات الأعياد كانوا يأتون ويقطفون منها ويصنعون عناقيد وبوكيهات ويعلقونها على أبوابهم، وكل من يمر من عندها كان عليه أن يتوقف: كانت لكل من يشاء. في الخريف كانت تأتي الطيور وترفرف وتأكل الذباب والنمل الذي كان يملأ الشجرة، وبعدها كانت تأتي الطيور الصفراء وطيور الصرد وتأكل اليرقات. وكان الأولاد يصوبون نبالهم نحو الطيور ويسقطونها. ومن شقوق الشجرة العجوز كانت تتدلى خيوط المستكة التي كان لها طعم حريف ورائحة طيبة في الفم.

الأم بالمعمودية والجد وجدا قطارا ألمانيا وآل بهما الأمر إلى حيفا، ومن هناك كتبا إلى فاسيليكي في أورشليم حيث كان زوجها يعمل في الضريح المقدس. جاء وقال لهما: آه، يا ويلاه، حل علينا فقر شديد، إن الأرمنيين يحاربوننا والأجانب يموتون من الجوع والفقر، كنا أفضل حالاً في الإسكندرية، إن لم تستطيعا الذهاب إلى هناك فمن الأفضل أن تسكنا في يافا فهي ميناء ودائما فيها رزق. كان الجد لديه معارف منذ الصبا حين كان يعمل في موانئ الشرق، وإن كان ينحدر من أرغوس وكان يتفاخر دائما بأنه يحمل جواز سفر يونانيا. ساعدوه وفتح مطعما صغيرا، وكان يبيع فيه أيضا الحبال والقطران والراكي والبقسماط ومؤنًا للسفن. وعندما أفلس... كان أمرا آخر. كل مرة يكونون في حالة تذمر كانوا تلقائيا يتذكرون

كيف أفلسوا وتدمروا. على أي حال. أخذه حينها أحد العرب المسيحيين المحليين الذي كان لديه مزرعة برتقال كبيرة ليعتني بها. في عام 97 نشبت الحرب وانتشرت إشاعة بأن الأتراك يجمعون السكان اليونانيين ويزجون بهم في المعسكرات، ولن يتركوا النساء بحالهن. أبحرت ليلاً مركب شراعية نحو الإسكندرية، قَبِل القبطان أن يأخذ الجد والعم أبوستوليس. اختبأوا في أحد العنابر ينتظرون، وفجأة ظهرت الأم بالمعمودية تنزل مع البنات، العمة أرغيرو والأم مع العم ستماتيس في بطنها. قالت له، يا سيذيري، لقد أخفقت حساباتك ! كيف تتركني حبلى مع البنتين وحيدة في تركيا؟ أينما تذهب سنكون معك ! كانت تلك هي أول مرة تعارضه فيها بعد سبع عشرة سنة من الزواج. أعطوا للربان ما بقي من المطعم الصغير وبعض الأساور والقلادات من البكير والحجارة المزيفة فأخذهم كما كانوا وترك لهم ملابسهم فقط. في الإسكندرية سألوا حتى وجدوا أنطوان الذي فتح لهم أحضانه الواسعة وشدهم إلى الداخل تماماً كما فعل قبل سنوات مع أخت فاسيليكي عندما ترملت وابنتها أماليًا. تلك التي فتنت الأثيني قبيل حرب البلقان فتزوجها وأخذها إلى بيته في كفيسيا، وبعد حصار الرابع عشر أخذوا فاسيليكي إلى هناك، التي لم تعش سوى سنوات قليلة ثم توفيت، قالوا إنها ماتت مستريحة لأن ابنتها أماليا هي من أغلقت لها عينيها. أنطوان صنع من أجل الجد الكوخ الشمالي، وجد له عملاً مؤقتاً حتي يجد عملاً أفضل، لكنه بقي فيه ! بستانيا عند أحد المحامين الذي لديه فدانان من الأرض على خط الترام بين شوتس وجناكليس.

ـ لماذا يا ولدي أحضرت بارسخوس من سوق شوتس؟ كان يجب أن تنزلا في جناكليس، حتى يرى الطريق. ألم تشبع من هذا البؤس كل يوم؟

مازلت واقفا بالحقيبة في يدك، وصلت لتوك من محطة سيدي جابر. كان زجاج نافذة العمة مفتوحاً والهواء يطير الستائر الكتانية ذات التصاميم المشغولة « اختطاف أوروبا». كان للعمة صوت رخيم لا يلائم نبرة الشكوى التي يحملها. فجأة ينتابها السعال، تسمعها تصارع من أجل نَفَس وهي تضرب صدرها بكفها. يخفض توني عينيه ويذهب ليركل نواة تمر بصندله. كان فكاه ينقبضان ويرتخيان تباعا. تبصق العمة وتقول كما لو كان أمامها: ستقتلني أيها الشيطان عليك اللعنة !

ـ توني، خذ باراسخوس إلى الداخل واشرح له جيدا عن الماء والأطباق وكل شيء. كن حذرا يا باراسخوس، أتسمعني جيدا؟

خلف غرفة الجد كانت غرفة توني الشرقية التي تطل نافذتها على بيت تسيرفولو. في الركن كانت الأريكة مفروشة وفي مقابلها أريكتي غير مفروشة. لصقوا على العوارض صحفا قديمة بصمغ الدقيق كي يسدوا الثقوب والفتحات. وفوقها طلاء الجير في كل مكان.

ـ قال لك لقد طليناه بالأبيض في عيد الفصح. هكذا طلب مني العجوز وطليت كل الكوخ ثم قام هو بطلاء غرفة أمي. عجيب أنه لم يسقط من على السلم حتى نجري به للمشافي. ضيَّع عليَّ رحلة شم النسيم هذا المتذمر. لكن تعال لأريك شيئا !

يشدك للجهة المعاكسة للمكان الذي يسمونه غرفة الطعام. العوارض التي تفصل عن غرفة العمة لا تصل حتى السقف وكل الكلام يُسمع في الجهة المقابلة. فوق الباب معلقة بشكل أفقي بندقية صيد ، تذكرها من المرة السابقة. الآن، مطلية كلها باللون الأبيض.

- لقد منعني أن أمسك بها، يقول لك بهمس ثم يشدك للداخل مرة أخرى.

- ولم تقل شيئا؟ تسأل.

- يتظاهر بأنه لا يراها. إنه بغل عنيد أقول لك.

لا يعجبني أسلوبه في الكلام. لا تحبه ولكنه يعجبك. لقد أخذ تلك العادة من العائلة. الجميع في السر والعلن وأحيانا في حضوره، يسخرون من الجد، من كل ما يقوله وكل ما يفعله.

IV

«**اسمع يا مانوس** » تبدأ الرسالة التي أعطاني إياها فوتيروس بـ « طارئ وخاص». لم يكن مدوناً على الرسالة لا المكان ولا التاريخ. تعرفت رغم ذلك على الخط. في النهاية، كان التوقيع بالحروف الأولية، الحرف نفسه الذي ربما يعني «لبلاب» أو «كرمة»، جذرا غليظا يتلولب صاعدا، على شكل عقدتين أو ثلاث ثم ينتهي مثل عنقود. «هنا، يارفيق، في أرض البرابرة حيث وجدنا هنا بأمر من الشعب اليوناني، لكي نتولى حقوقه وشرفه، نحن، أي الأكثر وعياً وإقداما في الكتيبة التي فككتها خيانة المستمرين في موناكو، أقسمنا على أعز وأثمن ما نملك على ثورتنا وشرفنا، أن نعزف عن كل أنانية وطموح شخصي لكي نستطيع أن نقوم برجولة وعلى أحسن وجه بواجباتنا التي يضعها أمامنا الواقع الموضوعي».

راح يتكلم ويتكلم مثل رأس مقطوع. لكن لماذا هذه المقدمة؟ لقد كتبت إلى غاريلاس، وكان الأمر سريا. بأي حق يرد عليّ هذا بدلاً منه؟ بعد ذلك كان يقول إن «بالنسبة لنا هنا ليست هناك قضايا شخصية. كل قسم يديره شخص مسؤول بموافقة شفهية من كل اللواء». وهل هذا يعني أن كل المراسلات، سواء كانت من أجل التنظيم أو شخصية كان يتعامل معها الضئيل التافه؟ هل ذهبت رسالتي إلى يد غاريلاس؟ وهل غاريلاس هو من أعطاه إياها كي يجيب عليّ هو؟ لم يكن هذا الأمر واضحا.

« أجيبك بتردد على سؤالك الأول: نعم. بقرار مني أنا، إن موت الرفيق الرائع البطولي يقوي من عزيمتنا وإيماننا ضد الفاشية، بيما دمه الأحمر يشد من وثاق الاتحاد الوطني لقواتنا المسلحة في الشرق الأوسط، صعد إلى قدره، كما تقول، كاميون. لا هو ولا أحد آخر كان يعرف أن على بعد كيلومترات قليلة خارج المعسكر نصب الأوغاد له هناك كمين اغتيال كان في انتظاره. لقد وجدت رسالتي بالفعل في جيبه، ربما قد قرأها بعض رفاقٍ النضال، لكن لم يعد لها أثر، لقد دمرتها بيدي، وأعتقد أنني أحسنت فعلاً. خير الكلام ما قل ودل. أقول لك يا رفيق على أى حال أن المهمة التي ذهب من أجلها ليست من تلك المهام التي تحتمل الحوارات والثرثرة. أما عن هراء الحارس الجاسوس المعروف، أولاً: أتساءل من سذاجتك أن تسقط على أم رأسك في الاستفزاز وتلعب دون وعي لعبة العدو، وثانيا؛ قل لهذا الخائن إنني أعتبره أنا شخصيا مسئولاً عن الجريمة وأن يستعد لعقاب عادل ليس من أحد آخر لكن بأيدي أم بجمليون المسكينة نفسها».

من يقول الحقيقة؟ « الخائن » والـ «الجاسوس» كان حارسا محترفا، متزوجا من ابنة عم القتيل. قابلته على حدود فلسطين وسوريا، في سجن حيفا. كان في إجازة وكان يجري في أحد معسكرات الفرز كي يخرج امرأة قد مررها بمركب مع لاجئين آخرين في تركيا. كنت أعرف اسمه، كان من ثلاثة أو أربعة من رجالنا في الشرطة العسكرية الذين جاء ذكرهم في شهر أبريل عندما كنا نجهز الخطة لإنجاح المسيرة. تعرفت عليها. دون أن يسأل كثيرا جرى وأجرى مكالمات تليفونية ومَسَح جوخ وقدم السجائر كي ينقذني من

أيادي الإنجليز. بعدها رافقني حتى موقف الحافلات إلى أورشليم. تحدث عن رفيق اسكتلندي في السكة الحديد؛ كنت أعرفه لكني لم أظهر له ذلك. هو، قال يستطيع أن يبدل لي أوراقي حتى أصل إلى القاهرة دون مضايقات. وفجأة، راح يرثي بجميليون. شاب كهذا، إنسان طيب مثله، ضاع منا بسبب عنادنا. وألقى باللوم على الضئيل التافه وعلى ارتيابه. «لقد حذرته يا رفيق! مثلما نتحدث الآن. هل هذا وقت للسخرية؟ أحد زملائه في الشرطة العسكرية اليونانية أسرَّ إليه بزيارة الأوغاد، وحينها تم اتخاذ قرار الجريمة. قام ومشى اثنى عشر كيلومترا في الليل حتى يصل إلى خيمة الضئيل التافه، والذي منعه من أن يكون له أي اتصالات بمنظمة أخرى. حكى له كل شيء: «حسنا. لن يتحرك بجميليون غدا من المعسكر. غادر أنت من مكانك، سأذهب أنا لأخبره». ذهب؟ هل أخبره أم أهمله؟ كيف وجد المرحوم في الجهة الأخرى فوق الكاميون، واقفا، كما لو كان يقول للرصاص تعال، أنا هنا؟ كان لا يزال يحمل رسالة التكليف كي يبدأ رئيسا للجنة، لكن برروا ذلك بأن الرسالة قد أرسلت قبل يوم، بدا هذا من التاريخ المدون عليها « لم يصدقوني يا رفيق. ظنوا أنني أبيع لهم أعذارا لأسترحمهم. وضاع الرجل. كيف سأواجه أمه، إذا كانت على قيد الحياة. ماذا سأقول لها، لقد مات ابنك بسهم الخيانة، ممن كان يأكل ويشرب معهم». هل كان صادقا أم لا؟ حارس قديم. لكن ذيل الكلب ... لكن أكثر ما أقنعني بأنه لا يكذب هو أنه لو كان يكذب لكان بإمكانه أن يُحيِّر طبيبا نفسيا خبيرا: كلماته إلى أم القتيل. الغريب أن الضئيل التافه كان يهدده الآن بأم القتيل ذاتها. ولكن عندما كتبت إلى غاريلاس كنت أحدثه بشكل عام عن الحارس ولم أقل شيئا إطلاقاً. من أين عرف الضئيل التافه

كل هذه التفاصيل؟ هل تقابل بعد تفكيك الكتيبة مع الحارس؟ هل علم من آخرين عن موت بجميليون؟

« في السؤال الثاني »، استمرت الرسالة. « أجيبك: إنه من الخزي أن تجرفنا العواطف البرجوازية الخائبة ونصنع جبلاً من قضية عابرة. لا أعرف إذا كان الرسول الإنجليزي قد جرح من رصاصة، ولا أريد أن أعرف. ما أعرفه هو أنه الوحيد الذي وجد عقوبة شره لأنه تجاهل أمر الحراس عندما صاحوا نحوه، قف! وهرول ليعطي إرشاداته الشيطانية التي أملاها عليه رؤساؤه إلى الفاشيين الذين كانوا لدينا في خيمة القائد. لا تنسى يا رفيق، إن الدعاية الإنجليزية دائما تستخدم مثل هذه الألاعيب كي تُشهرّ بنضال الشعوب التي استعبدوها. لكن لو كان حقيقة ما أشيع، ستكون ثمة رصاصة قد بقيت من معركة العلمين، لأن كراهية جنودنا كانت شديدة، إذ سيكون نبلاً في غير محله أن يجرؤ أحد على تعذيرهم لأنهم كانوا يُعَلِّمُونَ على رصاصاتهم بالمطواه قبل أن يزرعوها في أجساد معذبي نسائهم وأخواتهم وأطفالهم».

وما علاقة معركة العلمين الآن وهنا؟ فلم تكن الكتيبة الثانية بل الأولى التي أخذت دورا في العمليات. ولم نسمع مطلقا أن في تلك المعركة أو في أي مكان آخر كانوا يستخدمون وسائل بشرية كهذه. ثم إن الأشياء لم تكن مثلما كان يحكيها لي. أنا عرفت كل شيء من مصدره، هو شخص نظيف منا، يعني؛ يوناني، وليس منتميا ولا يتبع أي تنظيم، وصف لنا الأمر باستياء في أورشليم. كان إنجليزيان على موتوسيكلات، أحدهما قتل في مكانه على

الفور إثر طلقتين. الآخر، أصيب بجرح برصاصة فتتت عظام فخذه. من الأمام ثقب ومن الخلف لحم مفروم : « لم يفقد الإنجليزي وعيه. لم أر في حياتي شخصا يتعرق كثيرا هكذا، كان العرق يجري عليه كالنهر. حملناه على الفور إلى غرفة العمليات، كان لابد أن نفتحه بدقة على الفور. أما هو فكان يغني. لقد أصاب المسكين الجنون، قال الرفاق. لكن لم يكن الأمر هكذا، الرجل كان خائفا، كان كل جسده يرتعش. وأتدرون ماذا كان يغني؟ أناشيد روسية! اعتقد أننا سنعدمه، لم يكن يعلم كيف يجعلنا نرأف بحاله وفكر في أنه إذا غنى لنا أي أغنية روسية سنعتقد أنه واحد منا. من يدري أي حماقات يدسها الضباط في رءوسهم كي يدفعوهم إلى التعصب، إننا مثلاً بلشفيون، مغول، وحوش ومن يدري ..؟

شعرت بعيون فوتيروس فوقي. لابد أنه ينظر إليّ منذ فترة.

- ماذا تقرأ كي تمتعض هكذا؟

- يا نيكو، إلى مَن سلم رجلك رسالتي إلى غاريلاس؟

- سيميونيذيس، توقف عن هذا! دعك من سلوك المثقفين هذا.

بدا كأنه تضايق. هذا لأنني فهمت دوره أم لأنني كنت أظلمه بآرائي؟

- هل كتبوا عنك شيئاً؟

- سأنتبه إلى الأمر. أنت متهم بالفئوية والتحزب.

قالها بلامبالاة. وضحك على الفور وهو يمسد صلعته.

من أجل الذكرى الثالثة لمقاومة الهجوم الفاشي كانوا يعدون حفل شكر في الكرازة وحفل استقبال في القنصلية وموكبا استعراضيا في الإستاد المحلي وعشاء من أغنياء الجالية في كازينو الشاطبي على الشاطئ. سيحضر كل من الحكومة والبطريرك الذي وعد بالحضور وبهذا الشكل في ذروة الاحتفالات ستتحقق الوحدة الوطنية حتى يتوقف البعض عن خنق ذلك الشعار. أرسلوا إلينا من القاهرة صناديق بنسخ الإعلان كي نوزعها لتشتيت الانتباه. كانت على شكل دعوة مفتوحة « إلى السادة الوزراء». ودون أي مراوغات كانوا يوضعون أمام مسؤولياتهم. على التوازي كان يختبر تعامل باندوليو الودي من قبل الإنجليز والأمريكان لسلوكهم المعادي للحلفاء تجاهنا، كيف منعونا أن نرسل وحدات عسكرية إلى الجزر المحررة، والآن الألمان يعيدون احتلالها عن طريق السفن بالتعاون مع فاشيي الحرس الإيطاليين الذين لم يسلموا أسلحتهم. يبدو أن الأجانب يتعاملون دائما معنا نحن كأجانب، لكن مسئولية هذا تقع على عاتق ذوينا من السياسيين الذين يلبون مطالبهم كي يؤمنوا مصالحهم ويضمنوا دعمهم. هذا سيؤدي إلى تدخل صريح ومكشوف في شئوننا الداخلية وإلى حرب أهلية. كان يدعوهم إذن أن يسلكوا سياسة وطنية ويشكلوا حكومة توافقية من ممثلين للأحزاب ومنظمات المقاومة.

تحت النص بالكامل كان يتدفق شعور بالقلق لم تبدده اللغة الحادة ولا حتى الحس الساخر المرير. إذن فانيس أيضا كان يسيطر عليه التشاؤم. هدأني هذا. لا أحتاج إذن أن أفتح قلبي لفوتيروس الذي كان صعبا جدا في

الحوار، كان يصف كل شيء على الفور يتسم بالتردد بقلة الإرادة ويسهب في انتقاء مفردات قاموسه التافه. بما أن فانيس ينتبه للأمر، لماذا عليّ أن أدفع الأمور؟ سنتكلم في الأمر في أول فرصة نلتقي فيها.

في عيد القديس نيميتريس أقمنا اجتماعا من أجل توزيع الدعوات، أحضرت الأرملة بانديليس. كان فتى كبير الحجم من البحرية، عيونه سوداء مبتسمة ووجهه ناصعا كالمرآة، من أبناء الجزر وقليل الكلام سريع في اتخاذ القرار، يبدو البنطال القصير ضيقا عليه لأنه كان يجذبه بين الحين والآخر لكن ركبتيه البيضاوين الغليظتين ظلتا عاريتين، مثل صخرتين قاسيتين.

هل نرسل الدعوات بالبريد؟ مظاريف، وليس لدينا عناوين، سنحتاج إلى طوابع بريد، مصاريف وأمور مزعجة. اقترح فوتيروس أن نلقيها من على جرس الكنيسة في وقت الصلوات والاحتفال. شرح له الأرملة، أولاً: سنحتاج إلى آلاف الدعوات حتى يظهر الأمر وليس لدينا وقت لكي نجهزها، ثانيا: لابد أن نضحي بهذا الشخص الذي سيفعل هذا لأن الجواسيس سيحتجزونه وهو في طريقه للنزول.

ثم سأل بانديليس، بما أنك تفهم في الطقس؛ لم لا تقول لنا متى سيبرد الجو؟

- لماذا؟ سألنا.

نظر إلينا الأرملة ولم يجبنا.

- قال بانديليس، ربما خلال يومين. هو حار جدا ولا أظن أنه سيستمر هكذا. سأنظر إلى السحب في الصباح وأقول لك.

عندها شرح لنا الأرملة بأن لديه شخصا في خزانة الكازينو. فهمنا: شخص، يعني فتاة. لكن الأمر يعتمد على الجو فلو كان الجو باردا في تلك الليلة لن يأتي المدعوون بالمعاطف، وحينها علينا أن نكتفي بالقبعات، وهذا فيه مخاطرة.

اتفقنا على أن نبدأ في كل الأحوال، سنأخذ خمسة آلاف من أجل المواطنين الذين يتعاونون معنا. وهم سيوزعونها كما يشاءون، في صناديق البريد، من تحت الأبواب، بالبريد... إلخ، لكن الاختبار الأول سيكون في الكازينو في الليل. عند الحاجة سنلقي بها عبر النوافذ. أي نوافذ؟ الكازينو مبنيّ على عوارض حديدية داخل البحر. أي قارب سيقبل أن يذهب بنا إلى هناك ليلاً؟ خليج السلسلة متاخم للقوات الجوية؛ يسيطر عليه الحلفاء وهل بعيد عليهم أن يقذفونا بقنبلة ما؟ مستحيل، عند الغروب سأذهب لأراقب الوضع، وفي الليلة ذاتها سنتشاور ثانية.

- هل تريدني معك يا رفيق؟ سأل بانديليس عندما قمت لأذهب.

لم أكن أرغب أن يسير معي، فقد كان يرتدي زيا رسميا. زودني الأرملة بقبعة عليها ريشة صفراء تخرج من الشريط المثبت عليها. كنت أميلها على جبهتي قليلاً حتى أخفي الجرح، وأرتدي نظارة شمسية وأضع الغليون الذي أهداني إياه باراسخوس في فمي، وكان مظهري وخطوتي وكل

شيء يصنع مني أوروبيا، بشكل فج ربما لكن بالتأكيد يوحي بأنني ولدت وترعرعت في الإسكندرية الميتروبوليتانية. لو كان باندليس بجواري بزيه الرسمي وشارة البحرية الذهبية بالحروف الأولية على شريط كتفيه لانتبه لنا كل اليونانيين. لكن فوتيروس والأرملة لم يبديا أي اعتراض. ثم أن الفتى المسكين طلب مني ذلك بأدب شديد. كان ثقيلاً على قلبي أن أرفض طلبه.

خرجنا على الكورنيش، سرنا بمحاذاة السياج الحديدية وصعدنا. قليل من المشاة والسيارات. كان الهواء لطيفا وكثيفا بلا أي رائحة. بعيدا خلف القلعة، كانت الشمس البرتقالية تغرب، وقد طَلت السماء التي بلا سحب باللون الأحمر. شرقا، فوق البيوت على اليسار كان اللون يتحول إلى الأصفر الوردي. خط العمارات المتراصة، المنارات الطويلة والأربع قباب في حي باراسخواس كانت تبدو مثل أبانوس أسود. تحوَّل لون السماء إلى لون السلمون الوردي؛ لقد رأيت في فتارين محلات الورد بعض الورود بهذا اللون، وكانت دائما تشعرني بشيء من الإثارة اللطيفة. نظرت إلى البحر. كان لامعا مثل حرير أزرق باهت وبعيدا فقط هناك حيث يتبخر الأفق الذي يبدو لونه ورديا، ثم درجات ألوان زمردية.

- أنت لا تنزع الزيّ الرسمي أبدا؟ سألت بانديليس.

- في الخارج، أبدا.

- الأمر فيه مخاطرة بعض الشيء بالأخص فيما نعمله.

- نعم، لكن ماذا أفعل؟ أنا أرتديه من أجل المتسكعين.

نظرت إليه كان جادا. رحت أتكلم لكني تماسكت. خلفنا بقليل، كنت قد رأيته يتلفت مناورا كي يتأخر ويدفعني إلى مكانه بعيدا عن سياج الكورنيش حيث كان يستند جالسا على الأرض شخص كفيف يرتدي جلابية متسخة. التفت برأسه كي أجده ثانية. لكن ضوء شمس الغروب كان قد عبأ عيني بالألوان، كانت نظارة الشمس أيضا، ربما في الليل سيتبعنا، في طريقهم للإسكندرية. فهم بانديليس عمّا أبحث.

ـ مع هؤلاء الأمر سيان. فأنا لا أفهم لغتهم. لكن الأزمة مع ذوينا.

ماذا يقول لي؟ في الإسكندرية قابلت يونانيا واحدا من المتسكعين. اهتم على الفور ليعرف من هو. كان يبدو على دراية بالأمور.

ـ أنا أعرفهم، قال، لأني في فترة ما كنت أفعل الشيء نفسه.

ـ هنا في الإسكندرية؟

ـ بالطبع لا! في أثينا في الرابع من أغسطس. عندما أرى أحدهم يصيبني الرعب، أظن أنه سيتعرف عليَّ. أما بزيِّ البحرية فأنا أربكهم، فهمت الآن؟ لا أريد أن أتذكر هذا الخزي. كنت ضائعاً يارفيق!

يبدو أن توقعات باندليس كانت صحيحة. هؤلاء هنا لن يرتدوا المعاطف قبل أعياد الميلاد، أو قبلها. بدأ يوم الثامن عشر من أكتوبر ١٩٤٢ دافئا عطرا، ربما كان أشبه بأول شهر مايو. في فناء الكنيسة وفي المساء في الاستاد كنت ترى القبعات النسائية الكبيرة الصيفية والكثير من الأزياء*

الربيعية. سيقان فتيات الطبقة الراقية كانت تلمع عارية وناعمة وبألوان تتدرج من لون ثمار الكاكاو حتى لون المانجو الذهبي الداكن كدليل على أن حمامات الشواطئ مازالت مستمرة. ريح الشمال من حدائق النزهة ومستنقعات الملاحة تبعث من آن لآخر بنفحات هواء معبقة برائحة وحل وورد ذابل. نحو المساء ومع الرطوبة كانت رائحة سلاطة البصل هي المسيطرة؛ كانت آتية من ناحية ترعة المحمودية، من المصنع الجديد لتجفيف البصل.

الأرملة، اختفى بانديليس من اللحظة التي أطلق فيها نبوءته. بحثنا عنه طيلة اليوم وفقط عندما وجدنا أن الصناديق قد اختفت فهمنا. كنا نعرفه، في الأعمال الخطرة كان يفضل أن يذهب وحده ولا يحب كثرة الكلام. لكن عندما انتهى الموكب في الإستاد ولم نر الدعوات تتساقط بدأنا نقلق. استشاط غضب فوتيروس: أي قبعات، يا للحماقة، أي قبعات؟ هل تعتقدون أنهم يرتدون القبعات كالبحارة؟ هؤلاء يذهبون إلى حفلات الطعام بلا قبعات. في هذه اللحظة وصل الزميل من المستشفى برسالة النبوءة. كان يلهث، لم أره، كان الأرملة يقول. عبر الهاتف قال لي: الليلة ابتعدوا عن الكازينو. النجاح مضمون. الخسارة بالكاد يمكن أن تصل إلى سموكينج واحد. سموكينج واحد؟ هل لم أفهم جيدا؟ ولكن لماذا الخسارة؟ هل سيضعون لهم ديناميت؟ غادر الطباخ على الفور قاقزًا مهرولاً بكل شحمه، ونحن كنا نجلس في توتر. عندما حل الليل قال لي بانديليس:

ـ هيا بنا يارفيق. أعرف مكانا رائعا للمشاهدة.

فكرة أنه سيكون ثمة بريق أو انفجار سيحدث بين الحين والآخر كانت مسيطرة عليّ: سنرى ماذا سيحدث دون أن نكون في الحي الذي به الكازينو. داخل التاكسي فسَّر لي. فكرت في سطح البناية الصفراء، فيلا «بروتياس»، كما أسماها. البواب لن يقول شيئا، كنت أعرفه. على السطح في الليل لا يصعد أحد قط. سنبقى هناك حتى نرى آخر سيارات المدعوين تغادر.

المدخل في تلك البناية كان ضخما وأرضيته مُعبَّدة بالرخام ومضاءة بقوة. المصعد كان في العمق. فور أن دخلنا، توقف بانديليس وأمسك بيدي. أمامنا كان يسير شخص قصير بياقة مُنشّاة وحلة رمادية مكوية بعناية وعصا لامعة. يرتدي قبعة روسية قديمة الطراز، كانت أشبه بقبة مشقوقة في المنتصف. لكن الأغرب كانت طريقة سيره. كان يحني جسده من المنتصف لأعلى نحو الخلف، يرفع قدمه حتى ارتفاع ركبته ثم ينزلها ببطء، وقبل أن تصل قدمه لأسفل كان يدفعها بمقدار شبر ويدوس على الأرضية الرخامية. ثم بعد ذلك كان يفعل الشيء نفسه بقدمه اليسرى. كانت خطوته راقصة وعسكرية في الوقت نفسه، مثل رقصة بالية العرائس. إما أنه كان يقوم بتمارينه الرياضية المسائية وإما أن هذا الشخص مختل تماما.

- هل هو متسكع؟ سألت بانديليس بهدوء.

- لا، إنه شاعر. لكنه فاشي، تحرري. يوقع باسم ألكسندروس أرخيوس. ألم تقرأ له في الصحف؟

عرفته. لم يكن شاعرا سيئا. كان لديه لغة الأناشيد الطنانة لكن دون

تفاهات، مع شيء غريب، ربما به ثمة مس من جنون كان يعطيه زاوية خاصة لرؤية العالم.

في هذه الأثناء كان قد استقل المصعد فهرول باندليس نحو السلم ينظر لأعلى ليرى في أي طابق سيقف.

ـ عجيب، قال متسائلاً. لن يذهب للنوم. هل هناك اجتماع آخر في بيت «بروتياس»؟

في انتظار أن ينزل المصعد لنستقله فسر لي باندليس: ألكسندروس وريكي، وهذا هو متسكع حقيقي، يحمل جرابا وعصا عسكرية، وهو حامي كل الكلاب الضالة في الإسكندرية، وهناك آخر يدعى أثناسيوس، عميد المهاجرين الروس، يجتمعون كل أسبوع في الطابق الثامن. كانوا يقولون إنهم يلعبون البريدج، لكن ثمة سرًا في الأمر، ثمة شيئا ماسونيا في المنتصف. أما الرابع فكان الإنجليزي « بروتياس» الذي يتحدث اليونانية مثل يوناني.

كيف يعرف هذه الأشياء؟ وضع يده على فمي كي أصمت، ودون أن نشعل ضوء السلم صعدنا الدرج لطابقين؛ خرجنا إلى السطح. الريح الشمالية حملت الغبار من الصحراء: النجوم فوق رءوسنا بدت بعيدة ولامعة. المطار العسكري في الدخيلة كان مضيئا كأنه نهار، لكن قريبا من هنا وحولنا في كل اتجاه كانت المدينة تسبح في الظلام. بين الحين والآخر كانت تظهر أضواء منسية من نوافذ بلا ستائر، كشافات سيارة ما، والشذرات المفاجئة من كابلات الترام التي تضيء للحظة بضوء بنفسجي ظلامي يغطي

المباني والشرفات والنوافذ والأفاريز ثم يبتلعها ظلام الليل على الفور. اقتربنا من السور وانحنينا فوق لافتة البنسيون. كتلة الكازينو كانت مميزة في ظلام البحر على يميننا. عند المدخل كانت هناك حركة كثيفة لسيارات الليموزين، كشافاتها الخلفية الحمراء كانت تضيء عندما يدوس السائقون على الفرامل كي ينزل المدعوون. الدرجات النارية للشرطة العسكرية بالمصابيح غير المموهة كانت تروح وتجيء على الكورنيش دون أي سبب واضح. اخترنا ركنا وقبعنا فيه وتسمرت عيوننا على الكازينو.

ـ أعرف كل هذا من إحدى معارفي لديها بنسيون في الطابق الثالث. أو كان لديها، الآن لم تعد تستقبل الزبائن، ليس لديها سوى ألكسندروس لدواعٍ نفسية، إنه شديد الفقر. لو تركته للشارع سوف يموت من الجوع والبرد، ليس لديه قدرة أن يكسب قوته، رغم أن لديه إجازة مدرس وشهادات من برلين وباريس.

ـ لدواعٍ نفسية؟ قلت ساخرا. كم عمر صديقتك تلك؟

ـ تقترب من الأربعين، لماذا؟

ـ لابد أنه عشيق قديم لها وتأسف لحاله.

ـ لا، لا يا رفيق. أنت مخطئ، قال مذعورا. هذه ليس لديها أي عشاق. وهو كائن غريب. يتكلم في أمور يجعلك تريد أن تخنقه. فاشي، مخبول. يقول إن الجسد الذي سيقبل أن يلمسه كان ذكرا قد مات من ٣٤٢ قبل الميلاد، يدعى إيفستون، أحد المفضلين لدى الإسكندر الأكبر.

صمت. كان يأتي من بعيد طنين مرتبك للمدينة التي كانت مستمرة في حركتها تحت غطاء الظلام الأسود.

ـ ما هو الحب يارفيق؟

ضحكت. لكنه كان يسأل بجدية فتذكرت دور الداعية فقلت له الكثير من المأثورات المعروفة.

ـ وعندما تحب امرأة يحدث هذا بالجسد ثم بعد ذلك تعرفها بشكل أفضل ثم تحبها بروحك، أليس هذا حبا أيضا؟

ـ على حسب. إذا أردت أن تصدق هذا فحينها يمكن أن يصبح حبا. فقط عليك أن تنتبه، لو كانت أكثر خبرة منك وعلمتك أشياء لم يكن بمقدورك أن تتخيلها فعندئذ ستصير عبدا لها، ستلفلف حولك شباك المشاعر.

خمنت تقريبا ما الذي يحدث له ولهذا قلت له ما سبق.

ـ صحيح، قال بعد قليل. وأليس ذنبا يارفيق أن يحب أحد في الملاءات النظيفة والحمامات الساخنة والباردة والصابون المعطر، عندما يكون ذووك في وطنك يموتون من أجل قطرتين من الزيت؟

بمَ أجيبه الآن؟ رفعت كف يدي وأمسكته من خلف رقبته. خلفنا، كان لدي شعور بأن أحدا يراقبنا. نظرت بطرف عيني دون أن ألتفت برأسي. بجوارنا كانت هناك أشجار مزروعة في صفائح نخيل تهفهف. كانت أوراقها العريضة تحتك ببعضها مثل الحرير. لابد أنها تلك. التفت تماما برأسي.

على بعد عشرين قدما جالسة فوق السور ظهرت سلويت امرأة. كانت ترتدي روبا طويلا وعاقدة ذراعيها. خلفنا بقليل، بالقرب من المستشفى اليوناني تقريباً كان هناك كشافان مضادان للطائرات يلوحان متقاطعان.

- أوه، عفوا، قالت بالإنجليزية وحلت عقدة ذراعيها.

اختفت بعد ذلك. سُمع صوت باب السطح وهو يُغلق.

- إنجليزية، صاحبة بنسيون « بروتياس »، قال باندليس.

بقينا حتى الحادية عشرة. توقفت كل الحركة أمام الكازينو. نزلنا بحذر وعدنا إلى السكن المشترك مرة أخرى بتاكسي. هناك رحنا ننتظر الأرملة حتى الفجر. وعندما وصل وكان مرهقا للغاية، كنا نُخرج منه الكلمات بصعوبة. لقد استنزفته فتاة خزانة الملابس، لم تقبل أن تتركه يرحل قبل أن تحصل على المقابل.

- وأنت، تدفع جيدا كعادتك...، قال فوتيروس ساخرا. ألا تستحي قليلاً. كان التنظيم كله ينتظرك حتى تنتهي أنت من المضاجعة !

- لا تستفزني، قلت لك من قبل، قال الأرملة. سأفقد أعصابي ذات مرة وسأقلب الدنيا رأسا على عقب. لماذا تزوم كالبقرة؟ كنت سأتأخر على أى حال. كان يجب أن أعيد حلة السموكينج أولاً إلى الرجل الذي اقترضتها منه، وأعيد الباروكة إلى الكوافيرة التي تعمل في « الهمبرا »، أن أغسل وجهي من الطلاء... هل كنت سأفعل كل هذا في الشارع؟

- أي سموكنج، وباروكة طلاء؟ ستقتلنا بألغازك يا ثاناسيس !

بموضوعية، لقد وتّرني واستفزني فوتيروس بلا أي وجه حق. لأن ما يهمنا الآن، هو إذا ماكانت الدعوات قد وُزعت أم لا، وهذا كنا نعرفه من منتصف الليل. حرص فوتيروس أن يقابل أحد الأشخاص المدنيين الذي على علاقة بأحد الصحفيين وقد قال له عبر الهاتف إن كل مخططات اليمين باءت بالفشل بسبب إعلان، سقط مثل الليمون في الحليب فأفسده.

- ليقولوا ما يشاءون، إن روسوس في منتهى الرجولة، قال الأرملة عندما زال غضبه.

- من روسوس، الوزير؟

- لا، ليس هذا الأحمق. نائب الرئيس أعني!

على أى حال، هذا هو ما خرجنا به من حديثه بعد جهد كبير ومناوشات حوارية ومقاطعات والخلاصة مما حكاه هو التالي:

الخطة مع الفتاة والمعاطف فشلت. لكن الفتاة التي تعمل في الخزانة قالت إنه في تلك الليلة ستستعينون بحوالي عشرة مساعدين لأن جارسونات الكازينو لن يكفوا لخدمة ثلاثمائة شخص. فقط كان رئيس النقابة كان من كلاب ميتاكساس أرسل أشخاصا من عنده بتوصيات. لكن لو استطاع ثاناسيس أن يجد سموكينج مع قليل من المكياج حتى لا يتعرف عليه الجواسيس، سيستطيع أن يلعب دوره ويمر ضمن الجارسونات الجدد على

أنه أحد القدامى من الكازينو ويظن القدامى أيض أنه من الجدد الإضافيين. ممثلة خليعة في مسرح الهمبرا بدلته تماماً بالبودرة وشعر قصير أبيض ونظارات مزيفة. وفور أن حل الليل، بدأ عمله، دون أن ينظر يمين ولا يسارا ودون أن يتحدث مع أحد. كانت الفتاة تعطيه من الدواليب كل مرة عشر مناشف مكوية وهو يذهب بها كل مرة أمام أحد الجارسونات يعيد طيها بالعكس مشكلاً هرما بديعا ويثبتها. بالطبع في عمق الهرم كان يضع الإعلان مطويا على أربع ويدسه داخل المناشف. رتب جيداً لهذا الأمر، استخدم خبرة الفتاة التي قد شاركت في الكثير من تلك الحفلات: لو لم يجلس أكبر ضيف رسمي ويقدمون له المقبلات أولاً، من النادر أن يوجد شخص و يفتح منشفته. عندها ستكون هناك الحاجة مرة أخرى إلى الأرملة كي يبدد ردود أفعال ذلك الشخص حتى يجلس جميع الثلاثمائة في أماكنهم. ومن هذه اللحظة فصاعداً، الرب هو المساعد. لكل احتمال كانت مرتبّة طريقة للمغادرة... نحو البحر عن طريق كسر الزجاج عند الحاجة بنطحة، وعندها سيكون علينا أن ندفع ثمن الباروكة الجديدة والسموكينج المستعمل، فصاحبه كان فقيرا نعم لكنه كان واحدا منا، شخصا وديعا. الطاولات كانت موضوعة على شكل حرف U كبير وقاعدته كانت نحو البحر المتوسط، وفي المنتصف كان فارغا، كما لو أنهم كانوا يستعدون للرقص بعد الطعام. أول من بدأ في الوصول كانت الأسماك الصغيرة. مديرون، نواب المديرين، سكرتيرات، مستشارون وصرافون من جمعيات مثل: جزر البولوبونيسوس، القسطنطينية، خيو، ليمنوس، إمفريو، ميتساسيو (أين ميتساسيو هذه !) ، من كل قرية رُفع علم؛ من الهيئات والنقابات، النوادي الروابط والاتحادات مثل: الجارسونات،

الخريجين، العلماء، الرياضيين، الرحالة، المحاربين القدماء، المستشفيات، الكشافة، البقالين، والخياطين: تسعة وخمسون رئيسا، تسعة وخمسون ختما، وليس بينهم امرأة واحدة! كل هؤلاء المدعوين الرسميين هم أعضاء سابقون معروفون بمنظمة الشباب القومية المرحومة، رجوهم ألا يجلسوا، فقط ليقفوا في منتصف الـ U ليكوّنوا كتلة من أجل التصفيق عندما تصل الشخصيات المهمة. أول الرسميين كان يورغيوس روسوس، وصل بسيارة سبور مباشرة من مكتب المحاماة الذي يمتلكه. كان يرافقه محام متدرب كان يساعده في النزول. وعلى الفور: ششششش... روسوس... إنه روسوس...، قال هؤلاء الذين ينتظرون واقفين، وحل صمت مرتبك وراحوا يفسحون له الطريق، اقترب واحد أو اثنان منه ليصافحوه ويرحبوا به، لكن أحدا لم يصفق، كانوا يكرهون العجوز جدا. أما هو بكرشه وصلعته، رجل طويل وثقيل راح يسير متكئا بيده اليمنى على كتف المحامي المتدرب. كان يعرج، كأن شيئا قد أصاب قدمه فقد كان يجره ببطء، لابد أنه كان يؤلمه، لكن وجهه الحليق لم يبد عليه أي تعبير. لم يستطع بالطبع أن يقف مع الآخرين فلم يكن هذا صحيحا، فهو نائب رئيس الحكومة شخصيا. أخذه شخص كي يجلسه في المكان المخصص له وحينها، في وسط هذا الزحام، صاح نحوه شخص هزيل اللون: يا عدو الملك!... بعدها سمعت أصواتا تقول: سكوت، هدوء، ماذا قلنا؟ راحت مجموعة تردد بإيقاع شعارات يمينية: وحدة يونانية. حينئذ، العجوز الذي اقترب من مكانه، توقف والتفت ينظر إليهم. ابتسم. أخذ يده من على كتف المحامي المتدرب ورفعه لأعلى: ديمقراطية! قال بصوت جهوري ووجه يلمع. وحل صمت القبور. انطلق

حينها التصفيق الحاد، وهنا ظهرت ليموزين سالفاجو، رئيس الجالية. جلس العجوز وأرسل مرافقه نحو المطبخ ليحضر له شيئا لا أحد يعرفه. وضع أمامه الشوكة والسكين وفرد المنشفة. راح الأرملة يحدق متابعا كل حركة، وببطء شديد اقترب منه. وجد روسوس الإعلان، ارتدى نظارته وقرأه. ثم أعاد طيه، ووضعه في جيب محفظته وربت عليها برفق من الخارج بأصابعه. البطريرك، فنيزيلوس، تسونديروس، فولغاريس وميتراكيس وصلوا تقريبا معا. كان في استقبالهم تصفيق حاد، حدث ثمة ارتباك، راح كل منهم يبحث عن الكارت المدون عليه اسمه ليعرف مكان جلوسه. بشكل غير منتظم ومتفرق راحت المناشف تنفرد. نهض البطريرك ليبارك العشاء. فقام الجميع. بعض أوراق الإعلان إما مطوية أو لا، سقطت على الباركيه اللامع. التفت روسوس إلى الجارسون الذي كان خلفه وطلب منه أن يجمعها ويضعها أمام من ألقوا بها على الأرض. قبل أن يكمل البطريك، كان الهمس قد بدأ على طرف الـ U : بلغاريون... العجوز روسوس أخذ الإعلان مرة ثانية، فرده وراح يقرأه مرة أخرى. تسلم الخطيب الأول ناصية الخطاب. عندها انحنى روسوس أمام طبقه وصاح في تسونديروس الذي كان يجلس بعده بقليل بين البطريرك وسلفاجو: يا مانولي هل وجدت الإعلان؟ الآن عليك أن تقرأه. قفز الخطيب وتوقف خطابه. أي إعلان؟ سألوا. راحت المناشف تُفرد على الطاولات. انحنت الرءوس فوق الأوراق الرمادية ذات الحروف المهزوزة. سرت رجفة وقشعريرة. حاول البطريرك أن يطلق مزحة قائلاً: يا لجرأتهم! لكنها لم تنجح! المواطنون الغاضبون صرخوا. العجوز روسوس راح يقهقه بقوة حتى إن الأكواب كادت تصطفق. بعد هذا،

فقدت الخُطَب أي تأثير. لقد أسكتهم الضيف الذي لم يحضر، الشعب. بقي ثاناسيس في مكانه ثابتا لم يتحرك. رافق فتاة الخزانة في التاكسي، وفور أن تحرك التاكسي راحت تلتهمه بالقبلات. وقالت له، هل تعرف متى كنت أريدك أكثر؟ في اللحظة التي فتح فيها روسوس المنشفة.

ذات ليلة كنا نجلس أنا والأرملة في الشقة المشتركة نُقيِّم الوضع. بين الحين والآخر كنا نصغي السمع. كان هناك صوت يحوم فوق المدينة أشبه بصوت طائرة. هل كانت تواجه صعوبة في الهبوط؟ ربما بدت لنا كسيارات دورية. كانت هناك شائعات تنتشر هنا وهناك في الأيام الأخيرة مصدرها أخت إحدى الخادمات في فندق مينا هاوس، علم ثاناسيس أنه بالقرب من الأهرامات كان يجتمع كل من: روزفلت، تشرشل وتشانج كاي سيغ. وكان هناك همس أنه ربما بعد قليل سيصل ستالين. من ناحية أخرى اللواء الخامس كان وضعه إيجابيا بالنسبة للحلفاء الذين بدءوا ينقسمون، عاد تشرشل إلى التذمر من ستالين نظرا للعمليات الأخيرة في إيطاليا التي أفشلت فتح الجبهة الثانية.

سمعنا صوت مفتاح في الباب، من سيكون غير فوتيروس. فجأة رأينا فانيس أمامنا. حيَّانا في صمت وجلس. كان هادئا لكن غارقا في التفكير. ثم سأل سؤاله المعتاد: ما الأخبار؟ هو من أتى من القاهرة، كان يجب عليه هو أن يقول لنا ما الأخبار. هل هو حقيقي الاجتماع عند الأهرامات؟ بالفعل، قال لنا إن روزفلت وتشرشل دعوا تشانج كاي سيغ للحوار، عن الحرب في اليابان. أما عن ستالين فلم يتم أي حديث، هذا إلا إذا كانوا سيذهبون إليه.

كان يتحدث وينظر إلى جبهتي متحاشيا النظر في عينيّ. هل كتب له الضئيل التافه شيئا؟

ـ الميجور بيتر من الاستخبارات الإنجليزية، قال لي باقتضاب، إنه يريد رأسك على طبق.

ـ أجبت. هذا شرف كبير. من قال لك هذا؟

ـ روسوس العجوز. من هناك أتيت.

صوت مفتاح في الباب مرة أخرى. هذه المرة كان فوتيروس. صافح فانيس بقوة ثم نظر إلينا محيّيا بعينيه.

ـ هل أنتم هنا منذ وقت؟ سأل وهو يجلس.

ـ أجاب فانيس، وصلنا لتونا. آه، العجوز روسوس يرسل إليك بالتحية. هل أنت من ذهبت في آخر مرة؟

ـ نعم، لماذا؟

ـ إنهم أناس رائعون، لا أشكك في هذا. شجعان وحازمون. لكن ليس لديهم القدرة على الحوار وأقل قدرة على الاستماع. كان يتحدث عنك يا فوتيروس. كان يجب أن ترسلوا سيميونيذيس.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أعرف فيها أن لدينا اتصالا مع روسوس.

- لماذا يتعرف على أشخاص جدد؟ هل هو أفضل مني؟ ألم أذهب أنا في المرة السابقة؟

- وماذا قلتم عندما رأيته؟ سأل فانيس لغرض ما إذ إنه لم يخبرنا حتى عن الأمر.

- تفاهات.

- ليست تفاهات يا رفيق، أكد فانيس. ليس هذا وقت للتفاهات. لكن ربما نسيت. سأقول لك شكواه إذن: « لا تقولوا لي شيئا. أكلمكم ولا تسمعون. تفعلون دائما ما في رءوسكم. أحيانا يكون الحق معكم، أعترف بهذا. لكن فيما يخص أحداث الكتيبة أخفقتم إخفاقا فادحا. أخبرتكم، حذرتكم، أخفتكم، وأنتم فعلتم ما في رءوسكم. تخبروني فقط بوضعكم ومواقفكم، وتنتظرون مني أنا السياسي العجوز بخبرتي وثقافتي وماضيّ أن ألتزم بقراراتكم التي لم نتناقش فيها».

- تفاهات، قال فوتيروس. ماذا أتحاور معه؟ هل كان بمقدوره أن يأمر الإنجليز أن يفكوا حصار السرية؟ ثم، لماذا نستحضر الأمر مرة أخرى؟ لقد انتهى الأمر.

- انتهى، لا نتعقل أبدا، والآن ندفع الثمن ثانية. قال فانيس.

كان يتحدث ببطء وتشب الحمرة في وجهه وينتفخ صدره ويهبط بأنفاسه التي معها يسمع صفيرا من رئتيه. إنه على وشك أن يأتيه السعال. حاولت أن أقول شيئاً فأوقفني. لم أنته بعد.

ـ هل تدري لماذا أرسلوا في طلبي من القاهرة؟

ليس ليستشيرني ولا ليتحاور معي، لكن ليخبرني بأنه سيستقيل من الحكومة.

ـ خيانة، قال فوتيروس وضرب على صلعته بكفه. أنا لم أكن أبدا واثقا منه.

نهض الأرملة وراح يسير ذهابا وإيابا. رفع رأسه وراح يحدق في السقف. لابد أنه يتنصت إلى صوت الطائرة. هكذا يفعل عندما يتضايق، مستحيل أن يجلس على مؤخرته. ثم سأل فانيس.

ـ هل أقنعته على الأقل أن يتراجع عن قراره؟

ـ قراره لا رجعة فيه. واليوم كتب له تسونيروس بأنه قد قبل استقالته. آه، هناك أمر آخر. طلب أن يبقى الأمر سرا حتى يغادر الثلاثة الكبار، الحرب تأتي أولاً. يجب ألا يلقي بين أقدامهم بأزمة سياسية، لأن الرابح هنا سيكون هتلر.

ـ يطلب، قال بسخرية فوتيروس مرة أخرى. هو من يجب أن يُسأل. لقد استقال دون أن يقول لنا شيئا؛ من الآن فصاعدا الأمر متروك لنا برمته. وهكذا أفضل، الأمور الآن أكثر وضوحا.

ـ أعرف، قال فانيس. إن طلبه هذا ليس له معنى لكن علينا أن نحترم رغبته، لقد وعدته. ليس في صالحنا أن نعاديه، فسوف نحتاجه ثانيةً، كما أنه

يحتاجنا أيضا. وهذا يتضح من رغبته في أن يطلعنا على الأمر، وإلا لكان قد تركنا نعرف الأمر من الصحف مثلما فعلنا نحن مرات عديدة.

لكنه يرغب في التعاون معنا، مازال ينتظرنا جهد كبير. لكن ليس بهذه العشوائية التي نسير بها حتى الآن. نحتاج أن نعيد تنظيم اتصالنا. قبل أن تصرخ "خيانة" ولم أقاطعك. لنرى أولاً الأمور من مكانه. هل في مارس مع التعبئة التي أسقطت كانيلوبولس، أخبرناه بشيء؟ هل سألناه عندما وضعنا اسمه في قائمة الوزراء المرشحين؟ هل استشرناه على الإطلاق فيما ينبغي أن يكون معاونوه؟ وعندما من تلقاء نفسه الرجل يطلب أن نتحاور معه نضع أمامه قرارات موقعة وغير قابلة للنقاش، فيمَ يأمل الرجل أو ينتظر منا؟ كان يفعل ما يمليه عليه ضميره. لكن الحقيقة، لا أعرف إذا كنت في مكانه كنت سأفعل الشيء نفسه.

ـ لكن على أى حال: لماذا استقال؟

ـ انظر يا مانوس. موقف العجوز درامي جدا. لقد انفصل عن الفينزيلوين، ثم عنَا، بقى وحيدا. وصوته، صوته الباكي... أتمنى ألا تصح نبوءته لأنه إذا كان محقا، يا ويلنا. لديه أسلوبه الخاص، خبرة وحدس. لا يتفق معنا في أننا نضع مشاركة المقاومة في الحكومة، حركة إعلان الثامن والعشرين من أكتوبر كانت بسيطة بالنسبة له. ترس السلسلة كما يقول هو في السياسة. متفقين، قلت له، لكن ربما لا نساعد جيدا، هل لديك شكوى ما؟ قال لي، دعك من المكر الآن، أنا أفهمكم لأنكم تعملون بشكل مختلف على

هذه القضايا. أنتم تطالبون بحكومة ائتلافية للمقاومة لأنكم تتألمون من أجل الشعب، تريدون أن تنتهي آلام الشعب بسرعة. لكن لا ترون كيف إذا تم حل الشأن السياسي بشكل خاطئ عندها لن نتحدث حينها عن التحرير ولكن عن احتلال جديد. هل عرفت بأن الملك يورغيوس قد عقد اتفاقيات في لندن لا يعلم بشأنها ولا حتى رئيس وزرائه المسؤول؟ اسألوا مانوس سميونيذيس الذي يفهم ما هو القانون الدستوري، ما رأيه. كانت تلك هي اللحظة التي ذُكر فيها بيتر من الاستخبارات الإنجليزية. إذن فهم يعرفون أنك هنا ولمحوا وجهك.

- لابد أنهم قد استنتجوا هذا من تحسن صحيفة "الملاّح" قال فوتيروس.

- لقد فهم العجوز الأمر من شهر أغسطس، من ممثلي المقاومة الشعبية في الجبال، استمر فانيس الذي زاد من غلظة صوته وراح يتكلم كما لو كان العجوز روسوس نفسه: كل المنظمات، كل الأحزاب، حتى كانيلوبولوس والحكومة كلها وأولهم تسوذيروس وقّعوا على بيان، مفاده أن نتجنب المناوشات والدماء بعد التحرير يجب على الملك أن يعود إلى اليونان قبل أن يقرر الشعب شكل الحكم. هو مسؤول عن ديكتاتورية الرابع من أغسطس ولابد أن يحاكم من قبل الشعب نفسه. وماذا يفعل هو؟ يرسل تليغرافا إلى روزفلت وإلى تشرشل ويستشهد باتفاقية لندن. أي اتفاقية؟ يكز على أسنانه، ينكمش تسونيروس في قوقعته. دعك من أنهم طردوا على عجل ممثلي الجبال. ذهبت ووجدت إندين وهو في طريقه إلى موسكو؛ بعدها ذهب إلى تشرشل. لقد وقّعتم، قلت له، خريطة الأطلنطي، من أجل ذر الرماد

في العيون؟ نحن، قال لي، لا نتدخل في الشئون الداخلية لأحد؛ فقط عندما تتعرض أهداف الحرب للخطر نتدخل. بمعنى، انتبه جيدا، حتى لا تورط نفسك. وبعد ضغوط واجتماعات ومشاورات، يتسلم تسوذيروس رسالة - بزعم! - ترتيب الأمور. اسمع ودوّن إن شئت: "... لدينا الآن في هذه اللحظة قضية تحرير الوطن المأمولة، أريد أن أدرس الأمر من جديد؛ موعد عودتي إلى اليونان مرتبط بالظروف العسكرية والوضع السياسي ..." حسنا، لقد تم حل المشكلة، قال ميتراكيس الثعلب. حسنا، حسنا، قال الآخرون. نهضت وضربت بقبضتي: الزملاء الأعزاء، هل جننتم؟ كيف هي الآن الأوضاع؛ نعرف هذا جيدا. جبهة التحرير الوطنية هناك، وجبهة التحرير الوطنية هنا، هل نختبئ خلف إصبعنا؟ لكن أي تغييرات يمكن أن تحدث حتى التحرير لكي نحتاج أن ندرس من جديد أم يورغيوس؟ أين سمعتم أن هناك شعبا، وشعبا مسلحا، يستسلم في معركته التي حقق فيها انتصارات سياسية واجتماعية دفع ثمنها أنهارا من الدماء؟ افتحوا إذن أعينكم جيدا! إنهم يعدون العدة لاحتلالنا مرة أخرى. سيسمون بعض الكتائب على أنها المقاومة الوطنية وهم من سيأتون بالملك مرة أخرى. هذا يعني الحرب الأهلية. وكل ما تبقى من قوات في الشرق الأوسط سيحاولون أن يغيروا عقائدهم، ولأن هذا لن يحدث، سيفككونها أو سيزجون بهم في السجون مثلما فعلوا مع كتيبة الجيش الثاني والآن يفعلون الشيء نفسه مع جيش المقاومة الشعبي في ساموس. إيه، إنك تبالغ، إننا نحن هنا، مسؤولون في الحكومة، صاح الزملاء. حينها ميتراكيس الجاسوس جاءه ... إلهام. اقترح أن تضاف جملة «بعد الاتفاق مع الحكومة» بعد جملة «عودتي إلى اليونان».

دستوري، هو السيد المحترم أيضا، كما ترى! قال لي: إذا تم قبول هذا، فسيُمنع أي خطر. قلت لهم: لو حدث هذا سيعني أنكم توافقون على التدخل الأجنبي وعلى تغيير معنويات الشعب بالقوة. أنا لن ألوث يدي بدم إخواني. أنا لست مسؤولاً عن هذا. بالأمس أخبروني بأن الرسالة ستنتشر بعد إضافة جملة الحكومة. لقد طفح الكيل. إنهم لصوص يا بني، تجار دماء. لا يفهمون شيئا عن المجد والعزة وعناء الشعب. منتهى القسوة والأنانية.

بدا لي لو أن الطائرة تطير فوق البيت مباشرة وتحك جدرانه. لكن أحدا لم يسمعها. كانت سحابة حمراء تحوم وتطن في رأسي.

ـ والآن، قلت. ماذا سنفعل؟

ـ وماذا بوسعنا أن نفعل؟ سنستمر على الخط نفسه. مارأيكم أنتم؟ سأل فانيس.

ـ الأمر يحتاج إلى عمل كثير، لكن بالأساس الخط لن يتغير، قال فوتيروس.

ـ سنأكلهم، قال بتأمل وثقة، قال الأرملة بعد أن توقف عن المشي. نحن لم نخف...

V

أحياناً يمكن للعزلة أن تخدع النساء اللاتي لديهن خيال. تلك الحادثة في تلك الليلة جعلت نانسي تفكر أنها لو تركت نفسها قليلاً للقصور الذاتي والانتظار سوف تمرض. القراءة ليست دواءً جيدا، لأن تحت كل كلمة وتحت أكثر التوصيفات واقعية كانت تحاول أن تخمن إشارات ومواقع وإرشادات تقنعها أن تتجرأ لفعل أشياء غريبة. بدأت تخرج بشكل مستمر. في الصباح كانت تذهب إلى محال الموضة الجديدة، في الظهيرة تذهب لتحتسي مشروبا في «أونيكا» أو في «سيسل»، وتتناول غداءها حسب ما كانت تشعر في يومها: إيطالية؟ إذن فليكن « ستلا» الذي كان اسمه فيما قبل «Stella de Italia»، لكن أصحابه اليونانيين ألغوا نصف اسمه لدوافع وطنية بعد معركة العلمين، من أجل أن يكونوا بأمان أيضا كما كانت تقول مسز بروكس بخبث. على أي حال، كانوا مازالوا يقدمون أطباق مكرونة رائعة بجبن البارمجانا، وبالصلصة البولونيز وفواكه البحر. كانت نانسي تختار طاولة منعزلة بجوار النافذة، تنظر من خلف الزجاج على حركة الطريق ومراكب الصيد في الميناء الشرقي وجزيرة فاروس، وتستمر بذهنها مع خيال رون الذي كانت تُجلسه أمامها في حوار قد بدأ قبل سنوات في صقلية. عندما كانت تشعر بالفرنسية كانت تذهب إلى "يونيون" ، كان رون يعتاد في نورمانديا أن يطلب

الـ كوك أو ساج مع نصف زجاجة ماكو ليرويا الطعام الشهي ومعنوياتهما أيضا وعندما يعودان إلى الفندق سيتبادلان الأحضان بشغف كما لو كانت أول مرة. رغم ذلك كانت نانسي تفضل « ستلا » لأنها في «يونيون» كانت تقابل معارف تشارلز الذين يسببون لها الارتباك عندما يسألونها عنه. بقية الوقت كانت تقتله أمام الفاترينات، كانت في بعضها تُعرض ملابس داخلية من الشيفون، روعة؛ لم تحتمل بالطبع أمام الإغراء وبدأت تجدد أكثر أجزاء خزانة ملابسها خفة. كانت تتوقف دائما لكي تتنصت على تعليقات الجنود الشهوانية. كانوا يقفون بالساعات لكي يعربوا عن إعجابهم بتلك الأشياء الصغيرة بالطبع دون جدوى، يا لهم من أولاد مساكين!

عندما جربت الملابس الداخلية الجديدة شعرت بعد شهور طويلة بأنها في حاجة ماسة إلى إزالة شعر ساقيها وإبطيها. وحينها عندما سألت مسز بروكس، تعرفت على جانب آخر من الحياة السكندرية، والتي لم تكن تتخيل وجودها: السوق السوداء. كان هناك نقص في الأوكسجين لدى الصيدليات فبدأت الشقراوات الصارخات ينظرن بقلق كل صباح في مراياهن. لكنهن لم يواجهن مشكلة عويصة. إذ إنه وجد في مالطة، التي كان الألمان يدقونها بالقنابل ليل نهار، مخزون هائل من الزجاجات الصغيرة عبوة المائتي جرام. في مالطة أيضا كان هناك نقص كبير في الويسكي والكونياك والروم. بدأت تجارة من نوع خمس زجاجات أكسجين وزجاجة ويسكي. الخمور فقط كانت نادرة الوجود. حينها بالطبع نشأت صناعة الخمور المحلية. والعسكر في مالطة كانوا يشربون نوعا من الويسكي لو كان في أوقات أخرى

لثقب أحشاء الغوريلا. لكن من كان يقوم بالمقايضة؟ بالطبع اليونانيون، ضباط وأعضاء الغواصات والسفن التجارية الذين كانوا يكسرون حصار الأسطول الإيطالي والقوات الجوية الألمانية وكانوا يزوّدون الجزيرة المحاصرة بالمتفجرات والمؤن. تجارة الأوكسجين كانت بالطبع تتم في الخفاء لحساب هؤلاء الذين يخاطرون. وماذا عن الأجبان والمكرونة الإيطالية؟ كانت تحمله الكاميونات العسكرية من محلات البقالة الكبيرة في ليبيا وطرابلس. أما النبيذ الفرنسي ونبات الفطر كان يأتي من تونس والجزائر، الشيء نفسه كانت تأتي الجوارب والكيلوتات والسوتيانات. لندع الأدوية جانبا والأوقية الذكرية والتي كانت حمولة كاميون واحد يُقدَّر ربحها بما يكفل بناء عمارة كاملة. كانت شواطئ البحر المتوسط كلها يتم مسحها من كل السلع الفاخرة من أجل الإسكندرية. مجدها القديم عاد للحياة مرة أخرى الأجناس نفسها، ساميون ويونانيون يتجولون في شوارعها فيثيرون العطش للمتعة ويسرٌعون من نبض الحياة فيها.

ذات مساء، في زحام شارع شريف، نانسي التي لم تكن تشبع من المشاهدة والإعجاب بأناقة النساء والعسكر الحليقين؛ سمعت أحدا ينادي اسمها. سيارة رولزرويس سوداء توقفت بعد قليل: كانت السيدة جويندولين داخل سيارة السفارة وأشارت لها بيدها أن تسرع. سائق الموتوسيكل الذي كان يسير في الأمام حول اتجاهه وتوقف عند نافذة السائق. سأل ما الذي يجري. توقفت الحركة في الشارع، وراحت أبواق السيارات في الخلف تدق بقوة بالقرب من « أونيكا ». دخلت نانسي إلى السيارة كي تنهي هذه

المهزلة. انطلق سائق الموتوسيكل للأمام مرة أخرى تاركا خلفه أصوات الماكينة كأنه يرد مستهجنا. وجوين، بعد أن وبخت نانسي لأنها لم تتصل بها طوال هذه الفترة، وقالت لها شاءت أم لم تشأ ستحتسي معها الشاي. انتهت المشاكل والشد والجذب مع الكبار في القاهرة، ونزلت إلى الإسكندرية لتغيير الأجواء. ستغادر بعد أيام قليلة. سمعت نانسي هذا بارتياح شديد.

تأخر الشاي. كانا في انتظار الليدي أتكنسون، أغنى النساء اليونانيات في الإسكندرية، أرملة أو مطلقة، ربما أرملة، وابنتها. سيتحدثن عن مشاكل الصليب الأحمر لاجيء ساموس. طلبت جوين من نانسي ألا تتركها إذا بدا عليها أنها تريد ذلك؛ كانت في احتياج لها؛ فالليدي أتكنسون لديها شهرة بأنها ثرثارة ومزعجة. أما عن اللاجئين فقالت جوين، أمورا خرقاء لمرة أخرى! أغلقت فمها فجأة ونظرت إلى نانسي.

ـ لم أكن أقصد هذا يا عزيزتي، سامحيني. لكن كيف نحفتِ هكذا؟ لونك صار شاحبا وهناك حلقات تحت عينيك... أؤكد لك أنك لا تحسنين صنعا هكذا. كان تشارلز يقول لنا شيئا بهذا الشأن فهو يعرف تاريخك الصحي أفضل. لن تبقي قرونا تحزنين من أجل أخي...

نهتها عن هذا الأسلوب، ذلك الذي كان نادرا ما كانت نانسي تتعامل معه لأنها كانت تشمئز كثيرا منه مثل أشياء أخرى عديدة. غيّرت جوين الموضوع. في الواقع بقيت في الموضوع نفسه لكن تناولته من ناحية أخرى بعيدة. أسرّت لها بسر حربي. قالت لها إنه لا تمر ليلة دون أن يجدوا

امرأة مطعونة في حديقة النزهة على شاطئ المحمودية، امرأة من الجيش أو من البحرية، ولسن بولنديات فقط أو من الكومنولث، ولكن إنجليزيات منا أيضا، إناث ملتهبات من المملكة العجوز. المثير للقلق هو أنهم لم يجدوا أي آثار اغتصاب عليهن. هناك آثار ما لكنها تشير إلى أن كل شيء حدث برغبتهن. ثم ذبحوهن. في البداية كانت السلطات البحرية تظن أن ثمة مهووسا في الأمر. لكن الآن الأمر بات مؤكدا، الحقراء ينشرون الإعلانات المناهضة، إنه تنظيم إرهابي للمتطرفين المصريين، قوميون ، وهم بالطبع تحت إشراف وتوجيه أحد العملاء الهتلريين. ولهذا لم ينشر شيء عن الأمر: إنه سر حربي. يظن ذوونا أنه بعد انتشار المنشورات والإعلانات لن تستمر حوادث النساء، سيتوجهون نحو الرجال. لكن من الأفضل أن ينتبه المرء عندما يخرج ليلاً...

ـ حقيقة، قالت في نفس واحد. لم أقل لك إن بيتر اكتشف من هو اليوناني الذي سيتسلم بورتريه ساباتيه؟

ـ ماذا؟ قالت نانسي وهي تمط صوتها بالسؤال. أين؟

ـ لا أعرف بالضبط، لكن في أحد المعسكرات المغلقة في السودان. كان لبيتر حوار طويل معه. قال إنه بالفعل شخص محل تقدير.

عندها أصاب نانسي ضحك هيستري. وعندما تجاوزتها، حكت لجوين التي أمطرتها بوابل من الأسئلة عن الوهم الذي أصابها تلك الليلة. كانت عارية في الحمام وفجأة أغلقت كل الصنابير والسخان. من داخل أنبوب

التهوية كان يأتي صوت مانوس دافئا وحميميا وكان يتحدث إليها باليونانية ، ثم سُمع صوت آخر غريب يسأل، لكن بدأ صوت مانوس مرة أخرى، وكان كأنه يوجه حديثه إليها، إلى نانسي. جففت جسدها بسرعة، ارتدت روبها وهرولت نحو السطح. كان هناك رجلان، منحنيان فوق السور يتحدثان. مانوس، مانوس، راحت تنادي في نفسها. وكأنه سمعها، رفع يده ووضعها على كتف الآخر. ثم التفت ونظر إليها. أوه. ياللإحباط المريع. كان واحدا من أولئك كما تعرفين. يرتدي قبعة مثل التي يرتديها متسلقو الجبال. يشبه هؤلاء من الجنس الثالث الذين يصطادون البحارة. كم بكت تلك الليلة! شيء لا يمكن وصفه...

خادمة البنسيون كانت تتحدث الإنجليزية لكنها كانت تتحدث الفرنسية بشكل أفضل، بلهجة أنيقة وقديمة بعض الشيء. هكذا علمتها الراهبات في نوتر دام دي سيون حيث كانت لديهم لمدة عامين إذ أرسلها أول عشيق لها تتعلم هناك.

ـ آه، هل أنت كبيرة لهذا الحد؟

ـ كبيرة لماذا؟ ما أقوله لك قد حدث في 1892، وكنت في الرابعة عشرة من عمري آنذاك.

ـ في هذه السن الصغيرة؟ لابد أنه كان شهوانيا.

ـ لا تقولي هذا، ماي ليدي إنك لم تعرفيه. لقد كان شخصا نبيلاً من أقوى الرجال في البلد، كان صديقا حميما للخديوي، وهذا ما دمره. لا، لم

يكن مسلما، كان يونانيا من عائلة كبيرة. ثم أن تلك السنوات كانت مختلفة. إن الإسكندرية اليوم يمكن أن تكون أكبر من آنذاك بخمس مرات، لكن هذا لا ينفي كونها إقليما، بينما آنذاك كانت عاصمة، باريس الشرق. بالطبع، بالطبع أيضا آنذاك كان الناس يعيشون في الخطيئة، لكنها كانت حلوة، كانت تغذي الإنسان وتجمله وتملؤه بريقا. من كان يهتم لو كان هناك جنة ونار، حتى إن القساوسة أنفسهم كانوا يلوكون الكلام بين أسنانهم، اذهبوا إلى الميت كانوا يقولون، ادفنوه بسرعة، الناس تتعجل الحياة، هذا هو مكان جديد ويحتاج إلى الإسراف مثل استخراج المرجان. اليوم الأمر مختلف، الخطيئة تسكن داخل الناس كالمرض. مثل السرطان في الحجر. شيئا فشيئا روح الإنسان تتفتت وتتبعثر. حينذاك كان يتدفق الذهب في الشوارع فعليا ويدهسونه بأقدامهم، ويغطيه روث الخيول. أنتِ لم تر الليدي سيرفيذاكي تختار عشاقها بالسوط. كان لديها عربة بكابينتين تجرها أربعة خيول مرصعة بالذهب، صُنعت خصيصا في لندن، وخيولها كانت عربية نقية أهداها لها الشاعر سكوين بلاند الذي كان متزوجا من الليدي آن، ابنة شقيق اللورد بايرون. كان الصديق الحميم للباشا العربي المتمرد الذي حرق الإسكندرية، ليسامحهم الرب في جهنم حيث يُعذبون. كانت تقودهم كما أقول لكِ بنفسها. صوت رمح الخيول كان يشق شارع شريف، في ميدان القناصل كان المشاة يهرعون للاختباء، فرقة الموسيقى العسكرية كانت تقطع مقطوعة فيردي التي يعزفونها ويعزفون لها مقطوعتها المفضلة من أوبريت لأوفينباخ، لكنها لم تكن تسمعها كي تتوقف. كانت تهجم على الشارع الذي به المطاعم والبارات وتطيح بما يقابلها في طريقها. كانت الطاولات والمقاعد تنقلب،

الصواني كانت تسقط على الأرض وتتحطم الأطباق الخزفية الثمينة. القطط كانت تهجم على الأسماك المجففة والمتسولون كانوا يبتلعون على عجل قطع البطارخ الدمياطي. كل صفوة الشباب كانوا يقفون على أقدامهم غير عابئين بالموسيقى والنادلات الطازجات ذوات الخدود الوردية من فيينا وبودابست وترييستي ويصفقون لها. أما هي فكانت تقرقع بسوطها فوق رءوسهم دون أن تتوقف. وأيا منهم يناله السوط كانت تأخذه معها في العربة وتذهب به إلى فيلتها، كانت تعصر الشاب كالليمونة. كان أليكساكيس سمسار البورصة الذي كان يضع وردة كاميليا في عروة سترته دائما يطاردها لسنوات ليجعلها له لكنها كانت تقول له « نيخ ». كنا نحن نظن أنها كانت تحدثه بلغة أمها، وربما تعني أن تأتيني بالليل « نيختا »، لكنها كانت تقول له لا بالألمانية. فأحضر عربة وسياسا وأخذ يرشي الحراس والضباط، ويرسل لها الهدايا الثمينة التي كانت بدورها تعيدها إليه، نيخ، نيخ. فراح يشتري ويبيع أسهم زوجها القواد، أراد أن يضعهم في مأزق مادي حتى يوقع بها، فشكته هي إلى: اللورد كرومر، هل تستطيع أن تشتري اللورد كرومر؟ حتى دمرت الرجل. في ذلك الوقت لو كنت رجلاً وكيس نقودك ممتلئًا كان باستطاعتك أن تنام مع كونتيسات وبارونات من عصر الخديوي إسماعيل. كن ينتظرنك على قارعة الطريق مغطيات بالأوشحة الحريرية ويهدينك باقات من أزهار الفيوليت من بارما ملفوفة في أوراق الذهب. وإذا تصادف أن تتوه في أحد الشوارع بالقرب من الأهرامات كنت تسمع طيلة الليل من النوافذ المفتوحة أصوات الجنيهات الذهبية تتساقط على طاولة القمار.

ـ هل كان أليكساكيس هذا هو عشيقك؟

ـ ألأنني قلت لك إنه انهار؟ لا، ماي ليدي. بالإضافة إلى أن الجميع آنذاك كانوا تارة ميسورين وتارة أخرى منهارين. كان هذا بسبب البورصة التي مازالت حتى الآن تبدل الأحوال بين عشية وضحاها، كما يقولون. وكل من لم يطلق رصاصة على رأسه كان يأتي دوره ويصعد نجمه. لا، عشيقي كان رجلا نبيلا، لم يكن من رواد البارات. كان أليكساكيس قبله بعام أراد أن يشتريني من أمي لكنها لم تفعل. لكنه كان قد رآني في صالة « المشهد» ورغب في، لكنني كنت صغيرة جدا. قمنا بعمل فقرة مع أبي ومربيتي، كنت أسير على الحبل وأمثل دور الخفاش. كنت أرتدي مايوهًا أسود ضيقا ملتصقا على جسدي كله، تفهمين بالطبع. حينذاك لم يكن مسموحا أن يشاهد الرجال مشاهد عارية مثل اليوم، حيث يسيرون كما ترين تحت البلكونات عاريات ولا أحد يهتم. كنت أرتدي قناعا ذهبيا على عيني، ولأن جسدي كان ناضجا رغم صغر سني، صار المشهد بارزا وساخنا. كانت مربيتي تعتني بي وتساعدني، كانت تجذب الثائرين وتهدئهم في غرفتها. أما رجلي النبيل لم تطأ قدمه أبدا «المشهد». صادف أن يكون يوم ميلاده، أتم الخمسين من عمره وكان به أسى شديد. وطباخه الذي كان صانع حلوى أيضا، كان يصنع له كعكة العصافير الحية، بعدد سنوات عمره، وعندما كان يقطع الكعكة كانت تطير العصافير داخل القاعة. لكن الرجل فكر في أنه إذا ما وضع خمسين عصفورا ربما يعكر عليه الليلة حين يرى المدعوين يعدون، لأضع خفاشا، حتي يضحك ملء شدقيه. وصنع برجا من الكراميل واللوز

المحمص وبداخله أجلسني في وضع القرفصاء. وفوق الطاولة علق أرجوحة عليها ببغاوات، قطع الرجل الكعكة وانطلقت أنا أقوم بفقرتي. كدت أشعل حريقا وأحرق الطباخ، فلم نحسب وجود النجف. راح المدعوون يصيحون «احرقيها» والرجل النبيل جن جنونه تماماً. دفع الكثير من الذهب لأبي، وأهدى إلى مربيتي عقدا به ثلاثة صفوف من اللؤلؤ، اختفيا بعد ذلك كلاهما ولم أسمع ماذا جرى لهما أبدا. أحضر لي المدرسين والبيانو، أرسلني إلى مدرسة الراهبات، أحضر لي الخياطين يحيكون لي الملابس. ظللت عذراء بين يديه لخمس سنوات، كان يقبلني ويداعبني ويلاطفني فقط، تفهمين كان إنسانا راقيا رفيع الثقافة، كان يذهب إلى باريس كل عام. لكنه لم يكن يجرؤ. الشيء الوحيد الذي طلبه مني كان أن ألعب له الخفاش في يوم ميلاده. لكنني كنت قد كبرت والمايوه كان قد ضاق علي فحاكوا لي غيره. كنت امرأة كاملة في التاسعة عشرة من عمري. بعد عيد ميلاده الخمسين اختبأت منه كما كنت بالمايوه في الشرفة، وعندما ذهب لينام تسللت مثل خفاش إلى فراشه. كنت أريده وأحبه، وكنت في حاجة إلى رجل. لا أستطيع أن أقول إنه أشعرني بالسعادة من أول مرة. بكينا سويا وكنا نرتعش، وكدت أخسره وهو بين يديّ، فقد كان مريضا بداء القلب. انتشر الأمر بسرعة وعلم ولداه من زوجته المتوفية فضيّقوا عليه، هددوه بالعقود العائلية حتى أجبروه فأخذ لي بيتا بعيدا عنهما، وكان يأتي إلى كي يراني هناك. المايوه الجديد كان شؤما، سأريك إياه ذات مرة، لابد أنه في الصندوق مع القديم. الوحدة إشارة سيئة. تورطت مع واحد كان يحوم حولي، كان مهربا للأدخنة. ضبطنا النبيل ذات مرة متلبسين وكدت أن أخسره مرة أخرى بسبب قلبه. خلال سنة زوّجنا.

قال لي: إذا أردت ألا آتي إليك مرة أخرى فهذا حقك، لكن هذا سيكلفني كثيرا، يعرف كلانا هذا، لكني سأتحمل. لكن شيئا واحدا أطلبه منك، لا تنجبي من زوجك لأن صفاته الوراثية سيئة. لم تكن هناك حاجة لأن يخبرني بهذا، كنت أعلم أن بذرته قميئة. استمر هذا الوضع لمدة ثلاث عشرة سنة، كان زوجي يضربني فيأتي النبيل الآخر ويواسيني. وفجأة وجدت نفسي حبلى. حبلت من رجل وسيم في الحي، كبير في العمر لكن صحته جيدة، قلت لنفسي، اللعنة على كل شيء، أقترب من الثانية والثلاثين، متى سأنجب ولدا يعتني بي في الكبر؟ قلت لزوجي إن بذوره ضعيفة. صدقني أم لم يصدقني لم يهمني. قلت للرجل النبيل الحقيقة. كنت أعرف أبا الولد وبالطبع كنت أحبه. حلّفني ألا أقول شيئا لأحد، ولا حتى للأب شخصيا، وفي اليوم التالي راح وكتب قطعة أرض كبيرة لها مستقبل باسم الولد. من ناحية كان هناك ضجر من ولديه ومن ناحية أخرى كان الملعون كرومر بسبب صداقته بالخديوي، حاصروا رجلي ودمروه. بعد أن أنجبت مباشرة؛ مات. لم يعش حتى يرى حرب البلقان ويسعد بأن يوانيا وثيسالونيكي عادتا إلينا وأيضا جزرا كثيرة. ترين؛ لقد كان وطنيًا جدا.

بالطبع في الليل كانت نانسي تفضل ألا تخرج. ليس لأنها تأثرت بحكاية جوين المرتبكة عن الذبح! وإذا دفعتها الضرورة أبدا لتذهب إلى مكان كهذا

كانت بالطبع ستلجأ إلى مسز برووكس؛ ماري كلود كانت ترى أن الأمر ممكن؛ مصدر جاد وصف مديرة « بروتياس» أنها حصيفة وراقية. لكن نانسي كانت تبقى في البيت لأنها لم يكن لديها معارف يذهبون إلى الملاهي الليلية حيث السهر والرقص؛ ولأن مقاعد السينما كانت مليئة بالبراغيث، ولو صادف أن يكون اليوم هو أول الشهر حين ترش البلدية المبيدات، كان المكان يتعبأ برائحة المبيدات الحشرية مع رائحة دخان سجائر فرجينيا التي كنت تذكرها بالزيارة السيئة لبيتر. بعد ذلك اكتشفت نشوة الويسكي فكانت تشربه دون أي إضافات؛ ليس كثيرا، ثلاث كئوس أو أربع كل ليلة. مسترخية على الأريكة، كانت تشعر بنار رطبة تتدفق وتلفلف الخدر داخل أحشائها. كان لديها حلم قديم بأن تكتب مجموعة قصصية قصيرة وكثيفة. كانت تكتب جملة جملة في ذهنها. لكنها لاحظت وهي تتساءل أنها لا تستطيع أن توجه إلهامها كما تريد. بدلاً من أن تصف الحياة في بلومزبيري بكل تلك التفاصيل المهمة لحياتها اليومية، راحت تضع تصاميم لقصص رعب. فجأة تخيلت في مكان إحدى البنات المذبوحات ويجرفها وحش الفضول بيما كانت تعرف عن الجرائم، كانت تعرف أن كلهن رائعات، لكن البعض يقتلهن.

راح يقترب اليوم الذي كانت ستذهب فيه إلى السيدة أتكينسون. فكرت أن تعتذر لها عبر الهاتف، لكنها تماسكت على أمل أنها ستقابل ماري كلود، التي لم تكن تقبل بأي وسيلة أن تترك الأتيليه، الملعونة! فالحقيقة أن الفنانين تأتيهم حمى الإبداع فجأة. ماري كلود كانت مصممة نقوش، وكانت تقوم بعمل فني الآن جريء للغاية عن سوناتة فيرلين «رجال» من

أجل إصدار إشكالي، عندما ستتحرر باريس. ابنة الليدي أتكينسون من زواجها الأول: طويلة، ولها جسد رائع وعيون كستنائية مرهفة؛ أنفها كان مثل جزرة حمراء تميز وجهها من أي زاوية تنظر إليه. من الزيارة الأولى لها في صالون السفارة الصغير بمقاطعات قصيرة وثاقبة، ساعدت نانسي في أن تتخلص من الكمين الذي تنصباه لها كل من الليدي أمها وجوين. بينما الأخيرة على سبيل المثال كانت تذكر بمديح نشاطها المشترك القديم مع نانسي وعن سيارة الإسعاف التي ساعدت في أن يرسلوا إلى إسبانيا، ماري كلود سألت: إلى فرانكو؟ لكن الليدي أتكينسون كانت تواجه تخريب ابنتها بصدر رحب: ربما نحن أيضاً لا نحارب من أجل الديمقراطية؟ كان هذا كافياً لكي يوجه نانسي. رفضت أن ترتبط بشيء معهن. وعدت فقط أن تفكر في الأمر. هنا كانت مقاطعة ماري كلود: هناك أيضا موضوع الأسبقية. إن الليدي نانسي، رغم أنها أصغر بكثير، إنها بالفعل بارونة أرجينتيل، وفي لجنة... وضعت أمها بهدوء أمامها كأس الخزف الهندية في طبقها. ابتسمت باستعلاء: الآن تتحدث دماء الرعاع. تماما مثل أبيك. يا إلهي، كم بقت شعوب البحر المتوسط غير ناضجة هكذا... ثالث مقاطعة: اليونانيون على سبيل المثال... هنا ظهرت شخصية الليدي أتكينسون، التي فاز عليها في الحرب الأخرى ذلك المغفل المدعو «بسمارك» كفي يا ماري كلود. سأرسلك إلى الحديقة ! بدا صوتها لو كان خارجا من علبة ألوان رصاص خشبية.

في المرة الثانية، عادت جوين من القاهرة وكانت نانسي وحيدة في فيلا أتكينسون في الحي اللاتيني، بسيارة سبور كانت تذكرها بأخرى

مثيلتها في نابولي، والتمشية من قلعة دي أووفو وحتى الأكواريوم ويد رون متشبثة بثديها من داخل فتحة كوم روب جديد. خرجت الليدي أتكينسون مع أخرى عجوز إنجليزية من مانشستر، زوجة أحد اليونانيين أصحاب المصانع، والذي كانت مساعداته الأخيرة في محاولة الحرب كانت تزويد المناطق المحيطة للإسكندرية بالبصل. تكلموا عن الصالون المجدد الذي كانوا يتناولون فيه الشاي. كان ذوقه أوروبيا بالفعل، كان مصمما من أحد مهندسي الديكور في شارع شريف، باهظ الثمن. الظل الوحيد الذي عكر صفاء الليدي أتكينسون كان في صباح اليوم نفسه ومن ابنتها، عندما أخبرتها بأن هذا المصمم، هو فرنسي ولديه جنسية إنجليزية، كان حفيد أحد المنجدين المشاهير وهو شيوعي، وكان لاجئا سياسيا في لندن بعد مذبحة بير لاشيز.

وهكذا بدأوا سريعا في موضوع اللاجئين. الليدي أتكينسون بين الحين والآخر كانت توجه الحديث إلى نانسي، كما لو أنها قد أعطتها موافقتها، أو كأنها كانت قد صارت عضوا في اللجنة. المشكلة، قالت لها، من أول نظرة تبدو بسيطة، لكن عندما تشرعين في حلها تكتشفين أن هناك طبقة ثانية وثالثة للمشكلة، باختصار، تجدين نفسك أمام السؤالين اللذين يشغلان كل إنسان مفكر في هذه اللحظة: لماذا حاربنا؟ كيف سيكون العالم غدا؟ وهذا مثال صغير. وضعنا النساء في معسكرين مختلفين، لماذا؟ هذا أمر آخر سيطول شرحه. لاجئات، أفواه لا فائدة منها. لقد تركوا أوطانهم عندما يجب علينا أن نوفر مقابل حتى آخر بوصة مكعبة في مساحة الناقلات

البحرية في محاولتنا الحربية. لقد تركن أوطانهن على الرغم من أن الألمان لن يأكلوهن، إلا إذا كن متورطات في أعمال الرجال. بدلاً من أن يُكيفن أنفسهن على الأوضاع والظروف الجديدة، كن يردن... استقلالاً. نقول لهن إن قواعد الصليب الأحمر وأوامر الجيش العام وقوانين الدولة المصرية التي تستضيفنا... وهن: لا شيء، حكم شعبي. حسنا، ضعوا فلانة وفلانة وفلانة، إنهن معسولات اللسان، يعرفن بالتأكيد لغة أجنبية على الأقل. لا، يقلن لنا: أبدا، لأنهن يضاجعن إيطاليين. نقول لهن هذا أمر يخصكن أنتن، نحن هنا على أرض أجنبية ولن نصبح محكمة للأخلاق. لا، يقلن لنا، إن الأمر يتعلق بأهداف الحلفاء في الحرب، إن أخلاق هاتيك النسوة وتعاونهن مع العدو هو الشيء نفسه. هذه التي كانت تتحدث معنا كانت جميلة، من يدري من أين تعلمت اللغة الإنجليزية. فجأة سألتها بلغتها: لو كان بدلاً من الإيطاليين ضاجعوا أصدقاء إنجليز هل كنت ستعترضين؟ نظرت إلى من أسفل إلى أعلى ورمقتني بنظرة أفعى شمطاء: كويزاليج، قالت لي وكأنها تبصق في وجهي. هذه الحقيرة الجاهلة قالت لي أنا كويزاليج! بالطبع أشرت للكولونيل عليها وقلت له أن يراقبها حتى لا تسبب المشاكل.

ماري كلود التي كانت تتنصت دخلت مرتدية بلوزة مبقعة بحبر من الأتيليه.

ـ قالت، عفوا على المقاطعة. نانسي، أريد رأيك في أمر...

رفعت لوحة كبيرة من الورق المقوى بحيث لا يراها سوى نانسي وأمها

فقط. كان مرسوما على اللوح بحبر هندي جسدان عاريان متشابكان بشكل واضح وبليغ مما جعل الليدي أتكينسون تقفز من مقعدها المذهب والوثير.

- ليدي نانسي، قالت وقد احمر وجهها حتى أذنيها. هل سيضايقك إذا منحت نصائحك الخبيرة في الأتيليه؟ وإلا لن تكف هذه الفتاة عن مقاطعتنا.

جذبتها ماري كلود من يدها بحيوية. غادرتا في هرولة تقريبا. كان يبدو على السيدتين أنهما تتحاوران بشكل طبيعي جدا.

- عجائز شمطاوات، قالت ماري كلود وهي تتنفس الصعداء. إن قنديلكم ينضح برائحة كريهة... هكذا سيفتح الجيش الأحمر أشرعته ويطفئها...

في الصندرة العليا التي صنعت منها أتيليه، حكت لها عن الفضيحة الأخيرة. انفجرت نانسي في الضحك وهي تسمعها. صاحب مصانع تجفيف البصل كان زير نساء شهيرا في الإسكندرية. وضع عينه على فتاة في التاسعة عشرة صديقة ابنته. نظم حفلة تنكرية للشباب في فيلته كان موضوعها الأحصنة الصغيرة. حلة رقص شفافة ملتصقة بالجسد وقناع وذيل حصان على المؤخرة. وصل الشباب وهمّوا إلى البار والويسكي والجين فانحلت أخلاق الجميع. و دون جوان الليلة كان يسبح في بحور البهجة. انفرد بمحبوبته، لم يدعها ترقص مع آخر، قدم لها قذائف من الاعترافات وعرض عليها كنوز السماوات وراح يسقيها خمرا طيلة الوقت. من الناحية الأخرى، كان هناك تجاوب تام ودافئ. اتجه بها نحو الممرات المظلمة والغرف الداخلية. وهناك وفي اللحظة الحاسمة، سمع فتاته تتنفس بثقة وتقول: يا

أبي، ربما أنت مخطئ... أصابه انهيار عصبي. أرسلوا في طلب عاجل إلى طبيب نفسي من القاهرة.

القصة نفسها مع بعض الاختلافات سمعتها نانسي من مسز بروكس. كانت تأتي إليها ليلاً بين الحين والآخر وتسليها. مرة كل أسبوع بالتأكيد، عندما كانت بروكس تلعب البريدج مع أصدقائها الغرباء. لم تكن مسز بروكس تحتمل أبدا رائحة أحدهم النتنة. كانت تنبعث منه رائحة عفنة تشبه زيت أسماك منتهي الصلاحية. لم يكن يستحم أبداً، أبداً؛ لم يكن يلمس الماء وكانت هذه عقيدته. كان متسكعا وفيلسوفا، مريدا متعصبا لأحد الفلاسفة يُدعى بايميه كان يعبد النار مثل الفرس القدماء. كان يتكلم عن «حضارة بدوية»، لكن أحدا لم يكن يفهم ماذا يعني. كانت مسز بروكس تبتهج عندما تسمعهم يتشاجرون حول الإسكندرية. كان كل منهم يعيش في قرن مختلف؛ كما كانوا يقولون، كانوا يتكلمون وهم يظنون أنهم لا يتحدثون عن الشيء نفسه. لكنها لم تكن تحتمل القذارة فكانت تغادر.

كانت نانسي تتعلم شيئا جديدا في كل مرة من هذه الزيارات. وهكذا أضيف سبب آخر كي لا يكون لديها رغبة في الخروج ليلاً. كانت تستمتع كثيرا عندما كانت مسز بروكس تحضر أوراق اللعب وتبدأ في قراءة الورق. هناك سيف شرير، قالت لها، يفكر فيك كثيرا. لكن أرى مخاطر، يحتاج الأمر منك إلى الحذر الشديد. بالطبع لدينا الكومي، أفترض أنه السير تشارلز،

لكن لا، أخشى من عصا الشرير، انظري كيف يتسلل مثل الثعلب! كانت نانسي تتسلى. كان من السهل عليها أن تخمن مصدر معلومات عرافة الأوراق: التليفون. لكن في الصباح، عندما صارت الزيارات منتظمة، قالت لها مسز بروكس بالتحديد إن السيف الشرير لديه علامة على جبهته من أثر مبارزة. هذا أقلق نانسي. سألت إلى أي مدى وصلت معلوماتهم، لكن الأخرى أكدت لها أن هذا فقط ما تقوله الأوراق، لم تكن تعرف هي أي شيء. عرفت نانسي أنها باحت بكل شيء من نفسها. قررت أن تكون أكثر حذرا.

اكتملت ثقة مسز بروكس قبل أعياد الميلاد بشكل غريب. أقنعت نانسي أن يقوموا بـ «طقس الحلاوة»، أقدم وأنجح وسيلة لنزع الشعر في الشرق: من السكر المذاب. طريقة مؤلمة قليلاً لكنها تحتاج شيئا من الخبرة. قبلت نانسي بدافع الفضول. في اليوم المحدد وصلت مسز بروكس مرتدية كيمونو وتعجن وتمط وتطوي باستمرار عجينة رمادية. احتاج الأمر أن يتعريا قدر الإمكان أكثر؛ بقيتا فقط بالكيلوت والسوتيان وأغلقتا عليهما باب الحمام. بالنسبة لعمرها كان جسد السيدة بروكس في حالة رائعة. بشرتها سمراء وجسدها مشدودا كانت تقشعر نانسي فور أن تلمسها. كامرأتين قالتا أسرارهما، كيف تحل هذه المشكلة الأولى، وكيف كان صعبا على الثانية. كان هناك دائماً رجل، قالت عن نفسها جوليا، هذا كان اسم مسز بروكس: ليس دائما الرجل نفسه، لأنهم يلتصقون بهذا الشكل ويصعب بعد ذلك التخلص منهم. لكن رجلا واحدا، لا يصح أبدا أن يكونا اثنين في التوقيت نفسه. بلا شعور بالذنب، ولا حب ودقات القلوب، هذا بخلاف الانتظار المعتاد. مثل

مقياس صحي، مثل دواء، مرة أو مرتين في الأسبوع. وجه نانسي كان يكشر من الألم لأن جوليا كانت تشد عجينة الحلاوة دون أن تنبهها، وأجابتها بأن هذا الأمر مستحيل بالنسبة لها. فهي يجب أن تحب الرجل بكل كيانها حتى تمنحه شفاهها على الأقل. راحت جوليا تعجن الحلاوة ثانية ثم قالت: آه، العشق. أحببت أنا أيضا ولدا، يا للعذراء! لما رآه الشيطان المدعو بروكس أرهبه فهرب مني. شيطان بكل معاني الكلمة، شيطان شرير وواسع الحيلة. عليك أن تنتبهي منه يا عزيزتي. فبإمكانه إلحاق الأذى بك. أنا لا أصدق تلك الحورات على طاولة البريدج عن الإسكندرية القديمة والحديثة. أنا متأكدة أنه مازال مستمرا في عمله القديم، مخبرا واشيا. وكل أصدقائه يستخدمهم كطعم. كنت أريد أن أقول لك هذا لكن لم تمنحيني الشجاعة. ثم إنني كائن ضعيف، أخاف منه. يهددني فأنفذ مايطلبه. لحساب من؟ أنا لا أرى معه أموالا أبدا. لكن لابد أن لديه الكثير في البنك، لمن سيترك كل هذا المال؟ مهري، مجوهرات الأم... هذا الشاب اليوناني الذي تبحثين عنه...أنا يونانية أيضاً، جوليا، أي يوليا باليونانية، ولدت في شهر يوليو. مازلت أذكر أبي، كان اسمه ذيموستينيس، على الأقل أتمنى أنه كان هو أبي.

- توقعت أن تكوني يونانية، قالت نانسي لتجعلها تكمل حديثها.

- عزيزتي، قالت جوليا وهي تسير بيدها بالعكس على بشرة ساق نانسي. لابد أن تقولي له إنه سيكون في خطر إذا جاء إليك. لا، لا، فيما بيننا الأمر لا يحتمل الشكوك وانعدام الثقة. تعرفين عمن أتحدث. عن هذا الرجل ذي القبعة والجرح الغائر على جبهته. بالتأكيد رأيته مرة على السطح هنا

ولم تتعرفي عليه.

جلست نانسي على الأرض على الحصيرة المبللة في الحمام تتصبب عرقاً وتشعر بوخز خفيف في المناطق المزال عنها الشعر.

ـ صاحت نانسي، جوليا ! بحق الرب، كيف تعرفين كل هذا؟

ـ لا أدري يا نانسي، ربما أعرف، سأقول لك، لكن هكذا أنا أسلمك حياتي. هذا الميجور بيتر، صديقك، جاء مرتين وقابل بروكس. في المرة الأولى طلب منه أن يراقبك، لأن ذلك اليوناني سيظهر ذات يوم فلابد أن تسلميه لوحة ما. في المرة الثانية، قال له عن القبعة وذلك المشهد على السطح. أنا لم أكن أعرف شيئاً، بالأمس عرفت هذا، فكري لمن حكيت الأمر.

كان معه بحار يوناني. لكن هناك بحارة كثيرين يدخلون ويخرجون من هنا، البواب يقول إنه لم ير شيئا، فهو لا يدع أشخاصا غير معروفين يستقلون المصعد دون أن يسألهم.

ـ صاحت نانسي ثانية وفي صوتها بصيص أمل: الآن، يمكن أن يكون البحار من معارف البواب. هل سألتموه؟

ـ نعم. لكن الأمر أن هناك بحارة كثيرين يصعدون ويهبطون من معارف البواب في هذه البناية. أتمنى فقط ألا يكون بروكس قد فكر بالفعل في هذا الأمر.

ـ لكن لماذا يكون الشخص الذي أبحث عنه أن يكون بالضرورة هو

نفس الشخص ذو القبعة؟

- لا أعرف، الرائد بيتر متأكد من هذا. يربط بين ظهوره وتوزيع ثمة منشورات ما بالقرب من هنا في كازينو الشاطبي في ذات ليلة الثامن والعشرين من أكتوبر.

بيتر، جويندولين، هل هم تروس في سلسلة الخيانة؟ يا للقرف، يا للرعب! كان يجب على نانسي أن تفكر جيدا، لابد أن تدافع عن نفسها.

- لابد أنهم مخطئون، قالت. المشهد على السطح كان في أول نوفمبر.

XI

عندما يتأخر الوقت ينحصر ظل شجر الماستيكة ويلملم أقدامه. حان وقت البحر. تخلع ملابسك وترتدي ملابس السباحة التي اشترتها لك أمك في آخر لحظة. عبارة عن قطعة قطنية واحدة رمادية اللون وبلا وسط، تسقط متهدلة على جسمك وتضيق عليك عند الأكتاف وأعلى الساقين. لقد خدعها البائع. قال لك توني إذا ابتلت ستضيق أكثر. ترد عليه بأنه على العكس ستتهدل أكثر فهو مصنوع من القطن، تقول هذا كي تعزي نفسك. ساء يومك حتى قبل أن ترى البحر. قال لك قبل أن ترتدي قلنسوتك القطنية إنك لست في حاجة لها، ممّ تخاف، هل تخشى أن تسوّد من الشمس؟ دعني آخذ بشكيراً على الأقل، كيف سأسير عاريا في الشارع. لا، يقول لك، ستربكك، هل تريد أن تشغل بالك طيلة الوقت خشية أن يسرقها البدو. سنذهب بملابس السباحة وحفاة.

موقد آخر مشتعل في غرفة الخالة؛ في غرفتكم وضع الجد قبل أن يغادر قدر الفاصوليا على النار ليتم سلقها. أمي، سنغادر نحن. لم يتلقَ إجابة. يسير متفاخرا. في الطريق الترابي يسير ويقفز بين الحين والآخر: ينظر

خلف الأسوار. تسير خلفه وأنت تعرج، لست معتادا أن تدوس قدماك على الحصى. نحلة تطير فوق رأسه وتحوم في دائرة مثل تلك الهالة في أيقونة عذراء الأجانب. انتظر حتى نقتلها، تقول. لا، دعها فهي تعرفني؛ إذا لم تضايقها لا تهيج ولا تلدغ.

تدخلون من الباب الصغير لكنيسة الرسول إلياس ولا تزال النحلة معكم. زوجة القس تجلس على الأرض تنظف بعض الخضراوات. تخشى أن تصرخ فيكما، لكنها تتظاهر بأنها لا تراكم. القس يرتل داخل المذبح. وصلتما إلى البوابة الحديدية. صاح صوت: يا توني، قل لجدك أن يرسل لنا القليل من البرغاموت كي أصنع للقس بطيخا مُحلًى، فهو يحبه كثيرا. قال توني: حسنا، ثم قال وهو يكز على أسنانه: اللعنة عليك، عجوز ثرثارة!

لابد أن هذا الشارع الذي تقطعانه هو شارع أبو قير. آخر أشجار البونسيان مفروشة على الأرصفة وقد تعفنت أوراقها الكبيرة بشكل واضح كأنها سجاجيد حمراء يتم فردها على التوالي تحت مظلات خضراء ساحرة حتى تصل إلى فيكتوريا. تتردد لكن ركبك لا تطاوعك. حتى الآن كنتما تمشيان في أراض معروفة، لكن هذا الشارع هنا يبدو كأنه تم حشر المجتمع الراقي فجأة في أسرار فقركم. ماذا لو مرت سيارة بها سيدات ورأينكم بملابس السباحة؟ سيضحكون، مازال البحر بعيدا.

بعد شارع أبو قير تجد ثانية العالم المعروف. شوارعه المتقاطعة تؤدي كلها إلى البحر. الأشجار نفسها، البيوت نفسها، الأسوار المحملة بزهور

الياسمين والبوغانفيليا زهور العسل والأراضي المسوَّرة نفسها. بين الحين والآخر هناك فيلا، إسطبل أو حظيرة، كلها بأركان وأسطح متدرجة دون تعريشات أو مجسمات من الجبس. على نجيل وبيجونيا أو ورد بلدي. أولاد يرتدون أفضل ما لديهم ويركبون الدراجات ويمسكون بألعاب وبنادق مع مربية وخدم نوبيين يحرسونهم. يصمتون تماماً فور أن يروكم. البحر يقترب، الأسوار والبساتين تتناقص. تحاول جاهدا أن تنصت إلى صوت البحر مثلما في الصباح، لكنك لا تسمع شيئا. تغوص أقدامكما برفق في الرمال الساخنة. الشمس الحارقة تأكل في رأسك الحليق الذي تشعر كأنه بطيخة ثقيلة. أمام أحد الأراضي التي بلا سور ولا سياج يتوقف توني. عنزة تمضغ شيئاً فوق كومة من الخرق والأوراق والصفائح الصدئة. بالداخل قليلاً بعض نباتات الصبار العالية مصطفة وبها أوراق صفراء. بعض الدبابير تحوم حولها بانتظام كأنهم مروحة في لعبة جامدة. هل تراه؟ يسألك وهو يشير لك. أنت لا ترى شيئا. يأخذ من الأرض حصاة ويقذفها. يصعد من بين نباتات الصبار هدهد، يفتح جناحيه الجميلين ويطير بتموج ثم يجلس على أحد أشجار المستيكة. خسارة، يقول لك، لم أحضر مرجامي كي نصوب في هذا الحقل؛ فبه سمان أيضا.

وأنت أيضا مرجام؟ قال توني: يمكن أن أعطيك عصا، فأنا أصنع المرجام بنفسي من خشب الجوز. أنظفه بالصنفرة ثم ألمعه قليلاً؛ لكن ليس لدي نقود كي أشتري المطاط. ما الذي جال بعقلك حتى تعطي نقودك كلها إلى العجوز؟ لكي يحفظها لي، لقد أمرتني أمي بذلك. اذهب الآن كي تأخذها منه،

اذهب لتفك أصابعه القابضة عليها، يقول لك بمرارة. لماذا تقول هذا يا توني؟ ماذا فعل لك؟ لأنه شخص غريب، كما أنه لا يحبني. حتى إن أمي فهمت ذلك من مكانها حيث لا ترى شيئاً. هل تريد أن أقول لك؟ لقد جُنَّ العجوز. إنه يقول إن قطعة الأرض التي نسكن فيها تحوم بها جنية، يسمعها في الليل تسير على القرميد.

ـ يمكن ألا تكون جنية، تقول أنت بتردد.

ـ هل جننت أنت أيضا؟

تسلقتما عوارض الترام. بقيت النحلة خلفكما، وهنا تنتهي حدود منطقتها. صارت أقدامكما بيضاء، الرمال الآن أضحت ناعمة كالبودرة. وصلتما إلى الحافة، البحر كبير وهادئ والمياه صافية بلا موج عالٍ. تحيي البحر بيدك كما وعدتهم في القاهرة. تنزلان ، توني في الأمام يمر من خلال الصخور والرمال المتحجرة التي تدخن في الهواء من أثر الشمس الحارقة. تخرجان بين شاطئين، على اليسار حمامات سان ستيفانو، حيث حاجزه المكون من أعمدة حديدية داخل البحر وفوقها وضع سلسلة من الكبائن بألوان زاهية. ترى شبكة السلك التي تحدد حدود هذا الشاطئ الأرستقراطي من الرمال وحتى الصخور. من درب آخر على اليمين، ينزل ولد. يرتدي سروال سباحة أزرق وخلفه بنتان ترتديان قبعتين من الخوص وجونلات بيضاء، كلهم حفاة. نادت ثاليا على توني فور أن رأته. راح هو يشير بلا مبالاة وكأنه يعني أننا قادمون. يقول لك، إنه دينوس ابن البقالة مع شقيقتيه.

اتجه الثلاثة يمينا نحو شاطئ لوران. تظهر هناك حوالي عشرين كابينة غير مطلية وعلى حافة المنحدر المنخفض الذي يبدو كأنه جزء من فناء يحميهم من المارة والبدو. داخل البحر تظهر الرءوس بقلنسوات السباحة الملونة. أولاد يبنون شيئاً على الرمال، رجال بأجساد رياضية يتشمسون متمددين على بطونهم. بعيداً وأبعد هناك سيدات بملابس صيفية يجلسن على كراسٍ قابلة للطي ويرفعن مظلات حريرية. حارس الشاطئ يرتدي فانلة الخدمة على سروال السباحة وقبعة بيضاء مثل قبعتك. يستند بظهره على سارية العلم العارية من العلم اليوم ويتابع السباحين داخل المياه. تحت قدميه كانت عوامة الإنقاذ. بعيدا، شاطئ البوريفاج: فندق لحديثي الزواج، يقولون إن الإدارة تقدم للعروسين في أول ليلة زجاجة شمبانيا مثلجة. مظلات بألوان مختلفة وشيزلونج، لكن لا يوجد أناس هناك. ينتهي الشاطئ عند لسان حمامات بترو. هناك مجموعة من أكواخ خشبية وأسطح مثبتة على عوارض تجري من تحتها الأمواج وتنكسر عندما يهيج البحر.

ـ يسألك فجأة، هل تعرف السباحة؟

ـ ألم تكتب لي أنك ستعلمني؟

ـ إذن، لنجلس، لنغُص هنا ثم بعد ذلك نذهب إليهم. أترى هؤلاء السيدات بمظلات اليد؟ إنهن من عائلة غيراسيمو. ثريات جدا ومغرورات. إذا ذهبت كي أحييهن تظاهر بأنك غير منتبه. انتظر حتى أناديك.

وما حاجتكما للسيدات. تذهب مباشرة نحو الماء لكنه يلحق بك ويغطس قبلك. يقف في الماء ويشير لك إلى العمق الذي تستطيع أن تدوس فيه بقدميك. يغطس ثانية برأسه. وأخذ يسبح سريعاً نحو البحر المفتوح.

لابد أن الساعة اقتربت من الثانية. ستسلكان الشوارع الضيقة نفسها. حزن صامت يسير معكما. كثير من أمورك ضايقت ابن الخالة. ملابس السباحة وقبعتك التي لو ارتديتها كنت ستشبه فتى الإنقاذ في الشاطئ. قلة خبرتك بالسباحة، رأسك الحليق، جسدك النحيف. حضورك في كل الأحوال يسبب له الحرج. أنت جائع، يكاد الحر أن يقتلك. الأرض تحرق قدميك وليس لديك طاقة أن تهرول أو تقفز. تقول شيئاً لكنه يتصنع الصمم. رائحة الهواء جير وملوحة، انحسر الظل بمحاذاة الأسوار. تشعر بجلد قفاك وذراعيك وأفخاذك التي اشتعلت حرارتها وبدأت في التورم. لقد تركك لساعات طويلة وحيداً في الماء. قضيت وقتك تضرب البحر بقدميك وذراعيك. حاولت أن تقفز من على العارضة لكنك غرقت. لهثت طويلاً وأنت تحاول أن تقلد حركاته عندما راح يسبح نحو البحر المفتوح. كنت ترتعش خوفاً من أن تجد نفسك في مكان ما في عمق البحر أو أن تغرق، شربت ماءً كثيراً من فمك وأنفك، كان الماء مالحا ومراً، كان يذكرك طعمه بالمرة السابقة. رأيته في لحظة يخرج من شاطئ لوران ينثر الماء من شعره. هرولت في التو نحوه بنت غيراسيمو. ترتدي حلة سباحة زرقاء وحزاما عريضا وحذاء ورديا وقلنسوة سباحة مطاطية صفراء. ثدياها يقفزان للخارج صلبين وناهدين. تجلس تنظر وتنتظر. ترتعش شفتاك من البرد وقد ازرقّت أصابعك. تحاول أن تصبر قليلاً لكنك لم تعد تحتمل، تخرج وتتقلب في الرمال الساخنة.

عند أقدام الهاوية هناك بعض الظل، تذهب إلى هناك وتجلس كي تحتمي من الشمس. تحاول التفكير بشيء سار، مثل: ماذا يفعل الآخرون الآن في القاهرة وأشياء من هذا القبيل. لكن عقلك يذهب دائماً إلى توني. بالطبع لا تنهض أبداً لتذهب إلى هناك فقد منعك بأسلوبه، وكبرياؤك لا يسمح لك أن تتظاهر بأنك لم تفهم ماذا قصد. مركب شراعي يتجه نحو عمق البحر ومراكب أخرى في طريقها نحوها. تنظر سرطانات البحر بهدوء ثم تخرج من جحورها خائفة مسرعة. أحياناً تغرقها المياه لكنها تنتظر حتى ينحسر الموج وتخرج مرة أخرى من الجحور. بدأت الرياح الشمالية الشرقية تهب فيصير لون البحر مباشرة أكثر قتامة. الأمواج بدأت تتتابع وازداد زبدها ورذاذها. كان للهواء رائحة أعشاب البحر. الأعلام الحمراء في سان ستيفانو بدأت تلوح في زهو للسباحين، كل الصخور الآن غطتها الأمواج. قمت لتنظر نحو لسان حمامات بترو. تريد أن ترى إلى أي مدى أسفل الأسطح تصل مياه الموج. لكنك لا تستطيع لبعد المسافة. حارس الإنقاذ في شاطئ لوران يرفع العلم الأسود: شارة الخطر. تذهب إلى البحر مرة أخرى كي تغسل جسمك من الرمال، ولا تدري كيف أتت موجة وطرحتك على وجهك. تشرب ماء مرة أخرى وتخرج إلى اليابسة وأنت تسعل وتبصق. أمامك شقيقتا دينو تقفان تمسك كل منهما بوسط الأخرى. تنظران إليك ثم ترحلان. تسمعهما تقهقهان خفية. كان يجب أن تقول شيئا، كان الأمر بسيطا، لكنك خفت الإهانة. تتظاهر بأنك لم ترهما، تصلان حتى الحواجز، انتهى الطريق، جاءا حتى مكانك. أخيراً ظهر توني. من بعيد ينادي عليك أن تسرع لترحلا.

ـ أما كيف لم يأت بذهنك أن تأخذ بعض الرخويات من الصخور لتأكلوها مع الطعام في البيت، لأنك خفت أن يوبخك.

ـ تقول له، غدا عندما أتعلم السباحة سأذهب حتى الصخور البعيدة.

عاد الجد إلى الكوخ منذ الثانية عشرة. ألقى بالفاصوليا وزيت القطن والطماطم والكرفس وأربع شرائح من البسطرمة لتكسبها طعما لذيذا. العمة لا تتكلم، لا تسمعها إلا وهي تسعل باستمرار. ينتظر الجد متعكر المزاج قليلاً وهو يمسك بالسكين موجها شفرته إلى أعلى. تحضران أطباقكما وشوكاتكما. تسمعون من الجوار. لقد قتلتني يا شيطان. هذا ما فعلته بحالك، هل كان من الصحيح أن تخرجي بالليل تحت المطر؟ يقول الجد. يرفع توني عينيه وهو يحاول أن يسمع جيدا.

ـ قلت لك إنني لم أمش تحت المطر، أنت تضخم الأمور يا أبي.

ـ إذن كان هناك مطر، هذا ما بدا لي أيضا، قلت بعد قليل.

ـ كانت سحابة. هل سمعت شيئا آخر؟ يسأل الجد.

ينظر لك توني في عينيك مباشرة.

ـ قلت، لا. ربما. لا أعرف. ربما أصوات بعض البوم. لكنني نمت مرة أخرى.

يملأ الجد الأطباق. يضع في طبقك القطعتين الكبريين من البسطرمة، وفي طبق توني واحدة. تتظاهر بأنك لم تنتبه وتبدأ في الأكل فأنت جائع جداً. لكنك لا تستطيع أن تبتلع البسطرمة. تترك القطعة الثانية على جانب الطبق

وكأنها لم ترُق لك كثيراً. فور أن تنهي قطعة الخبز يضع لك الجد قطعة أخرى ويرسلها لك بطرف السكين بجوار طبقك. هكذا يتابع الطعام تارة والخبز تارة، شرائح الخبز يقطعها رفيعة جداً. هي عادة قديمة لديه، كما كانوا يحكون عنه في القاهرة. لا ترفض الخبز أبداً، ويا ويلك إذا قمت من على الطعام تاركا قطعة خبز. كان يُجبرك أن تجلس مرة أخرى حتى تأكله. أما لو كان ضيفا أو شخصا كبيرا في السن مثل العم أنطوان على سبيل المثال، فكان لا يضغط عليه، يجلس الجد حتى يأكل بواقي الخبز كلها حتى الفتات. تمسح طبقك بآخر لقمة. تسقط بجوارك شريحة خبز جديدة. يقول لك الجد وهو ينظر إليك، حتى تأكل اللحم. جبهته تشبه حبة بطاطا عطبة، لكن عينيه مثل حبتي بندق مضيئتين. يفهم كل ما يدور حوله. بعدها يخرج من جيبه حبتين من المشمش ويضع واحدة في طبقك والأخرى في طبق توني. هل انتهيتما؟ الجد سيذهب إلى البستان، يقفز توني إلى الطلمبة وأنت إلى المطبخ كي تغسل الأطباق. المكان له رائحة موقد الكيروسين. لا تحب أن تدخل إلى المطبخ. امرأة من بيت عائلة تسيرفولو داخل زهور البوغامفيليا ترسل السباب واللعنات. تذهبان للقيلولة وأنتما مازلتما في ملابس السباحة. سوف تغسلان الأملاح والرمال في المساء، هذا إذا كنتما ستخرجان للتمشية.

في المساء يقف توني على باب حمامك. يصب لك الماء من الدلو، يربت ويتحسس قفاك وذراعيك ليرى لو مازلت تتألم: في المساء سأدهنك بالخل. يختار مرجاما جيدا ويهديه إليك. أما عن المطاط شيئًا سيفعل بخصوصه، فلديه بعض القروش. ترتديان ملابسكما بعد ذلك. هو يرتدي ملابس الأمس.

تظهر بنطالا رماديا بحمالات، كان قبل ذلك لأبيك، يتذمر عندما يراه. أما قميصك يرفضه تماما، فهو مُرقَّع ويبدو أكبر من عمرك. يجذب فانلة بكم قصير ويلبسك إياها. لم تكن تعرف كيف ومتى وضعتها أمك في الحقيبة. هكذا. تصلان إلى الصندل. أحضرت صندلاً جديداً لكنه رخيص. وتفوح منه مزيج من رائحة دباغة غير مكتملة والكيماويات. لونه يصيبه باليأس، لون بصليّ يميل إلى الأصفر. أما صندله فكان بنياً، قديما بعض الشيء لكن يبدو عليه شيء من الثراء. على أي حال، في أول فرصة سندهنه بورنيش قاتم حتى نكسر هذا الاصفرار، هكذا تعزي حالك.

- راح يقول باستمرار، هيا بسرعة قبل أن يلحق بنا أبناء عائلة توماس.

كان يعني ثاليا وأخواتها. ثم صاح، ماما، نحن ذاهبون. في رعاية الرب، أجابت العمة. من الشارع الترابي الذي يصعد نحو الإسطبلات القديمة تنحرفان يمينا حتى تصلان إلى بستان الجد. هناك يقول لك توني إن تصمت وبقفزة واحدة تسلق السور. راح يتنصت. كان يعرف من صوت الماء في الساقية إذا كان الجد قريبا أم بعيدا. قال لك، إنه في الناحية الأخرى. ينحني فيأخذ غصنا ويقطف أربع حبات من البشملة دون أن يتذوقها. يلقي بها كما هي في البستان ثم ينزل.

حاجز الترام في شارع محطة سان ستيفانو يبدو عاليا عن الشارع، أسفلكما الميدان مخطط مثل صينية حلوى من خطوط الترام ومقصات تقاطعات خط الترام B الذي ينتهي هنا ثم يبدأ في العودة من النقطة نفسها.

بعدها بقليل تبدأ محطة V ، والتي تستمر حتى فيكتوريا. الحاجز له امتداد يشبه الشرفة. جلستما هناك. يشير لك توني على مدخل الكازينو. حركة عربات وسيارات: نساء شابات ينزلن وهن يفتحن مباشرة مظلاتهن، الأطفال تصاحبهم مربيات. ثم يشير لك على شاشة السينما الصيفية. هنا أفضل أماكن للمشاهدة، ومجانية. يقول لك عن الشرفة التي تجلسان فيها. لكن في الليل يحدث شجار عنيف هنا لأن البدو يتجمعون هنا ويحاولون أن يأخذوا أماكننا.

ـ إذن؛ حسنا فعلنا وجئنا مبكرا.

ـ أووه، لا. لن نمكث هنا. أنا أعرف هذا الفيلم.

يتابع الترام وهو يصل عند خط B ، ينحني عند الحواجز ويقرأ رقمه.

ـ سنأخذ الترام القادم، قال. هيا لننزل من هنا.

ـ أنت لديك بطاقة اشتراك، أما أنا؟

ـ لا عليك. سوف ننزل في محطة جناكليس. المحصل دائما يسأل عن التذاكر بعد محطة. ثم إنهم يعرفونني. سأقول أبونيه، وأنت ستصمت. ولو حدث وكشفوا أمرنا ماذا سيفعلون بنا. سيطالبوننا بالنزول. وهذا ما نريده.

هل تبدأ المغامرات هنا؟ تخاف قليلاً لكنك تريد. لتتوق كثيرا أن تحشر نفسك في حياة توني المجهولة. عندما يصل الترام عند خط B يشير لك إلى رقمه: 26.

ـ هذا هو الترام الذي ضيعناه في سيدي جابر، قال دون أن يشير إلى أنه كان خطأه.

تقفزان في عربة الأمبريال، يصعد توني في العربة العليا في أول مقعد، ويشير لك على حروف مكتوبة بقلم رصاص فوق لوحة الباب. تعرف خطه جيدا بالطبع.

ألهذا الحد

تحبين الكراميلة؟

ستفسدين أسنانك الجميلة

ـ كانت واحدة وددت أن أنشئ علاقة معها. في ظهيرة شتاء في طريق العودة من المدرسة، كانت تجلس هناك في الداخل مع زميلتها تأكلان الكراميلة من قُمع ورقي واحد. أخرجت قلمي الرصاص وكتبت هذا. بعد يومين فعلت هي الشيء نفسه في عربة أخرى. كانت تحاول أن تداعبني مازحة بشعري، الذي أكويه، كما قالت. لكن، هنا، اقرأ ماذا كتبت بعد قليل.

توني سأذهب إلى السينما

اكتب لي على

ترام رقم 312

أ.

ـ أ، يعني؟

ـ أليكي.

ـ إنها من عائلة غيراسيمو؟

ـ كيف فهمت ذلك؟

ـ يجب أن تكون ثرية حتى تركب في الدرجة الأولى.

ـ أنت رهيب! تعرف ماذا يعني أن تفعل كل يوم ما يروق لك؟ تريد أن تذهب إلى السينما، إلى محل الحلوى، المسرح، الجولف، الرقص، كل شيء تجعله يحدث. عندما تذهب إلى سان ستيفانو تقول لي من قبل كي أذهب أنا أيضا في الشرفة التي كنا بها. نشاهد معا تقريبا الفيلم نفسه، أليس كذلك؟

- تقريبا، تقول، لكن لا تسمع جيدا بسبب صوت صافرات الترام عندما تتحرك.

- والآن اقرأ هذا، هنا في الأسفل.

أحبك يا توني

أحبك كثيرا

سوف أجن من حبك

بات.

- بات؟

- سر غامض. لا أعرف واحدة يبدأ اسمها ببات، ولا حتى بالحروف الثلاثة تلك. قرأت أليكي هذا وغضبت. ومن الصعب جدا أن نتصالح. لابد أنها كانت إحدى زميلاتها وتريد أن تفرق بيننا. لكنها شيطانة. عندما نعود للبيت سأريك المزيد.

نزلتما في محطة جناكليس، لم يحدثكما أحد.

- إلى أين نذهب الآن؟

ـ تقول. هل سنذهب إلى الساحة؟

ـ لا. من الأفضل أن نذهب إلى باكوس من أجل المطاط.

تسيران في الدرب بجوار الأسلاك الحاجزة لقضبان الترام وتتبعان ترام رقم 26.

ـ في الساحة الآن يتجمع الرعاع. لم تعد الأمور كما كانت. أتدري بم يلقبونني؟ الولد الطيب من الفرير؟

ـ لكن ألا يذهب أولاد آخرون من الساحة إلى مدرسة الفرير؟

ـ نعم يذهبون، لكنهم ليسوا من الأوائل، فهمت الآن؟ يقولون إنني سأصبح أجنبيا. اللعنة عليهم. أعرف لماذا يقولون هذا. لأن هناك فتاة إيطالية لم تنظر إلى أحد منهم.

ـ فتاة باكوس؟

ـ مرة أخرى وجدتها، ينادونها إيتاليا. لديها أشقاء يحملون السلاح الأبيض. قرروا أن يقدموا المكرونة للجميع في حالة إذا ما أمسكوا بي ليفتكوا بي. لكننا نحن... كل حي الرمل نعرفه. في الشتاء كل الناس معنا بالأخص عندما يغادر المصيفون. الشاطئ والبساتين والفيلات المهجورة والشوارع والترام كل الشوارع تكون فارغة. شكلنا قاموسا بالنظرات، وتعبيرات الوجه وإيماءات كي نتواصل ونرتب لقاءاتنا. مساء الأمس...

ـ حلمت بها.

ـ كان لدينا موعد. أنت كنت ميتا تماما، تشخر في نومك من العاشرة. قفزت من النافذة.

ـ جنية وخيول خضراء! ذهبت إلى باكوس، بالترام. صعدت إلى سطح منزلها، كانت تنتظرني هناك. إخوتها يعملون حدادين، ولذلك ينامون باكرا مع الدجاج. حسبنا كل شيء. حتى إن الجنية في النهاية ستظهر كأنها حيلة من امرأة عائلة تسرفولو. تريد أن تطردنا من أرضنا. منذ أن تم فك الخطبة العم ستماتيس وابنتها كان هذا منذ زمن وهي تحاربنا. حتى أنهم يرسلون خطابات بغير اسم المُرسل: «إن هذه الأرض ليست ملككم، لابد أن ترحلوا أيها الغجر، حتى يرحل الوباء والسل من الحي». أشياء من هذا القبيل يكتبون لنا.

كل هذه الأشياء جديدة وغريبة بالنسبة لك. موضوع العم مع الجارة أول مرة تسمعه. الآن تفهم حديث أمك المتعض عن إحدى الساقطات التي كانت مخطوبة لشخص وتم ضبطها، بمعنى «متلبسة» مع مديرها الفرنسي لأنها كانت تعمل عاملة تليفونات في إحدى الشركات، ثم هذا الشخص الذي كان دائما يحبها، ولكي يتخلص منها وجد عملاً في القاهرة، فإذا بالساقطة تقضي أربعة أشهر في مشفى الأمراض العصبية. كما ترى لابد أن أمر الأمراض النفسية والعصبية وراثي في العائلة، هذا ما كانت تقوله الأم. وماذا يعني هذا؟ كنت تشعر بالرغبة في السؤال، لكن كنت تدري ماذا ينتظرك. من الأفضل أن تتظاهر بأنك تقرأ كي تسمع أفضل.

ـ لكن ما الذي يجعلهم يطمعون في الأرض بما أنهم لا يجاورون أنطوان؟

ـ كان الخطأ هو أننا لم نبنِ. خمسة وأربعون عاماً كان أنطوان يملك الأرض لكنه لم يدفع ضريبة واحدة كي يكون لدينا ورقة رسمية.

ـ لمن هي الأرض إذن؟

ـ أقول لك هي لنا! كانت للكونت قبل أن يموت. لكنه أهداها إلى أنطوان منذ وقت الزلزال.

هكذا كان العالم وقتها أم أنه كان يبالغ كي يرعبك؟ شعرت بالحنين أن تكون الآن في القاهرة مع أمك وأبيك.

عبرتما شوتس والآن تسيران في ممر صفر من ناحية أسوار أشجار التين الشوكي. ستتوخيان الحذر رغم ذلك إذا ما جاء الترام كي ينحشر كل منكما خلف الآخر إذ إن ممر الترام ضيق. يسير توني في الأمام. يتوقف فجأة وينظر خلفه، نحوك. بعيداً في الأمام هناك رجلان عليهما علامات شحم وزيت ويرتديان قبعتين. أحدهما يمد يده مشيرا نحوكما:

ـ يقول توني وهو ينظر حوله ليرى من أين ستهربان. إنه جينو شقيق إيتاليا.

يهرول الرجلان رافعين قبضتيهما. يصيحان لكنك لا تفهم ماذا يقولان.

ـ يصيح توني، للخلف، هرول، انتبه فقط من الترام.

تتركه يجري أولاً. أنت واثق من أمر واحد: وهو أنك تجيد الجري، الصندل الجديد يضيق عليك عند الكعبين لكن هذا لا شيء، لا شيء يمكنه إيقافك، عندما تكز على أسنانك وتتمنى من أعماق روحك شيئاً، شيء خفيّ بداخلك، يعطي المزيد، يعطي كل شيء. وفي اللحظة التي تظن فيها أنك ستسقط، يتصاعد إصرار ناري داخل ساقيك يضغط على كليتيك ويشد على بطنك ويملأ رئتيك بالهواء الساخن الناعم طاردا الآخر الذي جف حلقه وأنفه. وبدلاً من أن تسقط. ستجري مئتي متر إضافية في لمحة برق وفي عالم باهت مليء بالصافرات.

قبل أن تعبر توني تلتفت لتنظر خلفك. أحدهما كان يجري وقد كسب أرضا من المسافة التي تفصلكما عنه. أما الآخر فلا يظهر على الإطلاق. يبدو أنه عاد إلى محطة صفر ليركب الترام. إذا سبقكما فسوف ينزل في شوتس وسيضعونكما وسط نارين. مأزق حقيقي.

الآن أنتما في منتصف الانحناء الكبير. عندما يأتي الترام لن تراه، ستسمعه أولاً، فالسائقون يعتادون أن يدقوا الأجراس ويفتحوا صمامات الضغط ويغلقوها حتى يسمع كل من هو بالقرب من القضبان كي يبتعد. هل مر وقت كاف منذ أن مر ترام شوتس؟ خلفك تسمع الآخر يأتي. يسمع توني الذي يقفز إلى خط الترام الآخر. لكن هناك يُسمع من عند المنحنى صوت الترام يأتي. هلكنا، قلت، وتهدئ من هرولتك. لكن توني الذي كان

معتادا، يشير إليك ما يعني بأن تتوقف. اقفز من على القضبان في الممر اجر بمحاذاة سور السرايا. عندما يصل الترام سيكون كل منكما ظهره ملتصقا فوق السور ويمر هذا أيضا. مر ترام صفر أيضا، وهذا أيضا يمر. لكن في عربته الأخيرة كان الإيطالي الآخر يشير بقبضته ويصيح بصوته الذي غطى على صوت الترام: يونانيون قوادون! ماذا عن الآخر؟ مازال يجري خلفكما لكنه خسر مسافة. والآن؟ توني يجري مثل الغزال. تفتح ساقيك أكثر، تشد على نفسك وبعد قليل ستجريان صدرا بصدر: قبل شوتس، يقول لك، يمينا، من الشارع الذي يؤدي إلى الساحة. يميناً، لكن في البداية لابد أن ننتهي من سور التين الشوكي. الإيطالي خلفنا يجري على عوارض الترام. لابد أنه يرتدي حذاءً عسكريا إذ إن كل خطوة كانت تحدث ضجيجا مثل طرق جاكوش في رأسك. تعبر توني، الآن تجري بحرية. الكلمات القليلة التي قالها لك قللت سرعته. تشعر على الرغم من ذلك بالفخر أنك سبقته. الآن يمكنك أن تذهب إلى آخر العالم.

ينتهي سور التين الشوكي. هاهو الزقاق. لكن الإيطالي الذي كان في الترام خمن خطتكم ووصل من ناحية شوتس بخطوات واسعة. إنهما يريدان أن يلحقا بكما في الممر. في الخارج قليلاً سيكون هناك أناس ولن يتجرآ أن يضربوكما. تنظر سريعا خلفك. لحسن الحظ كان توني يتبعك. حوالي خمسين مترا خلفه يبدو الإيطالي. يجري برأس منكس، وصامتا وعصبيا. الشارع الذي انحرفت منه شارع ترابي وحوائطه من الحجارة الصخرية من الناحيتين. في شرفة بيت من طابق واحد تجلس امرأة عجوز.

تراكما، وترى توني، تنحني لترى الإيطاليين: لماذا، لماذا تجري ثانية؟ تسأل بقلق. من سيجيبها الآن؟ ترى أمامك الطريق مفتوحا، تصلان إلى الساحة. بقي القليل... اجرِ! تسمع صوت توني. تلتفت لتنظر. لم يعد يحتمل. يسير بسرعة كأنه يهرول وهو ينظر خلفه إلى الإيطالي الذي اقترب منه. تقول في داخلك، المائتي متر وتسرع. فور أن ترى الأولاد في ملعب كرة القدم تصرخ: ساعدونا، النجدة، إن الإيطاليين يطارودوننا! تلتفت كل الرءوس دفعة واحدة. ومثل البرق يشير ولد طويل يرتدي فانلة مخططة بالأصفر والأسود. خلفه آخر يرتدي سروالا وحذاء رياضيا. خلفه ثلاثة آخرون، إنه نينس، وبعض الأطفال، أحدهم سمين. أين هم؟ يسألون. هنا تلتفت. كان الطويل والآخر ذو السروال يمران من جوارك يصيحان. توني على الأرض يحمي وجهه ورأسه بذراعيه. لم يصل الإيطالي بعد لكي يضرب. ربما كان يستعد للركل. الآخر يبحث خلفه عن الحجارة. هواء! يصيح أولاد الساحة. الإيطاليون يريدون أن يتوقفوا للشجار. لكن عندها تبدأ الحجارة تسقط عليهم كالمطر. الأولاد يقذفونها. أحدهم ينزعها من الخرابة المجاورة والآخرون يجمعونها لكي يقذفوها. رفع كلاهما يديهما ملوحين بكفوف مفتوحة. يطلبان هدنة. تحاصرونهما، معكم توني. إنهم رجال في العشرين من عمرهم. أنتم الأربعة تتنفسون بسرعة ولهاث، لكن أكثركم اصفرارا كان قريبك. عينا الإيطالي كانتا تقطران سما وهما تنظران إلى توني. لابد أن هذا هو جينو. لكن توني يعيد له النظرة دون عداء، لكن كانت هناك ابتسامة شك على طرف شفتيه. في تلك الأثناء وصل الكبار من تافرنا أرستيذيس التي توجد بالقرب من محطة سكة حديد الرملة. سمعوا الأولاد يصيحون فجاءوا

مهرولين. خلفهم كانت الأمهات صامتات ومتأهبات. دار الحديث بالعربية. الطويل الذي كان يرتدي الفانلة الرياضية يطلب السبب من جينو، ماذا فعلنا لهما. يقول إننا ضايقنا بناتهم. هنا؟ يسأل الطويل وهو ينظر حوله. لا، ليس هنا، في باكوس، يقول جينو. يصيح قائلاً، كذب! لم تطأ أقدامنا باكوس. كنا في طريقنا لنشتري المطاط وراحوا يطاردوننا في صفر. لكن لماذا؟ يسأل الطويل وهو يفتح فمه ببلاهة. تعرف لماذا، يقول له جينو. لا، لا أعرف، أريد أن أسمع، يصر الطويل.

وهنا يصل رجل أربعيني بشعر رمادي. عامل.

- تشاو يا جينو، يقول وهو يمد يده مصافحا نحو الإيطالي الذي لم يتكلم. هذا هو إذن شقيق إيتاليا. راحوا يتكلمون بالإيطالية. من بينكم فقط توني هو من يفهم ماذا يقولون. تقف الآن هادئا عاقدا ذراعيك ولونك مصفر. لا يلتفت جينو لينظر إليكما. يتكلم مع اليوناني الذي يجيبه بنعم ويعطيه الحق. يفتح ذراعيه مرحبا ويبتعد بهما قليلاً.

- هل يعني هذا أننا سنتركهما؟ يسأل الطويل. النساء والآخرون من الساحة يبدأون في الهمس.

- هدوء، يقول لهم صاحب الشعر الرمادي. دعونا لا نبالغ في الأمر يا أولاد. هل سيعجبكم أن يأتي ذووهما إلى الساحة هنا ويداعبون بناتكم؟ أنا أحدثكم كأب، لدي بنت أنا أيضا.

- بالطبع، يقاطعه ذو السروال الرياضي. أنت يكفيك فقط أن تجد

عليهم علامات شحم العمال كي تعاملهم كإخوة. ألا تسألهم بأي رب يؤمنون؟

ـ يا تابسيس، أتقول هذا وأنت شاب رياضي؟

يتقدم دينوس خطوة، يبعد تابسيس ويأخذ توني من ذراعه ويجذبه نحو الساحة. يخرج الإيطاليان السجائر ويقدمان لصاحب الشعر الرمادي. أنت تتبع دينو. يلحق بكما الطويل.

ـ أفهمت، يقول لك وهو يشير نحو صاحب الرأس الرمادي. هو مؤيد لحلف موسليني لذلك لا يريد أن يفسد علاقته بهم.

ـ هذا كذب، يا بوليا، يصيح دينوس. لقد سمعته بأذني يقول إن موسيليني يستحق الشنق.

ـ حينها تسأل أنت، لماذا انحشر هو؟ بم يشتغل؟

ـ إنه حداد في مصنع. لكنه الآن بلا عمل. قضى ثلاثة أشهر في السجن لأنه كان يشكل تنظيما. كاركاليميس، ألم تقرأ اسمه في الصحف؟

يتكلم دينو إليك وكأنه يعرفك منذ سنوات. هل يعرف أنك قادم من القاهرة؟ وهل كاركاميليس هذا له شأن عظيم حتى تكتب عنه صحف العاصمة؟ لكن الطويل يمسك بكتفك كي يبقيك بالخلف. الحرق من الصباح تفاقم ويؤلمك الآن.

ـ أهكذا كنت تجري من صفر؟

ـ ماذا يعني هذا؟

ـ لو اهتممت بطريقتك في الجري يمكنك أن تفوز بسباق المائة المتر في المسابقات المدرسية.

ـ آه، لا. أنا لا تعنيني الرياضة أبدا.

تشعر بالعار لكي تقول إنهم لا يتركونك في البيت تمارس الرياضة لأنهم يخشون عليك من البرد. لكن الطويل يريدك لشيء آخر.

ـ قل لتوني أن يدعه من الأجنبيات، يهمس لك هذا في أذنك. لماذا يذهب إلى تلك العائلات القذرة؟ هنا تنتظره فتاته ويحترق قلبها. إننا نحرسها له مثل أعيننا وإن كان يتكبر علينا.

ـ ماذا تعني عندما تقول فتاته؟

ـ ثاليا. كل الرمل يعرف بأنها تحبه.

ـ وهل هو يحبها؟ هل يجب أن يحبها رغما عنه..

ـ صحيح. وهل يفهم هو ماذا يعني الحب؟ كل مايريده هو أن يلعب مع كل واحدة قليلاً حتى يذيع صيته. أما مشاعره، فلا شيء، قلبه حجر!

VII

مر وقت طويل منذ أن وجدت تحت قصف قنابل الطائرات. تذكرت تلك الأيام بسبب تقلب الجو مع اقتراب فصل الشتاء في شهر ديسمبر حيث حل الهواء والمطر. اليوم تشكلت على الكورنيش بحيرات من الطين الأصفر، وعندما كانت السيارات تحاول المرور كانت الرياح الجنوبية تدفعها بقوتها لتنزلق حتى تلصقها بالحواجز الحديدية. طلب بانديليس بشكيرا حتى ينظف زيه الرسمي بحرص. كان قد ابتل تماما حتى وصل إلى السكن المشترك. من خلف المصاريع التي تطل على الشارع كان فوتيروس المرتاب دائما يراقب الحركة بالخارج.

- من أين أتيت لنا بهذا يا بانديليس؟

قال فوتيروس وكأنه أمسك ببرغوث فوقه. نظرنا نحن أيضا للخارج. كان شخصاً مجهولاً يرتدي قبعة محشورة في رأسه حتى حاجبيه يتقافز ان أمام الباب غير عابئين بالرياح الممطرة. كان يبدو مجندا يونانيا بملابس مدنية أو كرياضي، لكن يمكن السيطرة عليه، على الأقل من قبل فوتيروس أو من قبل باندليس.

ـ هل أحضره للداخل كي نسأله؟

ـ قال فوتيروس، يبدو أنك فقدت عقلك تماما يا بانديليس. فورا، اذهبا من حيث أتيتما. ولا تنزع عينيك عنه. وأين أنت؟ في السابعة تماما، هل تسمعني. في السابعة مساءً سأتصل بك على هاتف هيلين. ستنتبه إلى كلامك على الهاتف، هل اتفقنا؟ آه، اتصل بالطباخ وقل له أن يخبر الأرملة بأن البيت قد احترق.

ـ حاولت أن أقول، انتظر لنرى أولاً.

ـ نفذوا ما أقوله لكم. هيا، لنخرج من هنا.

ارتدى بانديليس قبعته دون أن ينطق بكلمة. ظهر في الشارع؛ عندها طأطأ المجهول رأسه وصعد طريق الكورنيش.

ـ علق فوتيروس برضا، آه ياباندليس، يا لحماقتك.

داس على زر عداد الوقت في يده وراح يعد الثواني. تأخر المجهول، ثم ظهر بعد ذلك. كان يسير على عجل. لم يلق حتى نظرة واحدة نحو البيت.

ـ كان على بعد ثمانين مترا بالكاد مائة متر. يبدو أخرق. والآن دورنا. خذ الأشياء الضرورية فقط.

حشرنا الأوراق التي لم نرسلها للحفظ تحت ملابسنا. وضعنا ملابسنا في كيس ورقي. ألقى لي فوتيروس بين يدي معطفا «بيج» مقاوما للمطر، إنجليزي الطراز وجديدا تقريباً؛ كان لأحد البحارة الذين أصيبوا

بالقرب من مالطة؛ لابد أنه مات سدى. لكن عندما حاولت أن أرتدي القبعة خطفها من على رأسي وحشرها في الكيس.

- من الأفضل أن تسير دون قبعة أفضل من أن تسير مفضوحا بهذا، أساذج أنت يا سيميونيذيس؟!

أغلقنا الشقة من الداخل، قفزنا من النافذة نحو الأطلال الخلفية وأغلقنا مصاريع النافذة خلفنا بشكل ما وغادرنا. الجو كان ممطرا. في شارع أمفروسيو راللي وجدنا تاكسي. إلى أين يذهب؟ بدا فوتيروس كأنه يعرف. لمس ركبتي بإصبعه حتى أصبر. كان السائق يونانيا. قال له أن يذهب على امتداد الطريق أعلى المدينة. في شارع شريف وأمام محل حلواني توقفنا. دفعنا على عجل، قطعنا القاعة الكبيرة وكأننا كنا نبحث عن أحد ثم خرجنا من الباب المؤدي إلى شارع توفيق، أخذنا تاكسي آخر ثم بعد ربع الساعة تقريبا توقفنا أمام بناية من طابق واحد في الإبراهيمية حيث كانت شرفته تطل على حلقة سباق نادي سبورتنج. نجيل واسع يشبع العين، لكنه ليس مكانا صالحا للهرب، أرض مستوية ليس بها لا أشجار ولا هي متدرجة، مما سيجعلك مكشوفا من كل اتجاه.

فتحت لنا الباب سيدة البيت، كانت يونانية، كان زوجها محاسبا في أحد مصانع الزيت ولم يكن هناك. دخلنا وكأننا أقارب يحضرون أشياء من البقال وجبنا ومعلبات حتى لا يأتوا إلى البيت بأيد فارغة في منتصف اليوم. سنبقى هنا مؤقتا، حتى المساء يجب أن نرتب أمر السكن الجديد.

أحضرت لنا المرأة القهوة ثم أغلقت علينا الصالون الحزين وذهبت تعتني بشئون بيتها. لم تتكلم قط، لم تقل غير أشياء رسمية نمطية. ربما لم يعجبها مايفعله زوجها ولا فيما تورط من أعمال كهذه. أشعل فوتيروس سيجارة وكان ينفث الدخان دائما من فتحتي أنفه وراح يتفحص اللوحات بنظرة ازدراء، والرفوف المرصوص عليها عشرات المزهريات اليابانية.

ـ قال، إن الأمور تزداد صعوبة.

ـ على وجه الخصوص أم عموما؟

ـ على كلا الوجهين. لم يُدر فانيس الأمر بشكل جيد. أعني، استقالة روسو. تراجع، كله تراجع. أضربه على رأسه! قصة خلافات الفينزيلويين لابد أن تتوقف. عندما أسمعكم ترددون هذا الكلام أريد أن أصرخ: القانون الاستثنائي، نسيتم القانون الاستثنائي!

ـ فانيس فعل أقصى ما يمكن عمله في ظل الظروف المتاحة.

ـ بالطبع، يتحدث رجله.

لم أكن رجل فانيس، لم أكن رجل أحد؛ أنا كنت أنتمي للحركة. هل سنعيد الكلام القديم نفسه؟ لكن لكي يقول هذا... لكن هو كان يعتقد أنه رجل مَن؟ رجل الضئيل التافه دائما؟ وكيف كان يعرف بمَ يفكر الضئيل التافه؟ هل كانت بينهما مراسلات؟ هذا ما كنت أريد أن أقوله لكني بلعت لساني. عادة، تتدفق الأفكار غير المرتبة والضبابية التي لا تكتمل ولا تتضح إلا إذا

عُبر عنها بالكلمات. والحزبية هى أسوأ ما يمكن أن نخشاه هذه اللحظة من وزرائنا الذين يضربوننا بوضوح.

عندما حل الليل جاء رجل البيت، رحنا نتناقش في المشكلة. هو كان يمسك في يده مفتاح الشقة البديلة. أي شقة، نتحدث هنا عن جرسونيرة لها باب خاص في الدور الأرضي لعمارة خلف المشفى الإسرائيلي في شارع أبو قير. الشقة المجاورة لها حولوها إلى مخبأ، والآن بما أن السرينات قد توقفت، ظلت مغلقة دائماً. حتى وإن كانت السرينات تدق من قت لآخر، لم يعد أحد من سكان البناية ينزل إلى المخبأ.

قمنا لنذهب نحن الثلاثة. الحي كان متطرفاً والأزقة مظلمة. قبل أن نقطع الشارع دخل فوتيروس إلى دكان الدخان لكي يستخدم الهاتف. عشيقة باندليس كان اسمها هيلين، وهي أيضا صاحبة البيت الذي يسكنه. عندما عاد قال لي: بالطبع، متابعة. يطلب لنا: من قام بالعملية الجراحية عليه أن يأكل الكابوريا ـ ولكزني بكوعه في الظلام وقال: ماذا قلت لك؟ التفاصيل سنعرفها غداً، هيا يا مانوس، كم سريرًا يوجد بالجرسونيرة؟

ـ أريكتان فقط، قال المحاسب. وأطباق في المطبخ الذي لا يصلح سوى لعمل القهوة.

ـ حسنا، هل أنت قلق بشأن الأرملة؟ قلت.

ـ لا، ليس من أجل الأرملة، قال فوتيروس. هل يمكن أن يُنتهك باب المخبأ بسهولة؟

ـ لنجرب، قال الآخر دون أي خماس.

ـ سألت، هل ننتظر باندليس؟

ـ لا، لكن يمكن.

كان كأنه يعرف شيئاً ولا يريد أن يتحدث أمام الرجل. في هذه الأثناء قطعنا الحوار لأننا قد وصلنا. كان باب الجرسونيرة يوجد في الجهة الخلفية للعمارة. وبينما كنا نتحسس قفل الباب الذي قد صدأ من عدم الاستخدام، التفت ونظرت في الليل خلفي. حائط مهدم، أكوام تراب، حاجز السياج لقضبان القطار، وخلفها الحقول. الهواء يجيء محملاً برائحة الأرض المبتلة ورائحة قصب السكر والقرفة الحلوة المثيرة. من بعيد بدت بعض الأنوار، لمبات لوكس، وكانت تسمع بعض أصوات آلات الموسيقى. لابد أنها من طقس ما، ربما حفلة زواج أو طهور. كنا على شاطئ عالم آخر. بعد قضبان السكك الحديدية كانت تبدأ مصر الزراعية، هادئة ولا تهتم أبدا بخصوص حربنا نحن.

الموعد مع باندليس كان في اليوم التالي ليلاً، «في المكان المعروف». قهوة عربية في باب سدرة، في قلب الإسكندرية الشعبية. في بداية الحرب، فور أن حصلنا على كوريتسا، قذيفة إيطالية نثرت الخراب هنا. ثمانون من القتلى، أكثرهم نساء وأطفال. ضغط الهواء دمر مربعا كاملا من المساكن وفتح حفرة كبيرة مثل ميدان صغير. تكومت حولها تلال التراب والعوارض والأخشاب والحديد والزجاج والحجارة. لأيام طويلة كانت رائحة الجثث

تفوح في الهواء. بعد ذلك قررت المحافظة أن تأخذ كل تلك الأكوام وتردم بها الحفرة. مع الوقت تشجع الناس أن يمروا من فوقها وهكذا تشكل الميدان. داخل أطلال دكان نصف مهدوم تم فتح مقهى صغير. كان رواده من أهل المنطقة، عمالا وحمالين وشخصيات مريبة من الميناء، وأناسا بملابس رثة. لم يكن هناك نوافذ زجاجية بالمكان لكي يغطوها بورق أزرق، الضوء كان محصورا في مصباح زيت فوق الحائط والضوء الصادر من البابور. كان هذا يناسب الجميع، الدفاع الجوي، صاحب المقهى ورواده ونحن أيضا. كنت دائما أقترب بشيء من الخوف، وأخشى الظلال المتخيلة التي تظهر فجأة أمامي منتظرا ثمة هجوم من داخل الظلام أو من الأبواب الصامتة للبيوت الفقيرة المهدمة. كما شرح لنا الأرملة الذي اكتشفه، أن الزبائن هنا مستاءون جداً من الحرب. في عقلهم ، كان هو السبب في هدم بيوتهم دون أن يكون لهم ذنب في أي شيء. هكذا، لم يفرقوا بين إنجليزي ويوناني، فأنت مريب، ما دمت أوروبيًا. لكن حقيقة أننا كنا نجلس في الدكان ونشرب من أكوابهم ونترك لهم النقود، كان هذا يجعلنا في صفهم، وصف ذويهم. لم يكن الأمر يحتاج إلى التعارف والتواصل إلخ.. قُدمت بعض العروض: نساء وسوق سوداء لكن الأرملة رفضها فورا، لكن مبتسما. لكى نبحث عن الظلام في دكانهم سيعني أننا ندبر شيئا ضد الإنجليز. كان يعني أنه: هنيئا لنا إذن. قد تبنونا.

أرسل بانديليس الأرملة بدلاً عنه. كانوا ما زالوا يتبعونه ففضل أن يبقى هادئاً وينتظر التعليمات. لم يكن يقبل أن يرتدي ملابس مدنية بأي

شكل. رأس متحجر من الجزر. تقابل مع الأرملة «في الخدمة» في مخزن السلاح في الوزارة وتحدثا هناك، كان هذا أضمن. حسنا، عندما رأته هيلين يعود مبكرا إلى البيت تساءلت. فقد أعطته نفحة حب في الصباح وهو لم يكن يطلب المضاجعة أبدا أثناء اليوم. راحت ترتب حالها لكنها قلقت عليه فقد بدا لها حزينا: ماذا بك ياولد؟ هل قطعوا لسانك؟ ولكي ينقذ حاله قال لها القليل عمّا حدث بالصباح. حينها تذكرت هيلين أن تقول له إنه قبل بضعة أيام سألها البواب إذا كان بانديليس قد أحضر واحدا من أصدقائه يرتدي قبعة من الجوخ بها ريشة. وأجابته بأنه لا يحضر أصدقاءه إلى هنا. كان يعرف جيدا أنه غير المستأجرين بانديليس والبروفيسير العجوز لا يدخل رجل إلى هذا المكان. لكن لماذا كان يسأل، من جعله يفعل هذا؟ البواب راح يلوك كلامه، قال إنه قد حدثت سرقة صغيرة في السطح ووجب عليه أن يسأل كل المستأجرين. ومن رأى الشخص ذا القبعة يسرق؟ هنا راح يلوك كلامه أكثر وتظاهر بأن أحدا ينادي عليه وغادر.

كان فوتيروس يجلس ملتصقا بجواري يسب بلكنته المحلية وهو يكز على أسنانه. راح يسب الدين لكل شاردة وواردة: لقد ألحقت بنا الضرر يا أنت بريشتك هذه، هل جئنا بك إلى هنا لتلعب دور صقر؟ لم يكن يقول هذا ضاحكا ولكنني ضحكت. بمَ ذكرني، لقد رأيت هذه الطيور ذات الريش الأسود الكثيف وعليها مسحات ذهبية، رأيتها كثيرا في أماكن وفرص مختلفة؛ آخر مرة كنا غائصين في الجليد؛ بم ذكرني الآن في دفء وأمن هذا المقهى مع الدخان والأصوات والضحكات والجلاليب المتسخة والشاي الذي بلا طعم.

ـ ولماذا لم تقل له هذا هيلين طيلة هذه الأيام؟ سأل فوتيروس.

ـ معك حق، قال الأرملة. هذا ما سأله بانديليس. أما هي فقد بدأت بالتذمر المعتاد: أين تذهب؟ مَن من النساء ترى؟ ماذا تفعل؟ لماذا لا تفتح فمك؟ أنا لا أعرف عنك شيئا سوى هذا الجسد الذي أضمه بين أحضاني، والآن يراقبك المخبرون السريون، ستهلك وسأخسرك يا بانديليس، أنت لا تحبني! وهنا صفعها مرتين، أنت تعلم كيف هي صفعات بانديليس، فسكتت.

ـ نستنتج من هذا، قال فوتيروس. أنت مراقب يا رفيق سيمونيذيس. صديقك الميجور بيتر. هذا هو حال الذنوب القديمة. سيميونيذيس أي المسئول عن الدعاية. عليك بهم لكن عليك أيضا أن تتوخى الحذر. تلك القبعة عليك أن تحرقها. لا أعرف ماذا ستفعل؟ ليكن؛ أن يذهب بك ثاناسيس إلى صديقته التي تعمل في مسرح الهمبرا لتصنع لك باروكة تغطي بها جرحك، وعليك أن تغير مشيتك. نحن البحارة علينا تلك اللعنة ولنا طريقة ما في المشي، لكن أنت يمكنك أن تغيرها قليلاً. امسك بعصا مثل تلك التي يمسك بها العجائز وليست كتلك التي يسير بها المتسولون. باندليس: سيخرج ليتمشى كما كان يفعل من قبل. وعليه أن ينتبه ويكتفي بالاتصالات الرسمية فقط، هو يعرف. وعندما يرهقهم، قل بعد أسبوع، بالكثير حتى نهاية الشهر، من العام الجديد أفضل، عليه أن يبدل منزله، ويجب ألا يخبر هيلين بهذا الآن، فسيكون لدينا حدث درامي. البيت: أنا أقول لكم إن البيت غير مراقب، بالأمس فقط، وإلا كنت سأشعر بهذا. عقد الإيجار باسم المرحوم الذي ورث عنه الرفيق المعطف. سأرسل حتى ندفع الإيجار. سأترك الأمر ينام

قليلاً وبعد ذلك سنرى. لنستخدمه كمكان للمضاجعة بين الحين والآخر. الخلاصة: لابد أن تنتبهوا إلى إصدار المحارب مثل عيونكم، هذا ما يبحثون عنه. هل هناك شيء آخر؟

ـ ما لا أستطيع أن أفهمه هو كيف عرفوا بأنني صعدت إلى ذلك السطح. البواب لم يكن هناك. الشاعر العجوز كان أمامنا، أنا متأكد أن أحدا لم يرني. وإن كان قد رآني أحد، كيف عرفني؟

ـ أنا، يقول الأرملة، أحسنت عندما قلت لكم أن تبتعدوا عن الكازينو. ما فائدة الكلام في هذا الأمر الآن؟ هيا بنا.

ـ هيا بنا، قلت.

ـ أنت لا، قال فوتيروس. أنت ستنتظر، هناك صديق يريد أن يراك. سأرسله لك، قدم له الشاي ثم أحضره لينام في سريري. سيعتني ثاناسيس بأمر نومي حتى نرى ماذا سيحدث، هل سنفتح المخبأ؟

ـ أي صديق هذا؟

ـ سترى، لا تتعجل. هل تحمل مسدسا؟ لا؟ كيف يحدث هذا، ألا تدري ماذا يحدث؟ أنت يا ثاناسيس؟ نعم. سأمرر لك مسدسا في الظلام تحت الطاولة. مانوس، أتحدث إليك.

كان المسدس ماركة براونينج، إنه لعبة. غادرا، أشعلت سيجارة وعندما جاء القهوجي قلقا بشأن الحساب، قلت له « كمان» أي أحضر لي

شاياً آخر. أردت أن أقول له أن يجعله قويا لكن لغتي العربية لم تسعفني. كيف يصنعون الشاي أسود هكذا ودون أي طعم، يستحيل علي أن أفهم هذا.

دخنت سيجارتي وعندما انحنيت كي أطفئها رأيت يدا ممتدة تحت أنفي. قلت بداخلي: لابد أن المرحوم كان قصيرا؛ الكم كان بالكاد يصل بمقدار شبر تحت الكوع. رفعت عيني، كان غاريلاس؛ مبتسما كعادته، بياض عينيه كان يبرق مثل العاج على وجهه المسوَّد من الشمس، كان شعره مقصوصاً مثل قبعة.

ـ آه يا فاسيليس، كم أنا سعيد برؤيتك، وأمسكت بيده مصافحا.

جلس، طلبت له « كمان شاي » وأشعلنا سيجارة.

ـ أراك على ما يرام، قال وهو يمرر نظرته عليّ بحنو. لا تظهر جيدا في الظلام، لكن أظن أن لونك قد ابيّض قليلاً. لا تراك الشمس كثيرا على ما يبدو. نحن قلنا، صحتنا هي أفضل شيء لدينا. ثمانمائة رجل مثل ثمانمائة ثور. إنها ثامن عجائب الدنيا مثلما يقول أبناء جلدتنا في بنغازي. كما تفهم فقد ذهبت قبلنا الفرقة المقدسة واحترق بعض الناس. كانوا يسمعون عن يوناني ويهربون. أما الآن فعليك أن ترى، يأتون بعائلاتهم في عروضنا، فنحن نقوم ببعض العروض المسرحية، ويحضرون لنا الحلوى والورود ويدعوننا لنتسامر في بيوتهم. لم يكن لديهم أدنى فكرة عن الروح القتالية. . يقولون لنا، أنتم يا أولاد أحضرتم لنا الحضارة، ويصدّقون ما يقولون.

ـ إننا الآن في مفاوضات، لكن لا تأمل في الكثير، فنحن في الوقت نفسه

مستمرون في تدريباتنا، لو رأيت اللواء الآن سيطير عقلك من الانبهار. حقيقة، إنها أفضل وحدة من حيث الفاعلية القتالية في الشرق الأوسط. أتذكر ما كنا نقوله في اجتماعاتنا قبل أن تبدأ المسيرات نحو الفرات؟ لقد خرجنا منها أشداء، على كلا المستويين المعنوي والجسدي. ألم يخترنا الإنجليز نحن الثمانمائة لأننا الأكثر وعيا؟ لتروا الآن كيف نريهم نحن ماذا يعني المحارب. إن مهمتنا يا رفاق لم تنتهِ؛ نكملها وفي الأفق اليونان. فتحنا مدارس، شيء أشبه بجامعة صغيرة: دروس نظرية وعسكرية وسياسات اقتصادية وفلسفة وشعر وموسيقى ومسرح ورسم. ورفعنا من مستوى الجدية. هل تعرف أن المقصف لدينا يعمل دون مسؤول؟ كل ماتريده تذهب وتأخذه وتضع النقود في صندوق نسميه «صندوق الضمير». حتى الآن لم يظهر لدينا أي عجز. بالطبع لم نتوقف عن كتابة المذكرات كي يرسلونا إلى الجبهة. سأعطيك نسخة كي تمررها للنشر. لكن هل تظن أنهم أغبياء ليمنحونا أوسمة أخرى؟ يجعلوننا فقط نحرس معسكر الأسرى الألمان أو نتولى أمر البريد أو الإمدادات لكن أن يسلحونا، مستحيل! عن قصد يحاولون أن يُتفِّهوا منا. يرسلون لنا المفتشين بشكل مستمر كي يضبطوا أي مخالفات من جانبنا، وفي كل مرة يغادرون منبهرين ولا يقولون سوى «فري جود».

ـ وكيف جئت إلى هنا؟ هل حصلت على إجازة؟

ـ بقرار من الكتيبة. كما تفهم فإن مهمتنا هناك قد انتهت، العمل يسير في اتجاه جيد، ويتولى الأمور هناك رجال ذوو ثقة. لكن الوضع هنا يحتاج

إلى الدعم نظرا للتحولات التي طرأت على الأوضاع في اليونان لابد أن تكون هناك قرارات بشكل عاجل.

- لو كنت أفهم وضعك جيدا أنت في وضع الـ «فار» من الجندية في هذا الوقت؟

- نعم، لو كنت تراه من زاوية تسوذوروس.

لكننا جئنا إلى هنا بقرار من المنظمة كما أقول لك. وليس لكي نحتفل.

- هل سُئل فانيس عن هذا؟

- فانيس..! لم ننتظر حتى تذهب الرسالة وننتظر الرد... كان يجب ألا نخسر فرصة الكاميون. كما أن فانيس كما تعرف يدرس الأمور طويلاً.

- هل قلت جئنا؟ هل نحن كثيرون؟

- لماذا تسأل؟

- لأن المعارضة ستستغل هذا.

قال لي إنه لم يغادر كثيرون، اثنان فقط.

اعتدل الجو، صار لون السماء مثل خرزة زرقاء، كان القمر معلقا فوقنا يضيء أمامنا مباشرة عندما انتهى بنا الأمر إلى الميدان أو الشارع الواسع. سلكنا أزقة العطارين مرة أخرى باحثين عن مطعم مناسب؛ فلم يكن لدينا أي طعام في البيت. منظر القمر ذكّر غاريلاس بليلة أخرى في فلسطين عندما تقابلنا لأول مرة من أجل صحيفة «المحارب».

ـ قال، أورشليم، كايرو، الإسكندرية. ندور في بلاد الشرق الأوسط ونتواعد ثم نفترق وفوقنا القمر نفسه؛ يطاردنا كما لو أننا في حرب معه. نحن نقوم بالسياحة يا رفيق والشعب يدفع ثمن هذا بالدموع.

ما الذي أصابه فجأة؟ لماذا هذا الشعور بالذنب؟ هل كان كل ما تحقق سياحة منذ العدد الأخضر الأول ذي الصفحة الواحدة من «المحارب» ، بكل هذه التضحيات والعناء وكل هؤلاء القتلى في معركة العلمين وفي ليبيا واغتيال بيجمليون، وكل هؤلاء الشباب الذين يصبرون بجلد على تعذيب الإنجليز في السجون أو في الحبس الانفرادي؟ هكذا حدثته. وفجأة ضربت أنفينا رائحة ثوم وكمون. هل ندخل؟ من الأفضل أن نشتري شيئاً ونأكله في الشارع.

ـ انتظر أنت في الخارج، سأدخل أنا، قال، ثم أبعدني بيده.

من على قارعة الطريق كان الشارع به القليل من الحركة. أحد حراس الليل كان ينحني ويفحص أقفال المحلات المغلقة. انتظرت الرفيق. لم أكن أدري إذا كان لديه نقود وكنت بين الحين والآخر أحاول الدخول. خلف الستارة الزرقاء التي كنت أحاول أن أرفعها رأيت الزبائن، كان كلهم من العرب. لكن المحل كان مضاء بمصابيح الغاز. فكرت أنه كان على حق، من بيننا نحن الاثنين، المطلوب ذو الندبة كنت أنا. كان إحساس الحماية يعمل تلقائيا لدى غاريلاس، كان مثل غريزة البقاء. كان يعيش وعقله دائما مع الآخر.

عاد بقرطاس مليء بفلافل ساخنة لها رائحة فواحة وأربع شرائح من الخبز العربي مليئة بالفول والبصل والجرجير والمقدونس: لو شعرنا

بالعطش سنشتري المياه الغازية ونشربها ونحن واقفون قال. سرنا بمحاذاة سور محطة السكة الحديد، مررنا من أمام سجن الأجانب وإستاد المحافظة ودخلنا في شارع بلجيكا. الأشجار الكثيفة حمتنا في ظلها. وضعنا أيدينا على مسدساتنا. سنعبر من أمام الفيللا التي كان فيها الجهاز الأمني لقائد الأسطول الإنجليزي. كان هناك يونانيون يعملون بالداخل، كنا نعرفهم تقريباً، كنا نعرف وجوههم. لم يكن هناك أحد أمام الفيللا، كل الطوابق كانت معتمة والبوابة الحديدية موصدة. ذات مرة استدعوا فوتيروس للاستجواب. تركوه ينتظر في الممر حوالي ثلاث ساعات. وعندما أصابه الضجر، ذهب إلى الجاويش وأخذ كرسيه ونزع أرجله وحطم ركبتيه مثل عيدان قصب. وعندها ظهر من أحد الأبواب شخص يوناني ذو وجه أجنبي من إزمير وهو جاسوس معروف. وقال له إن ثمة خطأ ما حدث يا سيدي، كنا نريد شخصا آخر. يمكنك أن تذهب. أخذ فوتيروس معه الرجل الرابعة للكرسي وراح يلوح بها في الهواء مثل عصا وهو في الشارع.

ـ لقد أخطأنا، قال غاريلاس. كان ينبغي ألا نمر من هنا. هيا بنا بسرعة ندخل إلى هذه الحديقة.

كانت الحشائش مبتلة وكانت أحذيتنا تنزلق، ولهذا كنا نسير في صمت ننظر بحرص داخل الأحراش والأشجار الضخمة. كان هناك رجل وامرأة واقفان ملتصقين بشجرة نخيل يتداعبان بشغف. كانت جلابية الرجل البيضاء مرفوعة حتى فوق ركبتيه. المرأة كانت مختبأة بينه وبين الشجرة. فقط عندما عبرناهما رأينا ذراعها ممدداً ويتحرك بإيقاع ممسكة بقبعة للعسكرية البحرية كما لو كانت تدير ساعد تدوير.

ـ بصق غاريلاس بين قدميه قائلاً، تفووو على بريطانيا العظمى، انظر كيف آلت الأمور. بربك هيا بنا من هنا قبل أن أشعل رأسها برصاصة.

ـ لقد صرت شديد الاحتشام يا فاسيليس. ألم تكن تفعل الشيء نفسه أنت مع نساء العسكرية في أورشليم؟ أم استيقظ العنصري بداخلك لأن الرجل كان عربياً؟

ـ ما دام يعجبها فهنيئا لها. ليس هذا هو الأمر. أفكر في عذاباتنا نحن. لكي يفعل أبناء بريطانيا العظمى ما يحلو لهم، ولكي يكون لديهم علبة من البيكون وبيضتان كل صباح يزجون بنا نحن في السجون، ربما غدا سيأتون إلينا كي يستغلونا نحن أيضا. ولا تقل إن كل هذا العهر هو أمر طبيعي. هذا الشيء لا يحتمله ضميري. إنه جنس عفن أقول لك. كان يجب أن تكون معنا في الكتيبة الثامنة حتى ترى كيف تأتينا الإنجليزيات في الشوارع يراودننا عن أنفسنا، إنهم يتصرفون بقذارة أكثر من عاهرات متمرسات. حتى إن المنظمة قررت أن تصدر قرارا في هذا الشأن. لا، لم يكن الأمر جيدا. كان لابد للأمور أن تأخذ منحى آخر.

ـ لكن ماذا نستطيع أن نفعل؟ إن بريطانيا تمنح المؤن والعتاد والسفن والطائرات والأموال. هي الدولة التي تضع الخطط.

ـ ونحن ندفع ما هو أغلى بكثير، نحن ندفع دماءنا. هل وقعت أنت أيضا في شراك الشرعية؟

ـ لا تفهمني. أنا لا أقول إنهم على حق. لكن أقول إنهم قد كبلونا تماما.

ـ إيه، ولهذا لابد أن ننتقل إلى مرحلة الهجوم. لقد سئمنا من التراجع والحلول الوسط. حين أفكر كيف خسرت زوجتي وابني من أجل أن تتذوق عاهرة كهذه ثمار احتلال بريطانيا العظمي. يُصيبني الصرع. ماذا يربطنا نحن بهم يا سيميونيذيس؟ حتى لا تتضرر جبهة الحلفاء، نسينا أننا ثوار.

لقد تملكه الحنين وراح يهذي. صمتنا حتى نعبر قسم شرطة محرم بك ثم أعطيته سيجارة. كانت تحمينا من ضوء القمر الصبارات الضخمة التي كانت في صفوف مزدوجة على الرصيف. سيارة دفع رباعي كانت تمر بالقرب منا وقد أشعلت كل أضواءها محدثة ضجيجًا. كنا نصيح كي نسمع أصواتنا. بعد بضع دقائق. لكي أبين له أننا نتفق فيما يخص الغضب، حدثته عن خطأ شهر مارس والخسائر التي سببها لنا وجود ميتراكيس في الحكومة.

ـ متلازمة الشرعية، إنك تُنَظِّر، قال ملاحظا.

ـ لماذا تقول هذا؟ فيم أُنظِّر؟

ـ الطريقة التي تطرح بها الأمر. قلت «خطأ شهر مارس» وبالطبع، لم تسأل نفسك إذا كان موقفنا ذلك لا يستدعي التصحيح. لكن الخبرة والدلائل الجديدة التي اتضحت لابد أن تجعلك تفكر مرة أخرى. هنا يثبت بالدليل القاطع أن كل الحكومة هي تابعة للإنجليز. عندما نبدأ بأن حشر ميتراكيس في الحكومة يساوي خيانة، رافضين تماما أن نرى ماذا أوضحت لنا الحياة، ونُنَظِّر على حساب رفيق، تعرف عَمّن أتحدث، بغض النظر عن

أسباب مبادرته تلك آنذاك، قد أخرجنا من ورطة كبيرة، لقد تفادى الانكسار والتمرد من ناحية المتعبين والمترددين. هذا، أنت فقط ما قررته أنت أمام فانيس عندما قمنا بذلك الحوار، أتذكر؟

لم يكن الأمر كذلك، لا وألف لا، لم تكن الأمور كذلك. الضئيل التافه حينها عندما وضع ميتراكيس في قائمة الوزراء، انتهك قرار المنظمة. والقرار هذا لا يحتمل التصويب، لا الآن ولا أبدا. هذا ليس من قبل الولع بالقرارات بشكل عام، لكن لأن هذا كان يخص عميلا، شخصا مأجورا من قبل الإنجليز. هناك فرق بين العميل وبين السياسي. ثم أسهبت:

ـ يمكن أن نتفق على أنهم جميعا هالكون، ميئوس من أمرهم، غائبون عن نضال الشعب. لكن علينا أن نضع في اعتبارنا الظروف، ولعبة الحلفاء والملكيين، حقيقة أن الملك يورغيوس، شئنا أم أبينا هو يمثل رمزا ولو بشكل رسمي ...

ـ متلازمة الشرعية، أنت تُنظِّر ثانية، ألم أقل لك؟

فجأة سكتت. لقد تغير غاريلاس. لم يكن أبدا يتحاور بهذه الريبة. رفعت عينيَّ ونظرت إلى المبنى المقابل للمشفى اليوناني. كان القمر يغمر الناحية التي تطل على المقابر بضوء أبيض. بحثت عن نافذة في الطابق الثالث، حيث وقفنا ذات صباح أنا وفوتيروس ننظر من خلف الزجاج على المقابر والأشجار تغتسل تحت المطر. خنقني شعور بائس تماما مثل آنذاك حين فهمت أن هذا الشخص المجهول بجواري قد قام الضئيل التافه بتنويمه مغناطيسيا.

ـ وافتراء عمّ اقترفناه من ذنب، قال غاريلاس فجأة. لابد أن يعاد النظر فيه.

ـ أنا لا أفهمك يا فاسيليس! أنت بنفسك اعترفت أنكم وقعتم في فخ تفكيك الجيش الثامن.

ـ الضرر الكبير، ترى. حينها لم يكن ليبر قد أعلن بعد للعجوز روسو أنه في الحرب الثالثة سوف تحتاج بريطانيا إلى حوض المتوسط، ولكي تسيطر على حوض المتوسط لابد أن يكون لديها اليونان. ضد من سيشنون الحرب الثالثة، ضد جمهورية سان مارينو؟ كل الشواهد تشي بأنهم يجهزون لأوكرانيا الجديدة. كل فيلق ننزعه منهم، ننزعه بالضرورة من المعسكر المعادي للسوفييتيين. هذا وفقا للإستراتيجية الثورية.

آه يا إلهي، ما هذا الخلط؟ كيف يسطح الأمور هكذا! بين النظرية والتطبيق مر مرور الكرام على كل الخطوات الانتقالية المعقدة. كان هتلر في اليونان، كنا في حاجة إلى كل القوى والعتاد حتى آخر سكين جزارة كي نطردهم خارج حدودنا. وعندما يتحرر الشعب بسلاحه ويتولى أمر شئونه في يده، عندها ليأتي تشرشل أو الشيطان ذاته كي يضرب الاتحاد السوفييتي.

ـ قلت له، أنت تفترض مسبقا أن الإنجليز قد سحقونا في الشرق الأوسط، وأنهم هبطوا إلى اليونان وهزموا جيش التحرير اليوناني الحر، والذي في هذه الأثناء قد طرد الألمان.

- هل هذا يعني أنه إذا ما ضربنا الإنجليز سيضربهم الروس من أجلنا؟

- لا أدري. أفترض أن هذا لن يحدث أبدا قبل سقوط هتلر. لن يتركوا حفل الزواج ليهرعوا من أجل جمع أقماع الصنوبر. علاوة على ذلك أنت تنسى أن أبغض شيء قبل وبعد أي انتصار بالنسبة لكل الشعوب أن يكون هناك حملات ضد السوفييت.

- أعطهم مدة ثلاثة أشهر وسيعدون لك هوس مناهضة الشيوعية. الكتاب المأجورون ما أكثرهم. الوسائل الفنية والراديو والسينما والصحف ولديهم أكثر من هذا.

لقد تعلم أن يفكر. لكن كل الأشياء بداخله تبدأ من نقطة فاسدة: أن يبرروا نظريا أخطاء يوليو. لم أكن أظن أبدا أن فاسيليس يمكن أن يكون صاحب مصلحة شخصية. على أى حال كنت أفضل فاسيليس القديم، بعقلية الرجل الشعبي السليمة. لحسن الحظ، هناك متسع من الوقت في حوزتنا. سنتحدث بلا انقطاع في الغرفة حتى أعيد إليه رشده.

لكن كلما حاولت جاهدا أن « أعيده لصوابه » كان يبذل هو جهدا أكبر ليعيدني أنا إلى صوابي.

- يا سيميونيذيس، أنت تقول لي كل هذا لأنك لا تحب الرفيق.

- أنا لا أقبل هذا! لقد تغيرت أنت.

- متفقون. في بنغازي ماذا كنا نفعل بالليل؟ كنا نتحاور. لقد غيرتني

الحياة واختلاطي بالجنود. أنتم هنا تعيشون فيما بينكم، ووحدكم تقررون، وحدكم تتحاورون ثم بعد ذلك تضعون القرارات أمام القاعدة. لكن الأمر يختلف كثيراً عندما تعيش مع الكتلة. لقد تغيرت النفوس يا رفيق! نقول: إن العجين ينتفخ. لكن هل تعرف كيف يحدث هذا في الحياة؟ قبل ذلك كنا خمسة بالمائة. لكن النسبة الآن صارت ثمانين بالمائة، في كل مكان، في السفينة والكتيبة والخدمات. وكل هؤلاء الناس يترقبون لحظة الفعل.

ـ هناك فرق بين الفعل وبين أن ندفع الناس إلى تصرفات متطرفة.

خلع بنطاله وراح يحاول جاهدا أن يثبت بالإبرة زرا كان على وشك السقوط. كانت الإبرة غليظة يصعب مرورها. حاول أن يدفعها بإظفر سبابته فكانت تنزلق منه مما أدمى إصبعه. وضعه في فمه وراح يمصه. نظر إليَّ مستهجناً كان الذنب ذنبي.

ـ عن أي علاك وتصرفات متطرفة تحدثني الآن؟ علينا أن نعيد تشكيل القيادة إذا كنا نريد ألا نفقد زمام الأمور من بين أيدينا.

«علاك» الضئيل التافه يستخدم كثيراً تلك المفردة. انقلبت أمعائي.

ـ سألت، إذن طرحتم موضوع فانيس؟

بعد أن استمر في دفع الإبرة نجح في أن يمرر سن الإبرة. الآن عض عليها بأسنانه كي يجذبها.

ـ من تقصد بطرحتم؟ سأل هادئا من بين شفتيه المنقبضتين. لماذا تحشر الآخرين في الموضوع؟ أنا من أتحدث معك، أنا: غاريلاس.

ـ لأن فوتيروس من قبل قدم إيحاءات بصدد السكرتير العام.

ـ أترى؟ لقد تحدثت بالأمس مع فوتيروس، لكننا لم نطرح أبدا أمر السكرتير العام. أنا أعلم جيداً قدرات فانيس وأقدره. أنا أراقب فقط وأقوم بالنقد. هل تسمي هذا أيضاً: تطرفاً؟ لكن بما أننا نتحدث الآن، فإن فانيس مريض، ومن الطبيعي أن يؤثر هذا على فاعليته وروحه القتالية.

ومَن من المناضلين الشعبيين لا يعاني من مرض أو اثنين؟ ما هذا الذي تقوله؟ رغم أنني أردت أن أكون موضوعيا فإنني لمرة أخرى بدا لي وكأني أسمع الضئيل التافه.

ـ سألته، هل تلقيت الرسالة التي أرسلتها لك في بداية الشهر؟

ـ أي رسالة؟ هل كتبت لي شيئا؟

ـ سألتك فيها عن مقتل بيجميليون وراكبي الموتسيكلات.

ـ آه، تلك الرسالة؟ قالوا لي شيئا بهذا الصدد. لماذا تريد أن تنبش هذا الموضوع الآن؟

ـ لكي نعرف. إما أن اللواء الثاني تفكك بسبب الاستفزازات التي تعرضنا لها وإما أننا أردنا أن يتفكك.

ـ نحن؟ هل جننت يا سيميونيذيس؟

ـ إستراتيجية ثورية. لكي نقتطع كتيبة من الجبهة المعادية للسوفييت.

لف غاريلاس الخيط حول الزر، عقد عقدة إضافية فوقه ثم قطع الخيط بقوة.

- سنتحدث عن هذا في وقت لاحق، كي لا تختلط الأمور. أعني، في تحليل أخير عن بقية الأمور. هل تتصنع الغباء؟

- أي تحليل أخير؟ سألت وأنا أحترس ألا يظهر اليأس في صوتي من فرط سفسطته: الحرب تنتهي، حركات التحرير تنتشر، الأمور اليونانية نضجت. هذا يجعل قوى الاستعمار تُظهر أهدافها من الآن. هكذا، النضال على جبهتين يوضح لنا الأمور أكثر. لكن الهدف الإستراتيجي يبقى هو نفسه: التحرر القومي. لابد أن ننتقل ونسير نحو أشكال من النضال أكثر قتالية لكن لابد أن نكون حذرين حتى لا نجد أنفسنا منفصلين أو في مواجهة مع الليبراليين.

- إذن لندع تسونيروس والباقين يلعبون لعبة الإنجليز؟ الأحزاب الأثينية الدنيئة تشيع الافتراءات عن جبهة التحرير اليونانية ويضغطون على الإنجليز كي ينبذوهم. كما أن تسونيروس لا يتعاون ولا يدع الناس تعرف شيئاً عن انتصارات المتمردين. إن الفاشيين لديهم تنظيم في الجيش، يدبرون المكائد ويجعلون الإنجليز يفككوننا، كما أنهم على صلة بالسائقين الألمان. كل هؤلاء هم حفنة. نفخة واحدة ستذهب بهم... هل سنتركهم مرة أخرى حتى يضعوا على أكتافنا ميتاكساس آخر؟

- لهذا لا ينبغي ألا نبتعد عن مجموعة الضباط الديمقراطيين ولا عن الطبقة المتوسطة للجالية. مهما قلنا، هم مازالوا يعتبرون الأحزاب القديمة

هي القيادة «الطبيعية» لهم. ينبغي لنا أن نشرح لهم أن طعم السلطة يؤدي بأكثر القادة إلى شباك المستعمرين.

- نعم نشرح لهم، لكن كيف؟ بمرشة المياه المقدسة أم بالعصا؟ ألن يداهمنا الوقت يا سيميونيذيس! إن هؤلاء يمرون من ثقب ويذهبون بنا إلى سوق النخاسة في لمح البصر. بالأساس، فيم تختلف مع الرفيق؟ هل ما حققه في الجيش الثامن قليل؟

- لا، ليس قليلا، إنه تنفيذي جيد. هذا إذا نسينا سلوكه الاستبدادي ومخادعته الدائمة وإصراره في أنه كل شيء هو قد أتى به من رأسه دفعة واحدة. أراهن على أنه فعل الشيء نفسه الآن. مواقفنا في الجيش الثامن كانت نتاج عمل جماعي، وبالأساس تحت إشراف فانيس.

- أيّ؟

- أي إن الانضباط والتدريب المكثف ليس لذرّ الرماد في العيون، لكن التعبير عن رغبتنا في إنقاذ الجيش والأسطول كي يحاربوا.

- وفيم يضر كيف نعرضها؟ هل هذا يمنع إنجاز أعمالنا؟

- أخشى سحر التنويم الذي مازال يمارسه عليك بشعاراته الثورية المزيفة. الحوادث لابد أن تصير دروسا. ربما لمرة أخرى في لحظة أخرى حاسمة كي يشبع طموحه الحزبي، أن يجرنا إلى مجازفات.

نظر لي غاريلاس باستغراب. الدهشة. الغضب شيء آخر أكثر عمقا،

مثل متأمل أو متنبئ، كان ينظر إليَّ وقد جحظت مقلتاه.

ـ قال بعد قليل، هيا. بقى لدي خيط. هل لديك زر يحتاج إلى تثبيت؟

لكنه لم يستطع أن يبتلع غضبه. فتح فمه ثانية وقال:

ـ ونحن يا رفيق، ماذا تظننا. أخراف نحن؟

VIII

كان التقويم يشير إلى أن فصل الشتاء قد بدأ، لكن الخريف كان قد أربك نانسي، فكان يشبه الربيع. ظل جسدها ينتظر شيئا مبهجا وحرا، مثل سباحة بلا مايوه في أحد الشواطئ المجهولة للبحر المتوسط. لكن أمنية كهذه كانت تتأخر، جسدها الحائر كان له إيقاعه الخاص: فكان يخلط الزمن والفصول. عندما سألتها جوليا ماذا ستفعل في وقفة أعياد الميلاد، كانت على وشك أن تنهار دموعها. وفجأة شعرت بوحدة عميقة أشبه بمنفى. فكرت أن تحزم حقائبها وترحل في التو إلى أورشليم. هناك على الأقل البشر منفتحون، فقد رأوها سعيدة بين أحضان رون. لكن جوليا أقنعتها بألا تفعل. هل استطاعت أن تنبه اليوناني ذا القبعة أنه في خطر؟ لا. ستتركه إذن يطوف وهو يجهل النار التي تحيطه؟ وبينما كانت نانسي تنتبه إلى قلعة الأعداء بعد أن تحالفت مع زوجة السجان التي تدين لها بالولاء، ألم يكن من الجنون أن تهرول إلى الماضي طلباً للمواساة؟ لم تقل لها أن تقضي معهم الأعياد؛ فلن تستمتع بصحبة المعوق وحفنة من العجائز المهووسين. لكن بخصوص يوم الوقفة كان باستطاعتها أن تؤمن دعوة من صديقاتها، أناس من المجتمع الراقي يتمتعون بالذوق والإتيكيت. أخبرتها نانسي بأدب أنه من الصعب

أن يحدث هذا. رفضت دعوة من الليدي أتكينسون ومن بعدها دعوة أخرى من الليدي جويندولين. لحسن الحظ هناك ماري كلود. في اللحظة الأخيرة في منتصف النهار أبلغتها أنها في المساء ستمر عليها بسيارتها. ليس هناك داعٍ لارتداء ملابس سهرة. سيخرجون بملابس المساء، مع بلوفر إذا ما برد الجو وحذاء بكعب منخفض.

هل تحبين المأكولات البحرية؟ سألت ماري كلود عندما جاءت، صبت لنفسها كأسا كبيرة من الويسكي وهي تتفحص أثاث الشقة مجهول الهوية. كانت روحها المعنوية في حاجة إلى دفعة. لعبت الليدي أتكينسون عليها لعبة من لعباتها الشيطانية فلم تستطع أن تنطق بكلمة. في ذلك الصباح قالت لها إنها دعت جاك عشيق ماري كلود وزوجته وصديق زوجته. عندها فهمت ماري كلود أن أمها تعرف كل شيء. جاك قبل الدعوة لأنه ظن أنها تمت بإيعاز من ماري كلود. كان موظفا في بنك واقتصاديا كبيرا إلا أنه بريء كطفل. ولعه بماري كلود هو ما جعله هكذا: كان يعبدها. ربما بسبب سنها الصغيرة. كان يكبرها بعشرين سنة. عندما تعرفا كان هو أصلع بالفعل، وكان يقول إنه قد انتهى أمره تماماً فيما يخص العشق وإنها قد نزلت إليه من السماء بهذا الجسد الغض الجريء الخانع. واستمرت المعجزة دون تعب أو شبع. أي زوجين شرعيين يمكنهما أن يتباهيا بتوافق كهذا، كان يقول لها إن تلك معجزة لا تعرفها سوى جدران غرفته في مدينة العشق الشهيرة هذه، كم فيرونيكا، كم كليوباترا، لم يكن أحد يعرف بشأن ارتباطهما الإعجازي، لكنه كان موجودا ومستمرا، يسافر مثل النجم في الفضاء. حبة الماس كل

عام، كانت هديته التي يحاول بعد رجاء كبير أن يقنعها بقبولها. أما هي بدورها هذبت من ذوقه، جعلته يتخلص من لوحاته القديمة لبوجيرو وفيرنه ويشتري ماتيس، براك ولوحة لسوتين وأخرى لمودلياني.

- يخرج رابحا في هذه الحالة أيضا، قالت نانسي بشفقة.

- أوه يا نانسي، ساخرة مثل أمي. أنت لا تعرفين نشوة أن ترفعي رجلاً بأيد عارية، أن تساعديه ليعيش، ليعيش أكثر وأن ينتصر على الانهيار، ويقول ليأتِ الموت الآن، لم يكن ينقصني شيء. النشوة والفخر يا نانسي. وعندما فكرت أخيرا أن أطلب من أمي قائمة المدعوين، أتدرين من وجدت؟ السلسلة كاملة، عشيق زوجته، وعشيقة الآخر حيث الزوج... هذا هو عالمنا. خيانة وادعاء، كلها لذر الرماد في العيون. حياة مبنية فوق صمت الذنوب... لم أكن لأحتمل أن أراه في أجواء كهذه. لم أكن لأتماسك، كنت سأقوم بفضيحة. أردت فقط أن أعاقبه لأنه قبل مثل هذه الدعوة دون أن يسألني. لكن، دعينا لا نبقى في البيت. هل تحبين المأكولات البحرية؟

كانت ماري كلود تتنهد بين الحين والآخر بينما تمسك بعجلة القيادة، كانت تتألم من أجل عشيقها الذي سيبحث في كل ركن من أركان الفيللا بحثا عنها. كانت تشعر بالذنب الآن لأنه سيشعر بالإحباط في يوم عيد كهذا. السيارة كانت تجري بأضواء مشتعلة وتمر على حقول الفلاحين وكانت مقاهيهم ودكاكين الدخان ساهرة. كانتا في طريقهما إلى أبو قير، حيث مطعم يوناني شهير بالمأكولات البحرية. كان مبنيا فوق الصخور على مقربة

من أطلال معبد أرتيميس، وتسريحة فيرونيكا معلقة الآن في السماء تشهد وتشاهد طالما هناك حياة ومن أجل الحب الملتهب للملكة التي كان يجري في عروقها دماء يونانية. لاحظت نانسي دون أن تقول شيئا، كيف أن نساء الطبقة الراقية في الإسكندرية المعاصرة لديهن حس تاريخي عال، ويكتشفها المرء مترقبة دائما في أكثر الأفعال يومية، حيث توجه سلوكياتهم وربما أقدارهم، مع إشارات مستمرة لتاريخ المدينة الهليني والشعور الهليني بالعشق والجمال، وطلب المتعة دون أي شعور بالذنب والرغبة الجامحة للخلود.

- عندما أشعر بالتعاسة آكل، قالت ماري كلود. الشيء الذي يعوض تشنجات العشق بالنسبة لي هو طعم قنافذ البحر. فهذا الطعم يذكرني بروائح مياه الموانئ، وربما قليل من المازوت والعرق المالح لصراع البقاء، طعم من جزر غريبة بها فواكه ذهبية وهالة الحرية المترقبة.

تراجعت شاعريتها عندما واجهت أمام المطعم صفا من خمس أو ست سيارات. راحت تفكر، كيف هذا في يوم كهذا... عندما فُتحت الأبواب الزجاجية شاهدا القاعة عارية، مفارش الطاولات أخذت لونا أصفر تحت أضواء الأباجورات وعلى رخام البار شجرة كريسماس هزيلة وبعض الشموع الملتوية وقليل من شرائط الزينة المذهبة. تحركا على الفور نحو المطبخ وهناك الطباخ العربي قال لهما إن الجميع ذهبوا إلى الكنيسة الأرثوذكسية في أبو قير، حتى الجارسونات. سيعودون للاحتفال بعد منتصف الليل. هكذا اختارا ركنا بجوار المطبخ كي يهتم بهما الطباخ

بسهولة. طلبا تلا من قنافذ البحر، ثمانية سرطانات بحر ونبيذا أبيض محلي من مصانع جناكليس.

كانتا تشبهان سيدتين باريسيتين في منتصف العمر، الأشواك ثقيلة من تلك التي لا يجدها المرء سوى في المطاعم الفاخرة. كان هذا يعزيها. نشوة بنشوة، فلم يكن هناك رجال على أى حال، كانت قنافذ البحر طيبة، والنبيذ حلوا بشكل ما لكنه يُشرب، بالطبع، يُشرب بتلذذ. تحولت شاعرية ماري كلود إلى تحليلية. وهكذا البحر ورائحة اليود وتأوهات الحب أصبحت داخل وخارج المحل. أسرّت نانسي إلى ماري كلود بسرها الحربي، عن الفتيات اللاتي أغواهن طقس المتوسط وفي النهاية لم يجدن سوى عناق سكين مسلم متعصب. وماري كلود أسرّت لها بسر حربي آخر، علمته من عشيقها، ليس هناك متعصبون مسلمون أو قوميون ، لكن ثمة مجرمين معروفين وتقريبا منظمين يشرف عليهم فرع خاص في الاستخبارات الإنجليزية والمطلوب هو أن تحدث جرائم وتحريض وغضب ضد الأجانب وهوس بالحرب، وهذا ما يأتي في مصلحة سياسات الفورين أوفيس. والآن، وهكذا الآن هدفهم ليس فتيات العسكرية المسكينات ولكن روح الجنود جميعهم، الذين تعاملوا بجدية مع تصريحات الكبار عن الحرية، ولابد أن يعالجوا من الوهم لأن اليوم أو غدا سيحتاج الأمر أن يضربوا بالذخيرة الحية عندما سيطالب المصريون بأن تخرج القوات الأجنبية من بلادهم.

ـ تنهدت نانسي قائلة، هذه مبالغات، وكل هذا لا فرق بينه وبين الطاولات والنوافذ الزجاجية والزجاجات في البار في هذا المحل: لو كان

عشيقك شيوعيا كنت سأفهم عفويته وسذاجته وسرعة تصديقه لهذا الهراء...

طلبت ماري كلود قهوة سادة والصودا. عندما بدأ الأرثوذوكس في الحضور بعد أن انتهوا من الكنيسة كانا قد انتهيا وغادرا. ماري كلود واجهت صعوبة في أن تدير موتور السيارة، يبدو أن الرطوبة والبرد الليلي قد بردّا الزيت. لكن في الطريق الطويل كل شيء سار على ما يرام. كانت تقبض على عجلة القيادة بيدها اليسرى وباليمنى تدلك خلف رقبة نانسي كي يذهب عنها ألم الرأس. على الكورنيش احتاج الأمر أن تسير بانتباه أكثر؛ فالمحتفلون السكارى بالسيارات الكبيرة يجرون بجنون ويأتون ناحيتها. توقفت أمام البناية الصفراء ووضعت نانسي في المصعد.

ـ اذهبي أنت يا عزيزتي، قالت. لا أريد أن أفسد عليك سهرتك. أنا على ما يرام الآن. وأشكرك على كل شيء. أيتها الفتاة المسكينة، أين ستذهبين الآن حتى تنتهي حفلة أمك؟

ـ سأصعد إلى الأتيليه من سلم الخدم، لا تحزني. طابت ليلتك يا نانسي. عيد سعيد.

سمعت نانسي في الطابق الثامن جلبة كبيرة تأتي من بيت بروكس. استندت بظهرها على باب شقتها وانتظرت. أرادت أن تعرف ماذا يحدث. وفي هذه اللحظة فُتح بابهم، الصراخ والصفيق والتهليل كان يملأ الدرج. قس يرتدي الجلباب الذي يرتديه تحت حلته خرج على رأس الدرج وجلس

على عقبي حذائه يرقص رقصة روسية. خلفه كان يتراقص بجلده المحمر بروكس وهو يرفع كأسه عاليا. وفجأة رأي نانسي.

ـ فودكا ماي ليدي، فودكا! وصاح قائلاً؛ بركة سيلوام.

في الحقيقة لم تنتبه نانسي أن العجوز الداعر كان دون مقعده المتحرك.

هدية الكريسماس للخادمة العجوز في « بروتياس » كان شالا من الموهير. كان غالي الثمن، لكن نانسي لم تر طريقة أخرى لتجنب الهدايا التقليدية. فرحت العجوز به ووقفت أمام المرآة الخضراء وراحت تتحرك بحركة تشبة مسز بروكس عندما ترتب ثيابها، ألقت الشال على ظهرها ونست نفسها وهى تنظر في المرآة: الحدب على ظهرها استوى وبدت وكأن طولها قد زاد سنتيمترا أو اثنين.

ـ لتعتني بك العذراء يا ليدي كامبل لأنك تذكرتنى. علَّ العذراء تأتي لك بمعجزة فيتحقق كل ما تبغيه.

ـ شكرا لك. قالت نانسي بتأثر. لكن معجزتين في البيت نفسه، ربما يكون صعبا.

نظرت إليها العجوز في المرآة.

ـ وهل هو أمر هين أن يقف مستر بروكس على قدميه؟ أكملت نانسي.

امتلأت عينا العجوز بالرعب ثم قالت مذعورة

- هل رأيته. إنه هذا القس الشيطاني المدعو أثاناسيوس، أسكرهم جميعا بكحول نقي من الصيدلية.

- ربما كان هذا هو ما كان يحتاجه: غسيل قوي لرأسه بالكحول.

علقت العجوز ذراعيها وبدا عليها القلق. سحبت الشال من على ظهرها وطوته. انقبضت شفتاها إلى الداخل، كانت تحاول أن تقول شيئا لكن الكلام اختنق بداخلها. راحت تطوح رأسها يمينا ويسارا وظهر على وجهها تمتمة يأس. جلست على طرف الفراش وانحنى ظهرها مرة أخرى.

- إنه ذنب ابنتي التي قالت لكم نصف الحقيقة. بأي روح ستقابل ربها لا أدري.

- هل لديك ابنة هنا؟

- ابنتي، هي زوجة هذا الوحش، جوليا بروكس.

- لم أكن أعرف هذا، قالت نانسي وهي تجلس بجوارها.

- مدت ذراعها على مضض واحتضنت عظام ظهرها. انحنت العجوز برأسها حتى ركبتيها.

- يا ابنتي، قالت. أنت تعيشين في الثراء مع أناس أنقياء، لا تلوثي نفسك. أنت لا تعرفين ما الذنب الذي يختبئ في أرواح تعذبت في البؤس.

- وأنا أقول لك إن البشر الأنقياء الذين عرفتهم هم فقط الفقراء، هؤلاء الذين يكسبون قوتهم بعرق جبينهم.

ـ كم كنت أتمنى، لكني لم أعرف غيرهم، كنت دائما غارقة في العفن: كانوا مهربين وخونة وقوادين.. آه، لا، لقد نسيت، سامحني يا ربي. تعرفت على رجل فقير، رجل نظيف وحقيقي. لكن لوقت قصير جدا. تعرفنا في الظلام. ذهبت إليه وحدي، جريت وأنا أرفع الملاءة وألصقتها فوقي. وقدر ما استغرقت مضاجعتنا لم أنطق بكلمة ثم بعدها، اختفيت من أمامه. ابتلعني الليل. ربما لم يعلم أبدا ما اسمي، أو من أنا، لو كنت حقيقة أم حلما. حدث ذلك في الخريف ولم أره أبدا يمر من أمام البيت. لابد أنه شعر بشيء وكان يتجنبني. فكرت أكثر من مرة أن أذهب وأبحث عنه، أن أقول له عن ابنته جوليا، فلذة كبده، تعال وانقذها، فنحن نحتاج إلى رجال لا يهابون شيئا كي ينقذونا من هذا الوحل وهذا الجحيم الذي سقطنا فيه. لكن، اللعنة على إحساسي فلم أفعل هذا أبدا. لم أشأ أن ألقي بإنسان بريء كهذا في ذلك القطران وأفسد عليه آخر عمره.

ـ ألم يستطع مستر بروكس أن يساعدكم؟

ـ عليه اللعنة. إنه هو من دمرنا يا ابنتي. في الحرب الأولى كان اسم لورانس مشهورا جدا ومسموعا في كل مكان، كان يدير الجمال المحملة بالذهب التي تذهب إلى مكة. وهذا الملعون كان يرتدي ملابس بدوية ويزعم أنهما يعملان سويا : هو ولورانس، كان يقول إنهما كانا زميلين منذ الطفولة. لكن عمله في الحقيقة كان واشيا، مخبراً في الجمارك. هكذا ورط زوجي ذات يوم في صفقة مخدرات. فإذا بزوجي البائس يحضره إلى البيت ليتناقشا في الأمر. قال لي، انظري يا أنت، أطعميه واسقيه ودلليه وإلا

هلكنا. وليتني ما أطعته. جلس الملعون ورحت أطبخ له ما لذ وطاب من اللحم بالبصل والمسقعة والضُلمة ولحم طير بري مشوي وحليب العصفور كما يقال. كان ذيموستينيس ينام في غرفة الغسيل. وراح البائس يتمتم بأنه فاض الكيل وماذا سيقولون عنا في الحي، فإذا بالآخر الملعون يفكر أين سيجد رفاهية كهذه. شيئا فشيئا راح يعطي الحشيش مرة أخرى لذيموستينيس حتى تم القبض عليه ونُفيَ. حتى أنا ذهبوا بي إلى المحكمة وشهدت أين كان يخبئ زوجي المخدرات. انتهت الحرب وعمت الفوضى وتعلم العرب أن يطالبوا بالحرية. وهذا الملعون كان يحوم حولنا طيلة الوقت، كان يظهر أحيانا في زي ضابط وأحيانا أخرى كبدوي وتارة كسفير وتارة كحمَّال. وذات يوم ذهب بي إلى المحكمة المختلطة. قال لي أن أوقِّع هنا؛ بعنا المنزل. حولنا كان المخبرون السريون كأنهم شهود على العقد. كنت قد وضعت جوليا في مدرسة الراهبات الأيرلندية، كانت بنتا في العاشرة من عمرها. إلى أين أذهب دون حماية، وزوجي في المنفى، ستتوقف ابنتي عن الدراسة. وقَّعت، لكنني لم أرَ نقودا. والآن، قلت له، أين سنعيش؟ لا عليك، قال لي، لقد وجدت لك المكان المناسب كي تبتعدى عن ثرثرة الحي. لم يكلفه الأمر شيئاً! وأين تعتقدين قد ذهب بي؟ إلى أرض جوليا، قطعة الأرض تلك التي كتبها باسمها الأمير المرحوم. كان منزلاً ذا طابق واحد وحوله رمال وفدادين من الصحراء وتلال يعيش عليها عائلات البدو، بعنزاتهم وكلاب الرعي وبعض كلاب الحراسة المتوحشة. لا أقول ليس هناك بدو طيبون، لكنني لم أر منهم

أحدًا قط. كلهم باعوا أرواحهم للشيطان، كان سيطردهم من الأرض لو لم يفعلوا ما يطلبه منهم. سجن، وضعنا في السجن.

ـ لم أفهم، هل كانت بينكما علاقة زوجية؟

ـ نعم يا ابنتي، نعم. ماذا أقول لك طيلة هذا الوقت؟

ـ هذا غير معقول. هل تدركين ماذا تقولين لي؟

ـ أنا لا أفهم؟ بنت في الرابعة عشرة من عمرها أخذها من المدرسة ودفنها في ذلك السجن. كنت أرى كيف تلمع عيناه عندما ينظر إليها، وكنت أهدده بأنه إذا لمس ابنتي سأصير وحشا وألتهمه. وهو كان يقول لي صبرا، لدي خطتي، سأجعل منك ملكة. وكان يأخذها بين أحضانه مدعيا أنه يدربها على اللغة الإنجليزية وكنت أرى كيف تجحظ عيناه، وبعد ذلك يبعدها عنه، ثم يلقي بنفسه للشراب وفي النهاية كان ينفجر في أنا. كان يستحيل علي أن أنام في الليل، كنت أحرسه، فور أن يقوم من على الفراش كنت أقوم خلفه. أتدرين ماذا تعني لحظات صرير الباب في منتصف الليل؟ كأنه يستمر لسنين، لقرون. شيء ينفخ قلبك مثل البالونة ثم يقطعها إربا إربا. تودين لو تصرخين طلباً لبصيص من الضوء، ولترى عيناي أي شيء، ولتكن نهاية العالم، يكفي أن ينتهي عذابي هذا، وأن أعرف أن أمًّا بهذا السوء لن تُخلق مجددا. ماي ليدي؛ بيديَّ هاتين غسلت ملاءة دماء عذريتها. البنت وكأنها جُنَّت، فسدت، لم تسمع مني. كنت أقول لها، ارحلي، هرولي إلى القس في كنيسة الرسول إلياس، اركعي تحت قدميه واحكِ له كل شيء. جعل منا الحرملك الخاص به، الأم وابنتها، الملعون. ارحلي يا ابنتي، وإلا لن

ننجو. لكن المسكينة كانت تخجل، لم تجرؤ أن تنظر إلى أي إنسان في وجهه. وأصابها أمر سيئ، صارت تجري وتجري مثل الخيل المهووس في الأرض حتى تنهار من التعب وتسقط مغشيا عليها. هكذا وجدها الملعون ذات مرة، صرخ في قائلاً، ماذا تسقيها فتفعل هكذا ولا تنام أبدا؟ ثم بدأت تغادر في الليل دون أن تقول إلى أين تذهب، لابد أنها كانت تجري في الليل، لأنها كانت تعود جائعة ثم تغلق عليها غرفتها ولا تفتحها أبدا. استشاط غضب الملعون، أحضر بنادق وأعطاها إلى الحراس البدو وقال لهم، أينما تجدون خيالاً أطلقوا عليه الرصاص فورا، لقد أحضرت لكم تصاريح من الحكومة، القانون يحميكم. هكذا كان الشيطان! لكن الصغيرة وجدت طريقة أخرى لتهرب في الليل، بقي الأمر غامضاً كيف تتسلل ومن أين في الليل، كما لو أنها وجدت خندقاً سرياً من أيام البطالمة كما يقولون. مرتان، ليلتان، نبشنا في الأرض بمشاعل وبطاريات ولم نترك شبرا دون أن نبحث فيه، بلا أي نتيجة. وذات صباح نادتني، أمي أنا بحاجة إليك. ذهبت إلى غرفتها، وجدت قطعا من الإسفنج استلقت على بطنها وأرتني مؤخرتها مليئة بطلقات الخرطوش. سقطت مغشياً علي، لكن البنت الخبيثة راحت تضحك، لم تش قط بالحارس الذي أطلق عليها. العلامات موجودة حتى الآن وأعرف أنك لم تُرهَا، لأنكما عندما كنتما في طقس الحلاوة كانت ترتدي كيلوتها، وعندما وبختها قالت لي، يبدو أنك مجنونة، هل سأظهر مؤخرتي أمام الليدي؟ ليكن. من وقتها ربما هدأت بعض الشيء، ألقت همومها في القراءة. بعد سنوات يبدو أنها تورطت مع أحد الشباب فإذا بالملعون يعلم بالأمر وضبطها، لا أعرف، لكنهم يعاملونني كغريبة، كانا يعيشان معاً كرجل وزوجته، وحدهما يتشاجران

ووحدهما يتصالحان. وذات يوم قالت لي، أمي، لقد قررنا أن نقنن علاقتنا، سنخرج إلى العالم ونعيش حياتنا. ماذا كنت سأقول لهما، لقد صارت جوليا فتاة بالغة. باعا قطعة الأرض من أجل حفنة من آلاف الجنيهات، وكان لهذه الأرض مستقبل كبير، لابد أن عظام الكونت تقرقع في قبره. أثثنا هذا البنسيون وهكذا صرت أنا خادمة لابنتي، ولعشيقي السابق، جلادنا.

وصلت برقيات الأمنيات من أورشليم في وقفة رأس السنة مَن إيمي بومبريتسمبرج، فراو آنا، مدام أندريانو وميس سراميك ونينا ميبلي وروزا الذين قرأوا عنوان نانسي على البرقية الجماعية التي أرسلتها لهم. قالوا لها إن ميشيل منذ فترة في الجزائر ولا يعرفون عنوانها. كان يوما شتويا جميلاً، لون البحر أخضر والسماء مضيئة. العلم على الفنار كان يرفرف بين الحين والآخر. بقلب دامع خرجت نانسي إلى الشرفة وهي تمسك الرسالة بيدها. ذات ليلة عندما ذهبت إلى الرقص في المنتجع اليوناني في أورشليم، قالت لمانوس: «لو حدث شيء لرون، لا تتركني وحدي». الشعور الغامض لديها بأن محبوبها سيُقتل سريعاً كان يجعلها جالسة واضعة ساقا على ساق وتعطي لكل اللحظات التي تمر بها معه إحساسا مختلفا، ميتافزيقيا تقريبا. في وقتها قبَّل مانوس يدها وهو يلعب دور النبيل من عصر آخر وهمس لها بمجاملة سخيفة. لكنه وعدها. وهاهو الآن، ليس فقط غير موجود ولا يمسك بيدها وهي عمياء من الألم تتأرجح على حافة الهاوية، لكن بسذاجتها وهوسها بأن تبيح أسرارها بتهور، عرضت حياته للخطر، غير قادرة طيلة هذه الأيام أن تتحرك وتفعل شيئا كي تنبهه. من صباها،

منذ ذلك الوقت الذي اكتشفت فيه قيمة العلاقات الشخصية وأسست عليها كل مفهومها للحياة، الحياة دائماً، لكن دائماً كانت تأتي «صدفة» ما تَشي بطرف سر غريب ينصفها. المرة الوحيدة التي خُدعت كانت هذه المرة مع مانوس. شيء ما لا يسير بشكل صحيح. لكي تتكون علاقة شخصية لابد أن يكون هناك اثنان بشكل ما وغير محدد كما لو أنهما في سحابة روحية يشعران الكلمة نفسها. أي دلائل لديها تقول إن مانوس يبحث عنها؟ تكلمت وكتبت إلى روبي، وإلى إيمي، وإلى نينا وميشيل: ألم يُشر أي منهم ولو بإشارة من بعيد أنها تبحث عنه؟ لماذا لم يجب أبدا؟ ربما لا يريد. تلك الليلة على السطح، ربما يكون قد تعرف عليها. أوه، هذا مريع! حبيبي يا رون، هل أخطأنا نحن الاثنان؟ عندما قلت لي إن هذا اليوناني سوف يساعدك حتى لا تقعى في الدائرة العقيمة لقدرك الاجتماعى إذا مت، هل كانت غريزتك هي التي تتكلم، أم خبرتك أم كنت متأثرا بحماس روبي، الذي كان يجهزنا حتى قبل أن نذهب إلى أورشليم؟ لكن روبي كان لديه أسباب أخرى كي يرى مانوس اليوناني الأكثر أصالة. آه، كفى! سينتهي بي الأمر مرة أخرى إلى تلك القبعة التي حيرني أمرها...

حينها بالضبط رأت مانوس والبحار في تلك الليلة يخرجون من خلف المبنى الأحمر الذي يشبه الدير التوسكاني. قطعا طريق الكورنيش وصعدا نحو الرمل وهما يتمشيان. أرادت أن تصرخ المجنونة. لكن كيف سيسمعها؟ بدلت حذاءها، أخذت حقيبتها وخرجت. ثمانية طوابق، ما هو الأفضل، أن تنتظر المصعد أم تنزل الدرج؟ تماسكت بعد جهد كبير. لابد أن بروكس يراقبها...

عندما خرجت إلى الكورنيش، كان الاثنان قد عبرا كازينو الشاطبي. القبعة الخضراء لمانوس كانت تبدو عند كلية سان مارك، بالقرب من المسرح العربي الذي كان به فنانات بعد منتصف الليل ينسين تماماً قواعد البوليس والقوانين ويبدأن في رقص شرقي فاضح. وهو ما كانت تقول عنه جوليا إنه هو الرقص الصحيح. كان يجب عليها أن تهرول إذا أرادت ألا تفقده ثانية. هل تنادي على سيارة؟ تاكسي؟ وماذا ستفعل، هل ستوقف بالتاكسي أمامهما وتطلب منهم أن يركبا معها؟ من الأفضل أن توسع خطوتها. ستشبه بعض نساء المدينة اللاتي تراهن كل صباح يسرن الاثنى عشر ميلاً الصحية.

عند كامب شيزار قَل عدد المشاة. على الرصيف بالسياج كان مانوس والبحار يسيران، خلفهما بقليل كان بائع كعك بقفص على رأسه، خلفه رجل أوروبي بقبعة رمادية، وبعدهما كانت نانسي. البحار التفت برأسه ونظر للخلف. بائع الكعك رأى بعض التلاميذ يجرون على الرصيف المقابل، أنزل قفص الكعك وراح ليقابلهم. إذن، يبدو أن القوى الخفية تعمل بجد وتعد تلك الصدفة. فجأة، فتح الاثنان خطوتهما. كأنهما رأيا أمامهما أحدا وراحا يتعجلان ليقابلاه. الشيء نفسه فعله الأوروبي. حاولت نانسي أن تجد سيارة أو تاكسي. عند الإبراهيمية رأت سيارة صفراء متوقفة. هدأت من خطوتها، ليس هناك داعٍ أن تلهث، الآن ستلحقهما بالتأكيد. كان الأوروبي يجري خلف الاثنين كأنهما في مسيرة. لكنهما لم ينتظراه، بل زادا من سرعة خطوتهما. حينها مر بذهنها أن هذا الشخص ربما يراقبهما. وفي التو تمنت:

آه، لو ركبا سيارة التاكسي سينجوان! لكنهما عبراه. عاد البحار ونظر خلفه مرة أخرى. كان مانوس يسير بصرامة وينظر أمامه. منذ أيام فلسطين كيف تغيرت مشيته بهذا الشكل... حينها كان يعتاد أن يلتفت برأسه ببطء من اليسار إلى اليمين كما لو أنه يفتش على الجنود بفخر، وبشيء من النبل.

يا لسوء الحظ، أشار لها سائق التاكسي على علم العداد المنكس والبناية المقابلة حيث إنه ينتظر زبونه. حينها أصابها الهلع. ستفقد مانوس، لقد فقدته. بدأت في الهرولة. يبدو أن الأوروبي قد سمعها لأنه التفت برأسه. وعندما رآها بدل من خطوته وراح يسير ببطء. استمرت نانسي في الهرولة. ألقى البحار خلفه نظرة لمرة أخرى. ثم توقفا تماما، ذهبا نحو السياج الحديدي واستندا بكوعهما، الأول كان مانوس والثاني كان البحر ثم نظرا إليها باستغراب. و- يا للإحباط- لم يكن مانوس الذي كان يرتدي القبعة، كان رجلا بخدود غائرة وتجاعيد. مرت نانسي بجواره وهي تنظر إليه جيداً في عينيه. أوه، بالطبع لم يكن مانوس. استمرت نانسي في الهرولة، وتظاهرت بالبهجة وكأنها غريبة الأطوار. ولم يعنها أن تنظر ماذا يحدث خلفها.

لم يكن مانوس. إذن في تلك الليلة على السطح كان حدسها يعمل بشكل صحيح. لو كان الشخص ذو القبعة هو مانوس كان سيتعرف عليها في التو، حتى لو كانت في الظلام. الشخص الذي يطاردونه كان شخصا آخر. مانوس ليس في خطر. هل هو حقيقي ما قاله بيتر إلى جويندولين إنه وجده في السودان؟ أم كانت خدعة حتى يهدئها؟

عند سبورتنج كان رواد المقاهي يخرجون وينظرون إليها بفضول. كان عرقها يتصبب وقد تبلل إبطاها. سيارة تاكسي كانت تسير هنا وتوقفت عند الرصيف المقابل وراح سائق التاكسي يدق البوق بترو. أشارت إلى السائق ودخلت السيارة وقالت له أن يسير على امتداد الشارع. نعم، لكن جوليا تكلمت عن جرح غائر. مما يعني أنه مانوس. لكنها لم تره على السطح، أعادت المواصفات التي أعطاها بيتر إلى بروكس. يا لها من سلسلة شيطانية: جويندولين، بيتر، بروكس، جوليا. العجوز كانت بريئة. لا، ربما جوليا. من يستطيع أن يصدق المرء؟ لماذا لم تقل لها من البداية إن العجوز تكون أمها؟ آه يا نانسي، أين أوقعتِ بنفسك! لابد أن تغير هذا البنسيون على أسرع وجه. لتدفع لهم قيمة الشهر الجزائي لتغلق أفواههم.

عند كليوباترا تجمع الناس عند سياج البحر. كانوا يصيحون ويشيرون إلى الشاطئ. شاحنة رمادية بصفيح صدئ كانت تقترب من اليابسة بخطورة. هدَّأ سائق التاكسي من سرعته وطلبت منه نانسي أن يتوقف تماما. الرجال على الشاطئ يشيرون ويصيحون نحو السفينة لتتراجع للخلف. كانوا يتحدثون فيما بينهم متسائلين: إلى أين يذهب المجنون؟ كان القبطان عن قصد يلقي بالشاحنة على اليابسة. فوق الغطاء كان هناك رجال بفانلات زرقاء وقلنسوات صوفية يجرون بجنون وينحنون كي يتشبثوا أو يقفزوا كي يتجنبوا الخطر. كان يُسمع صراخ وصافرات وأصوات ماكينات. حينها ظهرت الخنازير، قطيع كامل، مئات الخنازير المشعرة القذرة كانت تجري على الغطاء، كانت متكومة متناثرة تتساقط

بظهورها فوق صفيح السفينة وتنزلق من بين أيدي الرجال وبعضهما كان يدخل برأسه في باب خزان السفينة. لقد أمسكوا بها. على اليابس كان الجمع يضحك من أعماق قلبه ويطلقون دعاباتهم على البحارة ونصائحهم نحو البحارة المساكين. غضب السائق وبدأ في السباب. لولا أنه يحترم عمله لنزل وسقط في البحر ليساعد البحارة. حاولت نانسي بالإشارات أن توضح له أنهم لم يكن باستطاعتهم أن يفعلوا شيئاً، ربتت على ظهره مواسية إياه ورجته أن يكمل طريقه.

إذن: مانوس ليس في خطر، على الأقل الآن. لكنه إذا لم يكن الشخص ذا القبعة فمن الممكن أن يكون موجوداً في الإسكندرية. لو كان أكيداً أنه هو من رأته بنظارات بروكس المكبرة.

وقفة رأس العام مرت بهدوء، عائلية تقريبا. احترق صديق ماري كلود من تجربة الليدي أتكينسون. قال إن ذلك اليوم كان أكثر كريسماس رتابة رآه في حياته. مثلث الحب يمكن أن يكون شيقا في المسرح؛ لكن في الحياة المعاصرة ليس به أي دراما ولا تشويق. يصير أمرا معتادا، اتفاقا بلا معنى: إن أمك يا سيدتي، يا ساحرتي الطيبة، أرادت أن تبتكر وتبدع في أن تجعل المثلث مربعا.

فشلت، أو ربما أفسد عليها مخططاتها إحساسك وقدرتك يا سيدتي على وزن الأمور.

هكذا كان يحدثها دائما، بصيغة الاحترام المبالغ، وكان هذا التدليل يذكرها بروايات بول دي كوك. لكن ماري كلود لم تكن تظهر أنها تشعر به.

كانت متلألئة، بمسحة جمال النساء اللاتي يعرفن أن هناك من يعشقهن. بحركات خفيفة وسريعة تم إعداد العشاء لثلاثة أشخاص في جرسونيرة جاك، عُشهم. انتهت من أمر ما ثم هرولت إلى الأريكة لتتقوقع مثل قطة بين أحضانه، بينما فوقها بشكل أفقي كانت تسبح في اللون الأصفر والبنفسجي والأحمر أجمل أعمال موديلياني العارية التي رأتها نانسي في حياتها.

كان جاك يقترب من الستين. كان سمينا وخفيف الحركة، أصلع ذا عينين زرقاوين وابتسامة جذابة. اعتاد أن يحك ذقنه بكفه السِرى وفي إصبعه كان يلمع خاتم غليظ به حجرة سوداء محدبة. كان بلجيكيا، لكنه قال، إن الأمر احتاج منه سنوات من الجهد كي يتخلص من إرثه وتراثه البلجيكي، أي الغلظة والفظاظة وصلابة العقل التي كان يجسدها بودلير ساخرا. وفي اللحظة التي كانوا يتحدثون فيها عن الحرب قال: إن الكاسحات الشيوعية قادمة وفي طريقها ستدهس الجحافل الهتلرية. ستجرف البلقان ومن الأفضل للرأسمالية أن تعمق قدر ما تستطيع الخلافات الداخلية كما يحدث هذه اللحظة في شأن الملكية في كل من إيطاليا واليونان، حتى يبقى الطريق نحو قناة السويس مفتوحا. أرى خدعة تشرشل، المقامرة بين الجنيه الإسترليني الذهبي والورقي لكي يمول مصاريف استفتاء الملكيين... إيه، إننا نعيش آخر أيام بومبيّا. لنسعد بها قدر ما نستطيع. وعندما تسوء الأمور، سآخذ مجوهرات زوجتي واللوحات التي اشتريتها بإيعاز وإرشاد من ساحرتي الطيبة، سيارتي البَاكَار جاهزة في أي لحظة. سأضع فيها ساحرتي الطيبة، في الخلف زوجتي مع عشيقها. فوجوده مهم

لأنه يفهم في السيارات. وها هو إذن مربع الحب! بسرعة ألف ميل سنقطع طريق برقة وتونس والجزائر والمغرب. وفي طنجة سنفكر إذا كنا نفضل أن نعبر إلى الناحية المقابلة، في جبل طارق أم سنفضل أحد موانئ الأطلنطي في أمريكا. لكل عملائي المذعورين على شرط أن تتعدى أرصدتهم مليونين من الدولارات أعطي النصيحة نفسها. وصدقوني يقبلونها بامتنان. ألم تلاحظوا أن لوحات فلامينج وأترلييو قد تضاعفت أسعارها في المزادات؟

بالطبع كان يشرب البيرة. مثلجة وبكميات كبيرة. ماري كلود ونانسي كانا يشربان ببطء كونياك ستاو ماجرو من خزانة المشروبات لديه. كان طعمه رائعا وعبق الكستناء والصنوبر يفوح من هذا الكونياك الراقي. راق مزاجهما؛ وراحتا تضحكان كثيراً وتحكيان عن يوم وقفة الكريسماس في أبو قير. وفجأة أصابت نانسي الجدية وصرحت بأنها كإنجليزية كانت تشعر بالحاجة أن تعترض على تفسير جاك بخصوص مقتل فتيات العسكرية البحرية التي تحدث في الحدائق ليلاً. نظر هو بتساؤل إلى ماري كلود. فهزت رأسها نحوه بهدوء «نعم، لقد قلت لها».

ـ ليدي نان... نانسي، قال جاك وهو يفقد بعضا من ثقته. من فضلك لا تقولي هذا أبداً لأي أحد. فهذا به مخاطرة ويمكن أن أتعرض للإهانة وللمساءلة. فهذه أسرار أمن قومي على مستوى الدولة.

مدت ماري كلود ذراعيها واحتضنته. أخذت شفتيه بين شفتيها وراحت تقبلهما وكان على وجهها تعبير بالأمل. هو فك ضفيرتها وراح يمسد شعرها الطويل مرارا وتكرارا حتى هدأ.

ـ أعدك بهذا.

ـ أشكرك، قال جاك ببساطة وهو ينظر بإمعان إلى الحَجَرة السوداء في خاتم إصبعه: خلف كل هذه القصة يوجد دائما الشيء نفسه. الوحش نفسه الذي حرك الفوضى في عام ١٩٢١ هنا في الإسكندرية. حينها، ربما تعرفون عن تلك الأحداث، الشرطة الاحتياطية اتحدت مع جموع الشعب وراحوا يسلبون وينهبون منازل ومحال الأوروبيين، كان أكثرها لليونانيين، وسقطت ضحايا كثيرة. عامل مالطي بالبحرية في شارع كالوجري أغرقوه بالكيروسين وأشعلوا فيه النار حيا. ربات بيوت كن يشاهدن المشاهد من خلف مصاريع النوافذ تم إطلاق النار عليهن دون أي تحذير. أولاد يونانيون أخرجتهم معلماتهم من المدارس خوفا عليهم ليذهبوا إلى بيوتهم قتلوا في الشارع. يونانيون كثيرون وإيطاليون من الكادحين تمت مطاردتهم في شوارع العطارين وتم قتلهم؛ كان العسكر يركعون ويصوبون النيران عليهم، وكانت جموع الناس تنهي أمرهم بإلقاء الحجارة عليهم. عائلة كاملة تم إلقاؤها من النافذة. أرسلت إنجلترا في ذلك الوقت لجنة للتحقيق كي تكشف أسباب حدوث تلك الفوضى، في واقع الأمر أرادوا أن يغطوا على مسئولية الشرطة والبوليس الاحتياطي الذي كان تحت قيادة ضباط من الإنجليز. لكن رئيس اللجنة الذي كان قاضيا نزيهًا من أولئك الذين يؤمنون بالعدل المطلق. كان حينها رئيس المحاكم المختلطة في الإسكندرية أحد أبناء جلدتي هو الآن على المعاش ويكتب مذكراته. طبيعة العمل اضطرت البلجيكي والإنجليزي أن يتعاونا. كان البلجيكي يتابع دراما زميله. فهو

لم يرَ في حياته شخصا يائسا ويتمزق من المعضلة: الحقيقة أم الوطن؟ من التحقيقات الأولى شم رائحة التحدي. في النهاية البلجيكي أقنعه أن يسوي حلاً وسطا. نقل بصدق في المحاضر كل الأقوال التي توضح الإصبع الإنجليزي لكن لم يضعه في النتائج. أرفقها فقط مع تعليق مختصر بتحفظ شديد في تقريره وطلب من الفورين أوفيس أن ينشروا الاثنين دون أيّ تعديل في ورق أبيض. ترك مسئولية كتابة الحقيقة للمؤرخين. لفت انتباهه من أول يوم استعداد أحد الكتاب كان قد وضعه رئيس الشرطة تحت تصرفه «فكما هو معروف موقف وعقلية أبناء البلد الأصليين». كان يُدعى برايان باركر، عريف في الخمسين من عمره له ثقافة تناسب مرتبته المتدنية. كان هذا الرجل لديه ملف القضية وكان جاهزا وكاملاً بكل البيانات. أفيشات مطبوعة لمصطفى كمال أتاتورك، بالقبعة الصوفية الموضوعة على الرأس بميل وفوقها في الركن بشكل متقاطع كان العلمان، هلال بثلاثة نجوم أو العلم المصري، وهلال بنجمة واحدة أو العلم التركي. كان هذا هو الإصبع «القومي» الذي كان يفسر جرائم جموع الشعب ضد اليونانيين. مجموعة من سجلات الشرطة بقوائم للتافرنات ومحلات البقالة التي تم نهبها وهو ما يؤكد على إصبع « التطرف الإسلامي». ومنشور مفصل إلى العرب البروليتاريين لليوم الأول من شهر تعطي ما يفيد بأن هناك إصبع «موسكو» في الأمر. بالطبع، القاضي الإنجليزي توقع هذه الأشياء. كانت مقنعة للغاية كي تكون حقيقية. وضع السؤال الأولي في علم الجريمة: من هو المستفيد من الفوضى؟ الإجابة قرأها في صحف لندن: لجنة ميلنر كانت تتفاوض مع الوفد المصري من أجل إلغاء الحماية على مصر وإعلان مصر مملكة مستقلة،

ضمن « تحفظات أخرى» كانت بريطانيا تطالب بأن يكون لها استحقاق «احتكار الحماية للأجانب». جمع القاضيان كل الشهادات والإفادات ومن خلالها قاما باستعراض تفصيلي لكل تحركات العريف باركر منذ أيام الشغب والفوضى. منذ الصباح قامت مظاهرات للطلاب والتجار والعمال وعلماء الأزهر. أطلقوا الشعارات الوطنية لتأييد الوفد المصري في مفاوضات لندن. حالة تأهب قصوى في الشرطة. بعد ذلك تحركت الكاميونات من المعسكرات وتمركزت الشرطة الاحتياطية في أكثر شوارع المدينة حساسية. بعد نصف الساعة بدأ مشرفو تلك الأقسام من القيادة الذين كان يرافقهم العريف باركر «كحلقة وصل بينهم وبين قيادة البوليس». على خريطة المدينة كان خط سير حلقة الوصل مرسوما بلون أزرق. دوائر حمراء كانت تشير إلى أماكن تمركز العسكر الذين كانت مهمتهم إطلاق الرصاص على النوافذ، وبجوارهم الساعة والدقيقة الذي حدث فيها هذا. أينما كان يمر باركر كانت هناك دقيقتان أو ثلاث من الهدوء ثم فجأة بعدها إطلاق النار يبدأ. خط سير الخط الأزرق مع الدوائر الحمراء توقف فجأة خارج باكوس. حي الرمل المعروف بأنه منطقة سكنية يونانية فقيرة نجا من هذا. اعترف بأن المتظاهرين قد أوقفهم أولاد أبى قوة، الذين أعلنوا أن من هذه النقطة تبدأ منطقة البدو وهم لهم حق الغنائم منذ قرون هنا، من بيوت العرب. لكنهم يقولون إن خلف البدو كان هناك شخص يوناني يُدعى أنطوان، عجوز قوي البنيان كان رجل الكونت زيزنياس قبل ذلك. لكن هذا الأمر بقى غير مؤكد.

ـ دائما، وفي كل لحظة صعبة ستجد ثمة يونانيا، همست نانسي التي كان ذهنها قد شرد في مانوس. ماري كلود، أنت التي تعرفين الإسكندرية جيداً. هل يمكنك أن تنصحيني ببنسيون جيد؟

سمعت أصوات نوافذ تفتح بقوة وأصواتا تهلل وأغاني؛ نساء يضحكن بهيستيرية؛ في الشارع كانت تقذف زجاجات وأطباق، كانت الأواني الزجاجية تسقط كالمطر.

ـ قال جاك، ١٩٤٤ سعيد يا صديقاتي.

أطفأت ماري كلود الأنوار، قبلوا بعضهم في الظلام. أصوات أجراس الكنيسة الإيفانجلية وسانت كاترين كانت تدق بشكل رسمي، بينما استمر صوت اصطفاق الزجاج الهيستيري وضحكات النساء في شارع فؤاد. فجأة بدا وكأن شيئا كبيرا قد تم كسره، ربما خزانة تحف بكل ما فيها من أوانٍ فاخرة سقطت من إحدى الشرفات. حماس الجموع غير المرئية وصل إلى ذروته.

ـ إنها عادة سكندرية، قالت ماري كلود. هي وسيلة للتخلص من كل الزجاج القديم للسنة المنقضية.

فتحت النافذة وكما كانت المطفأة وبها سيجار جاك المشتعل، ألقتها من النافذة كما هي.

ـ كم أنك غيورة، قال لها مداعباً. كنت أرى يا سيدتي أن المطفأة لا تعجبك لأنني أحضرتها من البيت.

رفضت نانسي أن تمارس الطقس الاعتيادي. كانت تفكر في إطارات السيارات وجامعي القمامة الحفاة غداً. لكن جاك لحقها قبل أن تغلق النافذة وألقى بكوب. أشعلت ماري كلود بعض الشموع الوردية على شمعدانات خزفية. فتح جاك زجاجة الشمبانيا التي كانت في البراد.

ـ قال، نانسي. هل تريدين أن تنامي اليوم على الأريكة؟ أم تفضلين النوم مع ساحرتي الطيبة، وأنام أنا وحدي؟ أنا لا أعرض عليك هذا لأنني أخشى على إطارات سيارتي الباكار. لكن منظر الجنود السكارى سيئ بالفعل في ليلة كهذه. كل الفحم والطين وكل ضباب الشمال الذي تجمع في أرواحهم يظهر اليوم جليا عاريا.

ـ لحسن الحظ أنك أشرت إلى الشمال يا حبيبي، قالت ماري كلود. فإن نانسي لن تسامحك أبدا إذا وضعت اليونانيين بينهم.

ـ من فضلك ماري كلود. كم أنت شقية!

ـ قال جاك، آه، كم أنا سعيد بأن هناك شخصا في حياتك.

في الشارع بدأ يسمع صوت طقطقة الزجاج تحت الأحذية العسكرية للجنود وأصواتهم الثملة كانت تختلط باسم المرأة التي يحبونها وتعذبهم.

IX

جلس أنطوان على الأريكة بجوار شجرة المستيكة، أراح ظهره على تجويفها وراح يهز رأسه، شعره الأبيض بدا وكأنه مغسول بلون فوسفوري تحت ضوء الغسق. خلع حذاءه الخفيف المُلَمّع لتوه ووضعه بجواره: كقاربين صغيرين من خشب الماهوجني بلا مجاديف. الجد كان واقفاً منحنياً قليلاً ويضرب بعصاه حصاة في الأرض ليعيدها إلى ثباتها. يتبادلان حديثا مقتضبا. مازال السر غامضا.

كان الجميع يتساءل، هل سيلتزم أنطوان هذا العام بنذره؟ وها هو، في وقفة عيد الرسول إلياس يحمل وحده الحقيبة. دخل مباشرة إلى غرفة العمة. وبعد قليل سُمعت ضحكاتها: جزاك الرب خيراً يا أنطوان. أه، أنت تجعل المرء ينسى الموت تماماً. في هذه الأثناء جرى توني ليحضر مفتاح الكوخ من الجد. قبل أن يفتح أنطوان راح يرسم علامة الصليب على القفل. أنتم تبقون بالخارج وتنتظرون. أنتوني، قال بعد قليل. تعالوا إلى هنا. تجداه أمام فراشه: هنا كان ينام شخص، قال وهو يشير إلى الملاءات المنزوعة.

مستحيل، قال توني، إن الجد لا يعطي المفتاح إلى أحد. راح أنطوان يتحسس تجويف الوسادة: يسير بكفه بنعومة على الحشية كما لو أنه مازال هناك شخص ينام بالفعل. انحنى بعدها ليشمشم. هنا نامت امرأة. أنا أذكر تلك الرائحة. تنحنيان وتشمان أنتما أيضاً. رائحة تراب وعفن وأثر من شيء غير مؤكد... عباد شمس؟ بازلاء عطرة؟ جلس العجوز على الفراش وعلق ذراعيه بين ركبتيه وشرد. ثم هرع نحو النافذة ليتفحص المزلاج. فعل الشيء نفسه في كل الغرف حتى باب المطبخ. خرج خارج الكوخ، رفع رأسه كي ينظر إلى السقف. هيا اصعد إلى هناك وأخبرني لو أن هناك قرميدات منزوعة من مكانها، يقول لك وهو يشير إلى الشجرة الكبيرة. لكنك لا تعرف كيف تتسلق. توني يقف على مبعدة منتبها تماما ومصغيا مثل كلب صيد. يبتسم له أنطوان. من البداية ظهر أن بينهما لغة تفاهم سرية. بعد قليل توني يسير حافيا على السقف: يصيح: نعم، قرميد غرفة الطعام منزوع من مكانه. يفتح أنطوان فمه مندهشا: مستحيل، المكان عالٍ جدا بالنسبة لامرأة عجوز. كيف لم تسقط وتموت؟ عن أي عجوز يتحدث؟ هيا اذهبا لتلعبا، أجاب غاضبا وهو يحاول أن يمسك بالعصا. يسحبك توني نحو الطلمبة فهو لا يريد أن تذهبا بعيدا، لديه فضول ليرى كيف سيحل السر. يخلع أنطوان حذاءه ويحاول أن يتسلق الشجرة. يا ويلاه، الأيادي والأقدام تنحني بصعوبة، اللعنة على العجز! اغرورقت عينا توني. هيا لأريك ماكنت أحكي لك عنه، ثم يذهب نحو غرفته. تحت حشيتك الأريكة بها صندوق للتخزين. ومنه يُخرج كتاباً مذهب الغلاف، إنه « رحلة إلى القمر» لجول فيرن بالفرنسية. يا ربي سيبدأ

بالتفاخر مرة أخرى. لكنه يترك الإهداء من آباء مدرسة الفرير ويصل إلى صفحة بيضاء مكتوب عليها بتعجل بعود كبريت محروق :

كم أريد أن أقبل شعرك يا توني

بات

ـ هي نفسها؟

ـ إنها رهيبة! لقد دخلت إلى هنا في الليل. الكتاب كان على المنضدة. فتحته وكتبت فيه. وربما كنت نائما عندما كتبت هي هذا.

ـ توني، المرأة التي نامت في كوخ أنطوان، وجنية الجد، وبات كلهم الشخص نفسه. هل تعرف من هي؟

ـ لا تقول لي إنها ثاليا. هراء. هذه تخاف من ظلها. أمسكتها من ذراعها ذات يوم وجعلتها تقسم على الصليب. هى لا تعرف أي شيء عن هذا الأمر.

ـ وأنت صدقتها!

ـ هى امرأة عائلة تسيرفولو، سترى.

ـ امرأة تسيرفولو السمينة تسلقت سقف القرميد؟

ـ ربما لديها مفتاح. قد تكون القطط هي من نزعت القرميد.

ـ امرأة تسيرفولو تفوح منها رائحة البصل.

ـ ومتى شممتها أنت أيها الأبله؟

ـ عيناها حمراوان على الدوام. طيلة اليوم لابد أنها تقشر البصل.

ـ عيناها حمراوان لأنها مجنونة.

في تلك الأثناء كان الجد قد بدأ يتحدث مع أنطوان. راح توني يأكل في نفسه فكان يريد أن يسمع ماذا يقولان. ذهبتما مرة أخرى إلى الطرمبة. يقول الجد شيئاً بعناد، ويكرره مرارا وتكرارا، وأنطوان يقهقه. كلاب الحي تنبح في الظلام الذي بدأ يخيم بسرعة. العمة تسعل. فوق الأرض كانت الخفافيش قد توقفت عن الحومان في الهواء. سوف تستأنف طيرانها لكن حل الظلام وهي لا تظهر. الجد يترك أنطوان وحيدا ويدخل إلى الكوخ. يشعل الضوء الذي يفيض من نافذة غرفة الطعام ويصل حتى الطرمبة. تتسللان مرة أخرى حتى تكونا في الظلام. الجد يأخذ البندقية المعلقة ويسندها على الطاولة. يحضر الخرق والصنفرة ويبدأ في تنظيفها من الجير. لقد حان وقتها. لكن هل سيستخدمها غدا في عيد القديس الرسول إلياس؟ ستكون هذه هي أول مرة. البنادق ومفرقعات البمب مسموح بها فقط في أعياد القيامة. كان العجوز العم ماركوس هو أول من استخدم مسدسه، الثاني كان الجد بالبندقية ثم تلاهما الآخرون بالمسدسات والمفرقعات الصغيرة والبمب.

ومنذ أن مات العم ماركوس، علق الجد بندقيته وانتهى العُرف. الآن؛ الأولاد الأشقياء يبدأون في إلقاء البمب والمفرقعات ساعة قبل عيد القيامة. فقد الأمر بهجته تماما.

ألقى شخص تحية المساء على أنطوان. جلس بجواره على الأريكة وراحا يتحاوران. الجد ينادي على توني ويرسله كي يشتري الأوزو؟ سنحتفل اليوم من أجلك يا أنطوان، قال. تتبع توني لكنك تبقى في الخلف تدور حول الكوخ الآخر وتمر من أمام المطبخ، تصل إلى الركن وتجلس على الأرض بجوار العارضة. تسمعهم بوضوح عندما لا تنبح الكلاب. الآخر هو كاركاليميس، يتكلم بشجاعة مع أنطوان، ويحلفه بأن يحكي له. فوق قدمك العارية كانت هناك حشرة، هل هي سوسة فاكهة، خنفساء أو صرصور؟ تبعدها بيدك وتحك جلد قدمك.

- لكن هل رأيته من قريب، هل تحدثتما؟

- تحدثت معه أقول لك. قال، وأحضروا لنا الخبز ومهروس السمك وأكلنا. لم آكل ليوم كامل بليلته حيث كانوا يحققون معي.

- جلس عرابي وأكل مع مسيحي؟ ربما لم يكن عرابي؟

- هل ستعرّفني أنت على عرابي؟ فقد طبعوا وجهه على أوراق وكانوا يوزعونه في المحال. هل أخطئ أنا وجه عرابي؟ لقد قال لي أنا عرابي القائد

العام، هكذا قال لي. لو لم تعترف بما فعلت سآمرهم أن يطلقوا عليك الرصاص.

ـ صاح كاركاميليس، لقد قبض عليك عرابي. بأي لغة كان يحدثك؟

ـ بلغة أهل جزيرتي المحلية، ويحك يا نيكولاس يا أبله. منذ أن كان خراؤك يتساقط من سروالك مثل العدس الأصفر وأنت أبله ومازلت أبله. كان يترجم لنا هذا السويسري، نينه.

ـ نينه.

ـ كنا نعرفه بهذا الاسم. هو من كان مستشارا لعرابي عندما هُزم في التل الكبير، كي يسلم سيفه ليذهبوا به إلى القاهرة ليُحاكم. رجل شيطان. أراد أن تكون هناك محاكمة حتى تظهر الحقيقة. لم يهتم قط بحياة صديقه. أجنبي، لم يكن يحب اليونانيين. أنتم من أحضرتم الإنجليز إلى هنا بكثرة بكائكم، قال لي. لكن عندما قلت له ألا يضمني أنا لهؤلاء، أنا رجل الكونت، أه، قال لي، إذن الأمر يتغير. لكني قلت له باليونانية وهو كان ينقل الكلام إلى عرابي بالعربية.

في تلك اللحظة انتاب الكلاب شيطان النباح الجماعي. وصل توني وراح يبحث عنك. مع الجد يجرجران الطاولة ويعدانها: فاصوليا، طماطم، فلفل وخبز. والأوزو بالطبع. الجد ينادي على أنطوان وكاركاليميس. تنهض أنت أيضا وتذهب.

يرسم أنطوان شارة الصليب ويمسك بملعقته وينقض على الفاصوليا انقضاضا. شرائح الخبز الجد يأكلها في قضمة واحدة. يحتاج الأمر إلى مصروف خاص لكي تطعم رجلاً كهذا. كاركاليميس يداعبه طوال الوقت. يريد أن يسمع من فمه كيف أسره عرابي وكيف دخل إلى المحكمة الحربية وتمت تبرئته.

ـ نعم يا أخي، عندما خرجوا يقولون إن غدا الأسطول الإنجليزي سيجعل الإسكندرية كومة من التراب كان يجب على كل الأوروبيين أن يستقلوا المراكب. فقلت لهم أنا لن أرحل. خذوا عائلتي، لا أريد أن آخذ أرواحهم في ذمتي. لقد وعدت رئيسي ألا أرحل. لكن قالوا لي إن الكونت قد رسا بمركبه في ميناء فرنسي، هل أنت مجنون أن تبقى هنا لتهلك؟ فقلت لهم، الكونت قال لي ألا أتحرك من هنا، لتحضروا لي خطاباً منه يأمرني فيه بالرحيل. وبعدها، بحق الجحيم، هل ستحمل القنابل طابع بريد بعنواني؟ هل ضاقت بهم كل الإسكندرية ليبحثوا عن رأس أنطوان ليقبضوا عليه؟ كنت أقول هذا لأنه كان صعبا على قلبي أن أترك الرمل، فأنا مرتاح هنا. فلو كنت فعلت ما يطلبونه مني وصعدت على أحد المراكب من يدري في أي منفى كان المركب سيرسو بي. أمن الصعب عليهم أن يعيدونا مرة أخرى إلى خيو؟ سأبقى هنا لأحرس الكوخ. ولو ذهبوا بكم إلى تريييستي قلت للمرحومة أنجليو، سأحضركم إلى هنا مرة أخرى. أنت ولي أمرنا، افعل ما يوفقك إليه الرب، هكذا قالت لي. أخذت الأولاد ورحلوا. وفي صباح اليوم التالي بدأت

الأرض تهتز، الحق أقول، لقد أصابني الخوف. قلت في نفسي، هذا لابد أنه زلزال. شعرت بأنه لم يمر يوم واحد عندما رأيت في خيو البيوت تتساقط من الزلزال آنذاك. أصابني الجنون. بدلاً من أن أجلس في الكوخ أنتظر، خرجت للشارع وهرولت إلى كنيسة القديس إلياس. فقد تذكرت أن أجراس الكنيسة في خيو آنذاك لم تسقط. المفتاح كان رحمة الرب عليه القس ذيميتريس يخفيه دائما في الأصيص. عندما وجدته تسلقت للأعلى وتعلقت هناك أنظر. ياربي، ومن فرط حماسي صدمت بظهري الجرس الكبير فراح يدق. من بعيد في المكس والقباري وقايتباي كنت أرى النيران من المدافع والسفن. وفي قلب الإسكندرية لا شيء سوى غبار وحطام. لا أدري إذا كان صحيحا ما قالوه، لكن يبدو أنني كنت أرقص من هلعي، كنت أرفع يدي وأخفضها. رآني عرابي من بعيد بمنظاره. أحضروا لي هذا النصراني الذي يعطي إشارات للإنجليز، لابد أنه جاسوسهم. وفجأة رأيتهم أمامي، كنا في الظهيرة، اعتراني الغضب لأنني لم أشعر بقدومهم ولم أسمعهم عندما صعدوا. أبرحوني ضربا ثم أخذوني.

ـ وهل تركك عرابي لترحل، أم أنه لم يفهم منك شيئا؟

ـ نعم، قال لي: ضعوا هذا الأمر جيدا في عقولكم. أنتم ضيوف. هذا الشعب استيقظ ويسعى ليكون سيد بيته. لا تثقوا بالإنجليز كثيراً، هؤلاء الذين يلعبون عليكم دور الحامي. هؤلاء هم ثعابين خبيثة. عندما يقضون

حاجتهم منكم سيعلقون لكم المشانق. سيبيعونكم. أريدكم أن تنتبهوا من أجل صالحكم. نحن نحبكم ونريدكم هنا لكن كضيوف فقط، ليس كأسياد. يا باشا، قلت له، قدس الرب فمك. هذا ما أقول لهم ليل نهار أنا أيضاً. وهل أنا أعمى؟ من يحب الحق ولا يجهر به؟ حينها سألني إذا كنت جائعاً وأرسل فأحضروا طاولة الطعام.

غاب نصف القمر مبكرا، الليلة جافة ومظلمة. أنطوان وكاركاليميس يتحاوران. أبقوا على الطاولة والكراسي والأكواب في الخارج. سوف نضعها في الداخل ونغلق الأبواب، اذهب أنت لتنام، قالوا للجد. أرسل أنطوان توني إلى البقال مرة أخرى ليحضر الأوزو. أعطاه نقودا. ابنته الكبرى في بورسعيد أعطته المال كي يوفي بنذره. راح توني يلعن كاركاليميس: لم يجد هذا المشحم يوما غير هذا ليأتي. كان لديه موعد مع إيتاليا. نافذة العمة بقيت مفتوحة. لا تظهر هي، لكنها تسمع حديثهم، مما يشعرها بالونس. رجتهم ألا يذهبوا بعيدا عن شجرة المستيكة. نافذة غرفة الطعام بقيت مفتوحة، سيغلقونها عندما يرحلون. أحضر توني الأوزو. يتظاهر بالنعاس ويقول تصبحون على خير. يأخذك معه للداخل: أنا سأذهب. لو نادوا عليّ قل لهم إني نائم. يقفز من النافذة ويختفي. تستلقي على الفراش لكن النوم لا يأتيك، الجد في غرفته يسعل ويتأوه. بدويان يمران من الدرب، يسمعان صوت أنطوان فجاءا ليحيياه وراحا يتحدثان كثيرا.

ـ هما من أولاد أبو قوة، قال أنطوان عندما غادرا. مع أبيهما كنت قد أبرمت اتفاقية بخصوص كل المنطقة. كانت سنوات جميلة. السمان لك واليمام لي. فكما تعرف؛ هو لم يكن لديه بندقية.

ـ وماذا كان الخلاف بينهم وبين أولاد علي؟ سأل كاركاليميس. لم اكن أعرف أنهم مازالوا هنا. ألم يطردونهم تجاه مرسى مطروح؟

ـ جنس ملعون. هكذا كنت أعتقد أنا أيضا. لكن هؤلاء هنا يقولون إن ذلك البغيض باركر قد جمعهم في أرض الكونت. هناك اليمام كثير...

ـ هل رأيت كيف أغلق المكان بأشجار التين الشوكي من ناحية صفر؟ ويزعم أنه له. ممن اشتراه؟

ـ اشتراه أو سرقه، لن تستطيع أبداً محاسبة هذا الشيطان.

ـ قل لي يا أنطوان، هل تزوج من تلك الأرملة محظية الكونت؟

ـ أرملة؟ هل مات ذيموستينيس؟ روح أخرى ضاعت.

ـ أنطوان. هل رأيتها ذات مرة، أكانت جميلة؟

يحاول أنطوان أن يتذكر فيتأخر في الإجابة.

ـ منذ أن ذهبت أنجيليو إلى رحمة الرب، كان الكونت قد مات قبلها بعام أو عامين. كانت تعيش حينها في بيت في الساحة. في طريقي إلى تافرنا

أرستيذيس كنت أمر من خارج أسوار بيتها وألقي التحية. فكانت ترد التحية هي أيضا. تمهل يا أنطوان، تفضل لأقدم قطعة من الحلوى. كانت جميلة، كان من الممكن أن يعلق بها قديس. لكنني كنت أسير في طريقي، فقد كانت للكونت، أتفهمني؟

ـ لم تقل لنا هذا قط، صاحت العمة من على فراشها في الداخل.

تأخر أنطوان في الإجابة على المداعبة.

ـ آه يا أرجيرو يا مسكينة... لدي الكثير لأحكيه وليس هذا فقط...

ـ هل هناك المزيد؟ هيا احكِ لنا.

راح أنطوان يضحك ويضحك. لكنه لم ينطق بكلمة.

ـ هل أحضروها له عارية في تورتة؟ يسأل كاركاليميس.

ـ لا، لم تكن عارية! قال أنطوان غاضبا. كيف تظن أن الدنيا كانت في أيامنا، مثل اليوم؟ كانت ترتدي ثوبا شبكيًا مجدولاً من رأسها حتى أخمص قدميها. كانت ترقص رقصة الخفاش.

ـ إذن، قد رأيتها.

صمت. راح أنطوان يسعل بشدة.

ـ لا، لم أرها. لكنها آنذاك كانت صغيرة، بنتا صغيرة. كان لدي صديق، مصرفي ويعمل مع الكونت. رآها وكاد يجن الرجل. كيف كانت تقفز وتطير من نجفة إلى أخرى. كانت مثل خفاش حقيقي.

فوق السقف ثمة شخص يسير. تهب واقفا من الفراش وتصغي السمع. القرميد يطقطق تحت خطوات هادئة ومترددة، لابد أنه توني، يفعل ذلك مداعبا. وفي تلك اللحظة سمع صوت ضحك كريستالي.

- هل سمعت شيئًا؟ سأل أنطوان.

- إنها بومة، قال كاركاليميس.

- أي بومة يا نيكولا، هل جننت؟

عندها تصيح العمة. لابد أنها تلك القذرة التي تحوم حول توني. ألن يأتي يوم وتسقط بين يدي؟

- هل هناك أمر كهذا؟ يسأل نيكولا.

- لا تستمع إليها، لابد أن حرارتها قد ارتفعت. يا أرغيرو، هل أغلق لك النافذة؟ لقد نعسنا، يتثاءب أنطوان.

الجد في الجوار يشخر. تسمعهم وهم يحضرون الطاولة والمقاعد من باب المطبخ، يغسلون الأكواب من الطلمبة، يرتبونها على الأرفف ثم يغادرون. هدوء، لقد تأخر توني، لحسن الحظ لم يسألوا عنه.

تستيقظ في الليل، كان توني على الأريكة يتنفس بإيقاع منتظم. العمة تسعل، الجد يسعل. من بعيد، ربما عند حدود قضبان الترام أو عند محطة

شوتس، ثمة بومة. جفناك يتثاقلان. متى ستعتاد على شرب الأوزو؟

تستيقظ. ديك يصيح. لابد أنه في حديقة السويسري. إطار النافذة عادي مربع، وبعيدا في العمق يبزغ نجم، هل هو نجم الزهرة؟ من أعلى عارضة النافذة تتدلى بعض الأعشاب، لا بل هو شعر أسود مفكوك. رأس امرأة معلق بالعكس، ينظر داخل الغرفة، تنزل وتلف بميل، تبحث في ركن توني. ترتعش. قلبك يدق بجنون، كما لو أنك تجري المائتي متر.

ـ بات، أهذا أنت؟ انتظري، تهمس.

إلى أن ترتدي صندلك وتخرج من النافذة، اختفت. تسمع ضحكا من بعيد من ناحية بيت تسيرفولو، من عند الشارع ذي السور الحجري.

تبقى ساهرا لم يسمع أحد شيئا. ستحتفظ بهذا السر. ستترقب. ستمسك بها، ستلوي ذراعها وتجبرها أن تقول لها من هي. لن تشرب الأوزو مرة أخرى. ستنام في الظهيرة حتى لا يصيبك النعاس مبكرا. ديوك السويسري تصيح من جديد. أو صوت المصنع، من يدري أين تكون، ربما في باكوس. صوت صفير. لابد أنه صوت مصنع الكازوزه. في الصيف على الشواطئ يعطش المصيفون كثيرا. ومن لديهم النقود بالطبع يستهلكون الكثير منها.

عيد الرسول إلياس، تمجيد أنطوان الذي كان يرقص، طويل مستوي القوام وبسيط، ألقى برأسه للخلف وأغلق عينيه وكل أهل الساحة، ربات البيوت يرتدين فساتين الستان الأسود وقد مشطن شعورهن ووضعن البودرة، البنات بفساتين بلا أكمام، الرجال ارتدوا ملابس الأحد، وأهل الساحة القدامى الذين صاروا أغنياء لكنهم مازالوا ملتزمين بالعادات والنذر، كانوا يأتون بسياراتهم الفارهة ونسائهم الأجنبيات، مجنونة عائلة تسيرفولو، مدام بوفو التي جاءت وحدها تقود سيارتها البيضاء راحت تدق ناقوس السيارة حتى يفتحوا لها البوابة الحديدية لتدخل بسيارتها في الفناء وتضعها تحت الأشجار، كانت جميلة بمكياجها، مثل حورية بأثداء مكشوفة أرداف مهتزة، تسير وتترك خلفها أمواجا من العطور، أخ، تنهدت أم ثاليا، وقالت لقد جاءت المسكينة، أخ، لقد حرق قلبها ستماتيس. فهمس لها الجميع شووووش، انظري من خلفك، وكنت أنت، وفهمت أنهم يتحدثون عن العم، كان كل الناس يحملون الشموع الطويلة، الأولاد يصفرون واضعين إصبعين في أفواههم، الأطفال الصغار يصرخون من فرط النعاس، أهل الساحة، بعائلاتهم مع القس وزوجته وأرستيذيس صاحب التافرنا القعيد محمول على مقعد من الخوص، والجد بقميص ورابطة عنق يجلس متذمراً في أحد الأجناب على درج، وعائلة غيراسيمو بالقبعات الكبيرة يوزعون الحلوى، تابسيس بالقيثارة يريد أن يرافق الآلات الموسيقية، السانتوري والماندولينو والكمان التي كانت كلها على المنصة التي يستخدمونها في أعياد

القيامة، يقفز أنطوان وينزل على ركبتيه ثم يهب قافزاً بعينين مغلقتين، ثم ينظر بعيدًا ويسرح في النجوم، من يدري إلى أي بحار يذهب، إلى أي تقاطعات وإلى عشق وصداقات ومرارات وحزن قد ذهب بعقله، والجميع يصيحون برافو، منحك الرب طيلة العمر يا عجوزنا الطيب، علّك تعيش مائة عام. وحينها برزت رءوس كثيرة في الفناء، قبيلة أبو قوة، راحوا يصفقون ويصيحون، أنطوان، أنطوان، من أين جاء البدو وتجمعوا هكذا بحق الجحيم! ثم بدأ الجرس الكبير يدق في بهجة، صاحت زوجة القس: يسوع المسيح ينتصر، يا أبانا، ألم تغلق باب الدرج؟ وهرولوا، كان المفتاح دائما تحت الأصيص، والجرس يدق دان، دييين، دوننن، وهرول الجميع لأعلى، لم يكن هناك أحد، لم يكن سوى الخفافيش التي كانت مستيقظة من الضوضاء وراحت تحوم في الليل تدخل وتخرج من أعمدة القبة، معجزة، صاح خادم الكنيسة الثمل منذ المساء، والناس سمعت، معجزة، فتوقفت الآلات الموسيقية، ششششش، معجزة يقولون، سوف تتخطى المائة عام يا أنطوان. وعندها سُمعت البومة، الضحكة الكريستالية. كيف دخلت، أين كانت تختبئ؟ هل عششت مع الخفافيش؟ ثم رحت تنزل وفجأة ثمة فكرة كالبرق ضربت عقلك. بات، The bat، إنها ثاني صفحة في كتاب الحروف الأبجدية الإنجليزية، الخفاش. خفاش الكونت. امرأة عجوز، كيف لم تسقط وهلكت؟ لكن الجنيات لا تشيخ، لماذا شاخت هي؟ لكن من رأيتها أنت تتسلق النافذة لم تكن جنية، رأيت في البدء شعرها، إطار النافذة، كانت امرأة، كانت

إنسانا. انتظرت حتى يخرج الجميع وصعدت. وقفت تحت الجرس، في أعلى القبة الظلام عميق. بات، حدثتها برفق، لا تخافي، أنا صديقك. انزلي لتقولي لي من أنت، أنا باراسخوس، قريب توني، لا تخافي، صمت. ولا كلمة ولا ضحكة ولا نفس. انتظر خادم الكنيسة في الأسفل حتى يغلق المكان، هددك بأنه إذا صعد إليك سيكسر عظامك. نزلت. لكن من تلك اللحظة كل شيء كان ضوضاء وحركات بلا أي معنى، كان العيد والاحتفالات تصيبك بالنعاس والغبار يهيج أنفك، فقط بجوار أنطوان كنت تشعر بالندى والهدوء، لكنه كان يبعدك عنه، أيها الصغير، لماذا تجلس هنا وتحدق بي هكذا، اذهب والعب مع الأولاد. حملت نفسك وذهبت وحيدا إلى الكوخ. ضوء غرفة العمة كان مضاءً. جلست على المقعد الخشبي بجوار شجرة المستيكة. لم تكن تسمع لكن كنت تعرف أن بات كانت متقوقعة في مكان عالٍ بين الأوراق تترقب. ستنتظر عودة توني لكي تراه. كيف يمكن أن يحدثها دون أن تسمع العمة؟ خلعت صندلك ورحت تدق في تجويف الشجرة؛ توك، توك، توك. لا شيء. ثانية؛ توك، توك، توك. دون رد. بقيت بالصندل في يدك. سمعت صوتا من أعلى نيااو. راح قلبك يدق، يكاد ينفجر، وضعت يدك على قلبك حتى تسمع. نيااو؛ مجددا. قمت ورحت تقول مياو بصوت خفيض، ميااو. صمت، صمت أبدي. مرة أخرى، نيااو. رفعت رأسك حدثتها من بين الأوراق، انزلي يا بات كي أتحدث معك، قلت هامسا، من فضلك. لا شيء. أرجوك. صمت، صمت أسود. ميااو، قلت بيأس. لا شيء. ديك السويسري يعد

حنجرته، سوف يصيح. البوم يقبع بعيدا، ربما بعد الساحة. يسقط عليك الندى فتتسمر في مكانك. لقد كانت هذه بومة بالفعل. بعد ذلك سمعت صوت أحاديث، أنطوان يتحدث مبتهجا. لابد أن العيد قد انتهى وهم قادمون. بات، قلت، إنهم قادمون. لكن عندئذ تسمع صوت ضحك من بعيد، عند منزل تسيرفولو. ترتدي صندلك على عجل، تربط أحزمته وتهرول في الليل. يهرول الضحك أمامك، في شارع السور الحجري. تكز على أسنانك وتقول، المائتي متر، تغلق عينيك وتهرول. لو وُجد أمامك حائط أو إنسان ستوقعه أو تسقط. تفتح عينيك. ليل ظلام حالك. لكنك تسمعها، تسمع صوت خطواتها. تصل حتى سوق شوتس. المحلات مغلقة، لا يوجد حتى شخص يمر بالشارع ولا حتى الحارس. بعيدا، عند خط الترام يظهر مصباح مضيء. أين ذهبت بات؟ تصل حتى محطة شوتس. لا شيء. لابد أنها سلكت الطريق العلوي الذي يؤدي إلى الساحة. وهناك تسمع ضحكتها، متوحشة وساخرة. تهرول بمحاذاة خط الترام، عند درب صفر. الترام! لحسن الحظ أن أول ترام يبدأ عند الفجر. تهرول ثانية في ظلام الليل. بات، تصيح، أنا صديقك. تهرول، تتوقف خطواتها. هل تنتظرك؟ تحدق بعينيك وتنظر حولك وأنت تجري. لا شيء. وصلت إلى محطة صفر، عروق رأسك تضرب بقوة، صدرك يموج مثل البحر. لمبة مغبرة تحت سقف المحطة. اختفت. لا قرقعة ولا صوت. تعود من الدرب نفسه. وفجأة بومة. لكنها بعيدة. نحو اتجاه سان ستيفانو.

الآن: أنت على رمال شاطئ لوران، تحترق تحت الشمس الساطعة.

حولك ثاليا ثوما، أليكي غيراسيمو، دينوس، تابسيس وبولياس. كلهم يريدون أن يعلموك السباحة. يقولون لك، هكذا ستحرك يديك، وساقاك لابد أن تكونا مفرودتين، لا؛ من الأفضل أن تتعلم طريقة المقص في البداية، رأسك يجب أن يكون فوق الماء، فمك لابد أن يكون مغلقا، قلنا التنفس يكون من الأنف. يذهبون بك إلى البحر ويشرحون لك. تتعلم جيدا. لو بقيت شهراً آخر... عيونهم تنظر دائما بعيدا على الشاطئ حيث غطست في المرة الأولى. هناك توني وإيتاليا متمددان على الرمال يتشمسان ويتجاذبان أطراف الحديث. إنهم يفعلون كل هذا من أجله. كما لو أنهم يقولون له، انظر، إننا نحب ابن خالتك، لماذا لا تأتي إلى هنا؟ تشاجرت أليكي مع أمها. قالت لها أحضروا هذا الولد الجديد لنراه عن قرب، وذهبت بك. صافحوك، أنت فوليانيس من القاهرة؟ نعم يا سيدتي. هل لديك أي قرابة مع عائلة فوليانيس الذين يعملون بتجارة الأدخنة؟ لا يا سيدتي، ليست هناك قرابة. وهذا المايوه الجميل، هل اشتريته من شيكوريل؟ ميرد! صاحت أليكي وقد احمر وجهها، ميرد! أليكي، سأضع لك فلفلا في فمك، ألا تخجلين! وأنت قلت، أرجوك يا سيدة غيراسيمو، هذا ذنبي أنا. أخذتك أليكي من يدك وهرولتما، كان نهداها نافرين وصلبين مثل قبضتين.

أخذ توني نقودك ليحفظها لك. اليوم عيد ميلادك. عَد الجد النقود قرشا قرشا في كفه. سينما أم نفعل شيئاً أفضل، قال توني، سنرى. ثم وضع النقود في جيبه. الآن يرى بائع الآيس كريم يقترب من شاطئ سان ستيفانو.

يقف وينانيك ملوحا بيده. باراسخو، تعال. تعتذر من صحبتك وتنهض. خائن، يقول تابسيس. ميرد، ميرد، صاحت أليكي ثم تضرب قبضتها على الرمال. تقف وتنظر إليها. ترفع رأسها وتنظر إليك في عينيك. أخفضتهما وتبسمت خجلاً.

تكاد عينا إيتاليا تأكلاك وهي تحدق بك. أحد خيوط المايوه على كتفها كان مفكوكا. ليس لديها مشاكل، فأخواها يتعرقان في الحدادة. حتى الغروب يمكنها أن تعيش دون أن تخاف شيئاً. تنظر إليك مجددا، ذراعاك النحيفان، صدرك الضيق، حجر المايوه الذي يضيق عليك. تسألك وهي تحدق في عينيك وبطرف لسانها تلعق قمع الآيس كريم. تهز رأسك فأنت لا تفهم الإيطالية. يضحك توني، تضحك هي. تأكلون الآيس كريم الذي في أيديكم. تسألك إيتاليا توني، وهي تشير على ذقنك. كاد يختنق من الضحك. تقول له نو، هذا فهمته. بوفريتو، قالت هي وهي تنفض الرمال بيدها من على ركبتيك بينما أنت تقف تقريباً فوقها، فتبتعد قليلاً. استمرا في التحدث بالإيطالية. يقول توني شيئاً فيضحكان. تقول إيتاليا شيئاً، فيقهقهان. وحدهما، من يفهمهما؟ تبتعد أكثر. توني؟ شخص غريب. لقد صار أجنبيا. صرف نقودك دون أن يسألك، تركك بجواره واقفا، يتصرف معك على أنه الكبير، يسخر منك. كل هذا بسبب أنه يكبرك بعام.

لكن ثاليا، أليكي، أم إيتاليا، بنات الساحة أم بنات باكوس، يعيشهم المرء ويعتاد عليهن. هن بنات الشمس والنهار. أنت فقط تخاف من الليل،

تتوق إلى اللحظات المقتضبة واللانهائية مع الخفاش داخل أوراق الشجر. تدوس على الحصى طيلة اليوم بأقدام عارية وتتمرن على الاعتياد عليها، الآن يمكنك أن تجري بلا صندل. عاد أنطوان إلى بورسعيد، الجد أخذ المفتاح وأنت تسهر على المقعد بجوار شجرة المستيكة. جاء كاركاليميس وسأل عن العجوز. رحل، هل رأيتم كيف يرقص في العيد؟ أنا لا أذهب أبدا، كل هذه خرافات، يحكون عن معجزة أنطوان، أفيون الشعوب. عندئذ سُمع صوت البومة. غادر كاركاليميس، من يدري على أي سطح في باكوس يخاطر توني الآن، أغلقت العمة الضوء. امتلأ القمر الذي تعلق منخفضا فوق سان ستيفانو. نيااااو. من أين تناديك؟ لا تجيب. تنزع بقدمك حصاة من الأرض، ثم تأخذها، تذهب إلى منتصف الأرض ومن هناك تقذفها نحو أرض السويسري. فبدأت الكلاب تنبح بضراوة. ضوء غرفة الخالة أُشعل ثانية. عندما هدأ نباح الكلاب عادت وأغلقته. تتسلل كاللص، تجري نحو شارع السور الحجري وتغلقه. ومن هناك تقذف حجرا آخر نحو أرض السويسري. تبدأ الكلاب في النباح أكثر ضراوة الآن. فجأة تشعر بها أمامك، أصدرت صوتاً، ثمة ظل، تمد يديك وتحتضن ظلام الليل. قعقعة أقدامها على الأرض. الكلاب، الضوء في نافذة الخالة، وفي هذه اللحظة تراها لأول مرة. خيال أسود يقفز من فوق العوارض والأسلاك الشائكة وتهرب. تجري وتجري كالمجنون. تسمعها، سلكت شارع الفيلات الترابي، تصعد الشارع نحو الإصطبلات القديمة، ستنحرف في مكان ما، يسارا نحو شوتس

أم يمينا نحو جناكليس؟ لابد أن تلحق بها. الليلة لا تضحك ولا تهزأ. لكنك ترى شعرها المتطاير، تسمع أقدامها تغوص في التراب وصوت لهاثها. قليلا ويمكنك أن تمد يدك وتمسك بها لكنها تختفي في هذه اللحظة، وصلتما إلى الإصطبلات. اتجهت نحو جناكليس. أنت خلفها لكنها تختفي فجأة مجددا. حديقة الجد. بات، تقول بصوت خفيض، أين اختبأتِ؟ تسمع صوت ضحكها، مثل بكاء مخنوق. خلف أسوار الحديقة تتذكر كيف قفز توني. أيتها العذراء ساعديني، ثم تقفز. تسقط على جنبك ثم تنهض، تحت أقدامها صوت خشخشة أوراق جافة. تجدها واقفة وظهرها نحو الحائط، ثابتة، كأنها ممغنطة. تتنفس بثقل من فرط الهرولة. اتركني، تقول لك، اتركني، ماذا تريد؟ أنت بكفيك تلصق ظهرها على الحائط فلا تقاوم، ماذا تريد، وتبحث بفمك عن وجهها، تأخذ شفتيها بشفتيك، كم أن لسانها حلو، معسول. لكن في هذه اللحظة تعض شفتك الغليظة وتدفعك. اتركني، ماذا تريد، ماذا تريد، أنا أحب توني. بات، تقول، حبيبتي، وترتعش. اتركني، تقول لك. تأخذ يدك وتجعلك تمسك بنهدها. أبانا الذي في السماء. كنت أظن النهود صلبة وباردة، بينما هي دافئة ومطاطية، مثل كائن حي. اتركني، تقول لك، أين توني؟ الآن تأتي فوقك بثقلها. توني، توني. تتراجع أنت، تحتضنك من رقبتك، فمها على فمك، تجذبك وتسقطان معاً. أحضر لي توني وافعل بي ما شئت. بات، حبيبتي، تقول لها وأنت تبحث بإصبعك عن الأزرار على ظهرها. هي أسرع منك تنزع لك الحمالات وتعريك. دعني، تقول لك، أنت لا

تعرف شيئا، أنت لا تعرف كيف يفعلون هذا، أين توني؟ حبيبتي بات. عندما تلمسك بأصابعها يبدأ البوم كله في صياح جماعي، كل أزهار الياسمين في العالم تسقط كالمطر وتغطيكما. تقوقعت فوقك، كومة بالنشوة، عارية ولكنها بملابسها، لم تستطع أصابعك أن تفك زراً واحداً. كل هذا الإرهاق تشعر به الآن في كليتيك. هي صامتة تماماً. تهدأ من قوة الضغط. تتنفس بعمق بتشنج قصير. فجأة تنزلق من تحتك وتقول، لا أريد أن تراك عيناي مرة أخرى، ثم تختفي في الظلام. تقوم ببطء، تفرد جسدك. كومة من الروث تفوح من بعيد. حبيبتي بات، حبيبتي. ثم تجهش بالبكاء...

كل ليلة تنتظر ولا تأتي هي أبدا. التهمت كل الشوارع، من صفر عند الأرض الواسعة والسياج وحتى حديقة الجد. ظهر تابسيس، صرح بأنه لا يفهم ثم يدير لك ظهره. ديتوس وبولياس يصران، لا ترهقوه، سوف يتعلم. ثاليا حزينة وغير عابئة. لكن أليكي غضبت، لماذا. لماذا، لقد كنت رائعاً من البداية، ما الذى حدث لك فجأة؟ تعال معي إلى البحر المفتوح وسوف تتشجع. وأنت ترى نهديها وترتعش، تخشى أن تلمسها دون أن تشعر في الماء ويبدأ البوم في الصياح وزهور الياسمين تفوح رائحتها العطرة. هيا يا ابني، تقول لك الأم، قل لجدك أن يعطيك قطعة من اللحم على الطعام، لقد صرت جلدا على عظم. يحمر وجه أليكي تماما، تنزع حزامها الجلدي وتقطعه إربا.

الآن اكتمل البدر. تفوح الروائح الطيبة من خلف الأسوار، البنات تغني وتضحك، كل الناس تسبح في الليل بالمايوه تحت ضوء القمر الفضي

القلـق. يقـترح تـوني أن تخرجا مع إيتاليـا. سباحة تحت ضـوء القمر، هذا حلـم. لا، تقول له، أنا مرهق، الليلة سأنام مبكرا. على أحد الأرفف في المطبخ باقـي الأوزو الذي دفع ثمنه أنطوان في زجاجة صغيرة. الجد المتذمر تركها حتـى يجدها عندما يعود. لقد ضايقه كثـيرا الحديث الذي دار حول أن هناك شخصـا ينام في الكوخ المغلـق. تأخذ الزجاجة الصغـيرة وترشف رشفتين. من سيفهم أنها نقصت؟ هذا أوزو، أي مشروب كحولي، ألا يتبخر الكحول؟

تنـام وتستيقظ، تنام وتستيقظ. صوت خطواتها وضحكاتها، وصوت البومة. فجأة في عز الصمت تسمع بام بوم، صوت طلقات خرطوش بندقية، يدق صوت الخرطوش فوق قرميد السقف. تهب مهرولاً للخارج، ترى الجد تحـت ضـوء القمر وبجـواره شخص من عـالم آخر، مخلـوق في قميص نوم أبيض، عينان غائرتان ومتوحشتان، إنها العمة. تمسك بكلتا يديها البندقية. تفوح رائحة البارود في الهواء.

- تسقط فوقهم صارخاً. يا مجرمين يا قتلة. لقد قتلتموها.

X

أرفع سماعة الهاتف، ألقي بقطعة العملة وأدوس على الرقم. أنتظر.

صوت دافئ لامرأة ناضجة يجيب.

ـ ألووووو...

ـ ألو. أعطني بانديليس من فضلك؟

ـ دعني أر إذا كان موجودا. من فضلك؛ مَن هناك؟

ـ أصمت. على الطرف الآخر للخط أخمن طول الانتظار، ثمة ترقب وقلق.

ـ صديق.

الآن تردد. يعتدل الصوت قليلاً: ثمة مرح حميمي.

ـ حسناً، وهذا الصديق؛ أليس له اسم؟

ـ أصمت. القلق يتزايد، يتحول إلى رجاء.

ـ ألووو...

ـ كُفّي عن هذا يا فاجرة. أعطيني بانديليس.

تطلق صرخة صغيرة كأنها تألمت.

ـ على التو يا سيدي.

إلى أن أسمع صوت بانديليس، عشت لحظات قليلة من الشعور بالذنب. لا أحب أن أجرح البشر حتى ولو كان لغرض أسمى. لكن إرشادات فوتيروس الذي كان يعرف هيلين جيدا كانت واضحة وجازمة: فور أن تسمع منها ألوو؛ تحدث إليها بفظاظة، سبها لو احتاج الأمر. لا تعطها فرصة كي تأخذ وتعطي معك. فكما تفهم تحاول دائماً أن تعرف أكبر قدر من المعلومات إذ إنها تحترق من أجل بانديليس.

أقول له سريعا أن يقامر على الحصان رقم واحد دون غيره في السباق العاشر. مما يعني أننا ننتظره في التاسعة في البيت الذي بجوار حلبة السباق. بانديليس يبدو حزينا. فقد كان يعرف ماذا ينتظره.

ـ الليلة؟

كان هذا غباء منه. قال لكي يعطي لنفسه فرصة ليفكر أفسد شفرة التواصل. ليس هناك سباقات في الليل.

ـ الليلة، قلت باقتضاب ثم أغلقت الهاتف.

بعدها ذهبت إلى الموعد. الساعة مازالت الثامنة لكن هناك أمرا مهمًا ينتظرني. لا أدري ما هو، فلم يقولوا لي. أفكر في بانديليس وأتضايق من أجله. قلبه يوجعه. انتهى أمره، لقد وقع في شراك المشاعر. كان يعد دائما أن يترك منزل هيلين لكنه لا يفعل. لم يرفض، لم يناقش الأمر، لكنه يسوّف دائما ويقول غدا سأغادر، ويكز على أسنانه مما يشي بأنه قد اتخذ قراره، نظرته النقية تعكس مدى إخلاصه العميق للنضال، ولكن، لا شيء يحدث يا بانديليس الصغير، لا تفعل شيئًا يا بانديليس. الأمور تسوء، كل شيء يوضح أن هناك أحداثا يتم ترتيبها، لابد أن نشد على أنفسنا، لابد أن نشدد من إجراءات التأمين. لابد أن نقتلع بانديليس بعيدا عن جسد هيلين.

في بيت المحاسب، فتحت لي زوجته، هي دائما متجهمة. أرشدتني إلى الصالون. مفاجأة. الضئيل التافه، واقفا يبتسم لي ويفتح لي أحضانه. نتظاهر وكأننا نتبادل القبلات. حول الطاولة كان فوتيروس والأرملة وغاريلاس ينظرون إلينا ويبتسمون في سعادة. ولسان حالهم يقول، هل توقعت أن تراه هنا؟

ـ سألته، منذ متى وأنت في الإسكندرية؟

ـ إيه: لابد أنني هنا منذ أسبوع. ها ها.

ـ عقد حاجبيه. فهم لماذا سألت. يعرف أنني أبحث دائما في الهواء كي أؤكد على وجوده، وأخمن من أين تأتي الأوامر. وعندما أشعر بهذا ينتشي

كياني ووجودي، وأمشط كل الإرشادات والأوامر والدلائل التي مضت والمستقبلية بسرعة؛ لا أضع عراقيل، لكني أبقى ساهرا يقظا. وهو من مخبئه يراقب ردود أفعالي. ويسأل ببراعة كل الرفاق الذين هم على اتصال بي. بسرعة وعزم ودون أي إنذار يضعني أمام الأمر الواقع. وفي قرارة نفسه يسعد لحنقي وغضبي ولمرة أخرى لم أسأل: ديمقراطية مركزية يا صاحبي. في اللحظة المناسبة ستقول رأيك وتعبر عن نقدك، ها ها. في هذه الأثناء اتخذ ذريعة إعلان التوجيهات السرية وكسب الآخرين مقدماً. عندما تأتي ساعة المحاسبة يصبح مثل عازف الأرغول ويلعب على كل المفاتيح. يمط الأمور عن عمد وينتقد نفسه بولع ولكن بسطحية، يلخص الأمر في النهاية معطيا آراءه دون ذكر أسماء وينسبها إلى التنظيم، ويدعي أنه كان على حق وأن تلك الآراء كانت هي الصواب بعينه، يذكر الأول بجملة، ونحو الآخر يوجه جملة تعريضية، وللثالث يتظاهر بأنه يتجاهل خلافاتهم من أجل الصالح العام، وللرابع يقترح عليه أن هناك ما يضره وسيكون من الأفضل أن يقوله بوضوح. بإيماءات دقيقة وغير معقولة يبني في وعيهم سلطة وهيبة الخبير والنضالي المجرب والمسئول الكبير. ليس لديه جدول أعمال أو قيود بالوقت. إنه المقرر، القيادة تتحدث. كان لي صديق عازف بيانو بعد أول حفلة له قال لي: آه لو كنت أستطيع أن أبقيهم حتى الصباح. فور أن انتهيت فهمت أنني لو بدأت مرة أخرى سوف أعزف المقطوعة أفضل من المرة السابقة، في المرة الثالثة كنت سأكون رائعا، في الرابعة كنت سأصل إلى مستوى باندريفسكي، في الخامسة كنت سأجعلهم ينحنون من أجلي، كنت سأكون إلها. لكن كما

ترى يتعجلون ليلحقوا بـ: آخر حافلة، الأولاد في البيت، بئر المنجنيز في الغد. الضئيل التافه كان يغلق عليك باب الكنيسة، يثبتك في مكانك تنتظر، يجلس أمام الأرغول وبأصابعه يتحسس روحك. يحاصرك من كل الاتجاهات وفي النهاية توافق على كل مايقول مغشيا عليك، أنت إله! لقد درست تقنيته في الشتاء الماضي في فلسطين عندما كان فانيس غائباً. وفي أحداث مارس، كان الشيء نفسه. إن فانيس وغاريلاس واضحان بعض الشيء ، رجلان طيبان، وفي رأيي كانا يفسدان عليه مسرحيته. أما أنا فكان يعيبني التعجل لكي ننتهي، كنت أتغاضى عن التفاصيل وأعَمّم، بُغضي الشخصي كان يقلب معدتي فينتابني الغضب. تصويت: سيميونيذيس مخطئ.

لكن الآن الأمور قد تغيرت، لقد أنضجتنا الخبرة. غاريلاس، ثاناسيس، فوتيروس. لنرى أولاً ماذا يريدون مني. جلسنا. أشعلنا سجائر. صار عقلي مثل كشاف ضوئي متحرك، يمسح بسرعة كل الأحداث الأخيرة؛ الحدس يضعه فوق حدث غريب، لكن: في أول العام وصل الأرملة إلى السكن الجديد وقال متعجلاً:

- هل تعرفك إنجليزية بعيون زرقاء بنفسجية؟

- مَن، نانسي، الليدي كمبل؟ سألت. أين رأيتها؟

- إذن فهي ليدي. دعك من هذا، أنا الآن متعجل. سأقول لك. على أي حال اهدأ، لن آخذها منك.

الآن أعطيناه الكلمة. كان دقيقا، مختصرا وقال كل شيء بالتفصيل. لقد ارتدى قبعتي بأمر من الضئيل التافه وخرج في تمشية بصحبة بانديليس، خارج عمارة السلسلة. كل شيء قانوني. كان طُعما من أجل المخبرين، وهكذا بلع الطُعم أحد اليونانيين المحليين، أحد محترفي لعبة النرد ومكانه الدائم مقهى الاتحاد الرياضي. لكن معه وقع صيد ثمين آخر. امرأة إنجليزية راحت تتبعهما ، وعندما رأت وجه الأرملة هربت على الفور، استقلت سيارة تاكسي. كانت تتوقع شخصا آخر. لكن بانديليس تعرف على عينيها. كانت إحدى المستأجرات في بنسيون « بروتياس »، امرأة مهذبة عذبة اللسان كان يقابلها في الأسانسير. (نانسي، نانسي، الإنجليزية على السطح في ليلة المنشورات، أأنتِ من كنت هناك؟ كم كنت أعمى!). الأمر الثاني للضئيل التافه: أريد أن أسأل. (لكن الأرملة حرص على أن نتغاضى عن هذا). الأمر الثالث: أن يبدأ ثاناسيس التواصل مع الليدي (جحظت عيناي، كيف يمكن هذا؟) وهو ما قد حدث! غابت يومين وفي اليوم الثالث أحضروها بسيارة فارهة. ذهب إليها ثاناسيس وتحدث إليها بالفرنسية (ثاناسيس، هل تحدثت إليها؟ كيف قابلتك؟) هل تبحثين عن شخص كان يرتدي هذه القبعة؟ أجابت هي في رعب، لا، هل تبحثين عن شخص يُدعى مانوس سيميونيذيس؟ اصفرَّ لونها وقالت، لا، لا. صديقة مشتركة، نينا ميلي، أرسلت لها من أورشليم ما يفيد بأن تثق في الشخص الذي يحدثها في هذه اللحظة. (متسائلاً، نظرت إلى الضئيل التافه: بدا عليه الانتصار). حينها انهارت الليدي واعترفت. نعم، أبحث عن سيميونيذيس كي أقول له أن يحترس من الميجور بيتر الذي

يعمل في الاستخبارات فهو شخص ذو وجهين، ومن مستر بروكس في فندق « بروتياس»، فهو كائن قذر، شيطان. ألاّ يحاول أن يقابلني في ذلك البنسيون، فهو جحر أفاعٍ. هي على أى حال تعد حقائبها لكي تغادر ذلك الفندق؛ يستحيل عليها أن تتنفس في تلك الأجواء. الأمر الرابع للضئيل التافه: على مانوس أن يرسل لها، إذا أردتِ مصلحتي فلا تغادري ذلك البنسيون. سوف يحتاج إليها هناك. لتنتظر.

ـ انفجرت غاضبا، هذا يفوق الحدود. ليس فقط أنكم لاتخبروننى بشيء، ولكن تستغلون اسمي أيضا! هل سألتموها إذا أرادت أن تتورط في أمورنا؟ هذا يعتبر تهديدا.

ـ اهدأ يا رفيق، قال لي الضئيل التافه. مرة واحدة وقعنا على إنجليزي شريف، لن تأخذه منا. هل تعرف ماذا تعني أن تمسك بكل هذه الخيوط بين يديك؟ بيتر من الاستخبارات، زوجها، سفير في بغداد، وأخت عشيقها، الليدي جويندولين سفيرة بريطانيا العظمى في القاهرة. ليس هذا بالأمر الهين. ثم هذا الـ بروكس، ذلك الخسيس القذر. ماذا يخطط مع المثقف المجنون والأثري والقس الروسي وكل هؤلاء المتسكعين؟ لابد أن نعرف. إنهم يعدون لنا مكائد. الوضع يتأزم. بالطبع، بعد أن سحقناهم.

ـ لابد أن نشرح لها ونرى إذا كانت هي ستتطوع للمساعدة. ربما لن تفهم أنها ستقامر بكل شيء.

ـ متفقون، سنعتني بهذا الأمر. اطمئن.

ـ مانوس، يقول لي ثاناسيس. ضع في حسابك أنها على علم بمجريات الأمور. هي تعرف الوضع العام وكذلك وضعنا، وتعرف المعارك الإسبانية عن ظهر قلب، وكذلك الأحزاب والمعارضة والشخصيات. إنها امرأة شجاعة أقول لك.

ـ معلوم يا رفيق أن قدميك لن تطأا هذا البنسيون. لو ضغطت علينا الليدي سنرتب لقاء في مكان آخر.

قلت بفتور، « متفقون ». كما لو كنت أرفض الأمر.

على العكس تماما. موضوع بانديليس أدرته بهدوء. وصل في العاشرة يتصبب عرقا وعيناه في الأرض يفرد بأصابعه مرارا وتكرارا شريط قبعته البحرية المكتوب عليه البحرية الملكية بوسيدون. أحسن صنعا أنه لم يعلقه خارج الأنتريه، لكن كان غريبا ألا يتركه من يده...

ـ يا بانديليس، هل تلتزم بالقرارات أم لا تلتزم؟ جملة الضئيل التافه الشهيرة.

ـ ألتزم.

ـ ألم نقل لك إنه لابد أن تغير البيت، أن تبتعد عن فستان هيلين؟

ـ قلتم.

ـ إذن؟

ـ إذن لا يمكن. لو أن زوجها وافق على الطلاق سوف نتزوج وسينتهي الأمر. لكنه لا يريد أن يطلقها عديم الشرف، يريد أن يعذبها. لقد جعل حياتها جحيما من أول يوم.

ـ لكن لكي تتزوجها لا يكفي أن يطلقها زوجها، لابد أن نسمح لك نحن بهذا.

ـ ولماذا لا تسمحون لي؟ ألأنها تكبرني في العمر؟

ـ هذا أمر آخر. عندما يأتي وقته سنشرح لك.

ـ أها، قال بانديليس متعجبا.

ـ إذن ماذا تقرر؟ هل تتركها، أم نشطبك من التنظيم؟

ـ يا رفاق، أرجوكم، افهموني. أنا لم أعرف العشق في حياتي، هنا عرفته. كل ما عرفته وفعلته في جزيرتي مع البنات في الطين والقذارة كانت محض أفعال حيوانية. أتعرفون ماذا يعني أن تُحَمِّمَك المرأة بصابون معطر، أن تقبل كل جزء في جسدك، أن تجعلك فخورا بأنك خُلقت رجلاً؟ أن تقول لك، أصحو وأفكر فيك، أستلقي على الفراش وأفكر فيك. لقد جعلتك رداء أسير به ويغطي كل جسدي: ركبتاي وذراعيّ وظهري وصدري وجنبي. لو خسرتك سأنتهي.

ـ جميل كل هذا ومعروف. لكن احتياجات النضال...

ـ أي احتياجات للنضال؟ قاطع بانديليس الضئيل التافه وهو يزيح قبعته بعيدا. فسر لي في أي شيء سيفيد النضال إذا تركت هيلين. هل سأصير خارجا عن القانون؟ لا. أينما سأذهب ستساعدني على الحركة. هل تخشون المراقبة؟ إننا نذهب وحدنا إليهم نهز مؤخراتنا ليتبعونا ثم نكشفهم. لو كان وضعي غير قانوني لكان هناك حديث آخر. لو كانت هيلين ليست شخصا موثوقا به، كنت سأتفهم. لو كانت تسبب لي المشاكل، لاتفقت معكم. لكن هذه المرأة أضربها كفا واحدا وتصير كالنعجة.

ـ لن ندخل الآن في تفاصيل، قال الضئيل التافه. هنا لدينا قرار.

ـ قرار، قال فوتيروس.

ـ تمهلوا، قلت، أمر، نعم. لكن قرار، لا؛ الآن سنتخذ القرار.

راح الأرملة وبانديليس يتبادلان النظر وهما يحاولان أن يتذكرا ماذا كان، هل كان أمرا من فوتيروس أم قرارا. راح فوتيروس ينظر إلى اللوحة وهو يحك صلعته.

ـ إذن، قال الضئيل التافه وهو يهز قدمه بعصبية.

ـ حسنا، أقول أنا. الحاجة في أن يترك هيلين لأنه مراقب ليست منطقية. لو أصررنا على بقائه فقط لأنه يعشقها فنحن هنا نجلد أنفسنا. هي امرأة موثوق بها، مخلصة، لن أدخل في تفاصيل كيف ولماذا. لكننا في حاجة إليها.

إلى شقتها، فلديها تليفون. هل نرفض كل هذا؟ ثم إن الأهم هو: قبل قليل كنا نتكلم عن الليدي التي تسكن هناك. نحن في حاجة إلى حلقة وصل. من سيكون أنسب من بانديليس؟

ـ لكن كيف سيتحدث إليها، إنه لا يعرف لغات.

ـ سنعطيه رسائل مكتوبة. سينتبه من يدخل ومن يخرج من العمارة.

ـ لكن هيلين أسكنت في بيتها هذا المهووس بالعالم القديم. لماذا لا تطرده؟ سأل الضئيل التافه.

ـ هذا الأمر لا يخصنا. المرأة لديها حياة كاملة خلفها. نحن الآن ظهرنا في حياتها ونريد على الفور أن نتحكم في حياتها؟ طالما تنتبه فهذا يكفينا.

ـ سأنتبه أنا أيضا، قال بانديليس متنفسا الصعداء.

تصويت. هل يترك باندليس هيلين: فوتيروس والضئيل التافه صوتا « يغادر» أنا وثاناسيس وغاريلاس صوتنا « يبقى».

قال الضئيل التافه حانقا. أريد فقط ألا يأتي إلينا بالزي الرسمي. أن يرتدي ملابس مدنية.

ـ اتفقنا، قال بانديليس. قل إنه تم بالفعل.

ذات صباح كنت وحيدا في الشقة المشتركة الجديدة. شتاءً دون

تدفئة؛ كنت مستمتعا تحت الأغطية فآثرت البقاء في الفراش. صوت بائع الخضراوات مع حماره خلف البناية أعادني إلى كيفيسيا؛ الطريقة نفسها التي ينادي بها على بضاعته، الكلمات نفسها: كرفس، بطاطس. الكوسة الطازجة... فجأة تذكرت أنني في أرض عربية، كيف يوجد بائعو خضراوات يونانيون في الإسكندرية؟ ووجدت الإجابة: أول بائعي الخضراوات كانوا يونانيين في سنوات جدتي وأنطوان؛ طريقة المناداة في الحرفة بقيت وتبناها فيما بعد البائعون المحليون الذين حلوا مكانهم في الحرفة. لكن إلى متى؟ عندما ستتغير الطبيعة السكانية للدولة، عندما سيغيب اليونانيون، هل سينادي بائعو الخضراوات على بضائعهم باليونانية في الإسكندرية؟ لأنهم سيغيبون حتماً. في اليونان الحديثة التي سنؤسسها، سيكون هناك خبز للجميع، سيتوقف هذا التشرذم وإراقة الدماء. لن يكون سوى الخبز والورود.

مفتاح في الباب، من يا ترى؟ تناولت مسدسي من على الطاولة ودسسته تحت الأغطية. صوت سعال مألوف، إنه فانيس.

ـ يا مرحبا، يا مرحبا!

ـ صباح الخير. سامحني إن كنت قد أيقظتك. ما الأخبار؟

كان يرتدي ملابس مدنية، مرهقا ومغبرا.

ـ الأخبار عندك أنت. متى وصلت؟

ـ وصلت لتوي. لكن أريد أن أستريح بشدة.

استلقى على أريكة غاريلاس. كان صدره يصفر باستمرار. ثم بدأت أنفاسه تأخذ إيقاعا بطيئا. علق يده اليسرى خارج الأريكة، وبين الحين والآخر كان يجرها على بلاط الأرضية بكف مطبق كما لو كان مستلقيا على ظهره في مركب ويسحب المجاديف ببطء نحو كهف أو بوغاز. نهضت وارتديت ملابسي وصنعت القهوة. كان ينظر لي بعينين مفتوحتين ويده لاتزال تتحرك. تركته.

بردت القهوة فوق المنضدة، راح المجداف يستريح في الماء، لكن عيني فانيس كانتا لاتزالان مفتوحتين. استلقيت ثانية بملابسي. أردت أن أشعل سيجارة لكني لم أجرؤ. الشقة صغيرة وستتعبأ بالدخان لو فعلت. مرت ساعة.

ـ كنت مع هيبوليتوس من جيش التحرير الوطني في ساموس، قال فانيس مرة واحدة دون أن ينهض: يتكلم يتكلم دون أن يتوقف. ليومين متتاليين أعيش تفاصيل ملحمة. وعندما أبقى وحدي وأفكر في الأمر مجددا يسيطر علي الخوف. أرى في الأفق أن هناك مأساة تنتظرنا. لن ننجو من سفك الدماء، كما قال لك صديقك ريتشاردز. رغم أي تنازلات من الممكن أن نقدمها. حتى لو استسلمنا دون أي شروط فهذا لا يناسبنا. هؤلاء يحتاجون أن تراق الدماء، الكثير من الدماء. أن يقتل الأخ أخاه، أن يقلبوا العالم رأسا على عقب، ويأتي المتقهقرون في المقدمة. أن يرهبوا ويخرسوا روح الشعب

هكذا حتى يتركوهم أحرارا خمس أو عشر سنوات كي يفعلوا بشكل أفضل ما لم يستطع أن يفعله هتلر بذاته. كنت أريدك أن ترى هيبوليتوس. وجهه الجميل الأسمر من حرقة الشمس، ليس أسود، لكن لونه برونزي من أثر الشمس بشعره الأشقر المحمر مثل الحرير، ومن جذر أنفه وحتى أسفل ذقنه تجعيدة تأتي من العالم الآخر. كم أحسده. هذا الرجل كان يتنفس الحرية مع الشعب الساميوتي لمدة سبعين يوما كاملة. عاش بالفعل ما نعرفه نحن فقط بشكل نظري: كيف بكل بساطة يأتي العبور من النظام للاحتلال ومنه إلى الحرية مجرد حياة سياسية، عندما يكون حل المشاكل بيد السلطة الشعبية. إن تجربة ساموس تعتبر قاعدة ذهبية، صك، لأنها هي المشاكل نفسها التي ستواجه كل المناطق المحررة. يزعم مصاصو الدماء أن «تجربة ساموس» التي قاموا بها قد نجحت. جربوا الجوع والرعاية والتدخل حتى يخرجوا بمكاسب سياسية. كانوا «المحررين» . لكن أهل جزيرة ساموس شعروا بالأمر ورفضوا أن يحتضنوهم. وهؤلاء في طريقهم للمغادرة جردوا الجزيرة من السلاح وتركوهم بلا أي دعم لجنون النازيين. زجوا بجيش التحرير الوطني في المعسكرات مع الأسرى واللاجئين، احتالوا على القيادات ثم حبسوهم في إحدى الفيلات في الصحراء. من هناك هرب هيبوليتوس وجاء إلى هنا. كم تألمت من أجله. وحوش الحرب وأعضاء القيادة يُطارَدون هكذا مثل المجرمين من قوات الحلفاء! حبسوا بعض المتمردين في معسكرات الأسرى، هنا في الطلمبات على بعد ثلاثين ميلا

من الإسكندرية، في رمال الصحراء. وحشية وإهانة. لو سمعت قصصهم وشكواهم لأصابك المرض. كنا على اتصال معهم بالأمس، منذ الظهيرة. سرنا طيلة الليل. في الظلام لا تسمع هيبوليتوس. عندما تأتيه النوبة يعض على يديه. وعندما حل الضوء ماذا رأيت؟ جرح عميق في كلتي يديه. أين أذهب به ولا يوجد لا صيدلية ولا ماء نظيف في تلك الحقول التي كنا نمر بها. قلت له، ابك كي تستريح، أو يكفي أن تتعايش مع آلامك. لا؛ يقول لي، لكن كيف خدعونا؟ قالوا لنا إنهم سيذهبون بنا إلى الجبهة كي نحارب كوحدة مستقلة. والآن يسبوننا ويسجنوننا ويهزءون من نسائنا. آآآخ... انتبهوا يا رفاق، يقول لي، لا تبرموا أي اتفاقات مع عديمي الشرف هؤلاء. إن ما فعلوه في ساموس سيفعلونه غدا في اليونان، انتبهوا، افتحوا أعينكم.

ـ حسنا، سننتبه، قلت. لكن ماذا يقترح؟

ـ هذا ماقلته له أنا أيضا. الآن أنت لديك الخبرة من ساموس فاسمع مالينا. كان يعرف الكثير عمًا يدور عندنا، أكملت له الفجوات. هذا هو الخط الذي وضعناه، ها هم الإنجليز، هاهو هدفنا، دور العملاء، مواقف الاستخبارات العامة للفورين أوفيس، دور الملك، وتسوذيروس وميرتاكيس وفينيزيلوس. الآن كل هذه الأمور أمامك. ضع لي رؤيتك. لا شيء يا رفيق، قال لي فقط عليكم أن تنتبهوا. سيروا في الطريق التى رسمتموه، هذا هو الطريق الصحيح. فقط عليكم أن تعرفوا، يجب ألا تسيروا في الظلام. قال لي هذا في الطريق قبل أن يحل الفجر وأرى يديه.

ـ هل سألته فيم أخطأوا؟ هل قاموا بنقد ذاتي؟

ـ اقترفنا خطأين، قال. الأول هو أننا بدأنا بمقاومة الفاشي المستعمر. لكن كيف لا نفعل هذا، فنحن يونانيون بالأساس؟ الخطأ الثاني هو أننا صدقنا في شرف العسكرية الإنجليزية. لكن فعلنا هذا لأننا كنا نحارب بوصفنا يونانيين بجوار حلفائنا.

علق فانيس رجليه وجلس على الأريكة وأخذ القهوة في يده. كانت باردة، لكنه كان يرشفها ببطء بينما كان يمد لسانه.

ـ إنك تصنع قهوة جيدة، هل لديك أي خبز؟

ـ مع الأسف، ليس لدينا أي شيء هنا. لكن سأخرج سريعا لأشتري شيئا.

ـ اجلس، قال فجأة. هل جننت؟ ثم هدأ وقال: ما الأخبار لديكم؟

ـ إن غاريلاس لديه بعض الآراء، يختلف ربما. هل تحدثت معه؟

ـ لا. لم نتقابل بعد. لكن غاريلاس لم يأتِ هنا وحده.

ـ حسنا؟

ـ أنت ماذا فهمت؟

ـ الاختلاف المزعوم يعبر عنه بانفجارات عدم الصبر وميل إلى

التطرف. لكن لابد أن أقول إن هذا يحدث من قبل غاريلاس بحسن نية.

ـ ليس فقط غاريلاس. إن هذه الظاهرة تعتبر ظاهرة عامة، كان يجب أن ننتظر هذا بعد الضغط الذي يمارسه الإنجليز وبعد المكائد التي تحيكها الأحزاب التي تشنع على النضال وتجر الوضع للخلف قبيل الرابع من أغسطس، ماذا تنتظر، الرجال يتفاعلون قدر ما يستطيعون. لابد أن يكون لدى المرء أعصاب حديدية حتى لا ينجرف وينحرف.

ـ أعصاب، خط سير مستقيم مع التنوير.

ـ خط سير صحيح، بمعنى؟ هذا ما أحسب أنني سأقترح، قل لي أنت رأيك. الأسطول، الجيش، القوات الجوية، كلهم دون أدنى شك معنا. فعليا. رسميا يمكن أن يكونوا في أي لحظة نريد. لكن هنا يوجد الخطر. ينقصنا عنصران أساسيان. الأول، الأرض الوطنية. كيف ستتصرف عندما تكون تلك الأسلحة الثلاثة تحت أمر الإنجليز؟ سيعلنون أنك قرصان، متمرد ثم يخفونك تماماً. لقد كانت أحداث يوليو وحل الكتيبة درساً مهمًا لنا. العنصر الثاني: لابد أن تكون لدى أغلبية وزارة تسوذيروس ومؤيدينها الرغبة في إيجاد مخرج، أن يتمنوا التغيير بأنفسهم. حتى لا يجد يورغيوس وتشرشل شخصيات كي يشكلوا بهم حكومة حتى يقمعوا الحدث. أمور صعبة ومستحيلة. لهذا أقول: في اليونان، هناك كل شيء، الشعب، الأرض وقيادة الكفاح. أن نمسك الزمام بأسناننا، ونتجنب كل التحديات ونتحرك

مجتمعين، جيشا وأسطولا وسلاحا جويا. لو نجحنا في هذا سنكون قد دفعنا ديننا. سنقول للشعب اليوناني، إنهم يعدون لكم الحراس، وهاطنحن نحضر إليكم حراسا لحقوقكم. لقد أخطأنا عندما غادرنا: كان يجب أن نجلس هناك ونحارب الذين احتلوا وطننا. لكننا لم نبق مكتوفي الأيدي في المهجر، ساعدنا قدر استطاعتنا. ربما يرأف بنا الشعب.

ـ هل تعتقد أن الإنجليز أغبياء حتى يتركونا نذهب مجتمعين؟ وماذا لو أرسلونا إلى الجبهة الإيطالية؟

ـ سنذهب. دون أي تردد. الحرب مستمرة. ومن إيطاليا إلى اليونان سنحارب.

ـ وهل سيستمر في هذه الأثناء الضغط على تسوذوروس والحلفاء لتشكيل حكومة وحدة وطنية وإعادة تسليح الكتيبة الثامنة واللواء، وإعادة تشكيل الكتيبة الثانية ؟

ـ من أجل موقف وطني ضد كل الحلفاء ستتلاشى معسكرات الاعتقال والسجون، سيوقفون التنقلات والتطهير من أجل احترام وعلاج اللاجئين، سيرسلون أطعمة وأدوية إلى اليونان، إلخ، إلخ، إلخ... أفهمت؟ هل سنقوم بهدنة حتى نذهب إلى الوطن؟ في هذه الحالة لن نذهب أبدا. على العكس تماما فأنا أقترح أن نكثف من نشاطنا. هل سمعت أبدا أنني من أنصار الانتظار؟

ـ حسنا، قلت له. ولكي نسأل سؤالاً جيدا، كم ساعة مضت عليك دون طعام؟

ـ يبدو لي؟ انتظر كي أتذكر، متى جئت وقابلت هيبوليتوس؟ تقريباً ثمان وثلاثين قل أربعين ساعة. ليس كثيرا. لكن قبل أن أنسى: قلنا مع هيبوليتوس إنه هو وزملاؤه في القيادة سوف يخرجون إعلاميا، يقومون بمقابلات صحفية ومحاضرات، لابد أن يعرف العالم وشعب الحلفاء عن وضع ساموس الدرامي. ماذا حدث لهم؟ هل سيسجوننهم مرة أخرى؟ إيه، لابد أن تنتبهوا أنتم أيضا كيف ستحمونهم.

كان لدينا اجتماع مع الأرملة « في المكان المعروف». جاء هو في موعده، أعطيته بعض الأوراق للقيادة ورحت أستعد للمغادرة معه.

ـ لا، ابق قليلاً، قال لي بتذمر. قال فوتيروس إن تنتظر نصف الساعة وإذا لم يأت فارحل. هذا ما لا أحبه، التغييرات، تضعك في مخاطرة وتضيع وقتك.

أشعلت سيجارة وانتظرت. كان عقلي طيلة هذه الأيام مع نانسي. منذ زمن لم أتحدث مع شخص من الضفة الأخرى. لا أقابل ولا أحتك سوى بالرفاق، هم حاسمون ودائماً تحت ضغط. لا أقصد العدو عندما أقول الضفة الأخرى لكن أعني المتعاطفين، حلفاءنا وشركاءنا والذين هم بالأساس لهم مواقفنا نفسها من الأحداث، لكن كل يصل إلى هناك من طرق مختلفة، بتردد ومواءمة. بسيطرة درامية على الوعي والضمير ، والذي يغلف كل ممارسة يقومون بها بدهشة المشاركة الشخصية. كنت أحتاج التواصل معهم لكي

أتأكد من مسارنا، وبشكل آخر لكي أهبط إلى أرض الواقع أو لكي أقصر المسافة بين ما نتحاور فيه وما يستطيعون أن يقدموه لنا. كنت أعتقد أنه بالحوار مع نانسي سيكون هناك ثمة نافذة مفتوحة كي أتعرف على نفسية إنسان حسن النية، يعيش يوما بيوم ظروف الحرب دون أن يكون لديه نظرة بعيدة المدى. بالطبع، باحثا في أعماقي وجدت في طيات الظلمات ثعبان الغيرة يسبح؛ أصابتني الغيرة، لأن علاقاتنا مع نانسي الآن كان يوجهها الضئيل التافه؛ وثاناسيس عندما قال لي إنه لن يسرقها مني، كل هذا أيقظ بداخلي خوفا واشتياقا غامضين.

كنت أنتظر حتى تمر آخر خمس دقائق. شعرت بشيء حي يحتك ببنطالي؛ كان كلبا. وضع قائمتيه الأماميتين على المقعد المجاور لي ودلدل لسانه وراح يلهث وينظر نحوي ونحو الباب الخارجي. ظهر رجل ملتح كبير الحجم. رفع عصاه وحيا الجمع الصامت في المقهى المعتم: السلام عليكم. رد عليه أغلب الموجودين: عليكم السلام. ثم أضافوا: يا عبد الرحمن! هل هو اسمه؟ كان يرتدي بنطالاً مهلهلاً وصديرية بالبقع وضفائر شقراء على رأسه. يبدو كشخصية من كتب تولستوي، لم يكن يبدو أنه عربي. اقترب وجلس بالقرب من كلبه الذي قفز وتقوقع على ركبتيه.

- أعذرني لو لم أطلب منك الإذن، قال لي بالفرنسية. لكن فوكس لديه هذه العادة كما ترى.

فوكس، بعد أن سمع اسمه مدد فمه ولعق ذقن صاحب. ومن فم كليهما كانت تفوح رائحة قمامة.

ـ عبدك، عبد الرحمن، عرف نفسه الشخص الغريب.

ـ فرصة سعيدة، قلت. ماذا بوسعي أن أقدم لك؟

ـ كم أنت إنسان طيب، شكرا. لقد دفعت ثمن الشاي الذي طلبته، هل يمكن أن تعطيني شعلة؟

أخرجت الكبريت ووضعته أمامه ولم أخرج له سيجارة. أخذ علبة الكبريت نظر إلى ماركتها ثم ألقاه على الطاولة باشمئزاز. دس يده في جيب صديريته وأخرج ولاعة. أشعل بها ثم أطفأها. ولاعة كبيرة بها فتيل من نسيل الكتان. فجأة تذكرت أنني قد رأيت هذا الشخص من قبل، وصفته ذات مرة. نعم، رأيته في حلم حكيته قبل عامين إلى نانسي وإيمي والآخرين في البنسيون في أورشليم. كان سائق حافلة يطلب مني شعلة، أخرجت الولاعة وأشعلت له. السائق كان الموت، لكنني في الحلم لم أكن أعرف بعد. هل كان حدسا؟ الشخص الغريب يجلس بجواري وتفوح منه رائحة عفنة، لا يضايقني. متسكع، ساخر، ربما فيلسوف، ربما كان من هؤلاء الذين عاشوا في مدينة الخروج عن المسار هذه في وقت سابق.

ـ النار، هي أول عنصر للحياة، قال لي.

- هي هبة من رب أحب الإنسان، قلت له.

من يعبث بعقل من؟ هذا الحديث إما أن يرتقي إلى هالة الميتافيزيقا عديمة اللون والرائحة وإما ستزحف على الأرض مع أعقاب السجائر وتبصق عليها، حوار فلسفي وهمي.

- قال لي ثانية بشيء من الضجر في صوته. بغير النار لا يوجد تجديد. هي الشيء الوحيد الذي يضيء وينظف.

- لماذا ينادونك عبد الرحمن؟ قلت له.

- لأن هذا ما أحب أن أكونه، عبدًا للرحمن.

- لكنك لم تولد مسلما بالطبع.

- ولدت حين قبلني الإسلام في كنفه. قطعت جواز سفري الأجنبي كما قطعت كل علاقة لي بقومي والحضارة المزعومة. الآن أعيش حياتي كاملة، أنفقها كيفما أشاء وليس كما يريد صاحب العمل.

- وهذه الحرب: ألا تحرك فيك ساكنا؟

- أي حرب، تلك الحرب؟ ثم أشار بيده إلى خارج المقهى، الأطلال. هذه الحرب هي إعداد لإحياء الحضارة البدوية.

أحضر القهوجي الشاي له مع طبق صغير. سكب عبد الرحمن الشاي

في الطبق الصغير، جربه ليتأكد من أنه ليس ساخناً ثم قدمه إلى فوكس. لعقه الكلب في رشفتين. صاحب الكلب وضع الشاي مرة أخرى وجربه مجدداً ثم قدمه إلي الكلب.

- ماذا أعني بالحضارة البدوية، أكمل دون أن أسأله. لو أن لديك في حديقتك وردة ويمر من خارجها بدوي، سيقطعها، لكنه لن يشمها، لن يأكلها، لن يأخذها: سيلقيها. لو رأى في قطعة أرض شجيرة أو نباتا ما، سيقتلعه ويلقيه أيضاً. لو في منتصف الصحراء نسيت منزلاً دون حراسة، البدوي سينزع الأخشاب في البداية ثم سيحرقه، ثم سيهدمه على مهل حجرة حجرة. كل هذه المنطقة حولك كانت مغطاة بالآثار المرمرية، يونانية ورومانية. ماذا صار لها. حرقها البدو، صنعوا منها الجير. البقية غطتها رمال الصحراء. أفضل حليف للبدوي هو الرمل: مدى أصفر تشكله الرياح حسب كيفها، هو غذاء ملوك القبائل. حياة طبيعية لهذا الشاطئ الإفريقي: الحضارة البدوية. حضارتكم هذه عرضية. من الثلاثين قرناً للتاريخ، والتي هي عمر الإسكندرية بدءا من راقودة الفرعونية، من الصعب أن تستطيع أن تغطي عشرة أحداث. الآخرون يبقون ناصعي البياض، هادئين. منذ احتلال العرب على سبيل المثال وحتى نهضتكم أنتم ماذا تعرفون؟ أشياء قليلة جدا، سبعة قرون صفراء كالرمال، حضارة بدوية. والآن أرى المملكة تأتي مجددا.

مرت خمس دقائق. لم يظهر فوتيروس. كان يجب أن أرحل. تمنيت

ليلة سعيدة للرجل الغريب دون أن أصافحه. في الطريق تذكرت كلام بانديليس عن شخص يدعى ريكي كان يلعب البريدج مع الكسندروس الأثري والآخرين في بنسيون «بروتياس». هناك حيث تسكن نانسي. أمر غريب. هل كان هذا محض صدفة؟ وماذا عن هاجس أو حدس الولاعة؟ حدس وهواجس و... هراء!

أشعل كاميون كشافاته الكبيرة فنظرت خلفي. ريكي لا يراقبني، لكن فوكس يراقبني. توقفت. فعل هو الشيء نفسه. عندما وسعت خطوتي، تحرك. هل هو مدرب على المراقبة؟ يبدو لي الأمر مستحيلا، كان الكلب أشبه بكلاب الشوارع. طردته صائحاً وانحنيت متظاهراً أنني سأقذفه بالحجارة. فأدار لي ظهره وتوقف. اثنان من المارة ضحكا وصاحا فيه أيضاً، ياللا امشي، شوت! لكنه لم يهتم. حاولت التظاهر بأنني أهرول فراح يهرول هو الآخر. عندئذ جاءتني فكرة أن أخرج من الأزقة إلى الشوارع الكبيرة. سوف يتوه في الزحام والشوارع الراقية. لكن هذا لم يحدث. في شارع شريف جاءتني فكرة أخرى أكثر حذاقة. لو أن محل الحلواني الذي قطعناه مع فوتيروس مازال ساهراً، سأدخل وأغلق خلفي الباب وأخرج من الباب الذي يخرج على شارع توفيق. كان محل الحلواني ساهراً، كان مكتظاً بالزبائن. سحبت خلفي الستارة الزرقاء، أغلقت الباب الزجاجي وسرت متعجلاً. غباء: ارتفعت رءوس كثيرة وتوقفوا عن الحديث ليحدقوا فيّ. كنت أرتدي حلة جيدة من قماش أسكتلندي كانت هدية من الأرملة. لكن رأسي

كان عارياً. فجأة أمامي ظهرت امرأة أنيقة تفرد ذراعيها أمامي وتقطع طريقي. حاولت أن أتجنبها.

ـ مانو، آه؛ لا، لن أتركك ترحل بعد الآن.

كانت إنجليزية. العيون الزرقاء البنفسجية. نانسي!

قبل أن أفتح فمي لأقول شيئاً كانت قد سقطت في أحضاني تبكي بنحيب.

ـ لا ترحل، لا ترحل.

بجوارها كانت هناك سيدة تمسك بيده وتجذبها.

ـ نانسي حبيبتي، انتبهي، لا تفعلي هكذا هنا.

بالفعل، كان تصرفا غريبا لفت انتباه أغلب الزبائن فراحوا يتلفتون يمينا ويسارا. اقترب الجرسون منزعجا. المرأة الأخرى راحت تدفعنا بهدوء نحو باب الخروج إلى شارع توفيق.

ـ هيا بنا بسرعة، قالت. سآخذكم في سيارتي.

وجدنا أنفسنا نحن الثلاثة محشورين في المقعد الأمامي. هدأت نوبة بكاء نانسي. المرأة الأخرى أدارت موتور السيارة. مدت لي يدها اليمنى من فوق نانسي.

ـ هالو، يا صديق. أنا ماري كلود.

ـ وهذا هو مانوس، قالت نانسي وهي تضغط بخدها على صدري. أووه، لن أضيعك مرة أخرى أبدا.

اختفى فوكس.

XI

يأتي الضوء من الحجرة الأخرى متذبذبا هادئا وبراقا مما يعطي إحساسا بالسعادة. يستلقي بنعومة على الجدران بلونها الأبيض المائل للزرقة، حفنة من اللون الوردي، ويبدو أن حفنة من اللون الوردي قد ألقيت في دلو الطلاء. السقف والأركان باهتة: شباك، الشباك من سفينة سحرية تتكوم الآن، وعلى الأرض حصاد السهرة منتثر في الأرجاء: ذهب، ياقوت. كل مسام نانسي كانت موصدة: على الأصابع، على الصدر والأذنين. السرة، الفرج ..المتاهيّ؛ أبواق نحاسية؛ نجوم البحر الخماسية؛ نافورات كريستالية. الضوء يمر من خلال زجاج الباب الخارجي اللامع ويتمدد ليل نهار مانحاً الأسطح كلها شيئا أشبه بالزغب، إحساس بالزغب. من الشارع يأتي الشروق لطيفاً. الربيع المعتدل. شروق الشمس في... لا تذكر؛ ستسأله؛ ربما يعرف هو. الآن هو تحت الدش. يفتح الماء ويغلقه. يفتح: في البداية صفير، ضغط الهواء في مصفاة الحمام، ثم ارتطام الماء على البلاط. هل يغسل عرقه أم ينتعش؟ هل ستسأله؟

نظرت نانسي إلى فخذها، كان ناعما ومشدودا وغضّا. تعلوه مسحة من لون، ربما اللون الوردي للخجل؟ ركبتاها خُدشتا ربما في النهاية عندما عادت الدنيا، وكانا يجاهدان على النسيج الخشن بإيقاع عاصفة وهو كان

منقبضا ومنغلقا على نفسه يصيح في الضوء والظلام. مستلقية الآن نانسي؛ على حشية معبأة بروائح غريبة تفصلها عن الأرض. ترفع رأسها لترى أظافرها على طرف القدم الأخرى التي تستريح ممددة. بالقرب من هنا لون المثلث المتعرج لونه يصير أكثر قتامة.

كل الأشياء في هذه الغرفة تبدو كأنها تزداد طولاً: الباب العريض نصف المفتوح، المقعد الذي تكومت عليه الملابس. الباب يبدو لامعاً يبدو أنه تم طلاؤه بعناية أكثر من مرة. يبدو أن صاحب المنزل كان يعتني به كثيراً، لاحظت نانسي هذا بالأمس عندما دخلت. لا، أخرجها مانوس من حالة الهذيان: راح ينم عن أحد البحارة، رجل موسوس كان محبوسا هنا، ماذا كان عساه أن يفعل ليستمتع بالملل؟ لا شيء غير الفرشاة والطلاء.

على الحائط المقابل لوحة رمادية بإطار من الزجاج والخشب..وجودها في مكان كهذا غير معقول. لوحة نحاسية غير عادية، خلابة: وصف لمصر وباريس في 1825. بروفيل رأس مومياء. الجمجمة مصقولة، العين غائرة، العظام صلبة، الخدود متآكلة، من أثر الديدان أو العتة: تجويف. حولها شرائط من بردي التحنيط المهلهل. فم الموت فوق الآخر المطبق بشفاه رفيقة، شفاه الغذاء والطعام والعشق. الفك القوي يشي بإنسان قوي الإرادة؛ رجلا كان أم امرأة يا تُرى؟ أنف معقوف، فك سفلي خفيف مدبب؛ يشبه فك نسر جارح. هل كانت هذه نتاج جنون البحار؟ ستسأله. على أى حال هذه اللوحة أبرزت كل كبتها. دون أن تفهم كيف، تجويف هذا يتطابق مع الخزان الذي ابتلع الخنازير من تلك الشاحنة، هنا في الخارج، على الشاطئ نفسه، خلف تلك النوافذ الزجاجية التي تأتي بالضوء المرمري قبل شهور قليلة.

خِف من ساعة التحليل. هل حان الوقت؟ أوجدت ماري كلود الذرائع كي تتركهم وحدهم في جرسونيرة جاك، التي بها كل سبل الراحة، حيث النظافة والأمان. هل حدث شيء بينكما؟ سألت عندما عادت. صفر! ألست امرأة، وهو، أي نوع من الرجال هو؟ أوه، كان رجلا بالفعل: مشدودا كالعارضة بجوارها، حريص وحساس. في اللحظة التي شعرت فيها بفيضان رهافته، وأنفاس رغبته الملتهبة. إلا أنه كان رزينا، إنسان وصديقا. كان بينهما شبح رون. يروح ويجيء. من عالم الصمت إلى هذا العالم، كانا يصمتان حتى يقولا أشياء ويتكلمان كي لا يقولا أي شيء. لا أستطيع، مستحيل أن أصمت. حاجز رون. قبلته، قبلني، لكن كنا كالإخوة. مسحت على شعره ومسَّد على شعري، لكن كالإخوة. أخذت يده بين يدي، دفأتها، قبلتها، فعل هو الشيء نفسه، كان متحفظا وحساسا ومحايدا. أتفهمين، إن علاقتنا قد انحرفت عن مسارها، خرجت إلى مدى آخر، وكأن رون هو الذي يحكمها، أتفهمين؟ لابد أن أن أقوم بخطوة، أن أتكلم بطريقة مختلفة، أن أجرؤ أن أقوم بحركة جريئة. هو ينتظر، لابد أنه يتعذب، لكنني أشعر به: لو شرع هو في البدء، ربما ينهار كل شيء. لابد أقوم أنا بالبدء. وأنا أجد هذا صعباً، هذا اللاشيء، الكلمة، تعطل الشفاه الطفيف، الرعشة التي ستغلق للأبد ذلك الإثم ومعه رون وكل الظلال والأشباح. ثمة مغناطيس يجذبني. أخشى أن أعبر مباشرة إلى اللمس المشروع. أريد رون، أريد أن أجده ثانية، لكنني لا أريد، ليس هو رون من أريد، بل أريد مانوس. قالت لها ماري كلود: لا تقولين إلا هراء يا عزيزتي. ماذا يلجمك؟ كل هذه مجرد رواسب، بواقي النبيذ. حكم مسبق، تعنت. اطلبي منه أن يذهب بك إلى غرفته. وإذا كان لديك رغبة آنذاك

في لمسه، مدي يدك والمسيه؛ الرجال دائما يتذكرون بامتنان المرأة التي تجرؤ على مثل الفعل.

الآن يقف عاريا طازجا؛ ينحني فوقها: هل أنتي نائمة؟ قدمه تركل الحشية. عروق ساقه بارزة، ساقه مشعرة. حوض ضيق، بطنه منقوش، صدره مرمري: إنه كالتمثال. تماما كما وصفته نينا وميشيل. على جانبه جرح غائر كبير، والجرح الآخر في جبهته. رجل. ترفع يدها ببطء وتلمسه بحنان وبدون خجل. نانسي جيرالدين ألبرتا إليزابيث كمبل، بارونة أرجينتنيل، وعشيقها. أووه، غضب تشارلز وانفجاره، صرخاته: جعلك عاهرة هائجة هذا الداعر بعلاقته الشهوانية بليدي حسناء تُدعى تشاترلي! حينها عندما اعترفت له بعلاقتها برون: قال هذا تعذيب للذات، انحطاط، عودة إلى مستنقع البروليتارية، هكذا عبر عن رأيه بتحفظ. أووه، ليراها الآن، مع شخص تقريبا من أهل البلد، عدو لدود لإمبراطوريتهم...

سأل مانوس شيئا بتبسم. فهمته لكن كيف تجيبه؟

- حبيبي، لا أدري. في النهاية أصبح خارج السيطرة تماما.

- لقد سرقتيني.

أوه، يا حبيبي. هكذا كان رون أيضاً. ليس كما تفكر، سأجيبك. عن آخر ليلة لنا أريد أن أخبرك، هناك في أورشليم، في فراش العشق، الذي أعطته لنا إيمي وفراو آنا كان يروح ويجيء خارج الباب. ثمة حدس (سأخسرك يا رون للأبد) ارخي لجامك، قطعيه. لكن لماذا أطلق جماحي وأرخي لجامي مرة أخرى؟

ـ تعال يا مانوس، لا تقل لا. استلق بجواري. أنا فقط سأمسِّد على صدرك. سأحكي لك قصة، هل ولدت في عام 1910؟ ولا أنا. سأحكي لك عن أم جوليا بروكس. في شبابها كانت لاعبة أكروبات، كانت ترتدي مايوهًا وتلعب دور الخفاش. وعندما تخطت الثلاثين من عمرها أرادت أن تنجب طفلا. اختارت رجلا، كان جارا لها؛ في الليل كانت ترتدي المايوه وتهرول، كانت تطير وتندس في فراشه. تقول إن الرجل لم يعرف قط من هي، ولا حتى تخيل أن الطفل... هل ستمنحني طفلا؟

ـ هل سنتزوج؟

ـ يا حبيبي. لماذا تضع بين جسدين عاريين، تشرشل، ستالين وتسوذيروس أو تشارلز وبيتر؟ أنا أحدثك عن جنين لا يقرأ الصحف، سأحمله وأشعر به يتشكل داخل بطني، ينفخ ثديي، وعروق قدميّ، أن تملأني أنت كلية.

ـ لماذا لم تفعلي هذا مع رونالد فيلبوت؟

قال اسمه على استحياء. هكذا كان العشاق المستأجرون في تاورمينا وكابري يقولون بتأثر اسم زوجها الذي كان يدفع بالدولارات من أجل إمتاع رغبات ونزوات سيدته. إنهم رجال البحر المتوسط بتشبيكاتهم وتعقيداتهم الاجتماعية!

ـ لكن... عندما أتممت الثلاثين، رون... لا! سأقول لك الحقيقة. كان رون يريد بشدة. لكنه كان طيارا. كان يقول لي تمهلي أولاً حتى نخرج أحياء. لم يكن يتقبل فكرة أن رجلا آخر سيربي ابنه.

ـ وزوجك، الطلاق...

ـ آه، لا تفتح هذا الموضوع... لا أريد أن أفكر فيه.

هيا، أعطني يدك. بترو. هل يمكنك أن تحك لي ظهري؟ هناك، لا، أسفل. نعم، هنا. مممم... نعم. الآن كل شيء سيصبح على مايرام.

وهكذا، مستلقية على وجهها، راحت فجأة تهتز من التنهدات.

كان يجب ألا يخرجا من الشقة قبل حلول الظلام. الغروب يأتي في الساعة...؟ لا تدري. ولم تستطع أن تشعل الضوء. سيبقيان جائعين، لا يوجد شيء في هذه الجرسونيرة المهجورة. لايوجد سوى الغبار والصراصير التي تجري غير عابئة على أرفف المطبخ. لحسن الحظ يوجد ماء. كانا يرتديان أحذيتهما، ويذهبان إلى الصنبور ويشربان الماء بكفيهما. عد مانوس سجائره، بقيت اثنتا عشرة سيجارة، سيدخن واحدة كل ساعة. قفل مزلاج الباب من الداخل. عندما سيأتي الليل، ستخرج نانسي وحدها، ستغلق الباب بالمفتاح الذي أعطاها إياه، وهو سيقفز من النافذة الخلفية. كما دخل بالأمس. كانا يقومان بكل هذه الإجراءات الاحترازية عسى أن يكون البيت مراقبا.

ـ لكن أنت، قال لها مجدداً. لابد أن تتركي هذا البنسيون. قولي لهم إنك ستذهبين إلى القاهرة. بل من الأفضل أن تقولي إنك ستغادرين إلى أورشليم. بينما ستقيمين هنا في جرسونيرة جاك. ماري كلود ستقنعه أن يصبر قليلاً. حتى يفقدوا أثرك تماما.

عمن تتحدث؟ بروكس، جوليا، بيتر وتشارلز هل تظن أنهم أغبياء؟ هذه ثاني مرة تسأله، لكنه يلجأ فورا إلى تعبير وجهه المنغلق الذي لا يجيب على شيء. فهمت نانسي. أنه يريد أن يخفيها عن ذويه، ربما هو لا يخشى عليها من الآخرين. هل هذا صحيح؟ لماذا لا يساعدها كي تفهم؟

ـ من الجميع. لابد أن يفقد أثرك الجميع.

ـ لم أكن أتوقع أنك أناني لهذه الدرجة. تريد أن تخفيني، أن أكون لك وحدك، دمية للعشق. وأنا كنت أسعى لمساعدتك...

أشعل سيجارة. كان قد أطفأ سيجارة لتوه، لم يكن مجديا أن يَعُد السجائر ويضع جدولاً زمنياً لتدخينها. راح يفكر. فتح فمه ثم أغلقه نادما. في النهاية سألها.

ـ ماذا كان يطلب هذا الذي كان يتحدث الإسبانية؟

ـ كذلك إذن! انتفض وتعكر مزاجه فجأة عندما قال لها إن هذا الشخص الجديد الذي قد قدمه لها الأول، ذو الوجه المجعد. كأنها شعرت بموجة من الشر وبعداء خفي يصلب جلده تحت أصابعها. هل غار منه؟ هل كان يكرهه؟ الحقيقة هي أنها لم تعد تتذكر ماذا تحلل أم بما شعرت. للحظة كان الخوف والأمل في أن يظهر هذا الثالث: انحنى مانوس وراح ينظر في المنور المظلم. بعد ذلك عم الحزن، عندما غادر الآخر ذو الوجه المجعد وبقيا وحدهما في الشقة. ليس حزناً ولكن شيئا مثل أن الأجواء قد تكهربت من وجود حضور منافس. كان رون قد أعدها، كان دائما يقول لها عن تراكم

الرغبات والأطواق الفولاذية ودوافع الفعل. كان يمدحها كثيراً فتلك الأشياء سوف تنقذ الحضارة؛ لكنه فضّل أن يغيب عندما يحدث هذا، لم يحتمل أسلوبهم. الضيف كان له نظرة غريبة. كان ينظر لها بإصرار ولكنه لم يظهر أي اهتمام شخصي. مع سيدة لامعة بعيدا عن نانسي كان يراهما يتحدثان. وبالطبع قال لها بعض المجاملات بالإسبانية لزوم المقابلة لكن دون أن يعني هذا أبدا.

ـ طلب مني أن أعيد علاقتي مع زوجي.

وبم أجبته؟

ـ قلت له إن هذا مستحيل أن يحدث. ثم طلب مني أن ألعب لعبة مزدوجة مع بيتر.

ـ وأنت؟

ـ يصعب علي أن أتظاهر وأفعل هذا. لقد تلقينا تربية مختلفة في بريطانيا العجوز الغادرة. يحتاج الأمر إلى تدريب خاص. وبالطبع لا أريد شيئا كهذا.

ـ هل تحدثتما عني؟

ـ في النهاية. عندما رفضت كل ماسبق، قال لي إنه يتفهم وطلب مني ألا أغضب. على أى حال صرت تابعة للتنظيم. سيأتي مرة أخرى ليجدني ويعرض على عروضا أخرى. عندها سألته متى سأقابلك. قال إن هذا لم يحن

وقته لكنه طلب أنْ تظل علاقتي شخصية تماماً. وطلب مني ألا أخبرك أنني أعرفه. هذه كانت أول قاعدة تآمرية.

ـ ولماذا لم تقولي لي إذن؟

ـ لأنه لم يحضرك هو إليّ! لقد وجدتك أنا وحدي. ثم إنه في تلك الأثناء جاءت زيارته الثانية. لا تفعلي هكذا! حل الليل، بدا كأنه تائه. كنت أقف في الصالة ولم أدعه يدخل. سأل إذا كنت قد قابلت الآخر ذا الوجه المجعد وعندما أجبته بالنفي، فكر للحظة ثم غادر.

ـ متى حدث هذا؟

ـ في ليلة الزيارة الأولى نفسها.

ـ ولماذا لم تطلبي منه أن يدخل؟

ـ لأنه جاء في وقت غير مناسب. كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. ربما بدوت له عصبية وغريبة الأطوار. فقد أيقظني من كابوس.

ـ ماذا يعني هذا؟

ـ منذ عام وإلى الآن عندما لا آخذ مهدئ الليومينال، كنت أرى حلما غريبا. لكن هذا لم يعد يحدث منذ بدأت في تناول الليومينال.

ـ هل تذكرين الحلم الذي كنت ترينه؟

نعم أنكر. لكن هذا لا يمكن حكيه يا حبيبي، لا تُحكى هذه الأشياء. يمكن فقط أن أحكيه إلى امرأة صديقة وموثوق بها. ماري كلود كانت قد

أعطتني تفسيرا مبدئيا وفظا. لا أظن أنه كان صحيحا. أو على الأقل سيكون هناك تفسير آخر أكثر عمقا وتعقيدا.

كنت أرى أنني أرتدي جونلة زرقاء وجاكيت أبيض وقبعة بحرية بيضاء. ليلاً ولكن حظر التجوال لم يكن صارما. يتم إشعال أعمدة الإنارة هنا وهناك بين الحين والآخر بضوء ذهبي حالم. أسمع خطوات على الرصيف، أسير بسرعة، كأن ثمة من ينتظروني. نزلت من البنسيون، أخذت طريق الكورنيش في اتجاه الميناء الشرقي. وعند محاذاة شارع شامبليون توقفت والتفتت يسارا. هل الوقت متأخر جدا كي لا أرى أي أحد في الشارع؟ اختفت العربات وسيارات التاكسي والترام. فضاء تام غريب وليس له تفسير. هناك عمود إنارة آخر مضيء. هل انتهت الحرب؟ إذن لماذا أرتدي هذا الزي؟ في تجويف إحدى البوابات، أراه هناك؛ ينتظرني. رجل طويل يرتدي جلبابا يمتص كل ضوء الشارع. أتظاهر بأنني لم أره. لكن عندما أعبر من أمامه لا أحتمل فأنظر إليه. قام بفعل فاضح، الطريقة الشهيرة المقرفة، أظهر عضوه. الآن أعبر الترام وعند محطة المزاريطة أسلك الطريق. يمينا، الطريق الترابي الوعر أمام المستشفى العام، مفروشة بنباتات الصبار القصيرة الغضة. خلفي تأتي الجلابية دون أي صوت مثل شبح. ماذا يريد مني؟ آه؛ نعم، الآن تذكرت إلى أين أنا ذاهبة. إلى المربع اليوناني، إلى ماري كلود. اتصلت وطلبت مني أن أجيء إليها لتريني بعض التصميمات. لكن في الميدان الذي به العمود الأحمر الجرانيتي الكبير توقفت؛ بدلاً من أن أنحرف يسارًا. لماذا؟ لا أعرف لماذا، ليس هناك لماذا. ربما هو قدري. الشارع كان مظلما. على اليمين:

أسوار المستشفى الإسرائيلي؛ على اليسار: أشجار قارية غليظة. الحديقة العامة؛ في النهار على الأرائك يجلس الخارجون عن القانون، الأولاد يلعبون على النجيل وفي الخنادق الرملية التي صارت في أيام الشغب وظلت هكذا. خلفي الجلباب يتبعني دون أن يغير خطوته. في شارع سينادينو انحرف فجأة نحو اليمن، سأذهب سريعا إلى ماري كلود. لكن عندما أصل إلى شارع السلطان حسين أجد عمود إنارة آخر مضاء؛ كما لو تم إضاءته عن قصد من أجلي، كما لو كان ينتظرني. أتجه يسارا، الآن أسير بمحاذاة نجيل الحديقة العامة. غريب جدا أنني لا أقابل ولا أرى أيّ أحد. الجلباب يسير خلفي بثبات، كما لو أنني أجره خلفي، سأتركه وأغير الشارع. بعد قليل ستنتهي الحديقة، سنصل إلى شارع أبو قير وإلى شارع بلجيكا، عند آخر عمود إنارة. في آخر الحديقة أطلال كبيرة، جدران حمراء، تعريشة وأزهار بوغامفيليا. قبل أن أصل إلى عمود الإنارة كي أتجه يساره ثانيةً، أنزل من على النجيل سريعا، كأن الماء يجرفني، بركة صغيرة بها بجع في الأسفل. سأعبر الجسر المعلق، سأنزل سريعا واذهب إلى الضفة الأخرى: الجلباب سيسقط في الماء. لكن قبل أن أدوس بقدمي على الجسر أشعر بيد ناعمة على كتفي. عندها أبتعد في صمت، أذهب لأقرب شجرة، كانت شجرة صفصاف. أنحني وبكفي أبحث في النجيل عن حجر أو شيء قاطع، لا، كل الأشياء هنا لينة. استلقيت أنتظر. فجأة تذكرت حكاية جويندولين. هل هذا هو ما يحدث؟ صدري يمتلئ بالرعب. نزل الآخر على ركبتيه، لم يلمسني بعد. ربما لا يكون هو. لكنني أصرخ. أطلب النجدة. بلا جدوى، تجمدت أوتار عنقي، لا يخرج أي صوت مني. في يأس أحرك رأسي كي أتجنب فمه. من كل ناحية الأشجار

الغليظة تقف ناعسة. السماء فوق الضفة الأخرى امتلأت بالنجوم، رائحة النجيل أشبه بإبط متعرق، الماء له رائحة مستنقع. الرجل الآن يوجد في الداخل، ربما لا يكون هو. أبحث بكفي خارج الجلابية، في صدره في جيوبه. إنه هو، يا ويلاه. هناك شيء صلب، مطواه أو آلة قاطعة. إنه من هؤلاء، إنه منهم، سآخذ السلاح منه. لكن لماذا لا أضع يدي في جيبه، لماذا تقوقعت ووضعت يديَّ حول عنقه الغليظ؟ أو، كيف تتحرك الأشجار هكذا؟ أو: ما هذه الأشعة الدانتيلية التي تنبت على المنحدرات؟ يا إلهي، عاصفة كهذه مكتومة ولا تنفجر! دعها تأتي، ليكن منهم، ليأتي فقط، ليقطعوا رقبتي، ليأخذوا مني كل شئ، مباركة هي الحياة ومبارك الموت، كل شئ يأتي في وقته، هذا فقط، لماذا يتأخر؟ وماذا لو قتلني قبل أن...؟ سيكون هذا مريعا، سيكون أكبر حرمان، ستكون أكبر خدعة لا إنسانية. بسرعة، أكمل مابدأته. لماذا ترك كتفي؟ لماذا يضع يده في جيبه؟ أوه، سيكون أمرا مرعبا، آه يا إلهي، ليس هكذا مباشرة، بعد قليل، بعد قليل، بعد لحظة صغيرة. أو: الرعد، الأمواج والشلالات. أوه: البرق، نصل الخلاص. الآن إذن؟ هل يحدث هذا الآن؟ نعم، الآن... لحسن الحظ.

علقت نانسي على تفسير ماري كلود في صمت: ذلك الزائر بطلباته المشينة لابد أنه ذكرها بكلمات بيتر الذي بقى منسيا في اللاوعي لديها. كل موضوع اليونان قال لها إنه مغناطيس من الألغام، والأمر يحتاج إلى دروع كثيرة كي يتعامل المرء معه. وهي حينذاك قررت أن تذهب عارية من أي دروع. الزائر الغامض وصاحب الجلباب في الكابوس يرمزان إلى الخطر.

الحلم كان يذكرها بأنها لم تلتزم بالوعد الذي قطعته على نفسها. في كل ما يخص الزائر كانت قد أجابت بالنفي، بسبب ودون سبب أو باختلاق أعذار. هذا ما كان يطلبه منها عقلها الباطن. إذن فلماذا تركت الزائر يغادر في المرة الثانية؟ ماذا كان سيكلفها إذا كانت قد قالت له: انتظر لحظة، تفضل للداخل حتى نتحدث عمًّا كنا نقول. هل كانت ماري كلود على حق؟

أغلقت نانسي مزلاج الباب. خرجت ووضعت المفتاح خارج الباب وأوصدته جيداً. كان الكورنيش هادئاً على اليمين وعلى اليسار. من خلفها كان البحر يبعث برذاذ ورائحة مرة ومنبهة من أعشابه المالحة. تنهيدة عميقة عبأت صدرها. عانت وهي تغلق الباب كي تشم رائحة مانوس الذي كان يقف صامتا في عمق الأنتريه المظلم. شعرت مرة أخرى بذلك الشعور اللاذع الذي لا تستطيع أن تصفه، رائحة كريهة أم عطر: توليفة من رائحة العرق والخنفساء وأوراق الغار؛ هذا الذي سيستدعي لديها حتى آخر أنفاسها في هذه الحياة إحياء العشق لديها.

كان عليها أن تخطو عشرين خطوة حتى الكورنيش؛ كان هذا به مخاطرة. انحرفت يمينا، بعد ذلك، اندست في سوق كليوباترا المزدحم بأضواء البقالين والمقاهي الزائفة. عند بائعي التبغ كانت أجهزة الراديو تبث الموسيقى الكلاسيكية. في الميدان الصغير الذي كان به موقف لسيارات التاكسي توقفت من ناحية طريق أمفروسيو راللي؛ وهناك راحت تنتظره لكي تعطيه المفتاح؛ وربما لترافقه قليلاً. كانت تود الليلة أن ترى خطواتهما مرسومة في ليل الإسكندرية. لم تكن تخاف من الظلام، لم تعد تخاف من

المجهول ولا من النوم ولا من الموت. تشعر أن دماءها دافئة، جسدها مستقيم، بشرتها حساسة وذهنها صاف. وداعاً للضباب والقلق: جاءت عاصفة واكتسحت كل هذا.

الجرة البرونزية تبرق نظيفة وهي موضوعة بميل على حامل ثلاثي القوائم أمام المطعم الشعبي: كانت تنبعث منها رائحة الفول الشهية. بجوارها على شوال مبلل وضع الفجل الأبيض بأوراقه الكبيرة. في حوارات العرب يُسمع نبرة مداعبات رقيقة وضحكات منغمة. شفافية في المشاعر والأفكار... هل هذا شعور كابوسي؟ شخص في الظلام لمس كوعها بحميمية. كان مانوس. أوه، يا للسعادة، لقد تقابلا مجددا!

- ما رأيك أن نتمشى قليلاً؟

- ليكن.

مرر ذراعه حول وسطها... خذيني أيتها السفينة، ارفعيني عاليا... تركت نفسها في حزام رجولته وبدأت حياة جديدة؛ كان يمكنها أن تذهب إلى آخر الكرة الأرضية. تناغمت خطواتهما، مالت برأسها وألقتها على كتفه. إنهما يسيران الآن بخفة وبلا رعب نهمين ومتشبعين في الوقت نفسه. أعطته المفتاح لأنها أرادت أن تحرر كفها. لكنه رفع شيئاً في يده اليمنى. أظهره لها في الظلام. كانت اللوحة النحاسية.

- قال لها، هذه للذكرى.

ـ كم أنت طيب، شكرا لك يا حبيبي. لابد أن أعطيك أنا أيضاً بورتريه مدام ساباتيه.

ـ لا تتعجلي، فهو في أيد أمينة.

لماذا قال هذا؟ ماذا يتوقع؟ هل ستحتفظ له باللوحة؟ شكراً. لكن لابد أن تعطيه إياه ذات يوم، كانت هذه آخر رغبات روبي. وفجأة سرت قشعريرة. يا ربي! أي أفكار تحوم في ذهنها؟ لا، لا تريد أن تفكر فيها مجدداً.

ـ كيف لا أتعجل يا حبيبي؟

ـ بين يديك اللوحة آمنة. أنا ليس لدي حتى حقيبة. البورتريه واللوحة النحاسية: خمير بيتنا. هل تشعرين بالبرد؟

لا يا حبيبي، لن أقول لك. أنا مجنونة. يا لها من فكرة مرعبة، من أين قفزت إلى عقلي؟ تشارلز! الشرير، الحقود اللعين! عندما أعطيته تليغراف الكولونيل كمبل ليقرأه ـ والذي كان به خبر موت رون: قال، حبيبتي، لابد أن تعترفي أنك تجلبين النحس إلى عشاقك؛ الأول مات في إسبانيا والثاني مات في ليبيا. كان يتكلم وهو يصفر من بين أسنانه دون أن يرتسم أي تعبير على وجهه. والثالث، الثالث؟ لا، لا، ليس هذا!

انقطع عنها نسيم الرقة والحنان، عقلها ذهب في اتجاه آخر. أرادت نانسي أن تتحدث عن روبي في أراضي فلسطين أو عن تلك الشرفة في الميناء الشرقي، حيث رأت مانو بنظارات بروكس المكبرة. من كان معه، كيف وُجِد

في ذلك المكان؟ لكن مانوس راح يجذبها للأمام، كانت هناك سيارة تاكسي متوقفة بعد قليل من هنا. قال لها الإرشادات سريعا: أن تجمع أغراضها، أن تتصل بماري كلود، الليلة لو كان هذا ممكنا أو باكرا في صباح الغد على أقصى تقدير، ستأتي ماري كلود بسيارتها. من الأفضل في الليل حتى يتجنبوا المراقبة. ليذهبوا أولاً نحو محطة السكك الحديدية. ثم يقومون بنزهة كبيرة وبعدها بسرعة يذهبون إلى جرسونيرة جاك. لتقل لمسز بروكس إنها ستذهب إلى أورشليم. غداً في المساء سيتصل بها. تصبحين على خير، أعشقك. كانت قبلته ساخنة، لكن قصيرة.

بعد قليل توقف التاكسي وأنزلها أمام البناية الصفراء. لم يكن لدى السائق فائض القيمة المستحقة ولم يظهر البواب ليحل الأمر في النهاية أهدت له باقي ورقة العملة. الشعور الذي كان لديها كان إعجابها باللوحة النحاسية في تلك الغرفة الكئيبة، يستحق هذا القليل من التبذير. في الفناء الذي يتسلل إليه شريط من الضوء قادما من الصالة رأت دائرة من خمسة أو ستة كلاب. كما لو أنهما في اجتماع صامت. كلاب ضالة بلا أي طوق وغير نظيفة. كلب بني اللون و نحيل، آخر أصغر حليق الفرو، وعينه فارغة محشور فيها قطعة من القماش، كلب آخر أبيض لابد أنه نتاج تزاوج مع جنس الكلاب اللولو، رفع قائمته المربوطة بالخرق، وكلب آخر كبير الحجم أصفر اللون تحول لونه إلى الرمادي من فرط القذارة. هذا من تبعها في الصالة، الكلاب الأخرى لم تتحرك. قالت له، إلى أين يا صديقي، لابد أنك جائع، لم يهتم الكلب بكلامها وحاول أن يدخل إلى المصعد معها. قالت له، لا،

هذا مستحيل يا صديقي، هل تريد أن يشتكي منا السكان؟ ثم دفعت قائمته للخارج. جلس على مؤخرته ينظر إليها من خلال زجاج المصعد. ثم راح يتبعها في المصعد الذي راح يرتفع، كما لو أنه أراد أن يقول لها شيئا. لا عليك، سأطلب لك بعض بواقي الطعام، أعدك بهذا.

عندما وصلت إلى الطابق الثامن تركت خلفها باب المصعد مفتوحا ثم رنت الجرس على عائلة بروكس. فتحت لها العجوز.

ـ أخيرا! تعالي يا آنستي، هاي! صاحت العجوز بالفرنسية وهي تفتح الباب دون أن تفتحه كثيرا.

على الفور ظهرت ماري كلود.

ـ حمدا للرب، قالت مرتين وهي ترفع يدها لأعلى كي تحتضنها. أين كنت؟ من الأمس ونحن نبحث عنك.

أشارت لها نانسي على اللوحة النحاسية لكن الأخرى ارتسمت على وجهها الدهشة وظل فمها مفتوحا.

ـ أنا لا أفهم شيئا، همست. هيا من هنا. أين مفتاحك؟

ـ ما الذي يحدث يا ماري كلود؟

مرَّتا من أمام المصعد فأغلقت نانسي الباب ليذهب إلى أسفل. فتحت صديقتها الشقة.

ـ سألت وهي تدور في الشقة وتشعل كل المصابيح، هل ستتسع حقائبك لكل شيء؟

ـ نعم، لكن لماذا أنت هكذا؟ أنا أيضا جئت إلى هنا كي أجمع أغراضي.

ـ هل عرفت شيئا؟ أين كنتِ؟

ـ هل تسألينني؟ ألم تفهمي؟ مارستُ الحب، ثم أظهرت لها اللوحة النحاسية.

ـ خذي هذه من أمام عيني، صاحت ماري كلود بهيستيرية. مارستِ الحب لسبع وأربعين ساعة؟ من مساء الأمس نبحث عنك.

ـ ألم تنصحيني أنت أن أذهب إلى غرفته؟ لا، شكرا، لا أستطيع أن أشرب قبل أن آكل شيئا. أنا جائعة. هل لدى جوليا أي توست؟

ـ انتظري، صاحت الأخرى ثم دقت كأس الويسكي على المنضدة. اجمعي ملابسك بسرعة: لقد اختفت جوليا.

ـ هل اختفت؟

ـ ليس بالضبط. لقد هجرت زوجها، لم تأخذ معها أي شيء. فقط قطعتا مايوه الخفاش غابتا من صندوق العجوز.

ـ لكن أين تختبئ المجنونة، هل تظن أنها هكذا نجت من بروكس؟

ـ قالت جوليا إنه لو وجدها سوف يقتلها.

ـ كيف قالت، هل قابلتها؟

ـ لا، لكنها حدثتني عبر الهاتف. إنها تختبئ. كانت قلقة بشأنك. تقول لك أن تغادري هذا المكان فورا. تفهمين قلقنا. سبع وعشرون ساعة بالضبط. التهمنا الشوارع بحثا عنك أنا وجاك.

ـ لكن لماذا؟ ماذا حدث؟

ـ لقد حدثت أمور بشعة. لكن لا أستطيع أن أحكيها لك هنا. هيا بنا.

كانت ثمة جلبة في الخارج. سُمعت أصوات صراخ. خرجت نانسي على قمة الدرج. كان رجل عربي يتدحرج على البلاط وهو يحتضن بقوة الكلب المشعر، صديقها الذي أراد أن يصعد معها. كان الكلب والرجل يتقاتلان ببأس شديد. المصعد كان في الأعلى والباب مفتوحا. العربي الذي كان مستلقياً على ظهره كان بروكس! بدت ركبته من الجلباب المقطوع، مجعدة ومحمرة وعلى ساقه دماء، حول ساقه كانت تتدلى أشلاء من الجوارب القديمة. عند الأبواب الأخرى خرج بعض المستأجرين يتابعون المشهد في صمت. رجل أحضر عصا وراح يرفعها منتظرا الفرصة كي يضرب الكلب. أم جوليا انكمشت في أحد الأركان وغطت فمها بكفها. فجأة نهض بروكس وهو يحمل الكلب بين أحضانه. بدا كما لو كان يعرج، وجهه يعلوه غضب ضار. لا، لا تفعلها! صاح الرجل الذي كان يمسك بالعصا. لكن بروكس كان قد أَلقى الكلب في بئر المصعد. سمع صوت صراخ زادت قوته بينما كان الصوت يبتعد، ثم صوت ارتطام مكتوم على رخام الصالة. ثم علت أصوات نباح سيئة.

أخذت نانسي بين أحضانها ماري كلود التي أحنت ركبتيها وقد شحب لونها.

الرجل الذي كان يمسك بالعصا ساعد كي يحملوا ماري كلود إلى داخل الشقة ثم هرع ليأتي بزجاجة النشادر. بعد ذلك حمل حقائب نانسي ووضعها في المصعد. في تلك الأثناء كان يحكي لأم جوليا أن البواب الذي ظهر أخيرا حمل أشلاء الكلب الميت كي يفحصوه في مستشفى الكلب. العجوز لم تقل شيئا، اتخذت تعبير العديد المتشائم المعتادة لديها. عندما شرحت لها نانسي أنها سوف تذهب إلى أورشليم قالت: هذا أفضل. في رعاية الرب. وعندما وضعت لها في كفها خمسة جنيهات، أخذتها دون أن تشكرها ووضعتها في صدرها. أسفل البناية كانت سيارة ماري كلود تنتظر خلف البناية ذات الطوب الأحمر، وجدا جاك يشخر نائماً. تحمس كثيراً عندما رأى نانسي، طبع قبلة على خدها، رتب الحقائب في السيارة وجلس إلى عجلة القيادة. ولكي يبرر نومه قال: عندما أعاني من القلق أو الخوف. لا أعرف دواء أفضل وأكثر فاعلية غير أن أغوص في النوم. آخرون يشربون أو يأكلون أو يمارسون الجنس. أنا أنام. لقد خفنا عليك يا عزيزتي.

سلكوا الطريق كما قال مانوس دون أن يتكلموا. ماري كلود كانت تمسك بين الحين والآخر يد نانسي كي تريها كيف أن يدها باردة جدا. لكن في الجرسونيرة في شارع فؤاد، السجاد الفارسي والأضواء الهادئة والأريكة الوثيرة والمقاعد العميقة هدأت من أعصابهم المشدودة. فتح جاك إحدى قطع الأثاث الصينية ذات الأبواب الملصوق عليها الأحجار وأخرج

زجاجة ويسكي للحالات الاستثنائية. سمع المرأتين تقولان له بهدوء إن نانسي يجب أن تمكث في الجرسونيرة لأيام عديدة.

ـ بالضبط يا حبيبتي، كنت أنوي أن أقترح الشيء نفسه.

ـ سأل جاك نانسي وهو يلمح، وكيف قضيت الأربعة والعشرين ساعة الماضية؟

ـ روعة، قالت ماري كلود. لحسن الحظ لم تعرف شيئاً عما حدث وإلا كانت ستفسد عليها سعادتها. أين صحيفة « بورصة الإسكندرية » يا جاك، هل تريد أن تقرأها لنانسي؟ لم يكن لديّ الوقت كي أقول لها شيئًا.

ـ كم تعجبني قوة احتمالك! قال جاك وهو يرتدي نظاراته ويخرج من محفظته مقصوصة من صحيفة. قرأ: « في السنوات الأخيرة في الإسكندرية كان السكندريون يرون شخصا غريبا يتجول بحرية في شوارع المدينة الجميلة، شيء يشبه مزيجا ما بين متشردي نهر السين وبين شخصية خارجة من بين صفحات رواية لأناتول فرانس...» اسمحا لي أن أقاطع. الأبله، يبدو أنه لا يتذكر العنوان، لهذا يقول « رواية معروفة ». لكن على أي حال، وأنا أيضا لا أذكرها.

ـ CRAINQUEBILLE، قالت ماري كلود.

ـ بالضبط! أليست مسرحية رائعة ياصديقتي؟ أكمل:

« شيء يشبه مزيجا من متشردي نهر السين وراهبا ناسكا، كما يصفه الروائيون الأفذاذ في «روسيا المقدسة». سامحوني. فكلمة « الأفذاذ » بها

إشارة إزاء معاداة السوفييتية، فأنا أعرف الكاتب، كونتا سابقًا، يعمل ناظر محطة في محطة ترام فلمنج. لكن، بما أنني قمت بالمقاطعة، دعوني أضيف أنه عندما يكتب في «السنوات الأخيرة»، عن شخص يوجد طيلة الوقت في الإسكندرية على الأقل منذ عام ١٩٣٢ فهو يكذب. ويكذب عن عمد.

- لا تكن ظالما يا جاك، قاطعته صديقته. يمكن أن يقول أن يقصد بـ «السنوات الأخيرة» أنه يتجول بحرية.

- ممكن، لكن لا شيء يمنعني أن أفترض أن كولونيل القيصر الروسي السابق يتعمد الـ «الخطأ المقصود» على حد تعبير صحفي آخر. مستاءة أنت يا عزيزتي نانسي، تودين لو تخطفين القصاصة من يدي وتقرئينها دفعة واحدة. أعتذر. سأحاول أن أتجنب التعليق. أكمل: « لكن أكثر ما يميز الشخص الغريب هذا كانت لحيته النبوية، عَفَنَه الذي لا يوصف، رائحته التي لا تطاق وحشد الكلاب الضالة التي تتبعه ليل نهار في تجواله. الأكثر إبهارا أنه كان ذا ثقافة عالية ويتحدث العديد من اللغات، مما جعل السلطات المختصة تضعه في حسبانها. زبائن محلات التبغ الشهيرة PARLA في شارع فؤاد لابد أنهم يتذكرونه يجلس في الغروب على عتبة أحد القصور المجاورة لعائلة ميلاراكيس، (حيث كان مكان وزارة النقل البحرية اليونانية)، ممسكا بعصا المهاجر بين ساقيه وتحت قدميه اثنان أوثلاثة من كلابه، يلف سيجارة بورع ويطلب شعلة من أول أوروبي يتصادف أن يمر من أمامه، مستعدا على الدوام أن يبدأ حديثا دون أي سبب، في أمور فلسفية عويصة، وعندها يبدأ المار المندهش يتساءل إذا لم يكن هذا الذي أمامه

أحد أحفاد دراكولا أو أنه فيلسوف من الإسكندرية اليونانية الرومانية، أمونيوس السقاص على سبيل المثال أو فيلونوس. لكن يكفي أن يكون هذا المار على دراية بعض الشيء بالفلسفة، ومدركا للمذاهب والمعتقدات المتنوعة التي نشأت ونمت هنا لكي يتعرف على شخص هذا الكائن الغريب الفقير المتأخر، المؤمن بزراديشت وبيرو، أبو الشك...« غبي، غبي! اعذروني، نانسي، كان هذا فوق احتمالي». أكمل: ... الشك، وهو أمر ليس له أي علاقة بما قد تم اكتشافه. في الليل كان يمكن لأي أحد أيضا أن يقابله في ميدان كاردوشي ذي الخمسة أعمدة، تقليد سيئ لقصر دي فيستينبرج، حيث كان مكان أتيليه إيفغينيو دي لاكورا بنوا جراجا قميئا». الغبي، إنه لا يعرف شيئا عن الكتابة! الجراج بُنى في الإسكندرية وليس في باريس. معذرة مرة أخرى» أكمل: هناك كان يتسكع في المساء مع سائقي السيارات الفارهة في الميدان، ودائماً كان يتبعهم حتى البوابة المظلمة للمبنى المجاور، من يدري عن أي متع محرمة كانوا يبحثون، كما ستقول الغالبية العظمى لسكان هذه المدينة. كيف كان يكسب قوت يومه هذا الكائن، فكما هو معروف كان قلما يتسول بعض المبالغ الزهيدة، قرش أو اثنين، وكان من العبقرية أن يعيد الباقي إذا ما أعطاه أحد عملة فضية، وبينما كانت لوحاته الجميلة بشهادة الكثيرين التي يرسمها بالفحم قلما أيضا يجد من يشتريها؟ ها هو أمر آخر كان يشغل السلطات المختصة. لكن لا نحتاج أن نسهب فيه. حكومة الحلفاء اكتشفت أن وراء هذا الكائن الغريب الشاذ أخطر عملاء هتلر الذين وجدوا على الأراضي المصرية. كان هو القائد والمرشد لخلية من المجرمين حاولوا مؤخرا أن يهجموا لأغراض بشعة ـ لكن لحسن الحظ دون أي

نتيجة ـ على بعض أعضاء ممثلي قوى الحلفاء، كانوا يتسكعون بحرية في الأحياء النائية. أثبتت التحقيقات أن قائد الخلية، المعروف باسم ريكي لدى السكندريين، يخطط لأعمال حرق وتخريب. هذا يحدث دائما عندما يجرد المسؤولون مدينتنا من قوات الأمن الخبيرة، والتي تتمتع بالكفاءة من أجل أسباب شخصية أو بسبب نزواتهم. للأسف بالنسبة لرؤساء ريتشارد فون فيستفولين، كل هذا صار ينتمي للتاريخ. عندما اكتشفت المراقبة أخيرا أن عميل هتلر يحاول أن يهرب في بناية معروفة في السلسلة على الكورنيش. و ـ كعينة لتعصب هؤلاء الوحوش ـ عندما تأكد من أن القبض عليه صار أمراً محتوماً، فضل الانتحار قافزاً من على سطح تلك البناية. التحقيقات مستمرة من أجل كشف شركائه!

ـ شهقت نانسي قائلة. كل هذا غير معقول. إن ريكي كان يأتي إلى البنسيون « بروتياس» باستمرار. فقد كان من المواظبين على لعب البريدج مع مستر بروكس.

ـ ألقوه من النافذة، علق جاك.

ـ عزيزتي نانسي، شرحت ماري كلود. كل هذا عرفناه من جوليا. لقد حبس بروكس ريكي في إحد شقق البنسيون وبمساعدة البدو عذبوه لكي يوقّع على شيء. نفترض أنه كان اعترافا بما كتبه كاتب صحيفة « البورصة ». جوليا لم تستطع أن تفهم ما يقول. سمعته يزوم من الألم ويصرخ « بريء... أنا بريء... لا أعرف شيئا». في النهاية ألقوا به من النافذة. الأسوأ

كان: يبدو أن المسكين كان مازال في وعيه عندما قذفوه وتشبث باللافتة وراح يصيح طلبا للمساعدة. هاجت البناية بالكامل. في الأسفل على الكورنيش رغم أن الوقت كان متأخرا في الليل تجمع أصحاب الفضول. لكن اللافتة تمزقت بسرعة محدثة صريرا. قطعة صفيح اللافتة بالحروف VIL تحطمت وسقطت، وسقط معها ريكي المسكين.

ـ تعرفون بالطبع أن مستر بروكس و العريف باركر الذي نظم أحداث الشغب والنهب في 1921، هما الشخص نفسه، أضاف جاك. جوليا تعرف أشياء أخرى، تعرف الكثير. لذلك هي خائفة وسوف يحاول التخلص منها. لم تقل لنا أين تختبئ.

ـ هذا مستحيل تماما، قالت نانسي. إن بروكس شخص منته، ميئوس منه، يتضح هذا تماما من تصرفه مع الكلب. الآن أفهم لماذا بقيت أم جوليا. سوف تقتله لو تجرأ وفعل شيئا.

ـ أي كلب؟ سأل جاك.

ـ آه، لم نقل له. كان أمرا شنيعا، ثم راحت تحكي له ماري كلود.

ـ لكن هل كان ريكى بالفعل ألمانيا؟ قاطعت نانسي متسائلة.

ـ راح جاك يفكر، ويزن الكلمات التي سيقولها، وهو يمسد ذقنه بحجرة خاتمه السوداء.

ـ نعم، يقال بالفعل إن ريتشارد فون فيستفولين، كانوا يعرفونه جيدا في القنصلية الألمانية. في عام 1933، عندما تم عمل استفتاء هنا أيضا من

أجل هتلر، ذهب وقطع أمامهم جواز سفره وحرقه. حينها أراد الألمان أن يتخلصوا منه، لكن من الذي حماه تعتقدون؟ بروكس. ريكي كان لديه اهتمامات بالنحت، وكان رساما جيدا. كنت أنا واحدا من الذين كانوا يشترون بعض لوحاته من آن لآخر، كان يبيعها رخيصة جدا. نعم، كان مثلي. أحد الطيور المنشقة للجيل الضائع من الحرب العالمية الأولى. جاء إلى مصر مع أحد أصدقائه يدعى كورت ستيتلين، الذي فضل أن يعيش في القاهرة.

انتفضت نانسي، كورت ستيتلين. أعرفه، أعني كان يعرفه صديقي، روبرت ريتشاردز. قتل؛ أريد أن أقول كورت قد قتل. سحلوه حيا بنو جلدته الألمان في أحد سجون الألمان في المعسكرات البريطانية في كينيا. لكن روبي الشيء نفسه، مات ميتة بشعة. أي مصير يطارد كل هؤلاء غريبي الأطوار، غير المنسجمين...؟

- بدأ جاك يقول، نحن في قرن التعنت الأيديولوجي...

- قاطعته ماري كلود قائلة، كل الأيديولوجيات كانت ولاتزال دائما متعننة.

XII

باراسخوس، يا باراسخوس! كان أنطوان محقا ليصفك بالأحمق، من أين أمسك بك يا حبيبي، من هنا يا حبيبي: عامل الدهان الذي أضاع يوما كاملاً لكي يقرر من أين يبدأ طلاء الغرفة ولم يفعل.

الآن صرت تعرف، أنت شخص حالم، متردد. في المكتب يعتبرونك شخصا نشيطا، لديك إرادة وقدرة على اتخاذ القرار. لكن هناك كل شيء محدد ومصمم من قبل؛ حريق، حتى لو كان حادث غرق، حدث مثله في الماضي من قبل، الخبرة تقول إنه لابد أن ترسل تليغرافاً إلى شركات التأمين وأصحاب السفن وإلى المشترين، وكذلك نسخة في رسالة مسجلة إلى البنك وإلى الوسيط في ليفربول. أفق واسع ومحدد للكسب؛ ما هو الجيد وما هو السيئ، القبيح والجميل، أنت لا تسأل، القرار ليس لك؛ تفعل فقط ما يلائم الرؤساء ـ وأنت! حتى عندما تكون حياتك الغريبة المرتبكة المتطلبة تفتح لك فجأة أبواب عوالم جديدة أو أبواب القدر، تشعل غليونك وتجلس كي تتأمل.

أنت تحيل الأمر إذن إلى فلك آخر، خارج نطاق الفعل، وهناك تستطيع أن تحرق وتذبح، تحل وتربط، مجانا، دون أي إصابات.

قضيت ليالي تحَبّر تلك الأوراق بروحك متجهة نحو الماضي، تستدعي صرير الطرمبة، سعال الجد، صوت البحر، السماء المليئة بالبوم، إغواء لمس نهد بنت، أصابع (بات) فوق ملابسك، (بات) نفسها المراوغة المهووسة بحب آخر، (بات) التي يلازم ضحكها وصوت خطوات هرولتها الشوارع الترابية وبساتين عالم قد بهت ولم يعد له طعم. تكتب وتكتب بإيمان أن تنهُّد هذا العالم على الأوراق سيعيد السنوات التي ضيعها ارتباكك وتحفظك، وتقول، إنك إذا ما خدعت نفسك بأنك ستعيد بذاكرتك تلك الجنة الخضراء ستملأ الحياة وستفوز بالخفاش المغدور بها. ستحظى بحبك الوحيد.

لكن (بات)، بلحمها وشحمها محبوسة الآن في بيتك: أنا لك للأبد، لو مازلت تريدني! وأنت تحوم في الغرف متسائلاً: هل هي في كامل قواها العقلية، أين ستبقى؟ هذا لا يناسب نظام حياتي... لماذا؟ ليس لديك لا أولاد ولا كلاب، ولا أقارب يفتشون في حياتك، ولا رؤساء يحشرون أنوفهم في حياتك الخاصة.

تتوقف عن الكتابة، تنهض وتذهب إلى غرفة النوم. تشعل الضوء. مستلقية على بطنها وفاتحة ذراعيها، مثل ناج من الغرق مجهد فوق عارضة خشبية في البحر، على المركب التي تذهب بك كل ليلة إلى أحضانها، تنام جوليا. مستلقية بميل، ترى كعبي قدميها ملتصقين: المايوه الأسود فوق الملاءات: تشبه تلك الخفافيش التي يصلبها المتشائمون على أبواب الإسطبلات. لكن الفرق أن تلك الخفافيش يدقونها بعد أن يلقوها على ظهرها. تقترب، تنحني فوقها. آثار طلقات الخرطوش التي أطلقتها الخالة المرحومة واخترقتها:

تظهر هنا وهناك آثاره تحت لحمها؛ تظهر وكأنها مجموعة نجوم مجهولة فوق نصف كرتين متكاملتين. لم تحضر معها ملابس للنوم، بيجامات أو ما شابه؛ كانت ترتدي المايوه، درع العشق بالنسبة لها كما تقول. كانت اللحظة الأولى التي شعرت بها أن شيئا عميقا ومقدسا يهز كيانك. بعدها جاءت لمساتها، فجأة، تذكرت كيف أن هناك عشرين عاما تفصلك عن ذلك الصيف واليوم. تلك الأيدي الخبيرة، الأيدي الحكيمة، غير توني، كم من العشاق لمست؟ تفكر في الأمر وتتجمد أوصالك. ماذا بك، ألا تسعد بأنها جاءتك، ألا تحبك؟ أنت فقط تتحجج بمشاكل العمل ووساوس العزوبية التي اكتسبتها على مر السنين. هي تتظاهر بأنها تصدقك، وتبدأ في تقبيلك بحيوية كبيرة. تتابعك بطرف عينها، متى ستترك نفسك للموجة كي تجرفك. للنشوة التي تسير وتتدفق في كل شبر من جسدك العاري؛ متى ستستسلم لها. لتجعلك ماذا؟

في الليلة الأولى توقفت أمام الصورة في الإطار الفضي وأخذتها بين يديها.

ـ أين وجدتها؟

ـ تكبير بالطابعة. كانت لتوني وقد سرقتها منه.

ـ وطيلة هذه السنين تضعني على الكومودينو وكل هذه الأصداف حولي؟

ـ خمسة عشر، ربما عشرون عاما.

شحبت وراحت أصابعها الطويلة ذات الأظافر المطلية تزيح شعرها الشديد السواد للخلف. عضت شفتها.

- لقد ضيعت عمري. كان يجب أن أحبك أنت.

احتضنتها. الحمل ثقيل، رموشها الثقيلة المطلية، مدى المعرفة... تفتح عينيها قليلاً: كانت نظرتها قاسية ومرهقة...

ترتب بيتك، تطبخ. طلبت أن تحضر لها الورد فملأت كل الغرف بعباد الشمس والأقحوان. ترقع جواربك، تختار ركناً لها بجوار المصباح. تنظف الغلايين، ترتب الكتب. حل الدفء على بيت الوحدة، لا يناسب هذا نظام حياتك! كم من الوقت ستبقى هنا؟ متى سترحل؟ ليس فقط أنها نضجت وصارت لا تشبه بات القديمة، لكن قبلاتها محملة برعشات عشاق آخرين. إنها أيضا سنوات الخطر والحياة الشاذة التي عاشتها. تجلس على مقعد صغير، وضعت ركبتيها بين ذراعيها وأسندت رأسها على ركبتك وراحت تقول وتقول. كنت تظن كما لو أنها تسدد أو تقفل كل حساباتها القديمة، كما لو كانت تريد أن تخبرك بكل ماضيها، وألاّ تترك شيئا خفيا عنك، كما لو أنكما ستذهبان غداً إلى الكنيسة لتربطا حياتيكما للأبد. يقشعر بدنك وأنت تسمع. كل ما تحكيه يمكن أن تخمنه أو تتخيله. لكنه لا يعنيك، أنت مازلت ملتصقا في الخفاش، فوق كومة الأوراق الجافة في حديقة الجد. وفجأة، ودون أي إنذار، تجذبك داخل تلك المتاهة: مؤامرات، تجسس، تهديد، ابتزاز، خيانات... إنه ثمن باهظ من أجل بعض ليالى متعة ونشوة أو من أجل فرحة أن تعرف

أن بالبيت تنتظرك امرأة، ليست مستأجرة ولكن ترغبك ومستعدة... وإذا اكتشف بروكس أو باركر الجهنمي أنك تخبئها؟ هو زوجها في نهاية الأمر، قانوني. إلى أي ورطة تُستَدرج دون أن تُسأل!

متى تقول الحقيقة ومتى تكذب؟ قصتها عن قتل الفتيات في الحدائق العامة وعن « انتحار » ريكي. تنطبق بعض الشيء مع كل ماتم كتابته في الصحف التي بالتأكيد لم يكن لديها الوقت كي تقرأها. لكن عندما كنت تعتقد أنها تحيك القصص من خيالها، بدأت تراقب سلوكها لكن تقتنع مرة أخرى أنها تقول الحقيقة. عندما سألتها كيف وجدتك، أجابتك: عن طريق نظارات بروكس. هل يعرفني بروكس، هل يعرف أين أسكن؟ قلت مرعوبا. هو لا يعرف شيئا. بالصدفة في الصباح كنت وحدي على السطح. رأيت توني في البداية في شرفتك ثم بعد ذلك خرجت أنت وتعرفت عليك. صحيح، بعد سنوات تذكر توني أن له ابن خالة وحمل نفسه وجاء في رأس السنة ليهنئني، وليقترض النقود بالطبع. أخرجته أنت إلى الشرفة لأنك لم تشأ أن يدخل إلى غرفة النوم ويرى صورة بات. هل تصدقها إذن؟ وماذا لو كان قال لها توني بشأن الزيارة. لكن مع مرور الأيام لاحظت أنها تتجنب الخروج إلى الشرفة، كانت تقطع أضعاف المسافات داخل الشقة حتى تتجنب الشرفة، كما لو كان مستحيلاً أن يروها من خلال الزجاج والستائر. لكن علاقاتها بتوني كيف انقطعت منذ سنوات، قالت تقريبا الشيء نفسه الذي عرفته عندما كنت في القاهرة. كانت تقريبا سنة 1935 عندما اندلعت الحرب في الحبشة، عصبة الأمم، العقوبات.

عرف بروكس بأمر علاقتهما، لكنه علم أيضا أنهما كانا يخططان للزواج. كان توني يكسب مالاً كثيرا، كان يقوم بمقامرات غير قانونية في سباق الخيل. وفي ليلة أحد أيام السبت في الشقة نفسها التي كانا يستخدمانها للتلاقي، اقتحمت الشرطة المكان وقبضت على توني بكل الأموال والأوراق والتليفون. كان سيقضي خمس سنوات في السجن أو يتم ترحيله. حينها عرض عليها بروكس الزواج بشرط أن تنسى أمر توني وسيهتم هو بأمر إطلاق سراحه وألاّ يُسجن. وبالفعل لم يطلق سراحه فقط لكنه أخذه معه في الشرطة السرية، كان يعمل جاسوسا على لاعبي القمار.

- ضيعتِ حياتك، وضيع حياته هو أيضا، قلت.

- حياتي ضيّعَتها أمي، كان يجب أن تقتل بروكس عندما كانت تستطيع. أما عن توني، لا أدري، كان الأمر في دمه منذ صغره. كان يجد كل شيء سهلاً، مدللاً، كانت النساء تلاطفه دائما. تلك البنت أليكي غيراسيمو، الثرية؛ كان يسحبها معها في صالات القمار وبعدها يقدمها للرجال... لايجب أن يعرف أين أنا. لهذا أنا أخشى أن أفتح الباب عندما يدق الجرس. لا أجيب على الهاتف. فهو قادر كلما انحدرت به الأمور أن يبيعني مقابل جنيه واحد لزوجي.

نيكوس كاركاليميس، أين يمكن أن يكون، وهل يا تُرى مازال على قيد الحياة؟ إليه ذهب عقلك عندما استطاعت جوليا بكثرة الحكي أن تقنعك بأنه: نعم، لابد أن نفعل شيئاً. الإسكندرية تعج باليساريين الحقيقيين، فهم

يصدرون الصحف ويوزعون المنشورات وينظمون المسيرات والمحاضرات. لكن كل هذه السنوات كنت تعيش في عالم مغلق، لا تعرف أي أحد بشكل شخصي. هل هذا هو الوقت لتدق على أبواب غريبة، هل تعرف ماذا ينتظرك؟ مع كاركاليميس الأمر مختلف، سيتذكرك وأنت صغير، كما أنه كان صديقا للعائلة. ولو كانت قد تغيرت قناعاته سيقول لك، سينصحك، لن يشهر بك. لكن لو لم تجده، لو كان الرجل قد مات، ستكون قد فعلت ما بمقدورك، حتى لا تواجه تذمر جوليا.

«لابد أن نفعل شيئا»! بريطانيا العظمى العجوز بشبكاتها الجاسوسية. هكذا فقط تستطيع أن تحكم العالم. وفي كل شأن هناك دائماً، بروكس! عند اغتيال السير لي ستاج القائد الأول في عام 1924: تليغراف إنجلترا، استقالة زغلول باشا؛ تأخير استقلال مصر لعشرين سنة على الأقل. كان بروكس هو من نظم فرق الأشباح من الطلبة، من خلال أحد العملاء الذي ندم بعد ذلك وأرسل كل الإرهابيين إلى المشنقة. من بروكس عرفوا أن ستاج سيذهب إلى حفلة استقبال المفوضين وأي ساعة سيغادر وبأي سيارة وأي طريق سيسلك. وزوجة ستاج راحت تصرخ في اليوم التالي وتتهم المفوضين بأنهم كانوا على علم بالخطة، وأنهم قد أخَّروهم دون أي سبب هي وزوجها عشرين دقيقة تقريبا بينما كان المدعوون يتململون وهم ينتظرون في القاعة الكبيرة. كل شيء كان محسوبا بالدقيقة والثانية، لكي تصل سيارة في اللحظة المصيرية في لحظة الاتفاق، بالثانية. لم يتركوها تسير خلف جثمانه. غطوا وجهها بحجاب وربطوها وأرسلوها إلى وطنها. هكذا ما يحدث الآن

مع تسونيروس. لا، ليس من أجل أن يقتلوه، هذا ليس في صالحهم، مرت سنوات اغتيالات. سيشيعون فقط أن أنصار الجيش الشعبي الوطني في الشرق الأوسط يخططون لمحاولة لاغتياله، يوم الأحد في الساعة التي سيلقي خطبته في إستاد المحافظة في الخامس والعشرين من مارس يوم عيد الاستقلال. لكن جوليا، هذا غير معقول. لا يمكن أن يتهموا أناسا فقط لمجرد أن هناك محاولة. لكن يا أبله، هم لا يفعلون هذا لينكلوا باليساريين، يفعلونه من أجل تسونيروس ذاته: يريدون ترهيبه. وتجلس لتشرح لك، كيف كانت تعرف كل هذا، كيف يتسع عقلها لكل هذه الأمور؟

منذ أيام في جبال اليونان وجيش اليونان الشعبي يشكل حكومة، أشبه بلجنة التحرير القومية لديجول. واللجنة تضغط بالرسائل والتليغرافات على تسونيروس أن يتقدم بعزيمة أكبر في مفاوضاته من أجل حكومة وحدة وطنية والذي بدوره متعمداً يعطلها تحت ضغوط من ليبر. لكن، تحت ضغط الوضع القائم هنا في الجيش والأسطول، ولأنه كيوناني وكسياسي يمكن أن يفكر في أنه يكفي هذا الحد من المجاملات نحو تشرشل وأنه لابد أن ينظر قليلاً نحو مصالح وطنه، إن تسونيروس الآن يُمَيّع الأمور، يقول إنه ربما قد حان الوقت وإنه يلزم الآن حتماً أن يأتي ممثلون من الجبال. قاطعتها: في هذه الحالة يكون بروكس غبيا. لو تم ترهيب تسونيروس سيفعل العكس تماماً، سَيُعجل من أمر المفاوضات. لا تتعجل، تقول لك. إن تسونيروس يعرف جيدا أن اليساريين ليس لديهم أي مصلحة في اغتياله. لو وصلت الشائعات إلى أذنيه سيفهم على الفور مصدرها. قاطعتها مرة أخرى:

إذن ماذا سيكسب ليبر؟ تقول لك، الكثير، أشياء كثيرة. ما يخشاه هو أن ربما تسونيروس في لحظة رسمية أمام الآلاف المجتمعين من اليونانيين، ينحرف عن المسار الرسمي ويقول أكثر مما ينبغي. ربما يفعله من قبيل النقد الماكر أو الحماس العاطفي، ربما يجرفه حماس الجموع التي تنتظر منه كلمة حتى يتحرر خوفهم من اندلاع حرب أهلية. لكن تسوذيروس سوف يعرف أنه لو غدر بالإنجليز تنتظره رصاصة أو قنبلة يدوية. وسوف يتم تلفيق الأمر لليسار. سألتها: هل مستحيل أن يكون بروكس تحت تأثير الفاشيين اليونانيين؟ الإجابة: بروكس لا يلعب السياسة: إنه فقط ينفذ الأوامر. لقد عاشرته لسنوات طويلة، أعرف. تقول لها: أعتقد أنه بداية وقبل أي شيء لابد أن يعلم تسوذيروس بالأمر. تقول لك، نعم برافو، أنا سعيدة أنك فهمت الآن. لكن تسونيروس لابد أن يخبره اليساريون، كمصدر موثوق. ليصدروا منشورا ويكتبوا على الجدران. ليقبضوا على هذا المهرج ألكسندروس الأثري ويضغطوا عليه حتى يعترف بكل شيء. هذا لو لم يقتله بروكس في تلك الأثناء.

مساء الخميس ذهبت إلى المكتب، أخبرتهم أن لديك عملا بالخارج، أخذت ترام B ونزلت في محطة جناكليس. الطريق المُعبَّد، الفلل، الأشجار، كانت دائما هناك وبقيت كما هي، لكنها بدت أصغر حجما، أقل عددا. عندما ضربك الهواء وشممت رائحة البحر والطوب الحجري، ثمة ثقل انقشع من على قلبك، كم هي ثقيلة تلك السنوات العشرون؟ تسير بخطوة شبابية، بفضول وقليل من الخوف. ثمة أبواب لعالم سري ومغامرات تنفتح أمامك. هذه الموهبة تملكها جوليا منذ الصغر.

في ساحة كنيسة الرسول إلياس، جلسن حول زوجة القس، وجدتهن يتحاورن: أم ثاليا، أم تابسي بالمعمودية، عمة بوليا وامرأة شابة، غير معروفة.

ـ قلن فور أن رأينك وعرفنك، يا للرب ! ما الذي جاء بك إلى هنا بعد كل هذه السنين؟

قلت إنك اشتقت إلى جحورك القديمة.

ـ إيه، إذن سنراك في عيد القديس، قالت زوجة القس. أنت ربما ورثت التذمر من الجد أكثر مما ورثت من أنطوان، رحم الرب كليهما. ألم تتزوج بعد؟

تظاهرت بأنك لم تسمع السؤال وسألت عن كاركاليميس.

ـ إنه على قيد الحياة وبصحة جيدة، ليس لديه حاجة؟ ابنته رتبت له أمور المعاش والآن يقضي ليله ونهاره يصطاد على الصخور بصنارته. سنرى عندما يأتي ستالين ماذا سيفعل له، الذي يقول إنه يكون عمه.

عرفت ما كنت تبحث عنه، الآن أنت لا تعرف كيف تغادر.

ـ اجلس قليلاً حتى نراك، لقد صرت متغطرسا. آه، كيف لم أتذكر. قبل شهور ربما ستة أشهر، أليس كذلك يا فوتيني؟ جاء شخص من اليونان وسأل عن المرحوم أنطوان وأظن أنه سأل عنك...

- أعرف، قاطعتها، إنه مانوس ابن الخالة أماليّا.

- آه، الملعون، قالت زوجة ثوماس وهي تضحك. وقلت له: هل يمكن أن تكون أنت ابن أماليّا وتخفي علينا؟ لكن هذ الملعون يا ابني نفى تماما.

- قالت عمة بوليا التي حشرت نفسها في الحوار. إنهم كلهم كذلك من يأتون من اليونان. لابد أن يضعوا شيئا في دخانهم، كلهم أسرار وهمس وغمز ولمز. يأتون إلى هنا ليربكونا. كادوا يجعلوننا نتشاجر فيما بيننا.

- لا تقولي هكذا يا فوتيني، أنت تبالغين كعادتك. لديهم مشاكلهم وعذاباتهم هؤلاء المساكين. إنهم معنيون بالوطن، وبخبز الغد.

- وماذا تعرف عن المحروس توني؟ خسارة الاسم الذي مُنح إياه. أردته أن يرى ثاليا الآن التي كادت ذات يوم أن تموت لأنها لم تعجبه. هي الآن زوجة مقاول ولديها سيارات وخدم وحشم. وتابسيس الذي كان يلعب القيثارة صار عظيماً ومشهوراً.

- قالت أم تابسيس بالمعمودية لها، يا أختاه، دعي الرجل يغادر، ألا ترينه يجلس على مسامير ولا يريد البقاء أكثر من هذا. المرأة الشابة المجهولة سألتكَ إذا كنت تتذكرها، وكانت تنظر إليك في عينيك، على وشك البكاء. خمنت من تكون من لكنتها. كانت إيتاليا، أجمل فتاة في باكوس، لقد صارت غير معروفة!

- ألا تتذكر هذا؟ قالت شاكية وهي تمسك بشعرها الكستنائي الأحمر الجميل الغزير.

التجاعيد على خديها الغائرين تنزل مستقيمة مثل قنوات. بعد هذا الصيف في لوران انتقلت إيتاليا إلى شاطئ ستانلي، وهناك لسنوات عديدة كانت نجمة المكان. في مسابقة في عام 1932 فازت بلقب ملكة جمال الإسكندرية. عندما كانت تستعد للغطس في البحر كان أصحاب المراتب وأبطال المصارعة الإيطاليون يرافقونها ويسمعونها أعذب الكلمات. كانت تجيبهم دون أن تتوقف وهي تهز جسدها الرائع. لكن فور أن يظهر توني من بعيد ، ذهبي في زغبه، غامض وهو يبتسم بلا مبالاة، كانت تتركهم في أماكنهم وتهرول لتلقي بنفسها عليه. إيه باستا! إنها مجنونة، كانوا يقولون هؤلاء وهم يفتحون كفوفهم في ارتباك.

وها هي الآن بعد كل هذه السنوات، في النهاية تزوجها دينوس الذي يخدم الآن في جيش المشاة. كلكم الآن تتقاسمون فضلات توني: ثاليا، أليكي، إيتاليا، وجوليا...

تتذكر تلك الصخور، تقع بين كازينو سان ستيفانو وشاطئ لوران: كانت المكان المفضل للجد. عندما كان يجلس هناك ليصطاد لم يكن يقترب أحد، ولا حتى طائر نورس صغير. وإذا تصادف أن يجلس أحد في هذا المكان كان يغادر سريعا فور أن يرى الجد من بعيد. مكان أنطوان كان أبعد بقليل، على رمال البوريفاج. كان يشمر بنطاله حتى ركبتيه وأحيانا يغوص في الماء حتى يصل الماء إلى حزامه؛ يرفع صنارته عاليا، كانت بوصة هندية طولها خمسة أمتار، ويلقي بشعر الصنارة بعيدا، حيث يصير لون الماء داكنا. كان يصطاد الدنيس: بدون فِل ولا رصاص، كان يقشر الروبيان أو الكاليمار ويضعه

كطعم. لكنه كان دوما يفضل أن تكون حدوده الرمال، لأنه كان لا يحب أن يعلق صيده في الصخور ثم يصعب عليه أن يجذب خيط الصنارة. المرحومة أمي كانت تتذكر قبل أن تتزوج عندما أخرج أنطوان سمكة وقار تزن خمس عشرة أوقية، وحملها على ظهره وراح الأطفال والنساء اليونانيات والبدو يهرولون خلفه، رفض حينها ناظر محطة سان ستيفانو أن يتركه يركب الترام، عندما أراد أن يستقل الترام حتى يذهب إلى الإسكندرية ليبيع السمكة. ذهب أنطوان في صمت وعبر الكوخ والمنطقة التي يسكن بها ومر بجوار الساحة فأعجب به الجميع ثم انحرف وجلس عند تافرنا أريستيذيس ينتظر القطار. كانوا يسمحون بنقل أشياء كهذه في عربة خاصة في القطار؛ كانوا يضعون فيها الخراف في عيد الفصح أو ينقلون الأثاث والصناديق لو تصادف. اشترى السمكة منه مطعم إيطالي باسم ميسو نابوليوني ليس ليأكلوها ولكن ليحنطوها.

لكن عندما كنت أنت لاتزال طفلاً لم يكن الكورنيش يصل إلى هنا؛ كان ينتهي عند كليوباترا. الآن انحسرت الرمال الجميلة وضاقت مساحتها؛ تستند على السور وتنظر للأسفل: نعم، هي الصخور نفسها التي كنت تخلع عندها صندلك، لكن كيف صارت قريبة جدا من الشاطئ! تلاشى البراح والضوء والمساحة الصفراء الكبيرة. خلفك يوجد منحدر من الحجارة والتراب الجيري. في الأعلى رأيت (بات) ذات مساء بفستان باهت وشعر منكوش تخدش خديها بأظافرها لأن توني كان على الرمال يتشاجر مع أليكي. الآن تم بناء هذا المنحدر بالأسمنت، ترى جدارا بدعامات الأعمدة،

يقف ساخرا غير مرحب، يشبه جدار التين الشوكي في صفر.

على كل الشاطئ لا يوجد سوى صياد واحد، يقف بصنارته. الشمس على وشك الغروب وانعكاسها يغشي البصر. تنزل من على الدرج، الذي بني بالأسمنت أيضاً، وتقترب. قبعة مثقوبة. جاكيت ذائب، هو الجد بذاته. يمد يده على سلة الصيد التي بجواره، يأخذ دودة حية يسحقها كفه المغلق بعصا صغيرة، ينهض ثم يقذفها: ألقى بالطعم. ثم جلس، رفع العصا ويجرها بعيدا في الماء المالح نحو الأعشاب التي بين الصخور. قطعة الفِل الحمراء تبقى طافية على الماء لوقت طويل، الشراغيش لا تأكل الطعم. يلتفت وينظر إليك. إنه هو، كاركاليميس، أكثر نحافة وأكثر اسمراراً، رموشه بدت حمراء ربما من أثر الشمس.

ـ هل تنتظر شيئا ياسيدي؟ قال وهو يغمض عينيه تقريبا.

ـ أهلا يا نيكولا. أنا باراسخوس حفيد أنطوان.

ـ يا هلا، يا هلا. أنا أذكرك. ألم تكن أنت الذي... وكنت أقول، ماذا يريد هذا المنحوس فوق رأسي ولا أصطاد شيئاً. كيف من هنا؟ هل تريد أن أعطيك صنارة؟

شكرا جزيلاً، قلت وأنت تشير إلى ملابسك، وكأنها غير مناسبة للصيد. لكنه هل هو يراك حقاً، تبدو عيناه معطوبتين.

ـ تعرف أن هذا المكان مكانكم، هو مكان جدك. لا تخجل إذن.

ـ أهذا ما تقول؟

ـ هكذا كنا نقول مع جدك «سيذيريس الملعون». لكن الآن... لم يكن البدو يحترمون سوى أنطوان. مازالوا يسمونها «رملة أنطون». لكن كل الأشياء الأخرى أخذها البدو.

ـ حقل أبو قوة، نخيل إدريس، حظيرة صالح، منذ ذلك الحين وكل شيء لهم. تقول له.

ـ الحقل... كيف تذكرته! كانت هناك حرب من أجل السمان. ذهب هذا أيضا، سماح. لكن العادات عادات. مازال ابنه يمر ليجمع الشلن كل شهر. لو تظاهرت بأنك نسيته يدوسون بستانك ويسرقون غسيلك.

ـ إيه، اعتبر أنك تدفع رسوم تأمين.

ـ هؤلاء يسمونه شيئا آخر. يقولون أنتم اليونانيون والإنجليز واليهود والفلاحون والشاميون، كلكم عابر شيئا سبيل. لا يهمنا ماذا يُدوَّن في وثائقكم. نحن نكون هذا المكان، ولقد قسمناه ونتوارثه أبا عن جد في ملتنا. أي غريب يجلس فوق أرضنا لابد أن يدفع ضريبة هذا. إقطاعيون، أتفهم؟ الحفاة صاروا إقطاعيين. كما لو أنهم يقولون لك: ابنوا أنتم وشيدوا؛ كل شيء سيبقى لنا. سيؤول إلينا كل شيء في النهاية. ستسقط علينا من السماء كل الخيرات التي ستتركونها. إن ما يجمعونه الآن في هذه الأيام في العلمين لا يوصف: خواتم، أحجبة، أسنان ذهبية، أسلحة رشاشة، ألغام، حديد خردة، مدافع. محافظ برج العرب قال لنا إن هناك قرية بها على الأقل مائة بندقية مخبأة في ـ اسمع يا صديقي ـ في كاميون!

الفلة الحمراء تتراقص على الماء لكنها لا تغوص. يمسك كاركاليميس الصنارة بين ركبتيه ويجررها في الماء ثم يمسح كفيه بعد ذلك في ملابسه ويمسك بالصنارة مرة أخرى. يقترب منك خطوتين حتى لا تصيح وأنت تتكلم. كانت رائحة الزفارة تفوح منه.

ـ لماذا يجمعون السلاح، هل يستعدون لشيء؟

ـ هؤلاء؟ لا تفهم عنهم شيئا. سيبيعونه لمن يدفع أكثر.

تبحث عن صخرة ليست مدببة لتجلس لتدخن غليونك؛ تشعله. الشمس الآن تغوص في البحر، درب ذهبي يلمع على الصخور ويصل حتى الأفق.

ـ ولماذا جئت إلى هنا؟ يسأل كاركاميليس مرة أخرى.

تدخل في الموضوع مباشرة. تقول له لماذا فضلت أن تأتي إليه وماذا تطلب منه.

ـ لكنني رجل جاد، وأنا من القيادة، يقول ساخرا.

ـ لماذا لا تخبرني أنا بما تريد؟

تجيبه بأنك تريد شخصا من الجيش أو من البحرية.

ـ اسمع يا بني، يقول وهو يغير من نبرته: نعرف أي عمل يقوم به ابن خالتك. لقد جَنَّدَه هذا الملعون باركر وهو يعمل في المراقبة وقد حرق رجالا كثيرين. لكن ما شأنك أنت وهذا الفساد؟ لديك راتب جيد، أنت متعلم، لم

نسمع حتى اليوم شيئا عنك. لماذا تريد الآن أن تلوث نفسك؟ إننا نعتبره عارا علينا أن الساحة خرج منها خائن. وتريدني أن أساعدك كي يصبحوا اثنين، وبي أنا ثلاثة؟

فقدت عقلك، لم تكن جاهزا لرد فعل كهذا. هل تغضب منه أم تفرح لأنه يعرف كل هذا عن توني وبروكس؟ يبدو لك حذرا جدا، إنه يختبرك.

المشكلة لديك الآن هي كيف تخبره دون أن تفصح عن دور جوليا.

ـ تقول بهدوء، أي باركر، هذا الذي لديه تلك الأرض الكبيرة في صفر؟ هل تدري أين هو؟

ـ ألم أقل لك إنهم رأوه مع توني. كان باركر يرتدي الجلابية.

ـ لكن أين يسكن الآن، هل تعرف؟

ـ لا، اسأل ابن خالتك سيجيبك.

ـ إذن اسمع يا صديقي نيكولا.

قلت له عن البنسيون، وعن مقتل ريكي.

ـ ومن أين تعرف أنت هذه المعلومات؟ هل أرسلك توني؟

تستمر في الحديث كما لو أنك لم تسمع. تقول عن حكومة الجبل وعن التجمع في الإستاد يوم الأحد، عن خطة ترهيب تسونديروس. يقول لك مرة أخرى:

ـ هذا الأمر له رائحة غير طيبة. سوف يقتلونه، ألا ترى لعبتهم؟

يفرغ سلة الديدان في البحر. يلملم صنارته متعجلاً. نعم، إن ثمة خطبا في عينيه فهو لا يرى جيداً. راح يتحسس حوله حتى وجد سلة الصيد. كشف غطاءها. كان بها خمس شراغيش ووزن كل منها مائة جرام. الآن هو جاهز كي تغادرا. تضيف الآن اعتذارك لأنك لا تستطيع الإفصاح عن مصدر معلوماتك.

ـ حسنا يا باراسخوس. سامحني لو كنت قسوت عليك في كلامي. تظاهر الآن أنك لا تعرفني، خذ طريق الكورنيش وغادر من اتجاه لسان بترو. أنا سأتجه ناحية سان ستيفانو. في العاشرة تماما الليلة، بالضبط، أتسمعني. في العاشرة سيأتي شخص ينتظرك هنا في هذا المكان عند السور الحديدي، فوق الصخور تماما. شارة التعارف هي: هل تعطيني كبريتا من فضلك؟

ـ ما اسمه؟

ـ ماذا يقول لي هذا الرجل. هل أنت مبتدئ؟! سيرسله أناس غيري، من أين لي أن أعرف؟ لكنه سيكون شخصا موثوقا به. طابت ليلتك الآن، سعدت لأنك تذكرتنا. انظر: عندما تأتي الليلة، انتبه جيدا فربما يراقبك أحد. ولا تنطق بكلمة عمّا حدث بيننا، ولا حتى لزوجتك. صحيح، هل تزوجت؟

كان يضحك وهو يبتعد، بدا سعيدا.

أخذت أنت الطريق المعاكس، تمشي بسرعة. لكن كيف يقضي المرء كل

هذه الساعات؟ لا تريد أن تذهب إلى البيت، إن جوليا تنتظرك. سوف تقلب لك عقلك وتقول لك كيف لم تتم المهمة كاملة، بينما لو عدت في الليل، ستقول لها كل ما حدث دفعة واحدة. من بائع السوق السوداء عند مسرح الهمبرا ستشتري لها السلامي الإيطالي الذي تحبه كثيرا.

تذهب سيرا على الأقدام حتى سيدي بشر، ومن هناك تعود بتاكسي إلى الإسكندرية. تجلس في بار أثينيوس تقرأ الجرائد وتحتسي كأسين من الويسكي. بينما أخذت سيارة تاكسي أخرى إلى سيدي جابر. تسير من شارع أبو قير على قدميك حتى جليم. ومن هناك تأخذ ترام V وتنزل في لوران. لا يوجد أحد في الظلام. الرطوبة تملأ فتحتي أنفك وفمك. العاشرة إلا عشر دقائق. في العاشرة، بالضبط، تقترب في الظلام وتستند بكوعك على السور الحديدي للكورنيش. الخوف يُخَدر لسانك. في كل مكان في الظلام ترى توني على استعداد أن ينقض عليك. تخرج من جيبك الغليون.

- هل تعطيني كبريتا من فضلك؟

- مساء الخير يا باراسخوس. هل كنت تنتظر أن نتقابل ثانية؟

إنه مانوس ابن الخالة أماليًا.

منذ الساعة الثانية بدأت الجموع في الوصول. كان يُذكّر بيوم مباراة المنتخب القومي المصري، عندما كان المهاجم حجازي وتابسيس، «تابسيس لاعب القيثارة»، كان يلعب مدافعا. السماء فوق الإستاد كنت تظنها ستسقط من كثرة الصياح: حجازي، حجازي! وهو بسرعة كان يمر بمهارة، يراوغ

وفجأة صمت غريب... جوووووول! راح ثلاثون ألف مشاهد يصرخون واقفين. ربما كان ثلاثون ألفاً آخرون تجمعوا حول الإستاد. عندما راح الفريق الخصم يهدد مرمى الفريق المصري كنت تشعر قبضة القلق تعصر القلوب وتسمع همسات الرجاء والدعاء: تابسيس! ياللا يا ولد يا جريجي، إديلوووو.... ووصلت الكرة بعيدا في آخر المدرجات، صوت صدمة الركلة كان مثل طلقة مدفع، وعلى الفور كانت صيحات الإعجاب والارتياح: الله...

اليوم جاء اليونانيون فقط. المدرجات امتلأت بسرعة، جاءوا بعائلاتهم، الجد بالعصا، الجدة الضريرة، العمة القعيدة، البنات بضفيراتهن، الأب وسيدته. البائعون المتجولون يتجولون ينادون على الكازوزه والكعك والبذر، الشمس فوقهم تتحرك بهدوء وتحرق الرءوس والظهور ببطء، وترى الجرائد تنفرد فوق الرءوس بشكل احتفالي، المدرجات على اليسار كانت مميزة إذ إنها كانت في لونين وبجوارها المنصة الرسمية المسقوفة بالقرميد والمقاعد المخملية، تصل سيدات يرتدين قبعات وضباط وجيش وبحرية... أمامهم قائم الميكروفون الذي يضبطه الفني: واحد، اثنان، ثلاثة... باللون الأحمر الفاقع على لافتات طولها متران كُتب: جبهة التحرير اليونانية، جيش التحرير الشعبي، اللجنة السياسية للتحرير، حتى على أسوار الفيلا التي كانت مقر الاستخبارات البحرية. في ليلة واحدة لم يبق جدار دون شعارات، فجأة امتلأت الإسكندرية كلها بالشعارات، لابد أن كل الخلايا كانت تعمل بلهاث وحذر إذ لم يسمع عن أي اعتقالات. لكن أين وجدوا هذا الكم من البوية، وكيف تم حمله؟ قال كاركاليميس الذي كان بجواره.

نهض الرسميون ليحتفوا بأحد. تعرفت الجموع على تسوذيروس الذي يرتدي قبعته، وتعرفوا أيضا على فينيزيلوس الذي كان دون غطاء رأس. بعدها وصل ولي العهد. تشعر بالبرد وتتعرق، الشمس لا تدفئك، كأن ثعبانا يتحرك في ظهرك. تشعر كأن الجموع كلها تنظر إليك، أنت وكاركاليميس، لأنكما وحدكما اللذان تعرفان. ترعبك فكرة أن آلاف الأفواه. ستصيح مرعوبة عندما ستنطلق الرصاصة نحو المنصة...

بدا مانوس مترددا في المقابلة الأولى. في الثانية أوضح لك: لن نفعل شيئا. ولن نخبر تسوذيروس، ولن نصدر منشورا. حتى لو افترضنا أنه خدعة من الإنجليز أو من تسوذيروس نفسه حتى ترتفع أسهمه الآن إذ إن أمر الوحدة لا يحتمل أي تأجيل، ليس في مصلحتنا أن نتورط في الأمر برمته. من الأفضل أن نبقى بعيدا عن شباك الاستخبارات: لا تنسى أننا إذا قمنا من الآن بإدانة محاولة الاغتيال التي ستحدث، وهو أمر كما أقول لك للمرة الثانية مستحيل أن يتم، سنتحمل نحن عاقبة كل شيء. إما أنهم سيتهموننا بأننا تحدثنا قبل أن نكشف المذنبين الحقيقيين أو سنتحمل مسئولية أن نأتي بأدلة أكثر لكي يُمنع الشر. من الأفضل إذن ألا نفعل شيئا وأن نصمت تماما. إن موقفنا واضح. نحن لا نؤيد الاغتيالات السياسية، لسنا إرهابيين ولا فوضويين. نحن لا نقتل سوى المستعمرين. أما خصومنا السياسيون، وإن كانوا كانيلوبولوس أو تسونيروس أو تشرشل، نواجههم بالتنظيم وبتوعية الشعب بأهداف الحرب التي فجروها.

عندما قلت هذا الكلام لجوليا، غضبت. لم ترها من قبل تضم شفتيها وتهز يديها في غضب هكذا. الملعون الشيطان، كانت تقول عن بروكس. لمرة أخرى سيحدث ما يريده. أرادت أن تطلب على التليفون أحد معارفها، محاميا أو مصرفيا، لكنك منعتها: اهدئي يا جوليا من أجل الرب ولا تتصلي بأحد! التليفونات مراقبة. فضحكت هي: ليس لديهم عمال مراقبة لكل الإسكندرية. وأنت يا أحمق، أبعد مقابلة واحدة تظن أنهم وضعوك في قائمة الشك؟ لكنك أقنعتها، وعدتك. قالت بمرارة: السياسة، أقذر شيء في العالم. ريكي المسكين...

لكن الآن كاركاليميس يثق تماما أن شيئا لن يحدث على الإطلاق. قبل الأمس كان واثقا من العكس. لابد أنه تحدث مع أحد، لكنه لا يريد أن يقول: لقد أرعبتنا يا باراسخوس يا صديقي. كنا على وشك أن نبتلع طعم الإنجليز. أنت لا تشي بالمصدر رغم ذلك، كان عليك أن تدقق في الأمر، لترى من الذي خدعك. أنا لن أغير قناعاتي بأن توني الحقير له ذيل في هذا الأمر. ما مدى قرب علاقتكما في الحقيقة. هل هي علاقات وطيدة أم بعيدة؟ ماذا كان سيفعل لو قلت له إن «مصدر معلوماتك» يعود لسنوات طويلة في الماضي، معلق في ظلام الليل بين أوراق وأغصان شجرة المستيكة في بيت أنطوان الذي كنت تجلس معه أسفلها تتحاوران دون أن يكون لديكما علم ما الذي كان فوق رأسيكما. ولماذا يكون مصدره هو أكثر مصداقية؟ تضغط عليه كي يقول لك. أما هو، يغلق عينيه اللتين تؤلمانه ويهز رأسه نافيا. لدينا نحن أيضا مصادر للمعلومات، يقول بنبرة عظمة. فجأة يمسك بيدك: أريد أن أقول

لك شيئا يا باراسخوس كي تتذكره. إن تسونديروس مثل الشيطان. يقول للجميع إنه يريد حكومة وحدة وطنية ومن ناحية أخرى يرسل كل التعليمات التفصيلية إلى الملك ليراوغ حتى لا تتشكل تلك الحكومة. اتصالاته بالملك يرتبها الإنجليز ويكتبون له الشفرات التي يرسلها للملك في لندن. لكنهم يعرفون جيدا من هو في الحقيقة.

تريد أن تقول إنه أفصح عن مصدره تقريبا. إما أن يكون السكرتير الخاص لتسونديروس أو شخصا يعمل في الخدمات الإنجليزية. لكنه كان يستعد ليتكلم مجددا وتفضل أن تسمع.

ـ لابد أن يضع المرء يده في جيبه بين الحين والآخر، إن النضال يحتاج إلى دعم مادي. اكتب شيكًا وأرسله إلى لجنة الإغاثة. لقد قام تسونديروس بلعبة مزدوجة.

بكفه المطبق راح يظلل على عينيه من الشمس؛ يخفض صوته ويتكلم. لكن أذنه كانت مفتوحة لكل ما يقال حوله.

ـ الناس تنتظر شيئا، هل انتبهت لهذا؟ يقول بعضهم إن تسونديروس سوف يعلن عن تدريبات عسكرية في مورية، وآخرون يقولون إنه سيعلن عن التصالح وآخرون يقولون إنه ضم نيسيرو إلى الحكومة.

ـ من هذا؟

ـ أول برلماني أثينيّ عن الحزب الشيوعي.

ـ متى وصل؟

ـ ها هاهاها! أين هو؟ لا تعرف أنه في القاهرة هناك لجنة تنسيق النضال؟ بها سياسيون يونانيون وأعضاء الجالية يمثلون جهات عديدة ويقومون بالضغط على تسونيروس. العسكريون يفهمون أنه لا يجب أن يظهروا في الصورة، القواعد تنهي عن ذلك. وهذا الرجل هو أكثر أعضاء اللجنة نشاطا. نقابي قديم كما ترى. حسنا، ألا تتذكر الإضراب الكبير في شركة باور الذي امتد إلى خطوط الترام حتى أوقفها؟

ـ قرأت شيئا عن هذا الأمر، لكن هذا كان قبل سنوات كثيرة. لماذا يرسله قبل أن يتم الاتفاق؟

ـ هو لا يرسلها، هو كان هناك. كان ميتاكساس قد وضعه في سجون كيركيرا مع آخرين، أخذه الفاشيون وأسروه في إيطاليا. عندما سقط موسوليني تم تحريرهم؛ وأحضرهم الإنجليز إلى القاهرة. مصر أم اللاجئين.

لكن الاستاد يهتز من التصفيق والهتافات. فرقة الموسيقى البحرية تعزف في مسيرة. من البوابة الكبيرة يدخل التشكيل الأول: رجال البحرية بملابسهم البيضاء؛ أمامهم حامل العلم. لا يرى كاركاليميس جيدا فيطلب منك أن تصف له مايحدث.

ـ يقول. هؤلاء هم من إقليم الاثنتي عشرة جزيرة الذي أنا منه. انتهت العروض؟ هذه كانت آخر موجة.

ـ لماذا؟

نظر حوله وراح يحسبها: هؤلاء حضروا مع السفن الحربية عندما سقطت جزيرة ليروس في أيدي الألمان. قبلها بقليل كانت جزيرة ساموس، وقبلها كريت، الأسطول، القوات القوية، الحكومة وكل هؤلاء عبروا وحدهم من تركيا. في عام 1922. كان هناك يونانيو آسيا الصغرى، في عام 1881 أهل جزيرة خيو والزلزال، في عام 1826 مذبحة إبراهيم، في عام 1822 مذبحة جزيرة خيو. أينما تبحث ستجد. نحن نأتي موجات عبر موجات. أم اللاجئين أقول لك. وفوق هذا نسبُّها: البلد العفن، الكسول، ولا نذكرها إلا بالسوء. آه، لكن خبزنا يوشك أن ينتهي، كما كان يقول أنطوان. لو تسمع ماذا يقولون في القوافل التي تأتي من اليونان، ستفقد عقلك. يقولون لك، عن أي استعمار تتكلمون، هل سيتركنا الإنجليز بعد الحرب؟ وهم ينقشون بأظافرهم على الخريطة الإمبراطورية الجديدة. لا. وهم لا يعنون أراضي قاحلة، ليبيا، طرابلس وما شابه. لو لم يعطونا مصر، سنطلب سوريا. أتضحك؟ سمعت هذا بأذنيّ. ليس الأمر مضحكا. إنهم يرسمون ويقررون لك عقليتك. من كل هؤلاء الذين يصفقون ويلقون بقبعاتهم كم منهم يشعر بأن زمن الاستعمار قد بدأ في الانتهاء؟ آجلاً أم عاجلاً لابد أن نلملم أغراضنا من هنا ونعود إلى أراضينا، مما يعني أنني سأعمل في الإسفنج مثل أبي. لهذا أقول لك، أبناء اليونان واليونانيون المصريون هم شيء واحد، ومصيرهم واحد: اليونان.

عندما يمر ضباط الجيش وضباط البحرية الذين نجوا من غرق الغواصة أولجا يتقد الحماس. تمر مجموعة رمزية من اللواء الأول فتصيح الجماهير «العلمين، العلمين». كاركاليميس لا يتوقف عن الكلام. يريد بكل الأشكال أن يقنعك بأن قدر اليونانيين محكوم بتحقيق أهداف الحرب ضد الفاشية.

ثلاث طائرات بأعلام يونانية تحوم فوق الإستاد. الجمهور يصرخ وكأن الطيارين سيسمعونهم. يسأل كاركاليميس من أين جاءوا. لابد أنهم قادمون من الإسكندرية: لكن من قاعدة العامرية أم الدخيلة؟

يصعد سالفاجو إلى المنصة. يقرأ ببطء ووضوح. الخطاب كان مكتوبا باللغة العامية الفصيحة يفيض بالمشاعر. يتحدث عن انتفاضة عام ١٩٢٩، الجمهور يصفق بين الحين والآخر وكاركاليميس الذي يعرف كل شيء يهمس بأن هذا الخطاب قد كتبه أحد موظفي سلفاجو، وهو يساري.

والآن اللحظة المنتظرة. تتملك القشعريرة سلسلة ظهرك. ينهض تسونيروس من مقعده ويذهب نحو المنصة. الجميع يناديه فيتوقف. ماذا يا ترى؟ يمسك بيديه قبعته ثم ينزعها، يعود للخلف ويضعها على المقعد. يشرع في الحركة ثم يتوقف وينظر حوله. لماذا؟ فيما يفكر؟ هل كان يفضل أن يرتديها؟ فيما تحميه؟ يتساءل لو كان عليه أن يرتديه؟ يعود بظهره للخلف ببطء، بتردد خفيف ورأس مُنحنٍ يذهب نحو المنصة والميكروفون كما لو أنه لا يريد، يذهب وكأن هناك حبلاً خفيا يشده للخلف. جبهته تلمع في عرقه،

يخرج منديلاً ويمسح جبهته. يصعد درجتي السلم وهو يضغط على فخذه بيده التي تمسك المنديل. هذا الرجل خائف. توقفوا! تريد أن تصرخ، ألا تأسفون لحاله. يفتح فمه، لكن صوته لا يُسمع. يفتحه ويغلقه بلا صوت، كأنه سمكة في حوض أسماك زجاجي. يسعل. يقرأ العنوان مرتين، وببطء، كأنه في كابوس، يشرح بنبرة ثابتة وبلا لون يتمتم. كم أن هذا مريع! هذا الرجل يعرف، هذا الرجل ينتظر الموت بين لحظة وأخرى. لم تكن الشمس حارقة أبداً فوق رأسك بهذا الشكل، لم تشعر بوقع الصمت في أذنيك بهذا الضجيج أبدا قبل هذا. والجماهير، متململة، غير مبالية، تشهد على عذاب هذا الرجل الذي يكسب حياته أمام الميكروفون كلمة بكلمة. لم يكن هناك تصفيق ولا هتافات. لكن ماذا يقول على أى حال؟ ماذا تنقل السماعات وتصدح معلقة على أعمدة وجدران الإستاد؟ لا شيء. هراء، عبارات معتادة. ليس هناك ثقة ولا قوة، أخذ يسرد حصاد العمل الحكومي. لم تكن هناك أي مسحة من الحماس ولا الحرارة ولا الفكر من أجل هؤلاء الذين يضحون جالسين في المدرجات. أوه، أنت تعرف هذه النبرة وهذه اللغة. هو رجل مصرفي يقرأ التقرير السنوي في الاجتماع العام للمساهمين. والناس تنتظر. تنتظر. لا شيء!

يمسح تسونيروس عرقه ثم يضع منديله في جيبه، ينزل من على المنصة. عندها فهم الجمهور أنه قد انتهى فراح يصفق بلا مبالاة، تصفيق متقطع. نهض الجميع وشرعوا في المغادرة. انتهت المراسم في ارتباك. الفرقة الموسيقية البحرية تعزف السلام الوطني لكن لا أحد يستمع. طعم غريب في

فمك... كما لو كأنهم أعطوك ماء غسيل لتشربه. إذن هذا هو ما حدث؟ يعود تسونيروس ويجد قبعته ويلبسها ثم يجلس.

- ما رأيك؟ سألك كاركاليميس بينما كان يقفز بصعوبة من مدرج إلى آخر وهو ينزل.

ولكي تتجنبا الزحام، اختصرتما الطريق من شارع فؤاد فنزلتما نحو الشوارع الأرستقراطية في الحي اللاتيني. شارع البطالسة وشارع سلفاجو... بينما كان كاركاليميس يتمتم طيلة الوقت.

- ثلاثون ألف يوناني، فريدريك، بافلوس، أولادهم، الحكومة، البطريرك، أعضاء الأركان، الجالية، خطباء، مارشات، مسيرات، مراسم، كل هذا كان مجرد فقاعات، أساطير. في واقع الأمر لم يقولوا شيئا.

يشير إليك على الحروف الحمراء التي مازالت بوياتها ندية. كل هذه الجدران ستحتاج إلى الحك حتى يطلوها من جديد لثلاث مرات على الأقل، وستظل الجدران تتعرف على اللون الذي شربته وستصرخ، جبهة التحرير اليونانية، جيش التحرير الشعبي، اللجنة السياسية للتحرير، الحزب اليوناني الشيوعي، منظمة اتحاد الشباب اليوناني.

XIII

في بحيرة بسطح أزرق بنفسجي: كنت أسبح. لو أن الحب البرىء وإنكار الذات يمكن أن يُعبَر عنهما بالألوان، أي لون غير لون عينيها الأزرق البنفسجي كنت سأختار؟ لون أزرق بنفسجي مليء بالنجوم، مثل السماء التي وضعها فان جوخ في بورتريه الشاعر بوك، ولو أني أظن في هذا أن اللون كان أزرق دافئا كلون البحر؛ على أى حال كانت هناك نجوم. كنت أنحني فوقها، فوق البحيرة، وأسمعها تحكي لي ببساطة كيف ومتى كانت تتوق لي، أين كانت تبحث عني لشهر، والوحدة التي كانت تشعر بها بعد وفاة رون. وأنا كنت أخجل أن أبوح لها بأنني منذ شهر أغسطس عندما تسلمت خطاب إيمي في أورشليم كنت أعرف أنها تبحث عني لكنني لم أهتم أن أجدها.

كانت سعيدة. لم يبدُ عليها أنها متضايقة من كونها محبوسة في الشقة. كانت دائما بشوشة، تستمع إلى المذياع أو تقرأ. كان جاك يرسل إليها مع ماري كلود الصحف الإنجليزية التي كان يتسلمها في البنك، عبر هذه الصحف كانت تتابع «الشأن اليوناني» وتخطط بقلم أزرق مقالات وأخبارا،

كما لو أنها «سكرتيرة متفرغة». أنا، كنت أستاء في اللحظة التي كان ينبغي أن أتركها وأهرول إلى زملائي - تركت التواصل مع باراسخوس إلى كاركاليميس، حتى أجد الوقت كي أفحص القضية - أو حتى أذهب لأنام في السكن المشترك خلف المستشفى الإسرائيلي مع غاريلاس. هكذا، في الليل وجدت رسالة بها أخبار مهمة من القاهرة، فانفجرت: لا! ليس هذا هو الوقت المناسب بحق الرب! ذهبت إلى الحمام وتحممت، نظرت إلى المرآة. حينها قلت لنفسي: ألا تخجل!

كان فانيس يخبرنا أنه بالتوازي مع لجنة التنسيق بدأت لجنة الضباط التحرك بوضوح: ثلاثة ضباط برتبة رائد، ثلاثة برتبة مقدم، ثلاثة طيارين قادة سرب، ضباط من سلاح الفرسان، ملازمون إلخ... عددهم ثلاثة عشر ضابطاً: ليبراليون، تقدميون، اشتراكيون وشيوعيون: الجبهة القومية في مكتب صغير. الانطباعات الأولى من فينيزيلوس وفولغاريس كانت إيجابية بشكل غير متوقع، حتى أن الأخير قال للضابط مؤكداً له على النوايا الحسنة للجنة: تقدموا وأنا معكم. وإذا أطلقت رصاصة في زجاج ما، سيكون هذا جيداً. هذا حمّس المترددين كثيراً، لكن فانيس استقبل هذا بتحفظ وربما لم يعجبه. قال في رسالته إن هذا يذكره بالحوار الذي دار بيننا قبل فترة، بخصوص بعض القضايا الأساسية، منها أنه ينبغي أن يصل أغلب الوزراء إلى قناعة أنهم وصلوا إلى طريق مسدود، أن يتمنوا تغييرا. ذكرنا بها لكي يؤكد أن الوضع لم يكن هكذا: هؤلاء كلهم الانقلاب العسكري بالنسبة لهم أمر في غاية السهولة. لو أرادوا اليوم أن يتخلصوا من تسوذيروس

فهذا ليس بسبب أنه يقف عائقا أمام الوحدة، لكن لأنهم يرغبون في كرسيه. ويعتقدون أننا سنصبح سلما يتسلقونه لتحقيق غرضهم. ليس لديهم أي فكرة عن التغييرات التي حدثت في وعي الشعب. بالطبع، ينبغي علينا نحن أن نقترب منهم. ونذهب معهم يدا بيد، لكن علينا أن ندفعهم بنعومة نحو الطريق الصحيح. وأن نتوخى الحذر حتى لانقع في فخ ما. لو حدث لنا مرة أخرى كارثة مثل ميتراكيس سنستحق جميعاً الإعدام. وعن ميتراكيس أضاف أن الضباط بالطبع لم يقتربوا منه؛ لكنه بالطبع يوزع عليهم الابتسامات ويتودد إلى بعض أعضاء اللجنة. وهو ما تطلب الحذر مع بعضهم. أضاف أيضاً أن التعامل مع الضباط كان صعباً؛ كبرياء، كتاب الجرد السنوي، التنافسية، التكلف في التعامل، أمر مزعج! وجودك مانوس معي كان سيساعد كثيراً، لكن لا يمكن أن نطرح الموضوع على الإطلاق. إن صحيفة «الملاّح» تسبح بسلاسة.

أعدت قراءة الرسالة، حفظتها عن ظهر قلب تقريبا، عندما وصل بانديليس. كان الضئيل التافه قد أرسله لينام على أريكتي وأذهب أنا إليه في بيت المحاسب عند حلبة الخيل. ثمة أمر مهم ولابد أن نتحدث فيه. وبهذه المناسبة كنا سنستمع إلى خطاب سيلقيه فينيزيلوس إلى الشعب اليوناني. قال بانديليس إنه وجد عصبية شديدة في الوزارة. ضباط البحرية يحاولون أن يشكلوا لجنة، ثمة تفاؤل يحوم في هواء القاعات الرخامية في قصر ميلاذاكيس، وأن هناك ضابطين أسرَّا لهما بأن قائد الأسطول سيكون بالتأكيد معهم! لكن فرحة بانديليس تسممت في الحال، لأنه رأى

هيلين منكمشة على دكة البواب النوبي. حبيبي بانديليس، ماذا قالوا لك عني؟ كانت تحدثه والدموع في عينيها وأمسكت بطرف ياقته. دفعها بعيدا ودخل في سيارة تاكسي وغادر. في الليلة التي قال لنا باراسخوس عن علاقة الإسكندر الأثري مع بروكس، لم ينتظر بانديليس أي كلمة منها. ذهب إلى هناك وجمع أغراضه من بيت هيلين، قال لها إنهم قد أرسلوه في مهمة في سلاح الغواصات، ولم يتصل بها مجددا. إذن؛ ذهب جهدي وكلامي كي أقنع الآخرين أن نتركه معها هباء، وفوتيروس عن قصد كلما ذُكر اسم بانديليس كان يسأل: ماذا يجري مع هيلين؟

لم يكن هناك أمامي سوى أن أقطع شارع أبو قير كي أتجه نحو الأزقة الشرقية لسبورتينج الصغرى كي أصل إلى منزل المحاسب، مسافة أقل من خمس دقائق. كان الهواء يدور مثل دراويش منتشين، النخيل في الشارع كان ينحني بإيقاع منضبط نحو الخلف بجذوعه النحيلة. والقمر شاردا سقط ضوؤه على نجيل حلبة السباق فراح يلمع مثل سطح من البخار. وجدت المحاسب يجلس مع زوجته في الصالون الكئيب ويصلحون شيئا في جهاز المذياع. أرسلاني للداخل، في غرفة صغيرة تشبه غرفة مكتب. هناك وجدت الضئيل التافه وحده. أغلقت الباب وجلست. كان يعلو وجه الرفيق تعبير غريب، كيف أصفه؟ تعبير المنتصر الغاضب. الطريقة التي رد عليَّ بها تحية المساء، والطريقة التي نظر إليَّ بها، والسيجارة التي أعطاني إياها، وقدمه المعلقة فوق المكتب تهتز بعصبية طيلة الوقت.

ـ الأخبار سارة، أليس كذلك؟

- بلى، لكن فانيس... هل قرأت رسالته؟ سألته.

- بالطبع. أنا من أرسلتها لك. أين تذهب ولا نجدك؟

- إن فانيس ينصح بالتروي.

- حدثت أشياء كثيرة منذ أن كتب فانيس الرسالة. الوضع يتطور. في هذه اللحظة، الجيش والأسطول يوقعون على مذكرة / عريضة من أجل حكومة وحدة وطنية. بالتروي والصبر سنجد أنفسنا في ذيل الأحداث. ماذا تريد. أن تتوقف المذكرة؟

- لا. المذكرات والعرائض تتم بقرار من التنظيم. كل ما نحتاجه هو ألا يتأثر الانضباط. أن نتجنب التطرف والتحديات.

- ولماذا تقول هذا لي؟ إلا إذا كنت تعني بالتطرف رفع الروح القتالية وبالتحدي الحشد إلى الدرجة القصوى حتى نقتنص الفرصة في اللحظة المناسبة. إن لينين في أكتوبر...

- دعك من لينين من فضلك. هكذا كنت في يوليو في الجيش الثاني...

- يعني؟

- الرصاصتان اللتان قتلا بيجمليون. كان في يديك أن تتجنب هذا. لكنك تعصبت وهجت ودفعت الأمور دفعاً. دون أي سبب، ارتجلت ساعة بساعة وجازفت كثيراً. ربما كنت تتوقع من هذا الاضطراب أن تُفتح لك طرق

أو فرصة ذهبية كما كنت تقول من قبل...

اصفر لونه تماما.

ـ يا رفيق، أنا أقاطعك. أولاً: هذا الموضوع قد تم غلقه تماما وبما أنك تفتحه ثانية وتترك تلميحات مضللة، فعليك أن تتحمل مسؤولية ما تقول. الليلة سأكتب إلى السكرتير العام. ثانيا: أنا لم أحضرك إلى هنا كي تسبني. كنت أسألك أين تذهب ولا نستطيع العثور عليك؟

ـ هل تغيبت عن أي موعد؟ هل طلب لقائي أحد ولم أحضر؟ وهل يستطيع أحد العثور عليك إلا إذا رتبت أنت للقاء؟

ـ دعك من هذا. أين ذهبت بزوجة اللورد؟

ـ هذا أمر يخصني.

ـ آه، لا. لقد اتخذنا قرارا يمنعك...

ـ بأن أذهب إلى إلبنسيون. حسنا. لم أذهب قط إلى هناك. بينما أنت ذهبت مرتين، والمرة الثانية كانت في الثالثة بعد منتصف الليل دون أن تعطي سببا. ألم تكفك تجربتك في مرسيليا مع زوجة فوتيروس؟

ـ ماذا تقول؟ آه، لقد صرت لا تُحتمل!

اصفر لونه مرة أخرى وأخذنا نصيح، يبدو أن أصواتنا كانت عالية جدا حتى أن المحاسب دخل وقال لنا أن ننتبه فأصواتنا تُسمع من الشارع.

الضئيل التافه أخرج سيجارة. بينما كان يمد يده ليأخذ الكبريت رأيت يده ترتعش. نظرت إليه مجددا. كانت عيناه تدمعان، لم يكن هذا بسبب الدخان؛ كان يبكي. لماذا؟ هل جرحته في شيء؟

اسمع يا رفيق، قال بصوت قاسٍ نوعاً ما ولكن باعتدال. لقد هاجمتني كثيرا. وبما أنك تريد هذا، سأقول لك بعض الأشياء حتى تعرف من تكون أنت ومن أكون أنا.

دخل المحاسب مرة أخرى حتى يقول لنا إن فينيزيلوس قد بدأ خطابه. خرجنا كلنا وجلسنا في الصالون حول المذياع. من الكلمات الأولى بدا أن الحديث مختلف تماما عن خطاب تسوذيروس في الإستاد: كان هناك معنى لما يقول. أول مرة يتحدثون بشكل رسمي عن جبهة التحرير اليونانية واللجنة السياسية الوطنية للتحرير. لكن لماذا يتحدث فينيزيلوس وليس تسوذيروس؟ رغم كل الاختلافات عليه وعدم دقته في الحديث، الأمر واضح: إنهم يطلبون توافقا من أجل حكومة وحدة وطنية. لكن الحديث كان مقتضبا، رفع فنيزيلوس نبرته بالفعل ليؤكد في كلماته الأخيرة على: «لا يجب أن يكون هناك أي عائق أمامنا لكي نبتعد عن هذا التوافق». تبادلنا النظر أنا والضئيل التافه. وصمتنا، كان لدينا السؤال نفسه: بما أنهم هم أنفسهم الذين يضعون العوائق، ماذا يلوك هذا الرجل: لكن فينيزيلوس أكمل، وهو يشدد على كل كلمة: «... هذا التوافق، الذي ينبغي أن يتم بسرعة وإذا كان هناك بُد فلابد أن يبتعد بعض الأشخاص حتى يسهلوا حدوثه». تبادلنا النظرات مجددا. كان كل منا يقرأ ما في عيون الآخر: أن يبتعد من؟

الملك. سوفوليس والأحزاب الأثينية التافهة؟ زيرفوس؟ تسونيروس؟ بعد جزء من الثانية افترقت فيه نظراتنا عادت تلتقي في الحال، لكن الآن دون أي تساؤل. كانت عيناه ممتلئتين بضوء جليدي، ممتلئتين بالدهشة، كما لو كانت تقول: أرأيتم؟ بعد ذلك، لابد أن تستمعوا إلى ما أقوله جيدا.

ـ هيا بنا للداخل، قال، دون أن يعطي أي اهتمام إلى المحاسب الذي كان يسأل ما رأينا فيما قيل؟

انتَظر كي أدخل ثم أغلق الباب، ذهب خلف المكتب وجلس. جلست أنا أيضا. كنت أنظر إليه. على جانب فمه كانت هناك حفرة بجوارها بروز كما لو كان يمص قطعة حلوى لها طعم سيئ.

ـ سأقول لك سريعا وبحرية، قال. داهمتنا الأحداث وليس لدي وقت ولا رغبة في ترف التحليل النفسي. أتابع تحركاتك منذ فترة، لهذا سأنبهك: لا تحاول أن تدخل بيني وبين فانيس وإلا ستتحطم. نحن وأنت شيئان مختلفان تماما. نحن نذرنا حياتنا لهدف واحد فقط حتى آخر لحظة فيها ولهذا الهدف فقط نعيش. الرفاق الفرنسيون لهم تعريف محدد يقولونه عنا «نظامي، دائم». وهو ما يعني أننا لا نعطي للثورة ما يتبقى لنا من وقت بعد كل انشغالاتنا في الحياة، نحن نعطيها كل وقتنا، عمال أبديون لها. لسان حالنا يصرخ بأننا نمتهن الثورة، ويقولها بامتعاض، لكن بالنسبة لنا هذا هو أعلى ألقاب الشرف. نحن في الخطر نكون الأوائل، ونحن أول من يتحمل المسؤولية. وكل هذا بلا مقابل، ليس لنا نصيب سوى البؤس: قليل

من الخبز حتى لا تفوح من أنفاسنا رائحة كريهة، سترة قديمة حتى نتفادى مراقبة الكلاب مثل المخبرين المتسكعين. المال، فتات، نساء؛ للآخرين، ليست لنا. كيف نحتمل؟ ماذا يغذينا؟ سأقول لك: معرفة أننا في هذا العالم، في هذه الكرة الأرضية حوالي خمسمائة، ربما ألف على أكثر تقدير، ولاؤنا وإخلاصنا ورغبة حديدية توجه بالأساس مسيرة العالم ومصير الإنسانية جمعاء نحو غد أفضل. أنتم، المثقفين، هه! أنتم شركاء قيِّمون بالطبع. أحيانا، من غير عقولكم يكاد النضال يركد أو ينحرف عن مساره. نقدركم ونذللكم، ونجاملكم أيضا. وكأنه من غيركم سيسقط التنظيم في ابتذال فاضح. لكن، بالنظر إلى نفسياتكم! تتورطون في سيل من الشعور بالذنب، تظنون أنفسكم المحاسب المسؤول عن روح الإنسان. تحسبون التضحيات، تسألون لو كان هذا الأمر يستحق هذا المجهود، لو كان ضروريا أن يحدث؛ لا تميزون بين الأمر، أعترف لكم بهذا، لكن لماذا كل هذا العويل، لماذا تحشرون أنفسكم في أمور لا تعنيكم؟ تفحصون وتمحصون في كل شيء دون توقف، وهذا يسري على أنفسكم بالطبع، ربما أكثر قسوة، لكن معاييركم غير موضوعية فهي إما تقدمية جدا أو عفا عليها الزمن، مثل كلاب الحراسة التي تنبح على صوت خطوات المجهولين، بينما هؤلاء يذهبون إلى عملهم، يؤدون واجبهم. والعالم، الغبي بالطبع، يستمع إليكم، بسبب اللامبالاة. فهم يقولون، إن هؤلاء الذين هم من الداخل يعترضون دون أن يكون لديهم أي مصلحة شخصية، مما يعني أنهم على حق، لابد أنهم يعرفون أكثر منا. كيف يعرف هؤلاء السذج الحتمية التي لا ترحم، مفاصل التاريخ الحديدية! وأن في كثير من المرات تسببون لنا الصدع، ونحن نسد خلفكم الثقوب لكي لا

نغرق جميعا. ستسأل، أنتم الذين تعرفون جيدا، ألم تجدوا الدواء لهذا؟ أنا وجدت هذا. لا أعرف عن فانيس: أحاول جاهدا أن أجعلكم تشعرون بتفوق البروليتاريا، بالقيم، بخلفية المقصد. أستغل الشعور بالذنب الذي لديكم لأن حياتكم أسهل وأجبركم أن تقدموا أقصى ما لديكم. أراقب الفنانين بحذر أكبر وأدون رذائلهم، أخطاءهم. أنمي لديهم الرغبة في الاعتراف، الصراحة التامة، وفي تلك اللحظة آخذ منهم تصريحات، والخطيرين منهم آخذ وثائق، خطابات، كتابات نقد ذاتي. أصنع ملفا وأنتظر. يوما ما... ما رأيك؟

ـ أقول إنني إما أني أحلم مستيقظا بكابوس رهيب أو أن ثمة شيئا سقط على رأسك ولابد أن تعرض نفسك على طبيب.

ـ سقط شيء على رأسي، هكذا؟ قال الحمار للعصفور يا صاحب الرأس الكبير. هيئ هيئ هيئ.

ـ أستنام هنا؟

ـ لا. لماذا؟

ـ لأنني أخشى أن أنام معك في البيت نفسه.

ـ هيئ هيئ هيئ.

وهنا همّ وخرج. لم يقل كلمة عن ماذا سنفعل غدا، كيف سنواجه الموقف؟ أرسلت المرأة المحاسب ليقول لي إنها ستفرش لي على أريكة الصالون. استلقيت عليها. أغلقت الضوء وأشعلت سيجارة. دخنت كل

سجائري. لم أشأ أن أزعج أهل البيت، لابد أنهم قد ناموا. جربت أن أستمع إلى أصوات حلبة سباق الخيل كي يمر الوقت. أي أصوات، هل أريد أن أسمع صوت الحشائش وهي تنبت؟ بدا لي في هذه اللحظة أصوات غربان وصهيل الخيل. نمت وفي أذني صوت ضحك الضئيل التافه: هيئ هيئ هي. وأرى أمامي صوت البروز على جانب شفتيه يتضخم، كما لو أنه كان يحفظ في هذه البروز كلامه السام.

في الصباح، وأنا أحتسي القهوة جاءني الطباخ من المشفي. فانيس قد اتصل من القاهرة. كان يريدني في الحال، لابد أن أذهب إلى هناك حتى لو استأجرت سيارة تاكسي.

لكن نانسي لم تقبل أن تتركني أذهب وحدي بأي شكل. هرولت، وقفت بيني وبين الباب وفتحت ذراعيها.

ـ مانوس، لقد حذرتك. لن أضيعك مرة أخرى.

فُتح الكيمونو الذي تلبسه من أعلى إلى أسفل. نهداها، مثل ليمونتين سكريتين يرتعشان، خصرها الضيق، بطنها الأملس، المثلث الداكن. لم أحسن صنعا أنني مررت من هناك. كان يجب أن أتصل بها هاتفيا من الخارج. قرأت في عينيّ ما كنت أفكر فيه؟ تراجعت على الفور وربطت الكيمونو. أخذتني من يدي وأجلستني على المقعد. أمامي لوحة موديلياني.

ـ لا يامانوس. أنت تستخف بي. ليس هكذا بهذه السهولة. تعال لنتناقش بهدوء.

كانت حججها منطقية. كيف سأذهب إلى القاهرة؟ من سيستضيفني؟ وإن كنت لم أقل لها أي تفاصيل عن عملي كانت تخمن الكثير، كانت تربط بين الأشياء فتصيب. على سبيل المثال، خطاب فنيزيلوس في المذياع مع استدعاء القاهرة. كانت تخشى من ثمة فخ. لم تضغط عليَّ حتى أقول لها شيئا، لكنها كانت ممتعضة. لو كانت على الأقل تعرف أين تعيش جوليا ، لكانت أسدت إليها النصيحة... لكن الهاربة من «بروتياس» لم تقل. كانت تتصل من هواتف مجهولة، من محلات البقالة والدخان، هذا ما كانت تزعمه على الأقل. لكن، عمليا، فيم كان سيضايقك إذا أخذتنا ماري كلود بسيارتها؟ نذهب عبر الطريق الصحراوي ونصل إلى القاهرة خلال ساعتين. سننزل نحن الثلاثة في شقة جاك الصغيرة في جاردن سيتي، التي ينام فيها كلما ذهب إلى هناك من أجل اجتماعاته. بالطبع في جاردن سيتي هناك السفارة، أي جويندولين وربما تشارلز، وهي أمام مسكن بيتر. لكن اللعنة، سوف نتوخى الحذر؛ فشقة جاك كانت بعيدة عنهم، خلف قصر أحد الأمراء، وكانت تطل على بعض البساتين التي لا يذهب إليها سوى المربيات مع الأطفال الصغار. سيكون معي امرأتان، نشيطتان وذكيتان ومجهولتان بالنسبة للدوائر اليونانية، ستهتمان بي وتفعلان ما أطلب منهما. أضف إلى ذلك السيارة والشقة والهاتف.

في النهاية اقتنعت بأن كل اعتراضاتي كان مصدرها الزهد أو رغبة في تعذيب الذات، أي رومانسية غير واقعية. وصلت ماري كلود في التو قبل أن تنتهي نانسي من ارتداء ثيابها. وضعنا البنزين في طريق المكس،

داخل دوامات التراب من العربات التي تحمل بكرات القطن والطيور. فور أن دخلنا الطريق الصحراوي انطلقت المرأتان في الغناء: أغاني فرنسية من الجبهة وأغنيات إسبانية للدفاع عن مدريد. لم نتوقف في الريست هاوس ولا حتى لنشرب الماء. في الثانية عشرة تماما كنا قد دخلنا إلى شقة جاك. اتصلت على الفور بالمخبأ. خرجت ماري كلود في تلك الأثناء وأحضرت من جروبي في أكياس ورقية: مكرونة بالبشاميل، شرائح المخ المقلية، مخللات، حلوى، كان هناك ويسكي بالشقة. في الواحدة اتصلت مرة أخرى كما أخبروني.

ـ هناك موعد في الثانية والربع، هل تلحق؟

ـ نعم، لكن أين؟

ـ أه، نعم... هل تعرف في هليوبوليس هناك..

ـ نعم، أعرف. تمام.

استلقت ماري كلود لتستريح. ستقلني نانسي إلى هناك بالسيارة. كان الوقت مبكرا وأرادت أن تذهب بي في البداية إلى مقهى المرايا. لكن فكرت بنضج بأن الطرق لم تكن ممهدة وسوف نضطر إلى أن نترك السيارة ونذهب إلى المقهى ذي المرايا سيرا على الأقدام؛ سنضيع الكثير من الوقت ولم يكن هذا صحيحا. قمنا بنزهة كبيرة؛ لقد حل الربيع والأشجار القارية أزهرت. عبأنا عيوننا باللون الأخضر من أشجار اللبلاب والصفصاف والكافور والتوت والصبار. كانت نانسي تمر من أماكن رأتها من قبل مع رون: الجزيرة، حلبة سباق الخيل، حدائق الأندلس، حديقة الأسماك،

وأخرى بجوار النيل من ناحية حي الزمالك. سألت إذا كان هذا يضايقني؛ فأجبتها على الإطلاق، فرون كان صديقي أنا أيضا. عندها التفتت وطبعت على خدي قبلة سريعة. بموقفي هذا أهديتها هدوءا وصفاءً كانت تبحث عنه. فقد تصالحت مع شبح غيرة رون الذي كان يعذبها حتى من قبل أن نلتقي. الآن جرح الموت قد أغلق، عادت الحياة إلى مسارها. هذا غير أن هذه كانت رغبة رون بالأساس. سألتني إذا كنت مازلت أحب إيمي. قلت لها إن الأمر ليس كذلك بالضبط، وأن الحديث في هذا الموضوع يضايقني بالفعل. قبلتني مرة أخرى.

بعد قليل قالت إنها تفكر جديا أن تذهب إلى بيتر وتفتح معه حوارا. شيء أشبه باصطياد المعلومات حول الشأن اليوناني. قلت لها ألا توقظ الشيطان فإن له أذرعا كثيرة. اقتنعت. ثم ضغطت على دواسة البنزين: كانت تقود السيارة بسرعة وحذر. على مبعدة مائتي متر من كافيتريا بالميرا نزلت. أرادت أن تنتظرني لكي نعود سوياً. شرحت لها أن هذا مستحيل. قبلت أن تغادر؛ ستذهب إلى ماري كلود وتنتظر اتصالاً مني لتأتي إلى هنا. رفضت هذا أيضاً. قلت لها إنني سأتصل بها فقط في حالة إذا ما كنت في خطر، غير هذا سآتي وحدي إلى الشقة عندما أنتهي. قالت بنبرة ذات مغزى، سيكون هناك طعام في انتظارك. شكراً يا نانسي، أنت في غاية الرقة.

ـ ما الأخبار؟ ما الذي جاء بك إلى هنا؟

ـ كانت أولى كلمات فانيس فور أن رآني جالساً على طاولة في عمق الكافيتريا أحتمي من الشمس.

لم يجلس، بدا متعجلاً. نهضت، وضعت النقود على الصينية ثمن القهوة التي شربتها. ابتسم.

ـ أتسألني أنت ما الذي جاء بي إلى هنا؟ ألم ترسل في طلبي؟

ـ قال، أنا، إطلاقاً، وصارت الخطوط في وجهه أكثر قتامة. هل تم إبلاغك عبر المصدر المعتاد؟ نعم؟ مع من كنت بالأمس؟

قلت له. أضفت أننا سمعنا معا خطاب فينيزيلوس.

ـ هل تحدثتما في الأمور القديمة؟ حسنا، ستحكي لي فيما بعد. الآن، فهمت معنى الرسالة التي أرسلوها إليّ. السيارة في انتظارنا.

على عجلة القيادة كان يجلس ملازم في المدفعية يرتدي الملابس المدنية. نظارة شمسية كانت تخفي عينيه الجاحظتين، إنهما عينان ملفتتان. فهمت هذا من شكل أذنيه النافرتين المحمّرتين. عرفته بنفسي. ضحك. كان من جماعتنا، لكنه لم يكن عضوا بلجنة الثلاثة عشر. جلسنا أنا وفانيس في المقعد الخلفي ثم تحرك السائق.

ـ لماذا جعلتموه سائق تاكسي؟ سألت.

ـ إنه على وشك النوم. لم يذق النوم لليلتين. أجهدناه كثيرا في السيارة. مشكور الرفيق، قال فانيس وهو يشير بذقنه إلى السائق. هيا بنا بسرعة.

ـ حسنا، قال الآخر وزاد من السرعة. لماذا لا تقول أنت منذ متى لم تنم؟ كما لو أن الألقاب التي أحملها لا تكفيني، هل يجب أن أكون طبيبك أيضاً؟

ـ وما هي تلك الألقاب؟ سألت.

ـ سائق وحلقة الوصل وحارس السكرتير العام، قال الضابط بجدية.

كان فانيس غارقا في التفكير. ضرب بكفه على ركبته فجأة كما لو أنه تذكر شيئا.

ـ آه، ياللرجل! لقد خدعنا مرة أخرى.

ـ أي خدعة؟ سأل الآخر.

ـ لا شيء لا شيء كنا نتحدث فيه من قبل. من الأفضل أن تحكي للرفيق عمّا حدث في كتيبة المدفعية.

هذه الكتيبة تعسكر هنا بالقرب من هليوبوليس. قائد الكتيبة لم يترك مذكرة الوحدة تنتشر ونصف الرجال تقريبا أبدوا تضامنهم مع اللجنة. وضعوهم في كاميونات إنجليزية وأرسلوهم إلى معسكر بالقرب من الأهرامات. لكن هؤلاء الذين بقوا أبدوا استياءهم وطالبوا بعودة زملائهم. المندوب الإنجليزي بالطبع استشاط غضبه.

ـ هذا سيئ، قلت.

ـ هذا سيئ جدا، اتفق فانيس. لكن ماذا عسانا أن نفعل؟ هل كان قرار نشر المذكرة صحيحا؟ لم يكن لدينا الحق، في اللحظة التي تطالب بها اليونان بأكملها بحكومة وحدة وطنية، نبقى نحن صامتين وهم يستعملون

القوات المسلحة في الشرق الأوسط في لعبة ميكافيلية من أجل تسوذيروس والإنجليز. أتفهم؟ تأسيس اللجنة السياسية القومية للتحرير لم يكن ممكناً أن يتأجل، كان قرارا لا مفر منه، من طلبه؟ لكنه وضعنا في ورطة كبيرة. لو تصنعنا عدم المبالاة كان هذا سيعني أننا نستنكر الأمر، كما لو أننا لسنا أبناء غير شرعيين أو مهاجرين يونانيين. في الوقت الذي نعرف فيه مكائد الإنجليز والعملاء في أثينا، والاتصالات مع الألمان، ونرى الخانعين الذين يجلبونهم من هناك ويلبسونهم الزي العسكري. لو أننا مسؤولون أمام الشعب الذي تركناه وجئنا إلى هنا في الرفاهية لكي نحارب ونتخذ مواقف محايدة، سنكون مسؤولين أمام الشعب عشرة آلاف مرة. طبعاً، تواجهنا مخاطر. أولاً: أن يتهمنا الإنجليز أننا ننتهك النظام العسكري. لكننا نعود بهم إلى خريطة الأطلسي. لايوجد أي قانون أو معاهدة تعطيهم الحق أن يقسموا شعبا حليفا ويعملوا على خلق حرب أهلية على أرضه. نحن لا نطرح قضية النظام ولا نبحث عن تغييرات اجتماعية. هذا الشيء سيقرره الشعب السيد بعد التحرير. لكن لن نتقاتل فيما بيننا لأن بعض امتيازات الإمبراطورية البريطانية في خطر! الخطر الثاني: ربما سنعطي سببا للفاشيين من ذوينا أن يتحدونا ويسببوا بعض العراقيل. توقعنا هذا. قلنا أن نحافظ على الانضباط مثل أعيننا. نحن لا نجبر أحدا على التوقيع. من يرفض ويستمر في أداء واجباته العسكرية له كل الاحترام والطاعة. لكن عليك أن تعرف أن الغالبية من الجنود والضباط قد وقّعوا وهم متحمسون. أي غالبية، من الأفضل أن أقول الجميع. في كتيبة القصاصين وكبريت بعض الفاشيين حاولوا مضايقتنا. حيدناهم. لانعرف ماذا حدث في اللواء الأول.

لكن البحارة ينضمون متحدين دون أي حوادث. في الأسطول لا تواجهنا أى مصاعب.

- في هذا الصدد أريد أن أقول لك شيئا.

- أعرف. فيما بعد. في الليل سيكون لدينا وقت. لكن انظر أين أريد أن أصل بحديثي. نستطيع أن نسقط تسونيروس الليلة. لكن ماذا بعد؟ من سنضع مكانه؟ لو أنهم أذكياء سيضعون فينيزيلوس، سيضعونه أمام فولغاريس وكل شيء سيصبح على مايرام. لكن العقدة هنا. لماذا يكون حل كهذا يجب أن يوافق عليه الإنجليز أولاً، فيما سيفيد هذا الوضع؟ لا شيء، حفرة في الماء. نحن نشرح لهم أن طموحاتهم الشخصية لا تعنينا على الإطلاق. مايعنينا هو أمر آخر: نحن لا نريد تقسيم اليونان. شعبا واحدا، حكومة واحدة، جيشا واحدا. كل من يعمل من أجل هذا الحل هو منا وندعمه. لكن نريد أفعالا، لا أقوال. لقد شبعنا من الكلام.

لساعات كنا نتجول في القاهرة بالتاكسي الذي كان يتوقف بين الحين والآخر، تارة على ناصية زقاق، وتارة في مقهى ناءٍ، وكنا نأخذ الشخص الذي ينتظرنا. نجلسه في الخلف، فيقول بسرعة ما لديه وينتظر الإرشادات. كان فانيس بهدوء يفك كرة الخيط كلها؛ ببطء كما لو أن لديه الدهر كله ليفحص كل معلومة؛ بعد ذلك كان يلخص ويطلب من الشخص أن يقول له ماذا يعتقد أن تكون الخطوة المقبلة. أحياناً كان يصحح، لكن في أكثر المرات كان يقول جملته الكلاسيكية. إيه، انظروا ماذا بوسعكم أن

تفعلوا. في النهاية كان يحدد زمان ومكان اللقاء القادم ثم ينزله من السيارة. كان نادراً ما تثار أعصابه أو يغضب. وحينما كان يحدث هذا كان صفير أنفاسه يُسمع بوضوح. عادة ما كان يحدث هذا عندما يحكي البعض عن بطولاتنا. لكنه كان سريعاً ما يهدأ ويعتذر ويحيل الغضب لكثرة السهر. تخطى مشكلة العريضة. آلاف الأوراق الموقعة. لابد أن نجمعها حتى يُقرر لمن سيتم تسليمها.

ـ سأل فانيس. ما رأيك؛ هل نرسلها إلى أمك؟

ـ في كيفيسيا؟ ضحك.

ـ إلى أريان! كيف حال ابني مانوس، اعتنوا به كثيراً. هذا ماتقوله لي دائما كلما رأتني.

ـ لتكن دائما بخير. كم أفتقدها وأريد أن أراها!

ـ هل تعرف أن صغيرها كاد أن يضيع في غواصاتنا التي أغرقوها. لكن أنقذه الألمان وهو الآن أسير لديهم.

ـ يجب أن أمر عليها ذات يوم.

في النهاية تم تقرير أن تذهب المذكرات إلى الإسكافي. شخص يسكن في شبرا وهو من قرية فوتيروس. أذكر بيته، كان يسكن على أحد الأسطح. كنا قد عقدنا اجتماعا هناك قبل عام.

في الساعة الرابعة أخذنا أول ضابط من اللجنة. كان برتبة مقدم وكان له أنف معقوف وعينان سوداوان، بهما شغف وجنون يجري بداخله. قال لنا عن الإجراء الذي اتخذته لجنة الثلاثة عشر في الصباح مع تسوذيروس. كان فنيزيلوس واقفا خلف رئيس الوزراء، وعلى وجهه نظرة مغلقة ووجهه بلا تعبير مثل لاعبي البوكر. كان تسوذيروس عصبياً. حاول في البداية أن يخيفهم؛ لكن أبو الهول الذي خلفه لم يهتز مطلقاً؛ فحول الموضوع نحو الوطنية. لكن الثلاثة عشر لم يطلبوا منه أن يستقيل. قالوا له إنه إذا لم يتم التحرك سريعاً لتشكيل حكومة تكون قاعدتها اللجنة السياسية القومية للتحرير، سيتنصلون هم من المسؤولية عمّا قد يحدث. علق فانيس باقتضاب: الأمور تشير بشكل عام أنها تسير في اتجاه جيد. لكن الأمر يحتاج أن نسير بترو وحكمة. لن نستطيع أن نتجنب الهجوم المضاد. كان يعرف تسوذيروس، إنه شخص انتقامي مثل كل البيروقراطيين.

بعد نصف الساعة أخذنا في التاكسي شخص أصلع وسمين، له أنف أفطس فتحتاها مشعرتان. كان يعمل ساقيا في بار، أي مساعدا، كان هو من يصنع الساندويتشات في أحد المطاعم الكبيرة في شارع فؤاد. كان يمسح عرقه باستمرار بمنديل ورقي، قال لنا الأخبار. إن نيسيريو الذي هو في لجنة التواصل لديه معلومات إيجابية أن تسوذيروس طلب عقد اجتماع وزاري، حيث تقرر بالإجماع أن تتخذ الإجراءات اللازمة في اللواء الرابع في القصاصين وكبريت وفي سرية المدفعية؛ أن يتم القبض على لجنة الضباط وأن يتم حبس القائد.

ـ بهذه السرعة؟ قال فانيس وهو ينظر إليّ.

انظر يا صديقي، التفت وراح يحدث البارمان: التمس لنا العذر لأننا سننزلك فجأة. هل لديك نقود؟ خذ سيارة تاكسي أخرى وعد بسرعة. قل لهم هناك التالي: إن فانيس يتفق مع رأي نيسيريو وعلى كل أعضاء لجنة التواصل أن يبدلوا محل إقامتهم حتى لا يقبضوا عليهم وهم نائمون. لكن يجب ألا يفعلوا شيئا غير قانوني. على الأقل الآن. الأداء يستمر على النهج نفسه، بقوة ووضوح. هم يعرفون ما يجب أن يفعلوه. هيا الآن، سلام، لماذا ترتعش؟ هل أنت خائف؟

ـ خائف أنا؟ هذه عادة عصبية، قال السمين لكنه لم ينزل؛ تسمرت عيناه على قفا السائق ثم سأل: هل هو معكم؟

ـ بالطبع يا أبله! قال السائق وهو ينزع نظارته.

ـ اللعنة! أهذا أنت يا سيادة الملازم؟ كنت أقول في نفسي، هل أصابهم الجنون هؤلاء ويتحدثون هكذا أمام رجل غريب؟ لابد أنك أنت فانيس؟

ـ نعم أنا، قال الملازم وهو يخفض جفني عينيه الجاحظتين تواضعاً.

ـ إذن، فلتسقط الفاشية! سوف ننتصر! قال السمين وهو يقفز من التاكسي.

ـ أيها الملازم الرفيق، قال فانيس بعد قليل. هل فهمت الآن أن طريقنا يتغير؟ باقي المواعيد ستقوم بها وحدك. لكن الآن لابد أن تدور على كل

الأماكن وتبلغ الضباط أن يختبئوا. كل من ليس لديه منزل وجههم نحو فيلا الأرميني، لكن بحذر شديد، اتفقنا؟

ـ في السابعة لدينا موعد عند الرائد.

ـ حسنا، عُلِم. سنقابله معا. عليك أيضا أن تبلغهم أن يتجنبوا أي استعراض للقوة. لا تستفزوا أحدا. سأحتاج هاتفا آمنا. هيا بنا إلى الخياطة؟

ـ الخياطة لا، لقد قلت لك قبل ذلك، قال الملازم بغير صبر. هناك يدخل ويخرج أناس كثيرون. كما أن مكانها بجوار المديرية.

ـ أتريد هاتفا الآن؟ سأذهب أنا معك، قلت، ثم أمليت عليه عنوان شقة جاردن سيتي.

ـ دعه ينم ولو ساعة، لو أن الأمر سهل عليك، قال الملازم، وبالطبع لابد أن يأكل شيئاً فقد يفقد وعيه من الجوع.

ـ ومغطس في حمام، قال فانيس ساخرا. حسناً يا رفيق. في السابعة إلا عشر دقائق بالضبط ستكون تحت المنزل الذي سنذهب إليه. لا تدق بوق السيارة، لا تتوقف. فقط لو رأيتنا قم بإشارة ما.

كانت الساعة حوالي الخامسة. الشمس تغرب خلف جزيرة الروضة وترسل أشعتها بميل فوق مياه النيل بلونها النبيذي من خلال نباتات الصبار الضخمة. العصافير جُنت وراحت تطير في أسراب من شجرة إلى

أخرى و صوت رفرفة أجنحتها يغطي على أصوات الأطفال الذين تنادي عليهم المربيات لكي يغادروا. أمام البناية كانت سيارة ماري كلود متوقفة.

- إلى أين تذهب بي؟ سأل فانيس عندما دخل إلى المصعد وهو يتفحص جداره المخملي وخشب الكابينة والمرآة الطويلة.

شرحت له بسرعة. كان المصعد يصعد ببطء بشيء من الفخامة. كانت الشقة في الطابق الخامس. نظر إلى فانيس في عيني وبدا عليه القلق.

- هل فحصت المكان جيدا يا مانوس؟ تأكدت من أنه ليس به أي أسلاك أو خيوط؟ اعذرني لأني أذكرك بمثل هذه الأشياء لكن كما تعرف؛ في هذا الشأن لابد أن نكون في غاية...

- الدقة، أكملت له الجملة كي أساعده. أنا لست مبتدئا يا رفيق.

- إذن فأنت تتحمل المسؤولية كاملة، استنتج بارتياح.

خرجنا من المصعد ثم وضعت إصبعي على الجرس. سمعت نانسي تهرول وهي تصيح لماري كلود: إنه هو. أنا أعرف كيف يدق الجرس. فتحت الباب باندفاع. كانت عيناها سماء زرقاء بنفسجية مليئة بالنجوم؛ أسنانها؛ ابتسامتها؛ لم أعتد عليها بعد. لتكن دائما هكذا وليكن لدي دائما الشعور بأنني أراها لأول مرة، لن أمَلّ أبدا. رأت فانيس. مدت لها يده وجذبته إلى الداخل. ثم جذبتني أنا وقبلتني أمامه في فمي وهي تغلق عينيها. أنا أشرت نحوه بإصبعي مرتبكا: صديق، يحتاج إلى تليفون، قلت بأسلوب غبي.

جاءت ماري كلود. مصافحات ومجاملات. فانيس بهدوء كان يشكرهما بالفرنسية التي كان ينطقها بشكل بشع كأنه يقرؤها بحروف يونانية؛ ولكنه لم يكن مضحكا، كان إنسانيا جدا؛ ربما لأنه لم يحاول أن يتصنع أو يحاول تغيير لكنته. المرأتان تصرفتا وكأنني قمت بتدريبهما، تركتاني في منتصف الصالة وهرولتا خلفه. وضعتا له مقعدا أمام التليفون، سألتاه إذا كان يريد الويسكي، قلت لهما إنه جائع، هل تبقى أي طعام من الغداء؟ صفقت نانسي بسعادة. كانت في تلك الأثناء قد ملأت البراد بدجاج مسلوق وكبد الأوز والجامبون والخس والبيرة. ذهبتا إلى المطبخ لتعدا الطعام.

ـ حتى الآن قبضوا على اثنين، رائد والمقدم الذي قابلناه في الرابعة، قال فانيس وهو يضع السماعة.

ـ إلى أين يريد تسوذيروس أن يذهب ؟ سألت.

ـ بل قل تشرشل وليس تسوذيروس. لقد أخطأ خطأً جسيما. أظن أن زملاءه الأعزاء دفعوه نحو هذا الخطأ. إنهم يلعبون دور الوصيف: عرقلة من هنا، انقلاب من هناك... إنهم مثل مساعد الساحر: يحرك العصا دون أن يعرف أنه سيفتح أبواب السيول من السماء سوف تغرقهم. من الممكن غدا أن يتعطل كل شيء: وزارة الحربية والمديرية واللجان. من المستحيل أن نستطيع تهدئة الضباط. أهين كبرياؤهم كما ترى. سوف يتضامنون مع المقبوض عليهم. لا أرى أن تسوذيروس سيكمل أسبوعاً في موقعه. لكن ماذ سيفعل الإنجليز؟ تلك هي المسألة.

ـ ماذا سيفعلون؟ هذا شأن يوناني. سيغضبون قليلاً ثم في النهاية سيبتلعون الأمر كله مثلما حدث في مارس.

ـ لا يا مانوس. يجب ألا نعيش في الأوهام. إن تشرشل ينظر بعيدا، هو يهتم بأمر إمبراطوريته. ولو أن الجيش الأحمر مازال في فولجا... لكن كما ترى، هذا لا يحدث. يأتي الخير دائما محملاً بالشر بين طياته.

ـ إذن؟

ـ لماذا بدأنا؟ أتسأل؟ لماذا قاومنا الفاشية؟ هل تتذكر ماذا قال هيبوليتوس؟ «المسار الذي بدأناه علينا أن نكمله، إنه المسار الصحيح. لكن... نحن نسير في الظلام، لتعلموا هذا الأمر». ثم إن الحرب لم تنته، مازلنا سنرى الكثير. ونستطيع أن نفعل الكثير. تشرشل ليس وحده، هناك الرأي العام العالمي. وهذا ما أخشاه. لابد أن نحشد الأصدقاء الأجانب، عليهم أن يتواصلوا مع المراسلين من وكالات الأنباء. هاتان الاثنتان هل بإمكانهما مساعدتنا؟

ـ سوف أسألهما؟ لم أفكر في هذا من قبل.

ـ إيه، انظر ماذا بوسعكم أن تفعلوا.

دقت ماري كلود الجرس من الداخل لتخبرنا بأن طاولة الطعام صارت جاهزة. قام فانيس بمكالمتين إضافيتين ثم جاء بعد ذلك إلى المطبخ. جلست نانسي أمامه لتعطيه الأطباق. جلست أنا بجواره. ماري كلود كانت واقفة تقشر البرتقال.

- لابد أن تعود إلى موقعك بأسرع مايمكن، قال فانيس. كيف نجح صديقنا أن يبعدك بهذه البساطة!

بدأت أتحدث عن وجهة نظري بخصوص حل الجيش الثاني. نظريات الضئيل التافه عن المهنيين والمثقفين. خوفي من أنه ربما يدفع الأمور نحو التطرف. كان فانيس ينصت، يهز رأسه، ويأكل. كانت نانسي تتابعه بعينيها تارة وتتابعني تارة أخرى. كانت تفهم كل شيء. علاقتنا، موقعه، الاحترام الذي أكنه له. وكلما فهمت كلما صارت نظرتها أكثر رقة في ذلك الضوء البنفسجي الذي يشع منهما، أخذت تتفحص جبهته بترو، التجاعيد التي حول عينيه، شفتيه العريضتين، شعر ذقنه. ملأت له كوبه بالبيرة. ختمت كلامي قائلاً إن الشيء الذي يتخطى مدى استيعابي هو التكتيكات الشريرة التي يقوم بها الضئيل التافه ضدي.

- إيه، ربما تبالغ يا رفيق، قال لي بحزم. يمكن أن تقول إن لكلٍ منا مشاكله. ليس فقط فنيزيلوس وتسونيروس هما من يتشاجران، أليس كذلك؟

تدريجيا حوّل الموضوع إلى المرح. ثم صار جديا مجددا.

- في الحقيقة أننا نحن أيضاً لدينا طموح ما. لكنه مختلف، دون إنكار الذات. كل شخص يؤمن بصراحة أنه يخدم النضال بشكل أفضل.

- قهوة. سألت نانسي التي فهمت أن الجملة الأخيرة لم تعجبني.

- ليس الآن، شكرا. أظن أنني سوف أنام ساعة لو كان هذا ممكنا. لو لم أستيقظ في السابعة إلا الثلث. اركلوني حتى أفعل.

وهكذا قُطع الحديث وأغلق في غرفة النوم. عندما ذهبنا كي نوقظه ومعنا القهوة، وجدناه على الأرض وقد طوى جسده. لم يجرؤ أن يدخل إلى الفرش الحريرية والملاءات المشغولة. وتحت رأسه وضع حذاءه كوسادة.

XIV

نمنا والنوافذ مفتوحة. بجوارنا النيل فيأتينا منه الندى. بالقرب من الفجر طوينا اللحاف الكبير فصار مزدوجا ثم تغطينا جيدا إذ أردنا أن نتدفأ. غصنا في النوم مرة أخرى. لاحقا، اعتدلت واستلقيت على ظهري ثم جلست على الفراش واتكأت برأسي على رأس الفراش الذي كان مغطى بالستان. لا أدري لماذا، رحت أفكر في كلمة «بلبل» بالعربية؟ ربما لأنه في حديقة قصر الأمير كان يصدح صوت تغريد كريستالي مرتعش لعندليب. في الوقت نفسه من سديم النهر كان يتصاعد صوت صافرة مكتوم لزورق يمر في النيل. جذبت اللحاف نحوي وغطيت صدري؛ وضعت طرفه تحت أنفي: كانت له رائحة اللافندر واللوز المر. كانت نانسي نائمة مستلقية على بطنها دون وسادة. مددت كفي وأمسكت بشعرها الأسود اللامع. «عبق الكرفس يفوح من تموجات شعرك» مثلما كان يقول الشاعر فارناليس. هل يمكن يا تُرى في خضم جحيم الاستعمار هذا أن توجد مثل هذه الومضات من الإحساس؟

أمسكت نانسي يدي بيدها اليمنى ووضعتها على السرة. داعبتها، فراحت تصدر صوتاً مكتوماً. بدأت أنزل فقرة فقرة حتى وصلت إلى

عمودها الفقري؛ عندما وصلت تحت خصرها اقشعرت؛ رفعت ركبتها قليلاً، وضعت ساقها على ساقي وضغطت. سريعا عدت إلى السرة مرة أخرى. « حرب في هذه الرفاهية!» من قال هذا؟ آه، فانيس. بالأمس. و... « أليس إثما، نحن... بالصابون المعطر...وهناك... من أجل قطرتين من الزيت؟» كان بانديليس يسأل. وأنا، ما الذي أفعله في هذه الملاءات المعطرة لأحد المصرفيين وفي أحضاني امرأة إنجليزية أرستقراطية؟

في يوم كهذا يمكن أن تكون هناك دماء تراق، أن يتحدد قدر شعب لسنوات هنا في الشرق الأوسط وعلى الناحية الأخرى من المتوسط في وطننا؟ ثمة خطأ ارتكبته فتغير مساري.

ـ لماذا توقفت؟ ماذا تذكرت؟ قل لي، فيم تفكر؟

كان رأسها على صدري مائلاً. أظلمت البحيرة الزرقاء البنفسجية كأن على مائها تمر أسراب البط البري.

ـ أفكر في أنني ربما أخون رفاقي. هذا ليس عدلاً، لا أناضل معهم على أسس متساوية.

ـ كلام رون نفسه! الإحساس الغريب بالذنب! لماذا لا تقبل الأمر ببساطة؟ انظر إلى صديقك بالأمس.

ـ بالضبط، صديقي...

ـ أعرف، ستتحدث عن الحذاء. لكنه لم يكن يقصد شيئا بهذا. لكنه مهذب وكتوم ومتميز. وإلا لم يكن ليقبل أي شيء منا، لا طعام ولا حتى كوب من القهوة..

ـ هنا يكمن الفرق. إن صديقي ثوري واقعي: إنه يستغل عالمك. أما أنا فلا أقبل هذا.

ـ هذا ليس حقيقة، وإلا كنت سأمنعك. ثم لماذا تقول عالمك؟ ما هذه اللعنة التي تحل بالرجال فلا يحتضنو الإنسان أو جسدي على أى حال ولكن شجرة عائلتي! ما الذي يجب أن أفعله لكي تقبلني في عالمك؟ أتريد أن أتخلص من كل شيء، أن أرتدي الخرق وأسير حافية؟ أو، صدقني سأفعل ذلك بكل سرور، لكني أعرف أنه لا جدوى من هذا، لكن يكفي أن تطلب مني هذا. إذا كنت تعتبرني غريبة عنك أعطني عملا، أريد أن أساعد. دور دمية العشق والجنس صار يثير اشمئزازي.

طرقت ماري كلود باب غرفة النوم من الخارج. متأخراً ليلة أمس رغم كل اعتراضي ورفضي، لم تقبل أبداً أن تشارك نانسي في الفراش ونامت على الأريكة في الصالة.

ـ لحظة، صاحت نانسي.

قفزت، لملمت سروالها الداخلي من على السجادة ثم مسحت به دموعها، ووضعته بسرعة تحت اللحاف، وهكذا كما كانت، ذهبت وفتحت الباب. كان الخط الغائر بين لوح كتفيها وحتى أسفل يتمايل بإغراء مثل حية واقفة. تبادلت المرأتان تحية الصباح وبطرف شفتيهما تبادلتا القبل من بعيد. رفعت ماري كلود صينية عليها كوبان. كان السائل بهما يشبه عصير الليمون أو الجريب فروت. قدمت واحدا إلى نانسي ثم جاءت نحوي

وأعطتني الكوب الآخر. رأيت نانسي تلوي قسمات وجهها ممتعضة لكنها ابتلعت ببطولة، قبل أن تصيح.

- إنها خدعة أول أبريل يا مانوس. لا تشرب!

- يا مخادعة، لقد أفسدت جهدي، قالت الأخرى وهي تأخذ الصينية.

في هذه اللحظة دق الهاتف. ذهبت ماري كلود.

- إنه الرجل الذي كان بالأمس، قالت عندما عادت: قال لي، بونجور جو فى مون أميي جريك!

لكن كيف أذهب عاريا؟ أخرجنا ماري كلود من الغرفة ولففت حول جسدي كيمونو نانسي التي جاءت خلفي حافية وهي تضع يدها على ظهري. أخذت السماعة. كانت تسمعني وهي تضغط على شفتيها.

- ما الأخبار؟ أنا قريب منك. هل أستطيع الصعود؟

- وهل تسأل؟

وضعت السماعة؛ أنزلت نانسي يدها. دون أن أقول لها شيئا راحت ترتدي ملابسها. وأخذت صديقتها تلملم فرشتها من على الأريكة.

- نادتها ماري كلود. هذه ليست كذبة أبريل. لدينا عمل.

بأي أخبار يأتي فانيس يا تُرى؟ في كل مقابلة يضيف تطورا للوضع. كان عنصرًا وعاملاً للتغيير في حد ذاته كشخص. أنا، تقلص دوري في التعليق

والمرافقة وأن أكمل الجملة. لم تكن هناك أي مبادرة مني: سلبي تماماً. تُرى، هل كان الضئيل التافه على حق؟

في الحقيقة أنني فعلت شيئاً في ليلة الأمس. في السابعة وخمس دقائق ركبنا التاكسي وذهبنا إلى الرائد الذي كان يتقافز في عصبية وهو ينتظر على كوبري الجيزة. وعندما قام فانيس بتقديمي:

- قال، آه، سيميونيذيس. قالوا لي إنك من كتبت عن مواقف الضباط قبل عامين في معسكر بيت ليد. أنا سعيد أنك ستكون معنا في الاجتماع.

أي اجتماع؟ الآن قال لنا إن أعضاء اللجنة الذين تم القبض عليهم صاروا أربعة وإن البقية سيجتمعون في فيلا الأرميني ليتخذوا بعض القرارات. سأل فانيس ملازم المدفعية كيف حدث سوء الفهم؟ ألم يقل له أن يذهب إلى فيلا الأرميني هؤلاء فقط الذين ليس لديهم بيت يختبئون فيه؟ الآن، من بين الثمانية سيكون بالطبع رائد آخر له بعض المصالح في مصانع معروفة في أثينا، صديق حميم من بلدة ميتراكيس نفسها ومن صحبته الدائمة. في اللجنة كان يمثل أنصار فينيزيلوس - بقوة. كان من المتعصبين ضد تسوذيروس. حتى لو صرفنا النظر عن قواعد التنظيم لأنه على افتراض أن الظروف حتمت علينا هذا، كان من الصعب أن يقبل سيادة الرائد هذا حضور جندي عادي في اجتماع ضباط. الناتج من هذا، اقترح فانيس أن يبقى هو في سيارة التاكسي وأن أذهب أنا بدلاً عنه. قال الملازم مدافعا ومعتذرا: لقد نقل الإرشادات بدقة، لكن الضباط بشكل عام هم رجال لديهم

فَهم مختلف عن الانضباط والشرف والعمل السري.... فبما أن هذا الرائد هو عضو في اللجنة، فمن الطبيعي أن يكون أحدهم قد أخبره عن الاجتماع. من كان صاحب الاقتراح؟ لا أحد؛ هذا من الإجراءات التي يتغاضون عنها تلقائيا في مثل هذه الظروف. خرقنا الاتفاق مع الأرميني بألا تستخدم الفيلا للاجتماعات؟ نعم، لكن ماذا يمكن أن نفعل الآن؟ أما بخصوص فانيس، كان رأي الملازم أن يبقى في التاكسي. وهذا ليس بسبب الاعتراضات التي يمكن أن يبديها رجل الصناعة ـ فعلى كل حال نحن أغلبية ويمكن أن نفرض عليه ما نشاء ـ لكن بسبب حراسه. الرائد الذي كان يجلس بجواري اتفق على الفور؛ أن وجود مجند في اجتماع ضباط سيعطي انطباعا بأننا نتعامل بأسلوب وعلى مستوى سوفييتي وأنه كان لزاما علينا أن نتجنب هذا بأي طريقة مادمنا نصر أن يكون نضالنا على مستوى قومي، أي ليس فئوي. أخذت الكلمة كي أقول إنه على العكس تماما؛ الطابع القومي لمطالبنا يضمنه لنا التوافق التام والتعاون المكشوف بين الجنود والضباط. لكنني اتفقت أنا أيضا مع الرأي أن فانيس لابد ألاَّ يحضر الاجتماع لأن الوضع كما وصفه الملازم لن يجعلني أندهش إذا تعرضنا الليلة لأى مداهمة.

انحرف الملازم يمينا، سلك الطريق الترابي كما لو كان في طريقنا نحو ليبيا. على التلال وفي مقابل السماء المخملية الخالية من النجوم، ارتسمت الكتل المهيبة للأهرامات. سلكنا شارعا ترابيا آخر، لكن هذا كان يسير بموازاة قناة صغيرة تفوح منها رائحة عفنة لمواد كيميائية. كل أربعين مترا كانت هناك أعمدة التليغراف منصوبة، بدت قصيرة بعض الشيء، وعلى

أسلاكها تجلس أسراب السنونو. بعد أن عبرنا طريق القناة رأينا أمامنا أنوار قرية وسمعنا نباح كلاب من هناك. أغلق الملازم أنوار السيارة وسار قليلاً في الظلام. بعد قليل توقف. سأل فانيس لو أن لديه رصاصا في سلاحه وعندما أجابه، فتح باب السيارة وطلب منا أن نتبعه. غاصت أحذيتنا على التو في الطين. الرائد كان يسير خلف الملازم وأنا بعدهما. سرنا في حقل قمح، شعرت بسنابله الغضة على ارتفاع حزام بنطالي؛ تسببنا في كارثة لأصحاب الحقل بسيرنا فوق مزروعاتهم... في لحظة سمعنا صيحة «قف!». أعطى الملازم كلمة السر، ثم بعدها التأكيد على كلمة السر. سرنا في فناء ضيق أو درب. عندما رأيت من بعيد غابة أشجار البلوط الصغيرة فهمت إلى أي فيلا نحن ذاهبون. قبل عام جلست هنا أنا والضئيل التافه نتحاور في شيء لا أذكره بالضبط، أظن أننا كنا نتحدث عن خططنا بعد الحرب. لكن حينها جئنا من طريق أسفلتي وليس في السر. للمرة الثانية «قف!». ومن هذه النقطة وصلنا بسرعة، مسحنا أحذيتنا من الطين ثم دخلنا في الصالة التي كانت مملوءة بالأصوات والدخان. انظر. إنه سميونيذيس، كانت هذه هي أولى الكلمات التي سمعتها بوضوح. كان الجرح الغائر على جبهتي يُميِّزني مثل الختم على الذبائح.

صباح الخير، ما الأخبار؟ قال فانيس وهو يلهث رغم أنه صعد بالمصعد: أبليت بلاءً حسنا ليلة أمس، قلت لهم كل شيء بهدوء؛ ربما تكون قد أقنعتهم. لكن النشطاء الأقوياء منهم يفعلون ما يحلو لهم منذ الصباح. على رأسهم تدري من؟ رجل الصناعة. ليلة أمس رفض نائب القائد أن يتسلم

الضباط الأربعة من اللجنة. ذهب وأغلق على نفسه السجن معهم. اليوم، انضم جنوده إلى جانبه والقائد هرول إلى تسونديروس ليقدم استقالته. على الجانب الآخر تم حشد النساء، الأرصفة حول مبنى الوزارة امتلأت. يعدون لتظاهرة. لا يمكن أن نتراجع. لابد أن يتم تحرير وإخفاء الضباط . السيارة خلف العمارة هي للفتيات؟

لو كان يقصد السيارة الرمادية ذات الأرقام السكندرية، فهي كانت لماري كلود. هل نحتاجها؟ سألت.

الخطة هي أن أتخفى بقبعة ما، أن أجلس على عجلة القيادة وأصف السيارة أمام بوابة البناية التي بها الخياطة، خلف المديرية. السيارة ستكون على أهبة الاستعداد. من الساعة العاشرة وحتى العاشرة والربع. فور أن أرى المقدم الذي قابلناه بالأمس وربما شخصا آخر معه، أفتح باب السيارة ليركبا معي ونغادر على الفور. الآخرون سوف يدخلون في سيارة تاكسي تنتظرهم في الشارع الآخر، مع السائق والملازم من المدفعية. لا، فانيس سيبقى بعيداً، اتفقنا. ولكي يكون أمر التخفي مقنعا سآخذ معي في السيارة فتاة من الاثنتين، كانتا ترغبان بالطبع. إلى أين سأذهب بالهاربين؟ إلى فيلا الأرميني مؤقتاً. رغم أنها لم تعد آمنة لكن لا بأس لبضع ساعات... سيكون الطريق أمامي طويلاً لكي أسرع بالسيارة فستكون هناك فرصة للهروب إذا ما أدركت أن هناك ثمة مراقبة. في الليل سيأخذونهم من هناك ليخفوهم في منازل أخرى، داخل المدينة.

غادر فانيس بعد أن نصح بأن نضع السيارة في جراج البناية المغلق أو على الأقل نصفها بعيدا عن البوابة. في خزانة الملابس وجدت ماري كلود قبعة سوداء لجاك عالية وناعمة. ارتدتها، وضعت نظارات شمس وبدأت الفتاتان تقولان إنني كنت أشبه ذاتي الحقيقية: متعهد فني أو تاجر رقيق أبيض. ارتدت نانسي بلوفر أصفر وقفازات قطنية ووضعت على رأسها إيشاربا كتانيا بنفسجي اللون. أخذنا مفاتيح السيارة من ماري كلود التي تمنت لنا النجاح. كانت نانسي في قمة السعادة. لكنها فور أن تحركنا بالسيارة رسمت على وجهها تعبير السائحة المتململة التي تزور المعالم السياحية القليلة لمدينة مجهدة. لم نستطع أن نَصُفَّ السيارة أمام الخياطة، إذ كانت هناك كاميونات متوقفة وفارغة، كما أن السائقين لم يبقوا بها. من أرقامها رأيت أنها تنتمي لنا، من سلاح المدفعية. بدأت أقلق. هل طلبوا إمدادات؟ هل سيبدلون القيادات؟ ماذا يحدث أمام مبنى القيادة؟ هل أمر من أمام المبنى كي أرى؟ لكن سيحتاج هذا أن أقوم بجولة حول بعض مربعات المنطقة ؛ وهذا سيورطني في زحام الشوارع الكبيرة وجنون سائقي التاكسي القاهريين الذين يدقون البوق بلا توقف؛ سأضيع وقتا كثيرا. كانت الساعة قد وصلت العاشرة ودقيقة. وجدنا مكانا للسيارة أمام الكاميونات، تقريبا على ناصية الشارع مباشرة. أمامنا، عند التقاطع مباشرة، سيارة نقل شُرَطية ظهرت وبها العديد من العساكر يرتدون الملابس الشتوية والخوذات؛ يحملون الهروات في أيديهم. اصطفوا بجوار الحائط وأخذوا وضع الاستعداد. من بعيد كانت تصلنا أصوات، أم هتافات، أم صيحات غضب؟ راح المشاة يسرعون خطواتهم ويذهبون نحو المديرية؛ كانوا أوروبيين، ربما يونانيين. نساء

كثيرات وأطفال. العرب راحوا يهرولون هم الآخرون نحوهم للمشاهدة. كانت الحشود تصيح وآخرون يرددون الهتافات؛ كانت وجوههم تلمع من الحماس. فجأة جاءت من ناحية المنحنى مجموعة نحونا وراحوا يرددون الهتافات ضد تسوذيروس! جندي تسلق أعلى الكاميون، فتح خلفية الكاميون وساعد النساء لتصعد عليه. أنا لم أرفع عينيَّ عن ناصية الشارع؛ لكن نانسي كانت مستمتعة وهي تتابع ما يحدث من خلال مرآة الكاميون. في تلك اللحظة رأيت التوأمتين وأخاهما نيكوس و... آريان! عيناها السوداوان بهما نظرة حازمة وغاضبة. بقيت كما أنا، تمنيت ألا تتعرف علي. لكنها رأتني، تركت يد نيكوس الصغير، تظاهرت بأن حذاءها قد نزع من قدمها وتوقفت كي ترتديه. نظرت إليّ بدهشة رقيقة؛ انتظرت مني أي إيماءة. بقيت ثابتا ولم أتحرك. رأت نانسي بجواري. تغير تعبير وجهها، هل كشر وجهها أم كانت تعنفني: هكذا كانت أمي تنظر إليّ عندما كانت تضبطني مع إحدى الشابات في ميلانو أو في كيفسيا. ارتدت حذاءها، عادت آريان تنظر إليّ. الاستنتاج الأول: أعجبتها نانسي. الثاني: فهمت لماذا أنا هنا؛ كانت تنظر بنصف عين نحو السيارة والكاميونات. حركت لها حاجبي. انتبهت نانسي الآن إلى المشهد الصامت. لمع وجه آريان: بالحماس والقسوة معاً، كأنها تعطيني أمرا: تماسك! ابتسمت إلى نانسي وهي تخفض جفنيها ثم اختفت. المقدم ومعه رائد انحرفا من عند ناصية الشارع بخطوة بطيئة. فتحت باب السيارة فدخلا، أغلقا الباب بسرعة فتحركت. نظر إلينا الجنود المصريون بلا مبالاة.

ـ كيف نذهب؟ سألت.

ـ أهذا أنت يا زفيق! خفت أن أتعرف عليك. ومع صحبة كهذه، أضاف وهو يضع سبابته فوق أنفه المعقوف: في بادئ الأمر ظننت أننا سقطنا في كمين الاستخبارات، الإنجليزية بالطبع، كدت أن أضربك بسيف يدي خلف رقبتك.

نظرت إليه في المرآة. هل كان ينتظر أن أعرفه على نانسي؟ أتم دراسته في لندن وكان يتحدث الإنجليزية أفضل مني. الرائد كان يتكلم فرنسية بلكنة بلقانية، لكن حتى الآن كان مازال مندمجا في الوضع الذي تركه عندما غادر. لابد أن هذه الحشود سوف تتجه إلى السفارة اليونانية في الزمالك، سيهتفون ضد تسونيروس. هل نذهب إلى هناك؟ أجبت بأن الأوامر التي لدي هي أن أخبئهم وليس أن أفضح أمرهم. ربت المقدم على كتفي، مما يعني«قم بعملك ودعك منه». ثم استمر حديثه مع نانسي الذي كان مستمتعا به.

تركنا الشوارع المزدحمة وكنا نجري بالسيارة تحت تحت الضوء الأخضر الذي يأتي من خلال أشجار التوت في باب الخلق أمام جزيرة الروضة. لا أدري ماذا كان يدور برأس المقدم حتى يقول:

ـ يقولون إنه في أسكتلندا الألقاب التي تعطى لاسم العائلة هي في كثير من المرات عبارة عن كنى ساخرة.

ـ فعلاً، أجابت نانسي، لو أنك أسكتلندى... هذا مضحك جدا! هل تدري ماذا كان سيكون لقبك؟ كمبل، أى ذو الأنف المعقوف.

ـ لابد أن اسم كمبل منتشر في أسكتلندا، أليس كذلك؟

ـ مع الأسف، أجابت نانسي متنهدة.

ـ تعرفت على شخص يدعى كمبل، طيار. كان شخصا عنيدا.

ـ هل هذا صحيح؟ قالت نانسي وهي تلمس ركبتي خلسة كي أنتبه لما يقولان.

ـ في العلمين، قبل الهجوم الكبير. طائرته كانت في طريق العودة من مطاردة. فجأة خلفه من بعيد رأينا طائرتين للعدو. اتصلت بالطيار وأخبرته. قال لي، أراهما. لماذا لا ترتفع بالطائرة، هل تريد أن نقتل، نحن على أهبة الاستعداد قلت له، ليس هناك داع، أنا مسيطر على الوضع. قال لي. لا، ألا ترى أن سرعته تنخفض؟ قلت له. سرْ، لديكم أوامر، انتبه إلى عملك فقط، قال لي. خلال عشر دقائق تحطمت طائرته وهو بداخلها، لم أستطع أن.. ربما، لو لم يعند الطيار بهذا القدر مع إشارتي... مازال الأمر ثقيلا على قلبي.

ـ هل تعرف اسمه؟ سألت نانسي.

ـ اسم الطيار؟ لا، لا أتذكره. لكن في الكانتين كانوا يعرفونه. شاب هادئ كما قالوا لي، كان مهتما بالأدب...

قرصتني نانسي حتى إنني كدت أصيح. لم يحتج الأمر إلى إصرار كبير. الطيار كان من عشيرة السير تشارلز الانتقامية.

لم يكن هناك داعٍ أن نذهب إلى الفيلا من الطريق الزراعي. كنا في النهار والسيارة كانت ستلفت الانتباه. فضلت أن أسلك الطريق العادي ثم انحرفت فجأة إلى شارع مفروش بالحصى. توقفت أمام الفيلا. لابد أنهم كانوا في انتظارنا إذ إنه مباشرة خرج شاب طويل يرتدي الملابس المدنية. كان قد وضع يده في جيوب معطفه. صاح المقدم وفتح الباب. خلفه كان الرائد. أنزلت نانسي الزجاج فتوقف المقدم بانتباه، أخذ يدها وقبلها. أمسكته من رأسه وقبلته على خديه. حياها الرائد وهو يتأتئ: كنت...أود أن... أقول.. كم أن.. مؤثر.....

انحرفت مناورا بالسيارة فسرت بمحاذاة ممر أشجار البلوط. بعدها كانت أشجار الكينا على يسار الطريق تسير معنا مثل شريط فيلم سينمائي: تارة الضوء وتارة أخرى الظلام. انحنت نانسي على ركبتيها وضعت وجهها بين كفيها وأخذت تبكي في صمت.

ما الأخبار؟ أنا قريب من الشقة، هل يمكنني الصعود؟

كان الظلام حالكا في الخارج، القاهرة نائمة في هدوء: لابد أن الساعة الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل. مصباح صغير أضفى لونه الأصفر على سجاد الصالة. نهضت ماري كلود بملاءة ألقتها بلا مبالاة فوقها وهي تنظر إليّ ناعسة. شعرها منكوش وإحدى حمالات قميص نومها تدلت من على كتفها. كانت هي أول من استيقظ على صوت رنين الهاتف.

ـ هل يمكنك أن تنتظر خمس دقائق؟ سألت فانيس.

- خمس دقائق نعم. فعلى كل حال لن أبقى طويلاً.

وضعت سماعة الهاتف ورجوت ماري كلود أن تذهب إلى غرفة النوم لتستلقي بجوار نانسي. لم يكن لدينا غرفة أخرى كي نستقبله، كان هناك المطبخ بالطبع لكن هناك كنا سنثير القلق بالضوء وأصوات حديثنا. قامت عن طيب خاطر وللمت فرشتها، رتبت الأريكة مرة أخرى وغادرت وهي تغطي صدرها بالملاءة. لم تتحدث إليّ لكنها ألقت إلى نظرة مداعبة كما لو أنها أرادت أن تقول لي لا عليك، الأمر هين. انتظرت رد فعل نانسي. لكنها كانت على ما يبدو قد غاصت في نوم عميق. كنت أرتدي كيمونو نانسي ثانيةً. جلست على الأريكة وعلقت يديَّ بين ركبتي. أردت سيجارة، لكن سجائري كانت في الغرفة. لن أدخن! ذهبت خلف باب الشقة أتسمع. فور أن سمعت قرقعة المصعد فتحت الباب مورابا. انتفض فانيس للخلف مذعورا فور أن رأى الكيمونو إلا أنه تعرف عليّ على الفور ودخل وهو يهز رأسه بإعجاب. كان هناك بريق بعينيه يشي بأنه أراد أن يلقي مزحة إلا أنه لم يكن هناك وقت لهذا. جلس على الأريكة وأخرج ورقة من جوربه ومن جيبه السجائر. هل عاد للتدخين؟ أخذت منه سيجارة وأنا أقرأ الورقة.

كانت رسالة من الضئيل التافه. نبرة حماسية مهللة. بين الحين والآخر كان يترك وخزة نحو المترددين والماطلين. كان يقول إن المذكرة تم التوقيع عليها بشكل كبير وعلني. لم تحدث أي قلاقل ولا خلاف ولا احتكاك. كان الضباط يحثون البحارة أن يوقعوا أو يتركوهم بانطباع أن القواعد لا تمنع أن نطالب بحكومة وحدة وطنية. الأخبار من باري ومن وهران أن

التوقيعات كانت تأتي تباعا من السفن التي كانت غائبة في مهمات حربية. إن نصرنا حاسم. الأهم من هذا: قائد الأسطول سيصدر غدا أوامر يومية مفادها أن سلاح البحرية بأكمله من القيادة وحتى أصغر بحار يطالب بالتعاون الفعال مع اللجنة الوطنية للتحرير، وأن تسوذيروس قد أكد له أنه سيتم تشكيل الحكومة في أسرع وقت، لهذا فهو يطلب من الجميع أن يستمروا متحدين وصامدين في أعمالهم العسكرية. كان رأي الضئيل التافه أنه بعد كل هذا كان على تسوذيروس إما أن يفي بوعده أو يستقيل. ويجب ألا يخدع الناس، غدا أو بعد غد ستأتي إلى القاهرة لجنة عليا من العسكريين. أربعة رؤساء أركان أو أكثر، وطنيون وديمقراطيون لكنهم غير منتمين سياسيا. معهم يحاول جاهدا أن يصحبهم أحد أنصار فينيزيلوس المتعصبين الذي حصل على وسام الشجاعة من الدرجة الأولى في الجزر الاثنتى عشرة وهو شخص نشيط وعصبي. الأربعة الآخرون لا يبدو أنهم يريدونه كثيراً معهم، لكن ماذا عساهم أن يفعلوا، في النهاية سيأخذونه معهم، وهذا أفضل لأنه سيدفعهم أن يضعوا المطالب أمام تسوذيروس بوضوح وصرامة.

حتى الآن الأمور تسير على ما يرام. أخذت نفسا عميقا من السيجارة. قلت في نفسي، إن رب اليونان قد قرر أن يساعدها. كل شيء يسير على ما يرام، كل شيء يسير على ما يرام. غيوم حمراء من برجوازيتي الصغيرة الجبانة كانت تحوم في رأسي. الجيش، الأسطول، سلاح الطيران والأسطول التجاري قالوا ما يريدون بوضوح وحرية، هذا لا يمكن للحلفاء أن يشككوا فيه.

ـ هل قرأت عن أنصار فينيزيلوس؟ سأل فانيس.

ـ هذه تُعتبر جبهة، وهل يمكن أن يغيب أنصار فينيزيلوس؟

ـ الأربعة كلهم من أنصار فينيزيلوس، غير منتمين سياسياً هو تعبير لا يعني شيئا في هذه الأيام، لكن هذا الشخص يختلف عنهم، فهو مثل رجل الصناعة الذي كان معنا. لكن أكمل قراءة الرسالة.

كأنه أراد أن يقول لي إن الفاجعة تأتي في النهاية. سألته لماذا يبدو منزعجا وغير مسرور؟ هل يريد أن يقول لي إنني تعجلت في تقييم الوضع؟ هل ظهر عليّ تشاؤم البروجوازي الذي كان يحوم برأسه ليتخطى الصعوبات ويهدئ من ضميره الممزق؟ لكن أي شخص لديه وعي بسيط بالتاريخ سيدرك أن ما يحدث ليس بالأمر الهين، أن يجتمع الأسطول والجيش وسلاح الطيران في الانتصار بلا حرب...

ـ وما شأن التاريخ الآن؟ قاطعني وهو يبحث عن منفضة سجائر؛ أطفأ سيجارته بغضب كما لو كان يثقب شخصا، ثم أكمل: دعك من التاريخ الآن، سيأتي وقته. هنا، اليوم، ماذا سنفعل؟ أكمل قراءة الرسالة.

في الفقرة الأخيرة، فجأة، يخبرنا الضئيل التافه أن فوتيروس في اجتماع سري مع البحارة، قد اقترح أن « يرفضوا حكومة القاهرة ويشكلوا حكومة الجبل. الاقتراح تم الموافقة عليه بالإجماع ».

ـ هذه هي الحماقة بعينها، قلت. ماذا يريدون؟ هل يريدون أن يوقفوا السفن؟ أن يخرج الأسطول التجاري من الحرب؟

ـ اقرأ هذا أيضا، قال وقد هربت منه تنهيدة حزينة.

رفعت عينيَّ بقلق؛ كان هادئا تماما. فعل هذا من قبل، لا أتذكر متى. كان يستطيع أن يتحكم في عضلات وجهه لكن ليس بصوته. ربما رئتيه... ما أعطاني لأقرأه كان عددا استثنائيا من صحيفة «الملاح». أخذت الصحيفة ذات الورقة الواحدة وتفحصتها بهدوء. تسلسل صحيح، تاريخ صحيح، الورق من النوع الذي نستخدمه، لكن الآلة الكاتبة لم تكن معروفة كما أن الطباعة تمت في مكان آخر أو أن رجل المطبعة كان أخرق ولم يعتن بالهوامش. الاستنتاج: الأرملة لم يتعاون في إصدار هذا العدد. لماذا؟ لنرَ الآن المحتوى. غرغرات الضئيل التافه المعتادة: تعبيرات تهليل ونصر، كلمات فضفاضة، انتصرنا، بالإجماع، إلخ.. حماقات: صفر. مواقف خطرة: صفر. كان شغفه أن يتم قبوله أديبًا أو صحيفًا على الأقل. وجد الفرصة وفعل ما يحلو له مرة أخرى. لكن فانيس نقرني بإصبعه عندما كنا نضع من حين لآخر عنوانا أدبيا. العنوان: « أمثلة تاريخية». تطرق النص مباشرة إلى أحداث بارجة بوتيمكين. ثم إلى انتفاضة الأسطول الفرنسي في البحر الأسود، ودور أندري مارتي، ثم أنهى بالتأكيد على أن تراث البطولات يبقى دائما حيا في قلب كل بحار مناضل. كان يهدد بشكل واضح ولكنه غير مباشر أننا سنلقي بالضباط في البحر إذا وقفوا عائقا ضد الحشد.

ـ هل فهمت الآن مقدار الضرر؟ سأل وهو يشعل سيجارة أخرى: تفضل: تكتيكات الجبهة، ها هو الكنز الحقيقي! لماذا لا نذهب إلى الجحيم؟ الأسطول ليس سرية مشاة يستطيع عريف أن يقودها على سبيل المثال. لكي

تسير السفينة في البحر وتحارب تحتاج إلى علماء. ونحن نرهبهم أننا سنلقي بهم في البحر! لهذا السبب أرسلك سريعا صديقنا إلى القاهرة.

فُتح باب غرفة النوم، كانت نانسي. كانت ترتدي قميصا وجونلة رمادية وحذاء بكعب منخفض بلا جوارب. ابتسمت من بعيد إلى فانيس الذي وقف؛ اقتربت وأعطته يدها، سألته عن حاله، ثم قالت مباشرة إنها ستعد القهوة. لم يعترض فانيس. ذهبت هي إلى المطبخ بعد أن ألقت عليَّ نظرات ساخرة: الكيمونو الحريمي الذي أرتديه بدا مضحكاً حتى بالنسبة لها وهي صاحبته!

- لابد أن تعود إلى موقعك، قال فانيس.

- لأفعل ماذا؟ سألته وأنا أنظر إلى عينيه وأتفحص وجهه.

- لتصدر على الفور عددا من صحيفة "الملاّح" وتقول فيه بأن هذا الهراء لا محل له من الإعراب وهو محض افتراءات وتحريض. عليك أن تجمع رجالنا وتشرح لهم بهدوء وصبر الخطأ الذي حدث وماهي تكتيكات الجبهة. وشيء آخر: قبل كل شيء الحرب؛ الحرب التي نخوضها يجب ألا أن تتوقف للحظة واحدة. سأكتب لك رسالة كي تأخذها معك.

- إذن فالضئيل التافه، سيطرد! هل سننحيه جانبا؟

- من قال هذا؟ أنا قلت أن تقنعهم.

- إذن عليك أن تذهب بنفسك إلى الإسكندرية.

عادت نانسي، فتحت الأضواء الكبيرة، حملت الطاولة الصغيرة ووضعتها أمام فانيس. نظرت إلينا بقلق. ذهبت. تنهد فانيس.

- في مارس تم توبيخي لأنني تركت القاهرة وذهبت إلى فلسطين، لكن هناك كان عصب الموضوع وإلا كانت الدبابات الإنجليزية ستدهسنا. في مسيرة الفرات أردتم أن أبقى في القاهرة لأدفئ بيضتيَّ. الآن أقول لكم إن الزر هنا. ألا ترى أن هناك مخاطرة؟

- إذن، اطلب منه أن يأتي إلى القاهرة واربطه هنا. علّه يتوقف عن إلحاق الضرر بنا.

- هذا مستحيل يارفيق.

جاءت نانسي بصينية كبيرة عليها القهوة واللبن والبقسماط والمربى. لم تنظر إليَّ على الإطلاق، كانت تتجنب النظر إليَّ. كل انتباهها كان منصبا على فانيس.

- لماذا مستحيل؟ من أين يمسك بك؟ بم يهددك وتذعن له هكذا؟

- حبيبي، قالت نانسي بالإنجليزية وهي تنحني على الطاولة وتلتفت نحوي. لا تزعجه. إنه مريض.

- صحيح، لقد صار لونه مثل الرماد وامتلأ وجهه بالتجاعيد. لكن لم تكن هذه لحظة للعواطف.

ـ ميرسي، قال لنانسي، وكأنه كان يعني فنجان اللبن، لكن سببه كان أبعد من هذا، إذ إن عينيه الكستنائيتين امتلأتا حساسية وألما وكأن مساحة العالم قد اتسعت مثل موج البحر في الشتاء مع شمس أغسطس غريبة.

ـ هل ألحق بنا القليل من الضرر؟ أكملت حديثي دون أن أعمل حسابا لوجود نانسي؛ كانت فرصة، كان يجب أن أخرج كل ما كنت أبتلعه طيلة هذا الوقت: ألم أحضر لك الأدلة أنا بنفسي؟ لماذا لم نطرده بعد قضية ميتراكيس؟ هل تظن أنك أقنعتني بأسبابك آنذاك؟ لماذا نبقي عليه، رغم كل ما ثبت من أضرار إجرامية قد سببها لنا، هو في موقع قيادي ولو تركناه سيفعل بنا مثلما فعل في شهر يوليو في الكتيبة الثانية، والآن، قمة جرائمه ما يفعله الآن في الإسكندرية. لماذا تدعمه؟ ألا ترى أنه يقضي على التنظيم؟

استلقت نانسي بهدوء على المقعد بجوارٍ الهاتف. بحركة استسلام فتحت ذراعيها مددت قدميها. راحت تنظر إليّ وتحدق وقد صار لون عينيها داكناً مثل العقيق. كان صبرها قد نفد معي. لكن صوت فانيس الهادئ الواضح كان يشد كل انتباهها.

ـ اسمع يا رفيق، بداية دعنا نوضح أمرين. أولاً: لماذا تذكر سلبياته فقط؟ هل كان قليلا ما قام به من عمل تنظيمي في فلسطين؟ وفي اللواء الثامن؟ والآن في الإسكندرية؟ دعنا لا نرى المساوئ فقط. من غيره كان لديه الحماسة والإرادة ليحقق ماحققه هذا الرفيق؟ أعرف تحفظاتك. أنا بنفسي قلت لك إنه أحيانا يريد أن يبدو أكبر من حجمه فيسير على أطراف أصابع قدميه

مما يجعله يعرج. لكن المناضل لابد أن تقيمه بشكل كليّ. ثانياً: ليس هو، ولا أنا، ولا أيّ أحد منا، أياً كان مقدار الأخطاء أو المخادعات أو الحماقات التي نرتكبها يمكن أن تودي بالتنظيم. التنظيم هنا في الشرق الأوسط إذا هزم، سوف يُهزم لأن الإمبريالية البريطانية لا تزال أقوى بكثير منا. أخطاؤنا، نقاط ضعفنا، من الأفضل ألاَّ تظهر بالطبع، لكنها ليست هي العناصر الحاسمة. أحب أن أذكرك مرة أخرى بما قاله هيبوليتوس. ليس لدينا طريق آخر، هذا الطريق هو الطريق الصحيح، ولكن، نسير في الظلام. ستقول: وهل نحن في حاجة إلى هزيمة أخرى؟ لكن هل تُسمى هذه هزائم؟ انظر حولك، تذكر... حسنا، سألخص، فهذه أشياء تعرفها. لكن الأمور ليست هكذا. لسنا بصدد ما فعله بي أو بك، بمعنى أن الأمر ليس عن علاقتنا. عن العلاقات بين البشر أريد أن أقول. نحن لسنا مسيرة، ولا منظمة: نحن الحزب. لسنا كنيسة ولا حتى جيشا، لكنا شيء كهذا، نحن كيان حي ومتماسك. على سبيل المثال: كإنسان ليس لي أي حق أن أقول لك اذهب وألقِ نفسك في التهلكة، لكن بوصفي مسؤولا حزبيًا يمكن ذات مرة أن آمرك أن تذهب. هناك إذن تسلسل هرمي؛ المراتب كما نسميها. أحيانا يتولاها رفاق غير ذوي جدارة أو يفسدون الأمور ذات مرة. لكن كي يتم إقصاؤهم يحتاج الأمر إلى خطوات، مَن، متى، أين، إلخ، وهذا هو الصحيح لأنه تخيل ماذا سيحدث. قبل أن يظهر حزب ميتاكساس، كنا أنا والرفيق في المرتبة نفسها. هو جاء من الخارج مباشرة إلى الشرق الأوسط، جاء من إسبانيا أو من فرنسا لا يهم، ووجدني في مرتبة السكرتير العام، وأقدم عضو بين الرفاق هنا. لكن، كان لدي عيب خطير، أعلنت عنه فور وصولي: كنت أعرف أوامر

الحزب « ألا يرحل أحد، فنحن هنا في حرب» إلخ. تعرف هذا، تتذكر ريغو عندما علق على هذا. هناك دائما سبب: كان الفاشيون يريدون قتلي، صحيح، لكن في البداية كان لابد أن ننتظر موافقة الحزب. لأنني كان لديَّ الحق أن أموت في الحال لكن لم يكن لدي الحق أن أخرق الأمر. حتى تلك اللحظة كنت أنا المسؤول. لكن من ناحية أخرى، السلطات التنظيمية نفسها هي من تتولى قرار مصير الرفيق: لابد أن تجتمع الهيئة العليا للحزب. يمكن أن يحتاج الأمر أن يتم عقد مؤتمر. فهمت؟ لهذا أرجوك ألا تلقي جزافاً كلماتك عن التهديدات وأشياء من هذا القبيل، وكل ما قلته لك عليه أن تحفظه في قبر حتى تأتي اللحظة المناسبة لكل واحد منا.

ـ لكن في فرنسا، كانوا سيقصونه بشكل مؤقت و...

ـ لا أعرف ماذا يحدث في فرنسا، قاطعني. ما أعرفه هو أن حزبنا لديه قائد معين من قبل الهيئة العليا للحزب وهو من يرجع إليه تعيين الأعضاء الذين يجب عليهم أن تكون بينهم ثقة عمياء ودعم ثابت.

ـ تكافل وثقة، استنتجت بسخرية. هو...

ـ أرجوك، قاطعني. لو ظللت تتحدث سيعني أنك لم تفهم شيئا. متى ستغادر؟

ـ في الحال يا رفيق.

ـ لا، ليس في الحال. لننتظر أولاً ماذا سينتج عن خطوة البحارة هذه. في

الصباح، في العاشرة سوف يصلون. لقد اتصلوا بفنيزيلوس يطلبون لقاءه. في الوقت نفسه أرسلت رسالة إلى الإسكندرية كي يوقفوا توزيع هذا العدد الملعون، وإن كان ممكنا أن يتم جمعه وحرقه.

ـ كان يجب أن تكتب إلى غاريلاس؛ فالكتيبة الأولى توجد على بعد سيجارة من الإسكندرية.

ـ غاريلاس رجل عاقل وهو مخلص للحركة.

قال بدهشة وهو ينظر إلى ساعته: لقد أشرق الفجر! والتاكسي مازال ينتظرني.

رتبنا موعدا في الصباح، ذهب إلى نانسي وشكرها على اهتمامها. ابتسمت هي وأمسكت بكتفه وهي توصله حتى المصعد. عادت، أغلقت الأنوار وأخذتني في أحضانها وهي واقفة وأسندت رأسها على عنقي. فتحت الكيمونو وعرت عظمة الترقوة. ألصقت شفتيها عليها وصارت مثل بلبل يشرب من بركة صغيرة.

ـ أعرف، قالت، إنه يوما ما ستؤلمني كثيرا. أنت، واقعي، جاف مثل كل المتعصبين.

باكرا في الظهيرة انتشر الخبر مثل النار في الهشيم: «استقال تسونيروس! أرسل تليغرافا إلى الملك كي يعين فنيزيلوس بدلاً منه». بعدها بقليل تم نشر البيان الرسمي. كان الناس كأنهم قد استيقظوا من كابوس،

تنفسوا الصعداء: أخيرا! وفي التو امتلأت القاعات البديلة لطبخ الحكومات حركة وحرارة: بار فندق شبرد، صالة ناشيونال ومطعم كورسال. كلها كانت تشبه خلايا النمل. كانت تعج بالمدنيين والموظفين الحكوميين واللاجئين وأصحاب السفن والصحفيين والمخبرين والجواسيس والعملاء كلهم كانوا يجتمعون يقومون بالاتصالات التليفونية ويحيكون المؤامرات بلا أي خجل. دائما كان موجودا الكولونيل ديفيدز من الاستخبارات، وبالطبع كل من الميجور بيتر ودورا ميتراكيس. الديكتاتوريون الانقلابيون والملكيون مع ضباط الشرطة انتهى بهم الأمر في حانة البيرة في شارع سليمان باشا. اليساريون المحليون استمروا في اجتماعاتهم والتي كانت تعقد بشكل غير رسمي في مقر لجنة التنسيق. نحن. بسيارة ماري كلود وتاكسي يورغي صرنا نتجول، ونتجول.

جمعنا معلومات قيمة من كل أماكن التجمع والمخابئ التي قابلناها في طريقنا. من الصباح، وبلا أي ضجيج، الخدمات الأساسية تمت السيطرة عليها من رجالنا. وزارة الحربية، القيادة، اللجان. كلها سقطت مثل فاكهة ناضجة. في تلك الأثناء، كان تسوذيروس يحاول أن يدعو إلى اجتماع للحوار لكن وزراءه ضغطوا عليه وفي النهاية تجمعوا في شقة فولغاريس. ممثلو رؤساء السفن جاءوا بآخر الأخبار إلى فينيزيلوس: كانت رصاصة الرحمة. القوات المسلحة من القيادة العليا وحتى آخر رجل فيها يطالبون بحكومة وحدة وطنية. كل تأخير أو محاولة للتهديد كان مقضيا عليها بالفشل. حينها ثلاثي الوزارات الحربية طالبوا تسوذيروس بالتضحية؛ وسيتولون هم

إنقاذ الموقف. لكن ألا تفهمون، راح يتوسل إليهم رئيس الوزراء المُبَاغَت، أن الوضع ليس بأيدينا، ولا حتى في أيدي اللجان ولا الضباط؟ إن الأمور الآن في زمام لجان سرية من الجنود والبحارة! كان فولغاريس مستلقياً بعد أن قام بعملية جراحية في ركبته: إيه، ثم، ماذا سيحدث يا سيادة رئيس الوزارة؟ قال له. هل نتخذ القرار. اليونان من الآن فصاعداً سيحكمها الفينزوليون.

توقف فانيس كثيرا أمام هذه العبارة. لم يصدقها. وحتى عندما وصلته التأكيدات من عدة مصادر، لأن فولغاريس بنفسه قالها في الوزارة والسفارة أيضا، لم يشأ أن يتركنا «نسربها». كان يستحيل عليه أن يهضم فكرة أن وكيل البارود والخرطوش كان يصدق ما قاله.

أشرق الصباح. رتبنا أمر اللجان التي ستقابل فينيزيلوس بعد قليل. كانت عيوننا تحرقنا من السهر والدخان. خلف جبل المقطم ظهر شعاع الشمس الأصفر. في سيارة التاكسي كانت رءوس الجميع ثقيلة تتساقط من النعاس والعيون تدمع. بدأ توصيل الجميع إلى البيوت. عندما نزل فانيس، توقف للحظة والباب مفتوح وضغط بسبابته على صدري: نقول هذا للتاريخ يا صديقي. إنه رحم أحمر وعطشان. ألف شيطان يتقاتلون كي يقذفوا بذورهم فيه. هل رأيت قبل ذلك فرسة تتزاوج؟ نحن لا شيء؛ قمنا فقط بعمل السائس. علينا فقط أن نكون يقظين حتى لا يخرج علينا تنين بسبعة قرون.

لم يكن هناك سبب لعودتي إلى الإسكندرية. بتوصية من فانيس اللجنة المركزية للنضال أوكلت لي قسم التوعية. منذ ثلاثة أيام والصحف اليمينية

ليونانيين محليين قد بدأت حملة كذب وتشهير. كانوا يزعمون أننا، بلغاريون وإرهابيون وفوضويون وما هو أكثر من هذا. و كانت الصحف الإنجليزية في مصر تنقل عنهم. «المحارب» لم تعد كافية لمواجهة تلك البالوعات. كان يجب أن تصدر صحيفة المحارب بشكل دوري وكثيف ومعه سنصدر كل يوم نشرة أخبار. من أجل المراسلين الأجانب فكر فانيس أن نصدر صفحة خاصة، «هيرميس» مطبوعة بالإنجليزية. نحتاج إلى عشرين أو ثلاثين نسخة على الأكثر، سنعطيها لأصدقائنا الأجانب يوزعونها على المراسلين. الدقة والتواضع ومصطلحات الحلفاء كان يجب أن تميز تعبيراتنا غير الرسمية. تم قبول الاقتراح والمقدم الذي يجيد الإنجليزية قال إنه مستعد للمساعدة. قبل فانيس لكن دون أن يؤكد شيئا، أكد أن أمر النشر سيكون في يد السكرتير العام، أي هو بنفسه.

كانت نانسي تنتظر عودتي في قلق؛ ماري كلود كانت نائمة بعيدا على الأريكة. تركناها تنام حتى الساعة السابعة ثم أيقظناها. طرحنا المشكلة التي تواجهنا. في بادئ الأمر نحتاج إلى آلة كاتبة فرنسية. لم تكن الأزمة في النقود؛ منذ فترة والآلات الكاتبة قد اختفت من السوق تماما. تذكرت ماري كلود أن جاك كان لديه واحدة في القاهرة من النوع المحمول كان يحضرها معه دائما إلى القاهرة كي يكتب بعض الأوراق المهمة. فتشنا في كل ركن في الشقة ولم نجدها. طلبت مكالمة محافظات مباشرة، صادفت جاك في الوقت الذي كان على وشك بدء اجتماع مجلس الإدارة الصباحي. بدأ في كلامه المعسول حيث إنها غابت كثيرا وكان يفتقدها. احمَّر وجهها وبهت لونها،

شعرت بالخجل إذ كنا نسمعها لكننا كنا نريد أن نعرف ماذا سيحدث. الأمر كان سهلاً، اتصال بسيط بالفرع المركزي تقول إنها سكرتيرته الخاصة، وتطلب أن يحضر لها أحد الفراشين آلة كاتبة إلى الشقة. لكن لماذا كانت تريدها؟ هل ستكتب قصة حياتها؟ ولمن؟ فهو يعرفها جيداً غيرت ماري كلود الموضوع وأنفقت الثلاث الدقائق في ثرثرة عن الطقس ومقتنيات المتحف. بعدها اتصلت بالبنك وطلبت منهم أن يحضروا الآلة الكاتبة ومعها رزمة من الأوراق ورزمة من الكربون. في تلك الأثناء، كنا نحن نعد نص العدد الأول من «هيرميس».

عملنا بمعنويات مرتفعة حتى المساء. نمت لساعتين ومع القهوة كنت أعد شيئاً من أجل «المحارب». انتظرت حتي يأتي الليل. الموعد مع فانيس كان عند الباب الصغير للمشفى الحكومي من ناحية الروضة. لففت أوراقي في جريدة وذهبت سيرا على الأقدام. لكن الوقت كان يمر ولم يظهر أحد. عدت إلى الشقة واتصلت بالمخبأ. صمت. جهزت حالي كي أتصل بالخياطة عندما دق الباب. كان فانيس. بهدوء وأدب حيا المرأتين لكنه فور أن بدأنا نتحدث باليونانية تحول تماماً. كان أشبه بخيل الحروب التي تفوح منها رائحة البارود. هل يمكننا أن نأخذ السيارة بغير الفتيات؟ حسناً، هيا بنا. بسرعة إلى فيلا الأرميني لنأخذ من تبقى. تم إخبارهم عبر الهاتف أن ينتشروا في الحقول. خيانة؟ ليس بالضبط، لكن هكذا، تحسبا لأي احتمال. لأنني، كنت في الصباح في الشقة لم أعرف بالطبع أن الملك لم يقبل استقالة تسوذيروس وأنه يسعى أولاً إلى فرض النظام والانضباط، ثم دعى فينيزيلوس إلى لندن

لكي يوبخه. الأمر الآخر: الشرطة العسكرية الإنجليزية تحاصر المديرية والوزارة واللجان. الشيء نفسه حدث في الإسكندرية: وزارة الملاحة ومدرسة البحرية وقائد الأسطول كلهم محاصرون. آه، وفي اتحاد عمال الملاحة. أرسلوا مجنزرات وجيشا، ميدان القناصل امتلأ عن بكرة أبيه، حتى يخرجوا منه حوالي ثلاثمائة عامل بحري قد اعتصموا عند سكرتيرهم العام. لحسن الحظ، نجا فوتيروس. لو أنه ذهب قبل نصف الساعة لكان قد وقع في الحصار هو أيضا. عانى السكرتير العام وهو يحاول أن يتجنب الأسوأ لأن العمال أرادوا أن يعلنوا الإضراب العام كرد على هذا. اتصل هاتفيا بمحافظ الإسكندرية وطلب منه أن يستخدم صلاحياته التي منحها له وطنه ويأمر أن يغادر الجيش الأجنبي من أمام مؤسسة قانونية وسلمية. حوله هو على باركر الذي يتحدث اليونانية. اتفقا: أن تغلق المكاتب إذ إن هناك أمرا من الأمن لكن العمال سيعودون إلى بيوتهم وسفنهم بأمان. وعده باركر وعد شرف. بعد قليل ظهر بنفسه في الميدان: زي رسمي كامل، أوسمة، طربوش أحمر وسيف. خرج عمال الملاحة واحدا تلو الآخر من بين صفين متواليين من الشرطة الحربية الإنجليزية. الأخير كان السكرتير العام، وحينها زادت كثافة العساكر وتم القبض عليه بعد أن قيدوه بالأصفاد. حياه باركر بالتحية العسكرية. لكن السكرتير ذكّره بالاتفاق وبوعده ثم بصق في وجهه. قفز على الكاميون ومن فوقه صاح: يازملاء، دعوكم من هذه الاستفزازات. شعارنا هو دائما: لتبقى السفن تتحرك في البحر! وفي الإسكندرية أيضا: قبضوا في الفجر على شاعر ورئيس تحرير جريدة يسارية ومحام كبير فينزويلى صديق روسوس وأحد الأكاديميين، وآخرين

من بيوتهم. سكرتير الرابطة هو أحد ملاك السفن الكبار تم خطفه وحتى الآن لا يعرف أحد إلى أين أخذوه. في القاهرة، قبضوا على أعضاء لجنة التنسيق. لحسن الحظ لم يقبضوا على نيسيريوس، هو يعرف هذه الأوضاع جيدا، فكان صيدا صعبا عليهم. لكن قبضوا على آخرين كثيرين: صحفي، اثنين من المحامين، معلمين وتجار ومثقفين. اختفى أيضاً اثنان من لجنة الثلاثة عشرة. لا نعرف لماذا، ربما نعرف بعد قليل.

صمت. سرنا لوقت طويل دون أن نتكلم. اقتربنا من الحقل. هناك قال لي أن أهدئ السرعة. وبعد قليل أن أطفئ الأنوار وأصُفّ السيارة. كنا أمام دكان بائع دخان معزول، المحل كان مضيئا. لديه هاتف، كنا نعرفه. نظر فانيس حولنا ليرى إذا كانت هناك أي تحركات مثيرة للريبة. حلت علينا رطوبة الليل ورائحة الأشجار. أخذ نفسا عميقا. كان صدره يصفر.

- راح يهمهم وحده، تدخل أجنبي مستفز وبهذه القسوة. هل الأمور أتت كما كنا نتوقع، أم لم نكن ننتظر هذا؟ ولكن الوضع الآن مختلف. لن تدون شيئا، متفقون؟ أتتذكر كل ما قلته لك من قبل عن النشرة عن ظهر قلب؟ وأمر آخر، على شكل مقال. قسم القصة إلى مراحل. أول مرحلة: تكتيك تسونيروس؛ الثانية: نجاح الحشد؛ الثالثة: تدخل تشرشل؛ الرابعة... سأقول لك. الآن سأذهب. غطٍّ تحركاتي ولا تشعل الأنوار. أظن أنني أستطيع، لا أرى أى تحركات.

تأخر كثيرا، لكنني كنت أراه خلف قضبان النافذة فلم أكن قلقا؛

اشترى سجائر وسكاكر، مزح قليلاً مع صاحب الدكان؛ لابد أنه قام بأربع أو خمس مكالمات. عاد بخطوة بطيئة، أغلق باب السيارة دون أن يحدث صوتا.

ـ عُد، قال لي. لسنا في حاجة أن نذهب إلى فيلا الأرميني. وصل يورغيس قبلنا وجمع منهم قدر ما استطاع. الشرطة العسكرية الإنجليزية داهمت المكان. لقد أفرطنا في استخدامه. استخدمناه كما لو كان صالونا اجتماعيا. على كل حال هناك بالتأكيد خيانة. ومن فضلك كن حذرا، فأنت مطلوب بالاسم.

ـ لا جديد في هذا، قلت. دعهم يضيعون وقتهم مع أقل الأشخاص نفعا.

لم يقل شيئا. كان يزن أمرا في رأسه. بعد قليل:

ـ هل تعرف شخصا يُدعى لاغنيذيس، هو سفير؟

ـ لاغنيذيس، سفيرنا في لندن.

ـ لقد أرسل تليغرافا إلى تسوذيروس يخبره أن الملك قد أرسله إلى تشرشل. يبدو أن إيدن لم يكن في لندن، ربما سافر إلى مكان ما. طلب دعم الإنجليز لكبت التنظيم ووعده تشرشل بتقديم كل أشكال الدعم. دعا تسوذيروس الضباط وأعضاء اللجان كي يريهم «في سرية» التليغراف. بعض النشطاء منهم طاوعوه. وتسوذيروس طلب من الصحف أن تكتب «إن قيادات التنظيم قد انقسمت».

ـ هو مستقيل، لماذا يتدخل؟

ـ معك حق! انظر، أنت تعرف لعبة البريدج. مامعنى « لديّ الداما»؟

ـ حصار؛ من لديه الداما يجبر الخصم أن يخسر كل شيء.

ـ استقال فينيزيلوس. هو لا يقبل أن يكون رئيسا للوزراء فقط، لكنه يستقيل من وزارة النقل البحري. يقول إن تليغراف الملك صعب عليه المهمة حتى إنها صارت مستحيلة. والآن يتشاجر مع تسوذيروس الذي لا يتركه يبلغ الأسطول بأمر استقالة الوزير عن طريق أمر يومي.

ـ لو فعلها فنيزيلوس بالأخير، حينها يتشكل وضع ثورة. لديه المعرفة الأولية، قلت.

ـ ستكون ثورة لو أن فينيزيلوس لم يلعب البريدج. لأنه ببساطة أمر استقالته يمكن أن يكون محض مراوغة أو تهديد. ويكون تهديدا عندما يطلب أن يبلغها بهذا الشكل العلني. يهدد الملك بأنه لن يصبح رئيسا للوزراء؛ يهدد الإنجليز الذين يعتمدون على سُفننا من أجل عمليات أنزيو بإيطاليا: يهددنا نحن الذين أرسلنا له اللجان في الصباح وقالوا له الأمر بوضوح: لا نريد حكومة شخصية، ولكن لجنة مؤقتة هو على رأسها حتى يتم تشكيل حكومة وحدة وطنية. بالطبع أجابنا أنه يتفق تماماً لكنه أضاف: سنرى ماذا سيقول الإنجليز. نفس ما يفعله تسوذيروس بمعنى آخر. يترك مخرجين. سَمه كما تشاء: خدعة، شطرنج أو بريدج أو شيطان أسود. ما لا أراه فقط هو الجدية. إنهم يلعبون بدمائنا.

ـ المرحلة الرابعة إذن، ما هي؟

ـ سنرى، انتظر. هنا يحتاج الأمر أن نقف بثبات على الخط الذي رسمناه. هل تستطيع نانسي أن تصدر صفحة «هيرميس» وحدها؟

ـ فيما يخص الكتابة هي ممتازة. لكنها ستحتاج إلى شخص ليترجم لها المعلومات عن اليونانية.

ـ هل يمكن أن أترجم أنا لها إلى الفرنسية؟

ـ في هذه الحالة يمكن. لماذا، أين تريد أن ترسلها؟

ـ لابد أن تعود إلى الإسكندرية. من الآن فصاعدا، كل تصرف، كل محادثة ستكون كما لو أننا نحرك صخورا قوية كانت متزنة حتى أمس. ضبط للنفس، جرأة، وثبات. لو حدث خطأ واحد ستغرق بنا السفينة.

عدنا إلى الشقة. كان يجب أن يجلس في مكان ليكتب رسالة إلى الضئيل التافه وإلى فوتيروس. في تلك الأثناء حكيت لنانسي الأخبار. شحب لونها ونظرت إلي بحزن ثم قالت بهدوء: أولرايت. لم تخف ماري كلود فرحتها بأنها ستعود بالسيارة. رغم أنها كانت تجاهد لتخفي الأمر طيلة هذه الأيام فإنها كانت تشتاق بشدة إلى عشيقها. كانت تخشى أن تكون زوجته قد كسبت أرضا مجددا.

XV

كان لدى نانسي شعور بينما كانت تنحني لتوصد مصاريع النافذة أنها تفعل للمرة الثانية على التوالي؛ شعرت وكأنها قد أغلقتها للتو، والآن... لا، لم تكن الحركة؛ بل كان إحساس لمس الخشب على كفيها. كان يذكرها بشيء. لكن مرة أخرى، لم يكن اللمس، ولم يكن الشعور على بشرتها، ولا حتى حيوية جسدها والصفاء الذي يملأ قلبها.

فضلاً عن نباتات الصبار وأشجار النخيل في الروضة، كان النيل يسير واسعا مظلما بعظمة وفي صمت. رائحة النباتات المُسكرة؛ هل هذه هي رائحة القنب الهندي؟ فلوكات مضيئة تنزلق على سطح النيل بلا مبالاة أو توقف؛ متفرقة وملفوفة في حجاب الليل الأسود والماء. قال مانوس إن كلا منها تعتبر جنة عائمة؛ حيث الرقص الشرقي والعربدة الشرقية والحشيش... كان يقف بجوارها، جسداهما يتلامسان بينما كانا ينحنيان من هذه النافذة في ليلة أخرى ينتظران شروق الشمس ودق الباب من ماري كلود، كلمة السر لمصائرهم، ربما. كان يقف بجوارها الرجل الذي يروي صحراءها جاف وناعم وغير صبور وشارد، سرحت بخيالها بعيدا في الإسكندرية، وعلى شاطئ بنسيون بروتياس.

حسنا إذن: بينما كانت كفوفها تلمس الخشب راحت ذاكرة جسدها تستدعي ذكرى الفراق وإحساسه البشع لليلة أخرى، كانت منحنية على النافذة تصرخ نحو البحر الهائج تشكو وحدتها ولم يسمعها أحد. كم من الوقت مر، ستة شهور منذ ذلك اليوم؟ والآن نانسي بلا درع، تسبح عارية تماما بين الألغام. كم تريد أن ترى ميجور الاستخبارات، صديقها المزعوم لكي تقول له: عزيزي بيتر، لا توجد حقول ألغام. إنها مسألة بصرية. كل حكمة أكسفورد التي لديكم ذهبت سدى إذ إنكم لم تفهموا أن حقول الألغام يتخيلها كل من هم محاصرون بأطواق البوارج الحربية. تعرف: إن بريطانيا العظمى التي تحكم الأمواج... الضباب الخانق، تخاف وترتعش من الاقتراب من شعب لم يفقد جوهر الحياة. والسير جون كانينجام يوجه الليلة فوهات مدافعه نحو السفن اليونانية في الإسكندرية وبورسعيد. لا يا إخواني، لا...

هل تهذي؟ ربما. لكن كم تريد أن تترك أسلوب «هيرميس» الجاف المليء بالمعلومات والأدلة والأرقام والاكتشافات الشنيعة... لتكتب شيئاً مباشراً ودافئاً. ربما الإرهاق يسيطر عليها. تنحني على الآلة الكاتبة لتسع عشرة ساعة في اليوم تكتب. إن فانيس مدير قاس؛ لكنه متواضع ودمث. لكن أن تصل بها الرومانسية للنافذة؛ هذا يعني أنها لابد أن تنام وتشبع قليلاً من النوم. لأن فانيس سوف يأتي في الليل فجأة لكي تكتب له رسالة إلى سفارات دول الحلفاء.

في اليوم نفسه الذي غادر فيه مانوس مع ماري كلود في الليل، دق جرس الباب: كان فانيس. أحضر نسخة من تليغراف ليغاذيس إلى تسوذيروس، الذي كان يقول فيه إن الإنجليز سيقمعون التمرد بكل السبل.

ـ النص هذا « سري للغاية » لكن تم تسريبه، إنه يتسرب... قال لها. ضباطنا من الملكيين والفينزويليين يتسربون أيضا... يتركون وحداتهم وسفنهم، يغلقون على أنفسهم في أكواخهم وجرسونيراتهم. يتركوننا وحدنا لنخرج الثعبان من جحره.

ـ وماذا ستفعلون؟ سألت نانسي.

ـ سنبقى على الوحدات في حالة استعداد تام للحرب عن طريق لجان مختلطة من الضباط الذين بقوا والجنود والبحارة. الكتيبة الأولى لديها أوامر، لابد أن ترسو عند الجبهة الإيطالية. السفن الحربية في حاجة إلى القوافل.

كانت صحيفة « هيرميس » تصدر تقريبا كل يوم. عندما يحل الليل، كان فانيس يأتي، يعطيها مادة اليوم التالي شفهياً، ثم يتسلم الأوراق المطبوعة ويغادر. أحياناً كانت نانسي تبقيه حتى يأكلا معا. كان لديها اهتمامات أخرى: تنظيف البيت، وإعداد الطعام، وغسيل الملابس. كانت تخرج في الصباح الباكر لتشتري مستلزماتها، مغامرة كبيرة لكي تجد تاكسي لا يمر من أمام السفارة... بعد ذلك تولى فانيس أمر إحضار الطعام في الليل وبعد ذلك، عندما تشجع كان يدخل إلى المطبخ ويطبخ بنفسه له ولنانسي بعض الطبخات اللذيذة بكثير من البصل والفلفل. كان إنسانا رائعا، وصديقا نفيسا. حتى في الليلة التي وصل فيها غاضبا وقال لها إن طاقم الطوربيد « بينذوس » ألقى بأربعة ضباط في البحر، وجدت نانسي أن الأمر مرعب.

لكن هو، انفجر والغضب يملأ عينيه، وقال: وماذا يفعل مانوس هناك؟ لماذا نعاني نحن هنا لأننا أرسلناه إلى هناك؟ لينام؟ سمعت نانسي صدره يصفر. اقتربت منه ووضعت يدها على جبهته: لابد أن هناك سببا مقنعا حتى يلقوا بالضباط في البحر. لابد أنهم فعلوا شيئا مريعا، قالت نانسي بنعومة وكأنها تتحدث إلى طفل.

ـ حسنا، لقد توسلوا إليهم؛ ما نعرفه هو أنهم حاولوا أن يفككوا لجنة قيادة السفينة. لكن وما معنى هذا؟ لماذا يورطون أنفسهم ويتركونها تسقط ضحية للاستفزازات؟

في تلك الليلة أصرت عليه أن ينام على الأريكة. كان يجرجر قدميه من فرط الإرهاق، لم يكن في حالة تسمح بأن يُترك وحيدا يحوم في الشوارع. بعد عدة ليال، وبينما كانا يتحاوران سقط نائما. كان اليوم الذي استقالت فيه الحكومةَ والقائد البريطاني العام منع وزير الحربية من أن يدخل الوزارة أو يكون لديه أي إتصال مع الجيش. انتظرت نانسي نصف الساعة ثم أيقظته. خشيت أن يكون لديه موعد ويضيعه؛ لكن، لم يكن لديه القدرة ولا الشجاعة أن ينهض ويغادر؛ كل مخابئه الأساسية والاحتياطية تم كشفها: قوات البوليس المتعاونة اليونانية والمصرية والإنجليزية كانت تخيف الناس. أصرت عليه نانسي أن ينام، ثم وجدت أنه من الطبيعي أن تعطيه المفتاح في الصباح كي يصنع لنفسه نسخة منه. ومن حينها، كانت هناك دائما بطانية صوفية مطوية على الأريكة. كان يتصادف أن يأتي فانيس وينام قليلاً ثم يغادر دون أن تشعر نانسي به.

وماذا حدث لمانوس طيلة هذه الفترة؟ لم يكن يرسل الخطابات. حتى إن فانيس نفسه كان يتساءل، رجال التواصل كانوا يروحون ويجيئون كل يوم. عندئذ سألت نانسي ماري كلود بطريقة غير مباشرة عنه. نعم، قالت صديقتها. كان يتصل من وقت لآخر. لكن رجلك في تلك الأيام لديه مشاكل مع عازف الكمان.

« كمان! » الكمان في اللغة الدارجة كانت تعني السجن. هل تم القبض على مانوس؟ وإذا حدث هذا، هل كانت ستقول لها الخبر بكل هذا الهدوء؟ ألا يجب أن تقول إن « رجلك في الكمان »؟ من هو عازف الكمان؟ في المساء أجاب فانيس على كل تساؤلاتها. عازف الكمان كان المقصود بها الكتيبة الأولى؛ كانت محبوسة، أو بمعنى أدق محاصرة من قبل المدرعات البريطانية، سلاح المدفعية وجنود هنود من الجيش البريطاني الهندي. لابد أن مانوس يراقب عن كثب الوضع الذي كان محتدمًا: بعد أمر من تشرشل قطع الإنجليز كل المؤن والإمدادات عنهم. الشيء نفسه فعلوا مع السفن الحربية، وكل المباني التي يسيطر عليها البحارة في الإسكندرية. كانوا يحاولون ليّهم بالجوع. الحصار هو سلاح إنجليزي قديم؛ الشعب اليوناني قد جربه مرات عديدة. لكن الآن أخطأت حسابات تشرشل. لأن تلك الإهانة جعلت التضامن حول اللجان يأتي من الكثير من الضباط الذين يحملون رتباً عليا، والذين كانوا حتى هذه اللحظة مترددين. كلهم كانوا على قلب رجل واحد ألا يسلموا أسلحتهم. وإذا لزم الأمر سيموتون معهم.

- ثيرموبيليس، قالت نانسي.

ضحك فانيس وهو يخفض عينيه.

ـ لا؛ هذا كلام أكبر من الوضع. الحقيقة هي أننا لا نستطيع التراجع لأن في تلك الحالة سينتهي الاتحاد الوطني، والحرب الأهلية ستكون أقرب من المسافة التي تفصل بيننا الآن. الفينزويليون الذين دفعوا الأمور حتى صارت الأزمة، الآن ينسحبون من الرقص وفوق كل هذا يأمروننا أنا نستسلم للفاشيين والخونة المتعاونين مع القوى الإمبريالية الذين هم ديمقراطيون حتى النخاع. كيف نقوم بخيانة كهذه؟ طريق واحد بقى لدينا، كي نتجنب إراقة الدماء، حتى يضطر تشرشل وتسونيروس وفينيزيلوس وأي أحد آخر أن يحضر ممثلون من اللجنة السياسية للتحرير الوطني ويشكلوا حكومة وطنية. وإلا، حكومة القاهرة ستكون مثل جلباب مثقوب، مثل شبح.

ذات مساء جاء فانيس وقال لها إنه بعد قليل سيصل رجل من بلادها! وطلب منها أن تسامحه لأنه لم يسألها، لكن كان عليهما أن يتناقشا في أمور مهمة وكان يحتاجها للترجمة. الأسكتلندي لم يكن يعرف أي لغة غير الإنجليزية. المقدم الذي يتحدث الإنجليزية كان مفيداً في التواصل، والذي تعرفت عليه نانسي من قبل تم القبض عليه في الشارع ليلة أمس. دخل الرقيب؛ ذكيا ومبتسما يرتدي قبعة جنود بنفسجية بشكل معكوس. قال فور أن جلس:

ـ أنا أعرفك يا رفيقة. أعتقد أنني أذكر اسمك. أنتِ مسز فيل...

ـ فيلبوت، أكملت بعد أن شحب لونها، فقد كانت تلك أول مرة بعد كل هذا الوقت تسمع أحدا ينسبها إلى رون. لكن أين تقابلنا؟

ـ رأيتك في أورشليم وقد لفت انتباهي لون عيونك. كنت أنا المسؤول في محطة النقل الحربية. كانت ثمة حقيبة لزوجك، تذكرتِ .. وجدتها في اللحظة الأخيرة بينما كان القطار يستعد للمغادرة إلى الإسماعيلية.

هكذا إذن. كان ذلك الأسبوع الذي قضياه زوجًا وزوجة في بنسيون الفراو آنا وكلف رون كثيرا...

ـ كيف تذكرت هذا؟ نعم، كان طيارا. لكنه قتل. في العلمين، قالت وهي تحاول تجنب التفاصيل كي تختصر الحوار.

ـ أنا آسف جدا. لكنك يا سيدتي تفعلين ما ينبغي، تكملين الطريق كما أرى. كل هذه التضحيات لن تذهب سدى هذه المرة.

ـ من أين أنت؟ سألت نانسي كي تغير الموضوع.

ـ من أرجينتايل. هل سمعتِ عن هذا المكان من قبل؟

نانسي كانت بحكم منصبها بارونة أرجينتايل. قبل قرنين من الزمان كان بيدها مصير حياة أو موت هذا الشاب. حقيقة أن هذا العالم قد تغير بسرعة. أعجبتها فكرة أن تعرف أن هناك راعي غنم، سوقي يقول للبارونة الآن، يارفيقة.

ـ لا، لم أسمع بها قط، أجابته وهي تبتسم بلا اهتمام.

التف فانيس في موضعه على الأريكة؛ بدا كأن صبره أوشك على النفاد. ثم بدأت نانسي في ترجمة الحوار بسرعة ودقة:

ـ يا رفيق، الواجبات القتالية التي تثقل كاهل الرفاق الإنجليز كبيرة جداً.

ـ يا رفيق، الرفاق البريطانيون قليلون وضعفاء. لكن لديهم وعيًا بما يجب عمله.

ـ الكتيبة جائعة. حتى الآن لم تستطيعوا أن توفروا لها الغذاء.

ـ عربة الماء التي نسيناها في محطة برج العرب لم تفد؟

ـ لقد تم حل مشكلة المياه. وجدنا الماسورة التي تمد مرسى مطروح بالمياه. ثقبناها ومنها نأخذ الماء. الإنجليز يعرفون هذا لكن ماذا سيفعلون؟ لو قطعوا المياه سيظمأ كل الجنود في ليبيا.

لكن ليس لديهم دقيق ولا لحم ولا خضراوات. أخذنا كل ما كان لدى بدو المنطقة. لابد أن تنسوا عربة أخرى تحمل مواد غذائية.

ـ صعب جدا. الحراس المرافقون لديهم أوامر واضحة.

ـ إذن؛ علينا أن نخبرهم أن يقطعوا الطريق عليهم.

ـ هذا سيعني مذبحة. مستحيل يا رفيق.

ـ إذن، عليك أنت أن تجد حلاً، يا رفيق.

ـ هناك ثلاثة كاميونات محملة عن آخرها بالأرز والدقيق والمكرونة والشاي والسكر والطماطم والخضراوات. المرافقون سيكونون منا.

ـ عظيم، متى؟

ـ عندما تأتي النقود. أمناء المخازن ليسوا معنا، تفهم؟

ـ كم يريدون يا رفيق؟

ـ خمسة آلاف يا رفيق.

ـ أليس هذا مبلغا كبيرا؟

ـ مالك الجراج يريد أن يؤمِّن نفسه. فيمكن أن يتم تدمير الكاميونات.

ـ حسنا. مساء غد مُر على البارمان الذي تعرفه. لو لم يكن لديه المبلغ سيحدد لك موعدا آخر.

غادر الاسكتلندي، لكن فانيس جلس على الأريكة وغرق في التفكير. مرة أو مرتين شرع في الحديث لكنه تراجع نادما.

ـ ليس لديكم النقود، أليس كذلك؟ سألت نانسي.

ـ إنه مبلغ كبير. خمسة آلاف ليست أزمة. سنقوم بحملة تبرعات ونجمعها. لكن المشكلة في أننا نحتاجها غدا ولا أجد أيًا من رجالنا بهذا الثراء

يمكن أن يقرضنا هذا المبلغ. نعم، سكرتير الرابطة في الإسكندرية، هو. لكن حتى هذا قبضوا عليه منذ أيام ولا نعرف أين احتجزوه.

- يمكن أن أتصل بزوجي... آه، لا، مستحيل. هذا سيعقد الأمور، تنهدت نانسي. إنه رجل سادي.. لكن، ربما... انتظر لحظة، لا تغادر.

أخذت الهاتف وطلبت مكالمة بعيدة وطلبت رقم جرسونيرة شارع فؤاد. كانت الساعة قد تخطت الحادية عشرة مساء عندما سمعت صوت ماري كلود.

- نعم، هذا أنا، ما الخطب يا نانسي؟

- اعذريني، فليس لدي وقت لأشرح لكِ. هل يستطيع جاك أن يقرضني خمسة آلاف؟

- جنيه؟ يا إلهي! ماذا يحدث؟ من يهددك؟

- لا تقولي حماقات. هم من أجل أن يأكل عازف الكمان.

صمت. لابد أن ماري كلود تتحدث مع جاك. كانت دقات قلب نانسي تضرب بقوة ويتصاعد إيقاعها كما لو كانت في حلبة سباق الخيل وقد راهنت على الحصان الرابح الذي يجري آخر مائة متر.

- ممكن، سُمع صوت ماري كلود مبتهجاً. غداً في الظهيرة سيمر عليك الفرّاش نفسه الذي مر في المرة السابقة. ستوقعين له على « إيصال استلام ».

ـ شكرا. قولي لجاك إنه كنز حقيقي.

ثم شدت فانيس من يديه واحتضنته وهي تغني فالس قديما. صاحبها في الخطوات الأولى ثم اضطرا أن يتوقفا بعد أن صار يلهث. لكنهما كانا يضحكان في سعادة.

كان الثالث عشر من شهر أبريل. السماء تعد بيوم فاتر بلا سحب، والنيل كثيف يبرق، كما لو أنه طلى ضفاف الجزيرة باللون الأخضر. من حديقة الأمير كانت تفوح رائحة طيبة للبسلة الحلوة، رائحة مُسكِرة وحلوة؛ لابد أنهم قد زرعوا له مشتلا كاملا. صداع خفيف وألم الدورة الشهرية في صدر نانسي جعلاها تبحث في حقيبتها ثم في الصيدلية الصغيرة في الحمام. كم هي مهملة! تنقصها بعض الأغراض التي لا تستطيع أن تطلب من فانيس أن يشتريها لها. ارتدت ملابسها بسرعة وخرجت. أدارت ظهرها لمنطقة السفارة الخطرة وصعدت الشارع حتى وصلت إلى أطراف جاردن سيتي، انحرفت يسارا ودخلت في ضوضاء شارع القصر العيني حيث الأتوبيسات الكثيرة والترام وسيارات التاكسي وعربات الكارو. كانت تذكر أنه في نهايته تقريبا هناك ميدان صغير به نافورة وكانت هناك صيدلية حديثة.

سارت وهي تفكر في مانوس بمشاعر مختلطة بين الرقة والإحباط. متى سيكون لديهما طفل؟ متى ستنتهي الحرب؟ متى ستتحرر اليونان؟ متى سيذهبان ليسكنا في كيفسيا. ليخبئا هناك سعادتهما، ويعيشا بلا قيود حياتهما الشخصية؟ لكن قبل أي شيء لابد أن يخرجا حيين من

هذه الحرب، ليس بالطبع وحدهما ولكن أيضا: المحاصرون والمساجين والمضطهدون والمطاردون. كان لديها انطباع منذ أيام أن الجميع بعد أن تسكعوا في الصحراء الليبية وبين أحجارها ورمالها، سقطوا الآن في وادي آمون الشهير حيث ترقد اللعنة الشهيرة التي سحقت روميل من قبل. كانوا يسيرون ليل نهار حتى جفت أرواحهم من الحرب والقيظ ولم يكسبوا ولا باردة واحدة. ركود كابوسي.

الملك يرغيوس الثاني وصل إلى لندن وأصدر بيانا؛ في اليوم التالي ألقى فينيزيلوس القسم وأصبح رئيسا للوزراء. وعندها هو وأنصاره الذين دفعوا الوضع حيث هو الآن، بدءوا يهددون بأنهم سيسحقون « الثوار » عن طريق القوات الأجنبية إذا لم يستسلموا فورا. تماما مثلما توقع فانيس. يكسبون ساعات وأيام وأسابيع محاولين تجنب عار تسليم السلاح، يقاومون، هم حفنة من الرجال ضد إمبراطورية كاملة، حتى يصل من اليونان وفد حقيقي يمثل الشعب اليوناني، وهم من سيقررون ما سوف يحدث. تشرشل بالطبع والملك وفنيزيلوس وآخرون حولهم أرادوا أولاً من الكتيبة الأسطول أن يسلموا السلاح وبعدها يُحضرون الوفد من اليونان ليتفاوضوا معهم. هكذا، صار كل من يدرس حقيقة الوضع يرى التالي: من ناحية رغبة الشعب أن يعبر عنها هؤلاء الذين يحاربون المستعمرين في اليونان، في البحار، وفي صحراء أفريقيا، من ناحية أخرى اليونان الرسمية، مدعومة من تشرشل، وإن كانت أفعالها وأغراضها خارج مبادئ حرب الحلفاء. الربط بين القوى الحقيقية كان سيحدد نتيجة المفاوضات. المقاومة

اكتسبت قيمة تاريخية. في الإسكندرية، أحد مباني الخدمات الذي كان يحميه البحارة، الشرطة الإنجليزية كبلته وحاصرته بالأسلاك الشائكة، تم تسميته « ميسولونجي ». لكن هل سيجرؤ تشرشل أن يضرب شعبا صغيرا قد منح الكثير للحلفاء أول نصر لهم ضد المحور؟ هذا التساؤل ختمت به نانسي مقالها في « هيرميس » والذي عنونته بـ: مع أيّ جانب كان سيكون بيرون؟

ولكن قبل خمسة .. قبل أربعة أيام بدأ الوضع يتحسن فجأة. والنصر، أو المخرج على أى حال بدا قريبا، وبمقاييس إنسانية. تم اقتراح اسم الحكومي العجوز روسوس رئيسا للوزارة. مستر ليبر أرسل تليغرافا إلى لندن يدعم العرض ويرجو من الملك أن يبقى في مكانه حتى لا تسوء الأوضاع. السير جون كانينجام شجع روسوس أن يصدر بيانا إلى الجيش كمرشح لرئاسة الوزراء ويقول لهم إن المفوضين على وصول، ولابد أن تنتهي هذه الثورة. قال فانيس إن ثمة خطرًا يختبئ هنا: كان يعتقد في نزاهة روسوس، لكن ما الذي يضمن أن الإنجليز لن يستغنوا عنه فور أن يتم ما يبغونه؟ كان بالفعل حلاً مطروحاً يستحق التجربة. بدأ إذن في كتابة وإرسال الرسائل إلى كل الوحدات أن يردوا على البيان. لكن باكرا في صباح اليوم التالي، جاءت الكارثة: أرسل تشرشل تليغرافا بـ لا، الملك قال الشيء نفسه، وأيضا... وهو من الغريب جدا... بعض عمال الملاحة. قال فانيس إن هناك شيئا غريبا قد حدث؛ لكنه عندما قرأ في صحف المعارضة أن حل روسوس قد تم رفضه من قبل الـ «ثوار»، قال إن عمال الملاحة الذين فعلوا هذا كانوا ماكينة وأداة للاستخبارات الإنجليزية.

الفتاة في الصيدلية صنعت علبة أنيقة. لكن تلك الابتسامة التي صحبتها شغلت انتباه نانسي لدقيقة أو اثنتين. كان هذا كافيا. خرجت من الصيدلية وكانت في مواجهة بيتر الذي كان يسير بلا قصد وغير منتبه. رآها، ومباشرة تصنع أنه يخرج قبعته القديمة. كان من المستحيل أن تتجنبه.

ـ ميجور بيتر، قالت له. في البكور هكذا؟

ـ ليدي كمبل، أنا سعيد جدا لرؤيتك. كنت أتوقع أن تكوني في القاهرة على أى حال.

ـ توقع هذا أم نبوءة؟ لقد وصلت اليوم.

ـ وبالطبع تقيمين عند الليدي جويندلين.

ـ لا... تعرف أنني أتجنب بعض الفخامات. لكن، يا لها من صدفة! كنت سأذهب لأسجل حضوري حتى لا يستاء أحد.

كانا يتحاوران بروح طيبة ومودة مثل اثنين من المثقفين ينتميان تقريبا إلى الطبقة نفسها. طوى بيتر مرتين كوفيته حول عنقه. كان يرتدي معطفا. وحولهم كان جارسونات المقاهي الشعبية قد بدءوا في رش الماء على الرصيف حتى يكسروا قيظ الشمس.

ـ العجوز ويني، قال بيتر بضحكة ساخرة بينما كان يشرع في السير. سيموت غيظا بسبب أصدقائك. عاشر يوم للحصار ومازالوا صامدين.

ـ ألا يجب أن يكون أصدقائي هم أصدقاؤكم؟

ـ بالطبع يا ليدي نانسي. إن إعجابي بلا حدود. كل هذا التنظيم، هذا الإيمان، وهذا الثبات! أتعرفين أن كل أمورهم تسير بشكل رائع ومتكامل؟

ـ يذهب إلى هناك ضباط وبحارة يتوقعون أن يروا عصابات من الضائعين غارقين في الفُجر والفسوق ويجدون الأوضاع كأن شيئا لم يحدث، وكأن ضابطا لم يغب عنهم يوما: رباطة جأش، معنويات مرتفعة، انضباط، كل شيء على ما يرام! تخرج تقارير كل اللجان تقول الشيء نفسه: متى سنحارب؟ لابد أن نعترف أنه بات واضحا أن كل هذا يقلب كل ما يدرسه القباطنة وقائدو الأساطيل في المدرسة الملكية الحربية. وهنا لابد أن نقول إنهم محقون في قلقهم! هل هو أمر هين أن يتحدث تشرشل عن « حكومة شرعية » ويأتي بعض الجنود والبحَارة ويسفهونها؟ يكشفونها أمام أعين العالم وكأنها شركة مفلسة يديرها بعض الحمقى النفعيين والانتهازيين؟ سلة من سرطانات البحر تأكل بعضها. هذا هو! لقد اقتبست هذه الصورة من الصحيفة التي يصدرها أصدقاؤك. والآن... اسمحي لي، ليدي نانسي، سوف أنتهي من كلامي. الآن: صمودهم غير المفهوم. القائد (باي جيد) الآن في ارتباك شديد، لا يعرف كيف يقول للعجوز ويني إن الحصار قد فشل.

ـ لابد أنه نسى حمية اليونانيين الغذائية التي تعتمد فقط على حفنة من الزيتون...

ـ زيتون وعجينة الأسماك من البحيرة ولحم ماعز مشوي ونرة وشعير... لقد أفرغوا مخازن البقالين في برج العرب. البدو يبيعون لهم كل

شيء، كما ترين؛ هؤلاء هم جرح عميق وجنس طماع. نعم، أعرف. المكر لا يكفي، يحتاج الأمر إلى الشجاعة أيضاً. لكن هل تشرشل الذي نعرف أنه يعمل كثيرا على كل جملة يقولها، يحترمهم عندما يقول عنهم بشكل غير مباشر « إنهم رجال غاضبون وشرسون»؟ للأسف، لقد سيطرت عليه مكابرة العجائز. هو يطلب استسلاما غير مشروط. أنتِ، ياليدي نانسي، كنتِ دائماً ترتابين فيّ. لا أريد أن أتكلم الآن، لكن لابد أن تعرفي مدى المحاولات التي قمنا بها من أجل أن يتم تفاوض، بدأنا مع ليبر والسفير. هذا المسكين رغم كل السباب الذي يصبه عليه أصدقاؤك! حل روسوس على سبيل المثال الذي لم يقبلوه. لكن العجوز ويني، تعرفين بمَ أجاب؟ هذا سر بيننا، أرجوك. أرسل تليغرافا قال فيه إن هذه القصة يجب ألا تنتهي بتبادل الأحضان والقبلات؛ إنهم متمردون ويجب أن يتم القضاء عليهم، على الأقل قوادهم. تكدرت كثيرا منك عندما لم تساعديني كي أجد سيميونيذيس أو كالويانيس. من موقعي كان لدي الكثير لأرشده؛ ولما وصلت الأمور اليوم إلى طريق مسدود كهذا.

ـ ولهذا كلفت الحثالة المدعو بروكس ليقتفي أثره؟

وصلا إلى فندق سميراميس. كان يظهر من بعيد حارس السفارة يرتدي قبعة من الخوص ويقف ثابتا بساقين مفتوحتين ويرفع بندقيته ذات الحربة القصيرة. تعمدت نانسي أن تستفز بيتر. أرادته أن يغضب وتتخلص منه. لم يكن لديها أي رغبة أن تدخل معه وحدها إلى السفارة. انتفض هو. لكن ضيقه كان أكثر بسبب الإهانة الشخصية ومن أسلوبها القاسي. لابد أن الجنتلمان كان يغلي بداخله. توقف.

ـ ليدي نانسي، قال لها بصوت خفيض. إن جويندلين لا تستيقظ قبل الساعة العاشرة. مازال لدينا نصف الساعة. هل تريدين أن تصعدي معي؟ لدي شيء يخصك أريد أن أريكِ إياه. وربما حينها تصدقيني.

كان هذا حلاً. ستذهب. ثم تنزل وحدها. ستستقل سيارة تاكسي، ثم تاكسي آخر غيره... في المصعد كان بيتر يتحدث بصوت خفيض. بشرته الرخامية احمَّر لونها. هذا يدل على مدى ارتباكه في محاولته أن يخفيها.

ـ مهما حدث، وأخشى أننا على مشارف مأساة، قد بدأها أصدقاؤك على الأقل. أتفهم هذا من عصبية تشرشل. فهو زعيم أكبر حرب في العالم، تاريخي وأديب ويعرف كيف أن كل كلمة عندما تكتب سوف يتم تحليلها وتفنيدها من الأجيال القادمة، يكذب بكثافة غير مبال إذا كان روزفلت أو ستالين يتابعانه ويتضاحكان سرا عندما يلقب متمردي فيلوخيوتيس باللصوص، ويصف كل سياسيي المهجر من عينة روسوس بمنتهزين للفرص التافهة.

انتهى من حديثه. أغلق المصعد دون أن يحدث صوتا وراح يضع كعب حذائه على الأرض مثل اللصوص ثم فتح باب الشقة. بإيماءة من يده أدخل نانسي إلى الشقة ثم أوصد الباب بالمزلاج.

ـ هل أنا رهن الاحتجاز يا ميجور بيتر؟

ـ بالشكل نفسه الذي كنت فيه أنا في هاتيك الليلة في شقتك في الإسكندرية. ويسكي؟

ـ شكرا. مستحيل في الصباح.

ـ أنا سأشرب إذا سمحتِ لي. لكي أتعافى من الهجوم.

مرا إلى غرفة المكتب؛ شرفته كانت تطل على ميدان صغير داخل حديقة السفارة. شقته كانت أشبه بصوبة ساخنة. ملأ بيتر كأسه في البداية ثم أخذ حزمة من ثلاث صحف. «مانشيستر جارديان» و« راينولدز نيوز » و« دايلي ووركر». كانت هناك خطوط وعلامات بالقلم الأزرق على الصحف الثلاثة. وضعها بجوارها وهو يخرج من الدرج نسخة من نشرة « هيرميس ». أشار بيده إلى نانسي كي تقرأها. انحنت هي على الأوراق وفهمت من السطور الأولى. الصحف الإنجليزية نشرت النص الذي كتبته هي بالكامل. احتاجت أن تستجمع كل قواها كي لا تفضح نفسها. مزيج من مشاعر السعادة والفخر التي يشعر بها الكاتب عندما يرى أول طبعة لمخطوطه، راحت المطارق تدق في قلبها ورأسها.

ـ مبروك، قال بيتر دون أي سخرية. بهذا المنشور السري استطعتم أن تقنعوا الرأي العام العالمي بالحركة اليونانية في الشرق الأوسط أنها ليست ذات طابع معادٍ للحلفاء. سينفق آخرون الملايين دون أن يحصلوا على أيّ نتائج.

ـ أنا لا أفهمك يابيتر. صراحة، لماذا تقول هذا الكلام لي؟

ـ منذ أن اختفيتِ من « بروتياس » وأنا أشمشم في الأفق عليك. في البداية ظننت أنك تختبئين مع مسز بروكس. لم تكوني في فلسطين. تم الاستعلام من

كل الفنادق هنا. وفجأة قرأت هذا. فهمت. ليسوا كثيرين هؤلاء الذين لديهم المقدرة على التعرف على أسلوب الكتابة للمتفوقين من كامبريدج. بالطبع تقدرين مدى سعادة اكتشاف كهذا بالنسبة إلى محب للأدب والكتابة أن يبوح به إلى أيّ كلب ضال. لكن بكل الإعجاب والشجاعة، وبحق ذكرى كل الأصدقاء الذين خسرناهم، أستحلفك: ابتعدي! مازال لديك الوقت. ألا يخيفك ما حدث لروبي؟

ـ قلت أصدقاء. من تقصد بصيغة الجمع. رون؟

ـ ليس بالضبط. هذا غير أن أمر رون مجرد تخمينات من جويندلين. ربما وحشية، لكن أتفهمها. فقد كان أخاها.

ـ إن جين لم تقل لي شيئا بخصوص تخميناتها. أنا لدي أدلة وشهادات. بيتر، الأدب، والثقافة التي ورثناها؛ كيف يمكن أن تجعلنا وحشيين هكذا؟ هل فهمت الآن كيف يمكن للمرء أن يذهب إلى المعسكر الآخر؟

ـ أفهمك.

ـ والآن، لماذا أغلقت عليَّ الباب؟ لقد حكت لي جوين عن الكمين الذي نصبته عشيقتك. سيكون الأمر مزحة غير صائبة وقلة ذوق إذا كان يتم تكرارها الآن.

ـ يا إلهي، كيف تظنين هذا بي؟

غطى وجهه ثم استلقى على الأريكة. كان يهتز وينقبض. هل يبكي؟ هل أصابته رعشة التأثر؟ كانت نانسي واقفة تطل من خلف الزجاج على

الشجيرات القارية في السفارة. سمعته وهو يقف وينزع غطاء زجاجة الويسكي ويصب، يصب. بعدها سمعت صوت طرق كأس فارغة على سطح المكتب.

- أوصدت الباب بالمزلاج لأن عشيقتي... السيدة ميتراكيس تسكن في الشقة المجاورة. أردت أن أريك الأوراق وكنت أخشى أن تدخل فجأة. ربما أكون شخصا ضائعا، خنزير في إسطبل إحدى الفاتنات. لقد بعت مثاليات الشباب كي أشتري معاشا سيئا وغير مضمون. لكن بقى لدي إحساس التضامن مع بني وطني.

- ما رأي هذه المرأة في الشأن اليوناني؟

- وجب الاستسلام غير المشروط. فليس من المنطقي أن تنضم اليونان إلى معسكر المهزومين بسبب بعض المغامرين كما تصفهم.

- وتطلق على نفسها يونانية. ألا تدرك أنها بمكائدها تدفع اليونان إلى سوق العبيد؟ بالطبع، لا ينتظر أحد من عاهرة حمقاء مثلها أن تفهم بما يضحي هؤلاء المغامرون كما تصفهم. أنا سأقول لك. إنهم يدافعون عن انتصارهم ومجدهم. هل تريد أن أوقع لك على: لن يستسلموا أبدا.

- ليدي كمبل، كنت أتمنى لو تكذبين. بايجيت وكانينجام لديهما أوامر شفهية. لقد جمعا عشرة أضعاف الأسلحة التي لدى الأسطول اليوناني والكتيبة معاً. سوف يقضون عليهم.

ـ من يأمر بإطلاق النار سوف يتألم كثيرا من العار الذي سيحل عليه.

ـ لا تدعِ الحماس يسيطر عليكِ. بعد قليل ستتحدثين عن ميسولونجي. المسكين روبي الذي كان يكره الرومانسيين كثيرا، كان يرسل خطابات إلى سيميونيذيس ويوقع عليها باسم « بيرون ». لكن هنا تنتهي الأدبيات. أرجوك قولي لهم، عليهم أن ينتبهوا. سيتصرف تشرشل بقسوة. يريد أن يحرق البثرة بحديد ساخن قبل أن يتغير شكل النصر الذي يحلم به. قولي لهم هذا نيابة عني، وأوضحي لهم من أنا وما هو ماضيَّ وحاضري ومحنتي. لعلهم يراجعون مواقفهم ويزنون الأمور بشكل مسؤول.

ـ هل يمكن أن أغادر؟

ـ معذرة، سأفتح لكِ فورا. هناك أمر آخر. لا تركبي تاكسي من المنطقة حول السفارة. كل السائقين يتبعون البوليس السري. من الأفضل أن تذهبي سيراً على الأقدام حتى القصر العيني، ومن هناك يمكن أن تستقلي أي تاكسي يمر. بعد قليل عليكِ أن تبدليه. لابد أن تعرفي أنني أبحث عنك في القاهرة منذ عشرة أيام والصدفة وحدها هي سبب مقابلتنا. يوم سعيد ياليدي نانسي. حظ سعيد.

نانسي نائمة وتحلم. فرس البحر يتهادى في الأعماق الرطبة لليل والنوم. فرس عريض يتمدد ويتقوقع على رمال القاع. تنام ولا تحلم. دفء الرجل يلتصق في ظهرها ويلف وسطها. فرسان بحر. يحلقان في رطوبة الليل والنوم. نانسي لا تحلم. يداه تمسكان بصدرها وتضغطان. يستمر.

لابد أنه لم يفهم. مرات أخرى كان يتوقف على الفور لكنه لم يفهم بعد وتخجل أن تقول له حبيبي سأحبطك. إصرار غريب. ليس الليلة يا حبيبي. هناك سبب عضوي. لكن إصراره وصوت خواره غريب. نانسي ليست نائمة تصغي السمع وتصمت. **إنه ليس مانوس**. متى دخل دون مفتاح. إنه رجل آخر. فرس بحر يتقوقع. إذن: ياللخسارة، أيريد فانيس أن يستفيد من الوضع. لم تكن لتصدق أبدا أن هذا الرجل المتواضع الطيب سيرتكب مثل هذه الخطيئة التي تقترب من زنا المحارم. هذا الدمث المخلص. كلهم الشيء نفسه عندما تسيطر عليهم الشهوة. لو تصنعت بأنها مستيقظة. نانسي ليست نائمة. إنها تتظاهر بالنوم. من يدري كم شهر مضى عليه في وحدته. هل هو قائد فقط، لكن جسده لا يعرف كيف يطلب. هكذا كانت هي من قبل، مرات عديدة كانت تتمنى لكن لم تفعل أبدا مثلما كانت تفعل جوليا مرتين في الأسبوع كأنها تتناول المقويات المعالجة. نانسي تتظاهر ولا تنام. كم هو صديق خائن وقاس. إنه يسرق. لا لكنه ضعف. لحظة صعبة وستمر، ستنسى الأمر تماما. لكن في الصباح كيف سينظران إلى بعضهما. من ستصدق. انتهى الأمر. هنا انتهى العالم الجميل. لا، كم أن هذا مرعب! لو شرعت في الاستيقاظ. مفتاح الضوء عند أطراف أصابعها. ستنظر إليه في الضوء. إنها لحظة صعبة. هل سيتخطى خجله غدا سيصبح كما كان من قبل « هيرميس » الكفاح ومصير الشعب. هيا إذن. فرس البحر يتمدد. هيا. تمسك بيده وتنزعها عنها. لكن هناك خاتما وحجرة، من كان يرتدي خاتما كهذا، من. **إنه ليس فانيس**. هاليلويا. هاليوليا. ياللرعب. إنه شخص مجهول. ماذا لو كان مسلحاً. ستتركه وتتظاهر أن يديها مخدرتان. غارقة

في النيل الهادر تحت الجسر ذي الأسدين. النجدة. النجدة. قرف وغثيان. النجدة. فرس البحر ينتفض. قاطعته. الآن نانسي واقفة بعيدا عن الفراش. شخص كسول، صلعة لامعة، عينان محدقتان، رجل متقوقع مثير للشفقة. إنه جاك!

- أنت؟ إيا لماري كلود المسكينة، قالت بشفقة وهي ترتدي الكيمونو.

هرولت إلى الحمام، أغلقت خلفها. خلعت ملابسها، فتحت الدش. راحت تغتسل وتحك جسمها لتنزع من عليها الدنس. بينما الماء يجري ويبلل بلاط الحمام صارت عيناها تجريان، بذاءة الواقع تدمرها.

- مسكينة يا ماري كلود، قالت وهي تدخل الحجرة ثانية ملتفة ببرنس صديقتها: لقد ضحت بشبابها من أجل كبش صفيق.

كان هو قد ارتدى ملابسه ماعدا الكولا والكرافتة. جلس على طرف الفراش. كانت عيناه تلمعان في مكر ممتلئة بالخوف والحقد.

- اهدئي ماي ليدي، لا تضخمي الأمور. فأنا دفعت ثمن هذا على أي حال. ثمن أكبر مما كلفتني ماري كلود كل هذه السنوات التي نحن معا.

- اخرج!

- معذرة. لكنني في بيتي.

- بالضبط. ولا حتى هذا قد منعك. أريد أن أرتدي ملابسي وأرحل. ونقودك ستأخذها في أسرع وقت.

ـ وكل أوراق « هيرميس » التي توزع بعد أن كتبت على آلتي الكاتبة؟ هل تعرفين أنه تم استدعائي وتوبيخي؟ الآلة الكاتبة معروفة، فعليها أكتب كل المذكرات السرية للبنك. كيف نجوت، لا أدري. قلنا يا صديقتي إن الرأسمالية خسرت اللعبة في أوروبا. هو أمر لا يعنيني مطلقا. لكن ليس لدرجة أن أمَوّل من يحفرون قبرها وأطعمهم وأعطيهم سكنا وآلة كاتبة! لقد زاد الأمر عن حده، وكل هذا دون مقابل.

ـ مسكينة يا ماري كلود.

ـ ما دخل ماري كلود الآن؟ لو كنتِ تحبينها...

ـ أتخافى أن أقول لها؟ كيف تركتك تأتي وحدك؟

ـ بقيت هي مع أمها. فقد أصيبت بأزمة قلبية أو شيء كهذا.

ـ وأنت مباشرة... لابد أنك كنت تخطط لهذا من فترة.

كانت في تلك الأثناء تجمع أغراضها. ووضعت ما سوف ترتديه على مقعد، الأغراض الأخرى كومتها في حقيبة. ذهبت إلى الصالة، جمعت كل أوراقها والكربون المستخدم وقطعتها، ألقتها في المرحاض وشدت السيفون. عادت ودخلت.

ـ أريد أن أرتدي ملابسي.

نهض جاك، أشعل سيجارته ببطء، حك ذقنه بخاتمه وخرج من الغرفة.

الآلة الكاتبة، انتهت؛ « هيرميس » انتهت؛ شقة جاردن سيتي؛ انتهت.
والآن ماذا؟ سيشرق النهار بعد قليل. سترحل. لكن كيف ستتجول في الشوارع بهذه الحقيبة؟ أين ستذهب؟ لو أن فانيس موجود كان سيعتني بالأمر. فانيس، شكها الماجن، والحقيقة المريحة. كان لديه مفتاح، كان يجب على الفور أن يعلم بما حدث حتى لا يسقط في الفخ. لكن أين ينام هو الآن، كيف ستجده؟ لابد أولاً أن تخرج من هنا، لتذهب الحقيبة إلى الجحيم. أقل ما يمكن أن تطلبه من ذلك الحيوان هو أن يحمل لها الحقيبة إلى الإسكندرية. وماذا عن كل أغراضها توجد في شقة شارع فؤاد؟ يا للورطة! ماري كلود المسكينة، لابد أن تعرف. ستغادر، لكن لتذهب إلى أين؟ هل تتصل بجويندولين أو بيتر؟ مستحيل! لنر ماذا سيقول فانيس عندما سيعرف عن مقابلتها بميجور الاستخبارات. حقيقة، لماذا لم يأت الليلة؟ هل نصبوا له كمينا، هل جاك متورط؟ أوه يا إلهي، يا للورطة! ربما تكون هي بطيشها من أعطتهم طرف الخيط. لكن لا، لقد اتصل فانيس في المساء وقال إنه لن يأتي. لكن اليوم، يمكن أن يمر اليوم في النهار، فهو يفعل هذا أحيانا، عندما تكون هناك حاجة ماسة. لابد أن تلحق به.

فتحت الباب وخرجت. كان هو يروح ويجيء مدخنا في الصالة. بدا عليه الندم. وضعت نانسي مفتاح الشقة فوق منضدة الهاتف.

ـ هل ستغادرين؟ أين ستذهبين الآن في هذا الليل؟ سأوصلك أنا، سيارتي الباركر أسفل البناية. هل تريدين أن أغادر أنا؟ وماذا عن حقيبتك؟

ـ اذهب أنت ونم على الفراش، يبدو كأنك على وشك الانهيار. جاك، أنا مستاءة منك كثيراً. لكن ماري كلود لا يجب أن تعرف. في الصباح ضع حقيبتي في سيارتك الباركر واذهب بها إلى الإسكندرية، سأتصل بك هناك لأخبرك أين ترسلها لي.

ـ وماذا عن الآلة الكاتبة؟

ـ لا؛ الآلة الكاتبة لا.

ـ من فضلك. لابد أن يستمر إصدار « هيرميس ». وإلا سيربط المحققون بين توقفها وبين استدعائي للتحقيق.

ـ حسنا، خذوا الآلة الكاتبة. سأفكر بالأمر.

خرجت دون أن تصافحه، دون أن تبتسم في وجهه. أسفل البناية كانت خطواتها تشق الصمت مثل الصنجات. من بعيد صاح أحد الحراس الليليين فرد عليه آخر من الناحية الأخرى عند قصر الأمير. سارت نانسي في طريقها. مرت بجوار الحارس وألقى عليها التحية، فردت عليه: تاكسي: نو تاكسي، مافيش.

خرجت من شارع القصر العيني، وصلت عند الصيدلية، انحرفت نحو شارع البستاني. الآن تعرف إلى أين ستذهب. الساهرون القلائل من العمال كانوا يتوقفون وينظرون إليها متسائلين تحت الضوء الرمادي للفجر؛ لكن تعبير وجهها منعهم أن يشرعوا في أي شيء. نو، تاكسي مافيش! وصلت

إلى نهاية الشارع عند الجامع. هناك كان يعيش المسكين روبي. على الناحية الأخرى منزل آريان، كما وصفه لها مانوس. مُشعل القناديل ينزل متعجلاً ويرفع عصاه والخطاف في قمته. الأعمى يملأ الأباريق من أجل المصلين. المكان كله تفوح فيه رائحة مزيج من الطماطم والروث. صعدت درج الطابقين المظلم بصعوبة ولم يكن لديها في حقيبتها كبريت. دقت الباب. رأت بصيصا من الضوء من تحته، فُتحت الأضواء ثم المزلاج. فتحت آريان الباب بقميص النوم وشعر منكوش، فور أن رأتها وضعت خديها بين كفيها وراحت تسأل بقلق شديد: مانوس؟ مانوس؟ جذبتها إلى الداخل ثم أغلقت الباب بكوعها. أُنهكت نانسي مُحاولة أن تشرح لها بالإنجليزية والفرنسية أن مانوس على ما يرام لكن يجب أنّ تجدوا لي فانيس. لحسن الحظ الأصوات أيقظت واحدة من التوأم. لم يعرفوا من هو فانيس، لكنهم سيحاولون أن يساعدوها. أيقظوا الولد الصغير الذي كان نائماً في الأنتريه وأرسلوه إلى الداخل. في تلك الأثناء أعدوا لها الشاي، قدمت آريان لها حلوى البرتقال. راح البقية يستيقظون شيئا فشيئا، الابنة الأخرى وزوجها. اعتنوا جميعا بها رغم أنهم كانوا ناعسين ومتحفظين. عندما وصل فانيس بعد نصف الساعة تركوهما وحدهما حول المنضدة بالمشمع الأصفر، وانسحب الجميع كل إلى غرفته وبعضهم إلى المطبخ. استمع فانيس بهدوء وبين الحين والآخر كان يعقد حاجبيه فيعرج جبهته؛ حينها كانت تختلط بثور وجهه.

ـ نعم، لابد أن نعتبر أن « هيرميس » بكل آلياتها صارت قضية محروقة. تعاون بيتر وجاك؟ ربما يكون مستحيلاً، لكن كل شيء وارد. على

كل حال أهنئك على مبادرتك. كنت سأذهب في الظهيرة وبالطبع... على كلٍ. حتى هنا ليس مكاناً آمناً لتبقي. لقد جاءت الشرطة العسكرية الإنجليزية وفتشت. عليك أن تختاري. إما أن تعودي إلى زوجك، فهو سيحميك بالتأكيد أو تأتين معي إلى الإسكندرية، لكن الآن. لم يعد هنا شيء لنفعله. الهجوم على السفن والكتيبة تم إقراره. العمليات يمكن أن تبدأ غداً. من الأفضل إذن أن نكون قريبين.

صحبتها آريان إلى الشارع. قبل أن تقبلها ضمت أصابعها الثلاثة ورسمت شارة الصليب عليها. تاكسي يورغيس كان ينتظر على ناصية الشارع. كان معه رجل آخر، بعينين جاحظتين. تحركوا مباشرة. سيسلكون الطريق الزراعي لمزيد من الأمان.

XVI

كيف يمكن أن تعيش كل هذه السنين وأنت تخشى أي تغيير طفيف في حياتك، الأحداث الطارئة سوف تربك حياتك المرتبة، ثم يأتي أكبر ارتباك وتقبع داخل بيتك الثورة بذاتها، وأنت تشعر بالارتياح، صوت المظاهرات يدوي في أذنيك وخفقان نبضك في شرايينك يضرب بقوة وثقة؟ في ليلة خميس العهد دق جرس الباب فهرولت جوليا إلى غرفة النوم لتغلق علي نفسها، فتحت الباب، كان مانوس. منذ تلك الليلة وكل الأشياء صارت أكبر، أكثر أهمية؛ شعرت بأن نسيم الملحمة يهب؛ صوت مزمار يصفر خفية فيستدعي رجفة؛ وظل أنطوان، دقة كعب حذائه، عصاه، وهو يروح ويجيء في شقة الميناء الشرقي وكل الأشياء تأخذ سمته وطوله وعرضه.

ـ قال مانوس، أريد أن أعرفك على صديقة لي يا باراسخوس.

دخلت امرأة ذات شعر أسود وعينين زرقاوين بنفسجيتين. أسكتلندية من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، غامضة ومبتسمة، جنيّة! وفي تلك اللحظة فتحت جوليا الباب وألقت بنفسها في أحضانها.

- حبيبتي نانسي. لقد وجدتيه أخيرا!

النساء يتبادلن القبل وتدمع عيونهن، بينما أنت ومانوس تتبادلان النظرات في صمت تام. بعد ذلك تولت جوليا زمام الأمور كمديرة سابقة لـ « بروتياس » كانت تعرف عن التنظيم؛ استغلت كل ركن في الشقة. لم يريدا أن يأخذا غرفة النوم. وضعتهما في غرفة المكتب؛ وضعت الأرائك ورتبت، نزلت أسرَّة من الصندرة. في الليل عندما كان يأتي فانيس مع ثاناسيس الأرملة، كانت غرفتهما جاهزة في غرفة الطعام. هكذا تحول مقر القيادة إلى شقتك وبدأت حياة جديدة مليئة بالمفاجآت. قنصل السويد استوقفك على الدرج: أهنئك يا جاري العزيز: فقد دبت الحياة كثيراً في البناية. لابد أنك سعيد جداً بأن كل هؤلاء الأقارب تذكروك وجاءوا لزيارتك. ماذا؟ لا أبداً، لا يضايقونني على الإطلاق. على العكس تماماً، تلك الضوضاء والحركة تملأ بشكل ما حياة العجائز المملة، أي حياتي أنا وخادمي المخلص سليم. أنا لا أتضايق حتى من الأغاني الثورية في محطة موسكو. لا يضايقني شيء من هذا، ماهذا الكلام! وإلا ماذا سيعني أن تكون دولتي على الحياد؟

على كل حال دعا فانيس إلى اجتماع كي ينظم الأمور بشكل أفضل. شؤون البيت كُلفت بها جوليا، أنت تحضر المشتروات ليلاً. الأرملة تولى أمر الحراسة: أنت فقط كان بمقدورك أن تخرج إلى الشرفة وتفتح النوافذ وتستخدم الدرج الرئيسي؛ كل الآخرين كانوا يستخدمون درج الطوارئ والخدم ليلاً. جوليا ونانسي ممنوع خروجهما على الإطلاق: محبوستان. فانيس كان منحنيا طيلة اليوم على الطاولة يكتب؛ مانوس في المكتب يدق على

الآلـة الكاتبـة؛ الأرملـة يأخـذ رزمة طبع نشرة «المحارب» و«الملاح» إلى المطبعة، كان يحضر الرسائل، كان مخلصاً ونشيطا كالزئبق. كل شيء كان يسير بسلاسة وبلا ضجة. بسرعة تم إثراء النشر بنشرة « هيرميس ». اتصلت نانسي بجاك؛ قالت له أن يصف السيارة في مكان ولا يغلق حقيبة السيارة بالمفتاح؛ البقية ستتولاها هي، أي الأرملة مع يورغيس السائق. هكذا حملا إليها ليس فقط آلة كاتبة بحروف لاتينية ولكن أيضاً حقيبة ملابسها. جنت المرأتان وتشاركتا في السراويل وقمصان النوم. لقد أنهكهما غسل الأشياء نفسها وانتظارها لتجف في الحمام الذي كان مشغولاً على الدوام بكل هؤلاء الرجال في البيت.

تعلمت الحياة المزدوجة، الشخصية المزدوجة، وأحببت هذا. لكن ذات ليلة جاء كاركاليميس. لم يرد مانوس، كان يبحث عنك، كان لديه أمر عاجل يود أن يخبرك به. هكذا كان بعينيه الغائمتين ورائحة زفارة السمك تفوح من ملابسه المهلهلة بدا لك أحمق؛ لكنه كان يحمل أخبارا غير سارة. أين تذهبين في هذا الزحام لتتحدثا، أخذته إلى المطبخ. هناك بدأ يسألك إذا كنت تعرف أين توني لأن في الاتحاد الرياضي لم يخبره أحد بشيء. جاءت إلى الساحة امرأة عجوز لتقول له ألا ينام مع ابنتها لأن هذا ذنب عظيم.

ـ سيد نيكولا، هل جئت إلى هنا مخمورا؟

ـ على الإطلاق. هذه قصص قديمة، لم تكن أنت قد ولدت. ثم إنك قاهري، لا تعرف شيئاً عن محظية الكونت كانت لها علاقة مع أحد المهربين

يُدعى ذيموستينيس وتزوجته. بعد عدة سنوات أنجبت ابنة. لكنها لم تكن من زوجها.

خلفه جاءت جوليا ووقفت. كانت تتنصت. كان لونها شاحبا وشعرها غير مرتب. عضت على شفتها وأومأت لك ألا تقاطع كاركاليميس.

ـ كانت ابنة جدك المرحوم أنطوان. عندما كبرت تزوجت من باركر، كبير الجواسيس. لكن؛ تمهل لحظة! ألم تقل لي أنت عن بنسيون « بروتياس »؟ إذن؛ لابد أنك تعرف شيئاً. هل هذه هي من أخبرتك عن أمر تسوذيروس في 25 يناير؟

ـ أكمل أولاً.

ـ لقد اختفت. ويبحث عنها زوجها ليقضي عليها، تبحث عنها أمها لتحميها منه. ومن البطريرك الذي سيطردها من الكنيسة إذا نامت مع توني. لأن الأم وهي تبحث في خطابات الابنة وجدت..

ـ هاهاهاها، ضحكت جوليا بهيستيرية. إذن فأنا وتوني أبناء عمومة!

مددت يدك المرتعشة حتى تُسكتها. التفت كاركاليميس برأسه محاولاً أن ينظر إليها وهو يضيق جفونه المُحمرة.

ـ أهذا أنتِ إذن؟ وتضحكين يا ابنتي في أمر كهذا؟ أنتما دم واحد، حتى إن العلم يمنع شيئًا كهذا. هل رأيتِ أنتوني في هذه الفترة؟

ـ كنا ننام معا أنا وتوني ولم يحدث لنا شيء على الإطلاق. الآن أنام مع باراسخوس. وإذا كان هناك أي أحفاد لسيذيريس أحضرهم لي! هاهاهاها.

احتاج الأمر أن تطلب مساعدة نانسي لتأخذها إلى غرفة النوم. لحسن الحظ كان في الشقة من كل أنواع العقاقير. غادر كاركاليميس بعد أن وعد ألا يقول كلمة لأي أحد، وبالأخص إلى أم جوليا. في منتصف الليل، بعد أن دقت أجراس الكنيسة والألعاب النارية لعيد القيامة، شَعُرت بلسانها حادا يحك في سقف فمك؛ أنفاسها لها رائحة عقاقير مخدرة تصيبك بالدوار؛ غطتك بجسدها وراحت تنتفض. صياح البوم وأزهار الياسمين في حديقة الجد انتهت للأبد. فكرة أنك تنام مع ابنة لأنطوان كانت تنهكك؛ صرت مثل أخطبوط تم ضربه على صخور شاطئ لوران أربعين مرة.

مكالمة الأرملة قال عن قصد: مانوس في المكان المعروف في الساعة الثامنة والنصف. سوف يكون هناك شخص والأمر عاجل. منذ الليلة التي قابل فيها المأسوف عليه عبد الرحمن لم يذهب إلى هذا المقهى في باب سدرة. لم يكن هناك شيء ضد المكان؛ لكن لم يتصادف. كان المقهى على مبعدة عشرين دقيقة سيرا على الأقدام من منزل باراسخوس. عملت حساب الطريق المتعرج والأزقة والظلام؛ في الثامنة نزلت. كما هي العادة، أوقفت نانسي الآلة الكاتبة، أوصلتني إلى الباب وقبلتني كما لو كنت ذاهبا في رحلة طويلة.

فور أن جلست على الطاولة التي جلست عليها في المرة السابقة نهض أحد العمال بقبعة مبقعة واقترب مني ووضع أمامي صندوق عدة من المبارد والكماشات والجواكيش.

ـ سيدي الضابط، قال وهو ينحني فوقي. الرقيب ميخاليس ساريذيس، لدي الشرف...

قلت له أن يجلس على الفور. كان يرتعش من الإرهاق.

ـ من أين اغتنمت هذه القبعة؟ قلت له.

ـ إنها للفران في برج العرب. من جزيرة ليمنوس. الملابس أيضاً له. لم يشأ أن يعطيها لي عديم الشرف. لكنني نجحت في إقناع ابنه. الشباب كما ترى...

ـ كيف حال أمك، هل هي على ما يرام؟ قلت مقاطعاً. رأيتها قبل أسبوعين. أحد معارفي رآها قبل الأمس.

ـ نحن لسنا على ما يرام، قال لي. إننا نموت من الجوع والدوسنتاريا. بسبب كل هذه الأوساخ البدوية التي نبتلعها. للمترددين والفاشيين نعطي وجبات صحيحة. وهكذا لا يتبقى لنا سوى الفتات. لكن لا تقلق. سنتحمل قدر ما يحتاج الأمر. هذه هي أول رسالة. توقيع: غاريلاس.

ـ حقيقة؟ كيف حاله؟

ـ غاريلاس؟ ماذا أقول لك؟ في البداية بدا لنا أحمق ويسعى للشجار. لكن شيئا فشيئا أظهر إحساسا كبيرا بالمسؤولية. عندما أرسلنا وزير الحربية إلى لواء جديد، أول من قال سنقبل الأمر حتى ينتهي الشقاق ونبدأ الاستعدادات للجبهة كان غاريلاس. قائد اللواء عاد إلى القاهرة يجر أذيال

الخيبة لكن ليس بسببنا. الضباط الذين يعيشون محبوسين في خيامهم هم من طردوه. إنهم فاشيون، أتفهم؟ أنزع للإنجليز. قالو إنهم لن يقبلوا سوى من يعينه الملك. الشيء نفسه صار مع تسليم السلاح. اللجان انسحبت، كل شيء يسير بشكل عادي كما من قبل، انضباط ونظام. فجأة قلب الإنجليز الصفحة: جاء أمر من (باي جيد) لكي نسلم السلاح. كتبنا لافتة بطول خمسة أمتار باليونانية والإنجليزية ورفعناها إليهم مكتوبا عليها: «الأسلحة التي نالت المجد في العلمين لن تُسلم !».

طلبت له الشاي. لو أراد أن يأكل أي شيء كان علينا أن نغادر.

ـ انتظر حتى أستجمع قواي، قال لي.

ـ لم أسألك. كيف جئت إلى هنا؟

ـ بالقطار، من برج العرب. حشرت نفسي في أحد الأركان، أنزلت القبعة على وجهي. متسخ وغير حليق. أتكلم العربية كما تعرف. الشرطة العسكرية الإنجليزية كانت تدخل القطار في المحطات وتمشط القطار. وأنا هناك مثل عامل فني. رغم ذلك نزلت في محطة محرم بك. مررت بالمعدية إلى الجهة المقابلة، كان الجسر مازال تحت الإصلاح. من هناك جئت إلى هنا سيرا على الأقدام. أرسلني غاريلاس إليك بالاسم.

ـ لماذا أنا؟

نبش في صندوق العدة وأخرج ورقة. أعطاني إياها. كانت الرسالة عبارة عن عدد طارئ من « المحارب » لكن طباعته مجهولة المصدر.

ـ قال غاريلاس إنك ستفهم. وينتظر أن أذهب إليه بالإجابة.

اقتربت من الضوء الصادر من موقد المقهى وقرأت. كانت دعوة باردة وصريحة لإراقة دماء الكتيبة بأكملها. كان يمتدح المدفعية كلها بأنها الأقوى في العالم! القوة المضادة للمدرعات التي يخشاها الإنجليز والألمان. الموت لاستعمارية وفاشية موناكو. لن يحشر أحد أنفه في شؤوننا، إلخ، إلخ.

ـ كيف وصلت هذه الورقة إلى أيديكم؟

ـ استوقفنا كاميون يحمل الجبن والبطاطس في مرسى مطروح هناك وجدناها وراح الجنود يوزعونها. هل تذكر هذا الرقيب القصير الأسمر من المدفعية؛ الذي يقولون إنه حاصر الألمان في حصون مقدونيا؟ صوب فوهات المدافع نحو الإنجليز. فور أن وصل: ماذا تفعل، هل لديك أمر بهذا؟ قلت له. أرسلت في استدعاء غاريلاس، وهكذا نجونا. كنا سنسحق.

ـ هيا بنا، لابد أن تأكل، قلت له.

وضعته في سيارة تاكسي وبعد قليل كنا في البيت.

لحسن الحظ لم يكن فانيس قد غادر بعد. أخذت جوليا ميخاليس وراحت تعد له طبقا من الحساء بسرعة. كانت الآلة الكاتبة لنانسي يُسمع صوتها عبر الباب المغلق؛ كانت تدق باستمرار. تنهد فانيس بصوت أشبه بالنحيب، من ذلك النوع الذي لا يظهر ولا يرتسم على وجهه.

ـ لابد أن يعاقب!

أخذ الهاتف، طلب رقما. من شفرة الكلام فهمت أنه يتحدث إلى يورغيس السائق. هيا بنا، قال لي فور أن وضع سماعة الهاتف. بالأسفل، سلكنا طريق الكورنيش من يمين الرصيف. ظلال البنايات كانت تحمينا من الضوء؛ خلف المقابر، بعد المستشفى سطع قمر أصفر نحاسي غير مكتمل مثل صينية نحاسية صدئة مضغوط من أحد جوانبه. من البحر كانت تأتي رائحة تعفن: أعشاب، أطعمة، جثث. عبرنا المحكمة الجنائية التمثال الرخامي للخديو إسماعيل. لم ينطق فانيس بكلمة. بعد القنصلية الفرنسية اتجه يميناً دون تنبيه. هرولت خلفه. وصلنا إلى شارع مكتب البريد. أمام الجراج كانت سيارة التاكسي القارية ويورغيس وملازم المدفعية. دخلنا إلى السيارة بسرعة وتحركنا مباشرة.

- اذهب بنا أولاً إلى منزل المحاسب، قال فانيس.

يمكن أن نلحق بباندليس. واسمعوا جميعا: سأحتاج إلى القوة، لهذا أخذتكم كلكم معي. لكن المسؤولية أتحملها كاملة وحدي. من فضلكم إذن افعلوا ما أقوله لكم ولا شيء آخر.

بعد هدوء طويل شرح أننا في طريقنا لنقتلع « تنظيمًا لبعض الرفاق خرج عن المنظومة ». انتهى. كلنا نعرف من كان يقصد، ولم يفتح أحد منا فمه ليقول شيئا، سواء كنا موافقين أم معترضين. الملازم راح يكز على أسنانه وقد جحظت عيناه. أنا نظرت خلفي من خلال الزجاج على القمر الذي راح يصغر حجمه بينما كنا نسير. أخرج فانيس مسدسه وراح يفحصه.

صف يورغيس السيارة بهدوء؛ ألصقها تقريبا في سياج حلبة سباق الخيل؛ وبحركتين كنا نحن الأربعة أمام باب المنزل. داس فانيس على زر الجرس. فتحت زوجة المحاسب الباب مرتعبة. دخلنا بسرعة إلى البيت. كان باندليس جالسا في الصالون يشرب القهوة. الآن هو يرتدي الملابس المدنية دائما. رآنا كلنا متعصبين وفهم أن ثمة شيء قد حدث، لكنه لم يتكلم. وقف فقط من على مقعده وانتظر. سأله فانيس أين الضئيل التافه وإذا كان هو وفوتيروس مازالا ينامان أحيانا هناك. الإجابة: لا؛ الأول كان يمر من وقت لآخر يسمع الأخبار في الراديو. سؤال: هل لديك أى معلومات إنهم هنا يقومون بإصدار صحيفة؟ الإجابة لا؛ أسمع أحيانا صاحب البيت يدق على الآلة الكاتبة، لكنه قال لي إن يقوم ببعض الترجمات التجارية. أمر من فانيس: اعثروا على الآلة الكاتبة! أسهل مأمورية بالنسبة للمختصين. إلى أن تفهم المرأة أننا نفتش البيت كان يورغيس قد أخرج من صحيفة القمامة آلة كاتبة قديمة، مثل تلك التي كانت في شقة نينا في أورشليم وكنت أكتب عليها صحيفة « المحارب ».

- اجمع كل أغراضك، أوراقا، ملابس وهيا بنا، قال فانيس لباندليس.

في تلك الأثناء كان الملازم يخرج من غرفة النوم. وجد في الملاءات المطوية في خزانة الملابس حزمة من أوراق الشفاف. كانت المرأة تنظر إلينا بكراهية وتقول شيئا من بين أسنانها. لكنها بالتأكيد لم تكن تعرف شيئا عن دور زوجها في هذه القضية؛ كانت تكرهنا جميعا من البداية وبلا تمييز. لكن في أعماقها كانت سعيدة بأننا نفرغ لها البيت من تلك الأدوات الشيطانية، الآلة الكاتبة وشفاف الطباعة.

من هناك أسرعنا نحو الشقة المشتركة، خلف المستشفى الإسرائيلي. كنت أحمل معي دائما مفتاحها في جيبي. دخلنا، كلا الأريكتين لم تكونا مرتبتين. راح الملازم يفحص بعناية الفناجين غير المغسولة التي كانت متكومة في حوض المطبخ. قام فانيس بحركة غريبة؛ انحنى وراح يشم حواشي الأرائك. وبينما كنت أنظر إليه بفم مفتوح التفت برأسه قليلاً وغمز لي بعينه. لقد وجد شيئا. لكن التفتيش لم يظهر أي شيء من الذي نبحث عنه. غادرنا محبطين عندما وجدت باب المخبأ. أشرت بيدي على الباب إلي فانيس الذي بدوره قال لباندليليس أن يكسره بكتفه. يورغيس بحث عن زر الكهرباء بالكشاف. في البداية وجدنا كومة من ورق مطبوع في الركن. تحت كومة من الحجارة وجدنا البقية: طابعة ذات مستويات متعددة وشريط طباعة، وأربعة أنابيب حبر وشفاف الطباعة مستعمل. أخذنا كل شيء. خرجنا تاركين باب المخبأ مفتوحا. انتهى بنا الأمر في الشقة المشتركة القديمة في كليوباترا. من النافذة الخلفية قفزت للداخل، جذبت مزلاج الباب وفتحته. راحوا يبحثون بعناية في كل الغرف. ذهبت أنا إلى الغرفة التي بها الحشية على الأرض بلا ملاءات؛ فوقها كنا قد مارسنا الحب أنا ونانسي. كل شيء له الرائحة نفسها مثل ذي قبل؛ كان مربع أبيض فقط على الحائط: مكان اللوحة النحاسية التي كانت معلقة هناك وهي الآن في مكتب باراسخوس بجوار لوحة ماري لورينسن. تجمعنا في غرفة الطعام: النتيجة صفر. فوتيروس لم يكن يستخدم هذه الشقة ولا حتى الجرسونيرة.

كنا على موعد في منتصف الليل مع الأرملة في المقهى العربي. أرسلنا

باندليس. بعد قليل جاءا بالخبر الكبير: فوتيروس في تلك الليلة كان يصاحب بنفسه مركبا عربيا في الميناء يكسر الحصار الإنجليزي ويحمل الماء والطعام إلى سفننا الحربية. عاد المركب بدون فوتيروس؛ لقد بقي في الأسطول. لماذا؟

اجتمعنا على الفور في التاكسي. يورغيس كان لديه اختصاص، كان يمثل بشكل ما اليساريين في الجالية حتى هذه اللحظة: كان رفيقا مخلصا قليل الكلام. له عينان سوداوان ساخرتان، لم يكن ينزعهما عن الطريق بينما كنا نطوف في شارع أبو قير ثم منه إلى الكورنيش وثانية إلى طريق أبو قير وأنوار السيارة خافتة. لم يكن يشارك في الحوار. إذا سُئل كان يجيب، وتحت شاربه الخفيف كانت ترتسم ابتسامة. بادر فانيس مقترحا:

ـ يا رفاق، سنضيع وقتنا يا رفاق بحثاً عن المحرض على الانشقاق. لديه خبرة كبيرة ويجيد التخفي. على أي حال لابد أن نكون متأكدين من أنه في الإسكندرية، وسيبقى هنا كما سنبقى نحن هنا أيضاً. سأقول لكم دوافعه ولماذا هو مخطئ. نحن، نزن الأوضاع دون أي توهمات عن الوضع، نبني خططنا وتكتيكاتنا كلها على ثقة بأن تشرشل لن يتراجع: سيلون يديه بالدماء. المنشقون يتبنون رأيا آخر. يزعمون أن الإنجليز يراوغون وفي اللحظة الأخيرة سيجدون وسيلة للتراجع دون أن يفقدوا ماء وجوههم. في هذه الحالة سيحظون بثناء الحزب فهم الذين تبنوا هذا الموقف من البداية. ليس هناك معنى لنتحدث عمَن يمثلون وإذا كان تابعوهم كثيري أو قليلي العدد، وإذا ما كانت مواقفهم قد نوقشت مع الرفاق الآخرين أو تم إخبارهم بها. سيلجأون إلى الأعداد المهربة من «الملاح» و«المحارب» وسيضعون بعض

الشهادات وسيدّعون الأحقية بالنصر، آملين أن تظهر بعض الدلائل بعد ذلك لتملأ فجوات دلائلهم. لماذا ذهب فوتيروس إلى السفن؟ هل لينظم المعارضة بشكل أفضل أم ليقول بعد ذلك إن قيادة الانشقاق كانت في الصفوف الأولى في المعركة؟ أعتقد، للسببين. لو احتاج الأمر للتنظيم سيفعل. لكن الآخر الذي أرسله لديه أشياء أخرى في عقله. ماهي التعليمات التي أعطاه إياها؟ لابد أن نعرف حتى لا يسببوا لنا أي خسائر. لا تنسوا أنه على الناحية الأخرى في الكتيبة يعتقد أن رجله هناك هو غاريلاس. الغبيّ! ملأ عقل الرجل بكلمات رنانة وأرسله يتحدث كما لو كان مذياعا يردد ما أُملي عليه. لكن لو لدى المرء إحساس بالمسؤولية في دمه، دائما ما يفيق. لا أعرف ماذا سيحدث مع فوتيروس، كما لا أدري ماذا سيحدث مع منظم الانشقاق نفسه. لكني كنت دائما واثقا من غاريلاس. كما ترون هو يطلب تعليمات. لابد أن يغادر ميخاليس ساريذيس على الفور. لكن سيكون جيدا أن نرسل معه مبعوثا من الإدارة المركزية بتعليمات واضحة كي يتعاون معه غاريلاس.

- سأذهب أنا، قال الملازم.

- معذرة، قلت. هذا هو تخصصي. كان يجب علي أن أفكر كي لا أرسل غاريلاس وحده.

- إيه، تعرفان ماذا ستفعلان، قال فانيس. لو ذهب كلاكما سيكون أفضل. ملازمان وغاريلاس جندي. رائع.

ـ وأنا، سأذهب لأحضر لكم فوتيروس؟ قال الأرملة.

ـ أنت ستجلس هنا في مكانك! من سيتولى أمر الربط والتواصل والأمور الفنية، وعلاقاتك الغرامية؟ قال فانيس مداعباً. لابد أن يذهب شخص ويكون داخل سفينة «هيفيستوس» حتى يوجه لجنة النضال.

ـ هل أذهب أنا؟ قال بانديليس.

ـ هل تفهم شفرة مورس؟

ـ هل تمزح؟ أنا اختصاصي إشارة من الطراز الأول، ماذا كنت تعتقد؟

ـ هل عملت بالشفرة من قبل؟

ـ أقول لك إنني اختصاصي من الطراز الأول.

ـ أنا أيضا أجيدها، لكن بانديليس محترف، لديه بعض الأخطاء الإملائية، لكنه رائع، قال الأرملة معترفا له.

ـ حسنا، قال فانيس.

ـ سأجهز لك شفرة وستغادر. فلن تلحق بهم الليل على كل حال.

اللحظات كانت حاسمة ورسمية. كان فانيس يتكلم ببطء، لكن لأنني كنت أعرف جيدا درجات صوته، فهمت أن شيئا ما في صوته يرتعش. قال إنه يجب ألا يكون لدينا أدنى شك: إن الإنجليز سيضربون بالذخيرة الحية. مراوغة الفينزويليين ستغطيهم: هم لا يضربون معسكرا للحلفاء، بل

يضربون متمردين ضد حكومة الحلفاء. يوماً ما سيحكم الشعب في أمرهم، سيقول إن ما يفعلونه هو استفزازات تعسة. في هذه الأثناء، هل يستحق الأمر التضحية بآلاف من المناضلين وأن يُفتح باب حرب داخلية بين الحلفاء في الوقت الذي ينهش فيه هتلر في جسد شعبنا، والمعارضة لا تتوقف عن مطالبة الجميع بالوحدة؟ وجهة النظر اليونانية تقول إننا قد صرنا الآن دولة: التمرد سيطر على كل القوات المسلحة وأجهزة الخدمات والأسطول التجاري. دون المدافع الإنجليزية، أي بدون تدخل أجنبي. القوى اليمينية قد انتهت، انطفأت تماما. هذه الحقيقة يمكن أن نؤكد على وضوحها على الرغم من كل شيء، فنحن في كل الأحوال لا نريد أن نفقد الرجال دون جدوى وتدمر سفننا ومعداتنا الحربية: عن طريق التمرد السلبي. سيكون من الجيد بالطبع عندما يظهر الوفد اليوناني أن يتسلم السلطة منا؛ بهذا الشكل سيكون موقفهم أقوى: الحكومة والموالون لها لا يملكون سوى ختم، الشعب في صفنا. عندما يأتي رجالنا سيتصرفون بالشكل المطلوب؛ علينا أن نكون هادئين فيما يخص هذا. إذن بالتحديد: عندما سيهجم الإنجليز سنواجه في الدقائق الأولى. لكن سنطلب التفاوض مباشرة. نحن، سنقول لهم، إننا نحارب الفاشية ولا نحارب حلفاءنا. سندين تدخلكم لدي الضمير العالمي ومن هذه اللحظة سنصبح جزءا من القوى الشعبية التي تحارب المستعمر في وطننا. تفضلوا! ننزع عنا التاج ونرتدي شعار اليونان وأسطول التحرير اليوناني. لكن أنتم أمام حلفائكم ولديكم التزام بتحويلنا إلى أي جبهة يمكننا من خلالها أن نقاتل الألمان. تحذير: الوحدات ستستنفد أولاً كل هوامش المقاومة السلمية المتاحة ثم بعد ذلك يُسلمون الأسلحة. على أن

يتم هذا تباعا، أن يتم مَطّ عملية التسليم حتى نكسب وقتا. ومن تلك اللحظة فصاعدا سنكون تحت قيادة اللجنة السياسية للتحرير الوطني. حتى هنا؛ موافقون؟

- موافقون قلنا.

رحنا نتناول الأمور العملية. حسنا، ميخاليس سيعود كما جاء. لكن أنا والملازم كيف سنذهب؟ ليس هناك قطار سوى بالنهار. من المستحيل أن نترك ميخاليس ونذهب بدونه لأنه يتحدث العربية. لكن ثلاثة عمال أوروبيين في القطار نفسه سيثير الشكوك بالتأكيد. هل نرتدي ملابس بدوية؟ ربما نخدع الإنجليز لكن هل سنخدع المحليين المسافرين معنا؟ عندئذ تذكر الأرملة كاركاليميس. إنه يعرف العادات، ولديه علاقات ودودة بمحافظ برج العرب، لابد أن لديه ما ينصحنا به.

انحرف التاكسي وعاد من الشارع. دخلنا في الأزقة، خلف كنيسة الرسول إلياس؛ تهنا في الشوارع الترابية. مررنا من أمام الفيلات التي تشبه منطقة ماروسي وخولارغوس في أثينا. الليلة كانت لها رائحة الياسمين. وصلنا إلى أرض واسعة مثل ميدان أو ملعب لكرة القدم. أطفأ يورغيس مصابيح السيارة. صاحت بومة فوق رءوسنا. ما هذا؟ قال بانديليس. ذهب الأرملة ليحضر كاركاليميس. أشعلنا السجائر ورحنا ننتظر. كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل. قلت في نفسي، انظر، هنا، لابد أنها الساحة كما وصفها باراسخوس. هنا كبرت أمي، هنا كانت تلعب الغميضة وتقفز

الحبل مع صديقاتها. هنا تجرأ أبي ليحدثها لأول مرة، كانت ساعة الغروب وهي عائدة من البقال تحمل قطع الصابون والسكر والزيتون والطرشي والقهوة.

أجلسنا كاركاليميس على أرجلنا وانطلقنا في اتجاه السكة الحديد نبحث عن عشش بدو أبو قوة.

ـ لو حدث شيء ستكونون مدينين إلى أنطوان، قال كاركاليميس. أين هو الآن؟ قال وهو يشير إلى سقف السيارة. كان جد صاحب الندبة، أضاف وهو يربت على ظهري مداعبا.

وقفنا في ظلام الليل. القمر الفضي تعلق بعيداً فوق الميناء. بعض الكلاب تنبح خلف التلال الرملية على يميننا. ذهب كاركاليميس وحده وغاب ما يقرب من الساعة. ثم رأينا اثنين من البدو يهرولان من على التل الرملي نحونا. لحسن الحظ كان معنا يورغيس الذي يتكلم العربية. لكننا لم نحتجه. كان أحدهما هو كاركاليميس.

ـ هيا، بدلوا ملابسكم بسرعة، قال وهو يلقي حزمة من الملابس على السيارة. ستأكلنا البراغيث لكن ليس هناك طريقة أخرى. لابد أيضا أن تلطخوا وجوهكم بشيء من الطين أو الجير.

سيتحرك الكاميون فجرا مع مجموعة من العمال إلى مرسى مطروح. الكاميون سيحمل الأحجار الجيرية والإسمنت وبعض العوارض. المقاول هو أبو قوة. كاركاليميس والملازم وأنا ارتدينا الجلاليب المتسخة التي تفوح

منها رائحة العرق والماعز وربطنا عمامات حول رءوسنا بقوة، وقفنا مع مجموعة العمال نصفق ونغني أغنية من أغنيات العمال. بعد أن مررنا من خارج مطار العامرية تذكرت أنني لم أحيي نانسي. لكن فانيس الذي قد أخذ ملابسي سوف يشرح لها.

نانسي منحنية على الآلة الكاتبة: « أكثر ضباطه إخلاصا... » استراحة. مانوس، هل سيحدث الشر للمرة الثالثة؟ هل ستتحقق إذن لعنة تشارلز؟ أنتِ منحوسة، قال لها: عشاقك يموتون. آه، لا! ارفعي رأسك عاليا يا نانسي، ارفعيها عالياً! هناك وسائل أخرى لينظر المرء إلى الأمور. تهديد الفاشية، الحرب. لو أن الرجال الذين أحببتهم كان لديهم بشكل أو بآخر الأفكار نفسها، فذلك إذن أمر طبيعي في قانون الاحتمالات. الملايين يقتلون في هذا النضال الشرس، ومن كان يقول إن الأفضل هم من يفقدون، هل كان رون أم مانوس؟ لم تكن تحب الجبناء والخونة، تشارلز، بيتر، جاك. هكذا، نعم. وربما كانت تفضل هؤلاء الذين يذهبون إلى الحرب والموت بهدوء وبساطة وهم يعرفون من قبل أن النصر لن يكون حليفهم تلك المرة، ولا المرة التي يليها. أكثر الضباط إخلاصا، على سبيل المثال. لكن مانوس سوف يعيش؛ لابد أن يعيش. وإلا، أي معنى سيكون لحياتها من بعده؟

« أكثر ضباط الأسطول اليوناني إخلاصا ». قائد القوات، قبطان، قائد المدفعية، سيحتفظون باسمه سرا لأن لديه زوجة في اليونان ولابد أن يحموها من رد فعل كويسلينج والألمان. باندليس من السفينة «هيفيستو» كان يرسل تليغرافات كشاهد عيان لما يحدث، ثاناسيس الذي صعد على

السطح كان يكتب ما يرسله بانديليس من شفرات، ملء نوتة كاملة في الظلام، وفانيس من أسفل كان يفك الشفرات ويحكي لباراسخوس. الآن كانت الترجمة تحدث مباشرة إلى الإنجليزية.

كان النهار متأخرا عندما حاصر أحد الزوارق « هيفيستو». كان القائد واقفا فيه مرتديا كل نياشينه الذهبية التي كانت تلمع مثل شمس أبريلية، أشار لهم بأن يُنزلوا السلم المتحرك. على الفور ظهرت الحراسة؛ صافرات، تحيات عسكرية، تشريفات. طلب منهم أن يقودوه إلى قائد السفينة. رافقوه إلى مكان الضباط حيث كانت لجنة النضال تجتمع: ملازم بحري، ضابط، بحار. تعرفوا عليه، استقبلوه في وضع الانتباه العسكري. قال بياناته على الفور ثم أتبع: أعلن لكم كضابط أنني أستنكر هذه الحركة التي ألغت تماماً مفهوم الانضباط. لم أكن ولا أريد أن أتورط في تمردكم. لكنني ذهبت مرتين في مهمة إلى الوطن المحتل وأعرف مايحدث هناك. مهما استنكرت أفعالكم فلن أستطيع إلا أن أقبل بأن هدفهم مقدس. وعندما علمت إذن أن الحلفاء يعدون لضربنا، كيوناني وكضابط أيضاً لم يكن لدي إلا أن أؤدي واجبي: أن آتي وأموت مع طاقم البحارة وسفن الوطن المجيدة.

كلمات القائد نقلت عبر الإشارات إلى كامل الأسطول. فجأة صار بانديليس فاقدا للسيطرة. ضوء ماكينة جهاز التليغراف صار يضيء وينطفئ فوق مياه الميناء العكرة، كلمات جديدة لم ينطقها في حياته: التمرد، التكاتف، العظمة الروحية، القيامة، الدموع، المعذبون، الضوء المقدس، الوطن المنهوب، الوطن مرة ثانية، اليونان، وطننا اليونان، نريد أن نموت

فداء له، سنموت جميعا فداء للوطن، الجيش الشعبي للتحرير الوطني، الجيش الشعبي للتحرير الوطني.

انتقل فانيس بأوراقه إلى المكتب وراح يعمل أمام نانسي. مرت فترة وهو ينظر إليها وعيناه الكستنائيتان نصف مغلقتين. عندما بدأت هي تتنهد وهي محاولة أن تطرد العقدة التي علقت في حلقها، نهض فانيس واقترب منها، وقف بجوارها. مدت نانسي يدها.

ـ كيف يتحول الإنسان، قالت له. أشعر بشيء مثل... إنه شيء مثل بهجة لا تطاق تقريباً.

عندئذ ترجم لها فانيس التليغراف التالي من بانديليس. وُجدَ فوتيروس أخيرا، ظهر وحده. كان يختبئ في كاسحة الألغام «أبوستوليس». أبدى ندمه على الانشقاق وعلى ما فعله وقبل أن يلتزم من الآن فصاعدا بأوامر اللجنة المركزية.

من هو فوتيروس؟ وصف له فانيس الشخص ببضع كلمات، وما قام به. هل هزته تصريحات القائد؟ هل فهم أن الإنجليز لا يمزحون؟ هل غضب من هؤلاء الذين أرسلوه للموت؟ هل كان يخشى الموت ويبحث أن يغتسل من ذنوبه كلها؟ يمكن أن يكون كل هذا. فكرت نانسي أنه لابد أن يكون هو ذلك البحار الذي دهن مراراً وتكراراً الأبواب في شقة كليوباترا: لم يكن لديه أي خيال لكي يملأ وقت فراغه. مانوس... آه، في كل مكان مانوس! جسدها، لقد تغير الزمن، اللوحات، الأصدقاء حولها، الأخبار من المذياع.

قصاصات الورق المكتوبة بخط اليد، آخر الأنباء والأحداث من النضال، كل شيء يتحدث عن مانوس، مانوس الذي يخاطر بحياته على التراب نفسه، على الرمال نفسها التي تحتضن رفات رون.

الكتيبة خيمت على ضفتي الطريق العام. شرقا، خلف السكك الحديدية كانت المدفعية التي وجهت المدافع نحو الأفق، حيث كانت القوات التي فرضت حصارا على الكتيبة متجمعة كأسراب النمل: فرق المشاة والمدرعات والمدفعية والناقلات. بالمنظار كانت تظهر الجنود الهنود الذين كانوا لا يملون من تمشيط شعورهم الطويلة ولحاهم طيلة اليوم ثم يربطون العمَم الكاكي بمهارة على رءوسهم. كانت تلك قوات الاستعمار.

خلف المدفعية كانت هناك مساحة من الأرض الحصوية، حجارة صفراء وحمراء وبعض الشجيرات؛ هناك تم حفر خنادق وكانت سيارت الجيب تدور دون توقف بل كانت تذهب شرقاً حتى بداية رمل الصحراء الناعم. من هناك فيما أبعد كانت تمتد حقول الألغام (أوكنلك) التي لم يتم تطهيرها. في الوقت الراهن هي تحمي أحد جوانبنا: غدا، لو بدأ الإنجليز في الضغط من على جانبي الطريق، سيكون علينا أن نختار: إما أن نعبر حقل الألغام أو أن نسير فوق الأمواج.

على شرق الطريق كانت المدفعية؛ في الغرب مباشرة أسفل قرية برج العرب المُسَوَّرَة بالجدران الصفراء الصماء، كانت تبدأ مواقعنا. بعد ذلك كانت قيادة الكتيبة، اللواء الأول والثاني. الثالث والذي كان أيديولوجيا

أكثر قوة كان في الموقع الخلفي. هناك كان موقع غاريلاس. بعيداً من الناحية الغربية كانت تتمدد مثل عظام سمكة سلسلة من تلال الحجر الجيري الأبيض من أثر الشمس والملح. كانت بها فجوات صغيرة يعشش بداخلها الحمام البري. كنا نراها تطير وترتفع أسراباً راحلة ثم تعود. ود الجنود لو يصطادون بعضا منها إلا أن اللجنة قد منعت هذا بشكل قاطع: ممنوع إطلاق الرصاص، الحذر من الاستفزازات. في تلك الأثناء كان الجوع مسيطرا. اليوم العشرون للحصار: وزعوا شايا بدون سكر وحفنة من زيتون الواحات الأخضر المر.

من بين قمم التلال التي كانت بيضاء مثل أسنان الطباشير كان لون البحر الأزرق يغني، لونا أزرق مثل اللون اليوناني. ضباطنا أمروا غاريلاس بتولي أمر العلم على التلال. لو استطاع الإنجليز أن يضعوا أبراج مراقبتهم فوقها، ستكون الكتيبة كلها تحت أعينهم مثل أصابع البيانو. قال غاريلاس وبعدها قاموا بحفر الخنادق أمام أطراف التلال، ثم أرسل إلى المدرعات.

الكاميون الذي كنا نستقله عبر بوابة برج العرب دون أى عوائق. أول من قفز منه كان أبو قوة ثم ذهب يوصل تحيات كاركاميليس إلى المحافظ الذي وصل بلحية بيضاء وعينين ماكرتين في ملابسه الحريرية. بدأ يعطي الأوامر بأنه لابد أن يتم توزيع المجموعة؛ لم يكن هناك سبب أن يستمر الكاميون حتى مرسى مطروح. أما نحن فقد أرسلنا إلى غرفته. جلسنا هناك بعد أن أغلق علينا. أرسلنا في طلب ابن الفران، يوناني شجاع ومجتهد. أعطيناه رسالة إلى غاريلاس وهو بعد قليل أرسل إلينا كل ما طلبناه. بعد

الظهيرة سلمنا أنفسنا إلى نقطة الحراسة الأولى، الملازم وأنا، بزينا الرسمي والكتافات والقبعات. شكلنا موكبا شرفيا، مع الحراسة والمرافقين. مررنا بجوار خيام القيادة دون أن نتوقف. ذهبنا نحو اللواء الثالث. عندئذ تقابلنا مع موكب آخر كانوا يدفعون أمامهم شخصا قصيرا أصلع يسير بخطوة غريبة. كان يرفع ركبته ويلقي بجسده للخلف ثم ينزل بقدمه قبل أن يدوس على الأرض فيركل الأرض بحذائه. كان عرقه يسيل كما لو كانوا قد أفرغوا فوقه دلاء من الماء. عرفته: إنه ألكسندروس الأثري. كان قد تم القبض عليه في إحدى خيام الضباط، أقرب خيمة من ناحية التلال والبحر. أخذناه معنا إلى خيمة غاريلاس. هناك بدأ البائس يتحدث: وحده جاء ليعزز الروح المعنوية الوطنية للجيش، ويقتفى آثار الإسكندر الأكبر. البرج الثماني في أبو صير هو تقليد قوي له، ولو أنه أصغر منه، الفنار الشهير الذي كان إحدى عجائب الدنيا السبع في العالم القديم، تلوث الجنس من قذارة ذيمتروف، إلخ. قلنا له أن يدعه من هذا الهراء ويعترف ماذا كان يفعل هنا، من الذي أرسله، ومع من كان يتواصل. راح يكرر الهراء نفسه.

قام غاريلاس: نادوا على عبد المجيد، قال. بعد قليل ظهر وجه مألوف، كالينكوس باباكالينيكوس من ديار بكر. قدم التحية الرسمية بثبات وقوة. فجأة تعرف عليَّ وابتسم لي ابتسامة مبهمة. تذكرت أيام المسيرة نحو الفرات، مزاجه الرائق وشجاعة هذا الصديق الذي جاء من الأراضي اليونانية المفقودة في الجانب الآسيوي. هذه المرة كنا نقطع الصحراء أيضا، لكن صحراء أشد قسوة، حضور عبد المجيد منحني تفاؤلا غير مفهوم.

حاضر! أمره غاريلاس. أين سيذهب بي؟ سأل صاحب الأفكار الكبيرة. لا شيء، سيذهب بك في نزهة. نظرت إلى عيني غاريلاس: هل يرسله للإعدام؟ لكنه أومأ لي بحاجبه: هل جننت؟ سمعنا صوت سيارة جيب عبد المجيد مما جعل ألكسندروس يسأل بقلق ويقول ويخطب. خرجت من الخيمة. خلف الجيب وقف جندي وقد مدد بندقيته ووضعها في ظهر الشاعر. التف الغبار حولهم. توقفت ونظرت: بعد السيارة الجيب كانت السكك الحديدية ممتدة، عبر من بين المدافع ثم راح يهرول على الطريق الحجري. فجأة بدأ يراوغ كأنه يتبع خطا متعرجا غير مرئي. وصل إلى حدود الرمال الصفراء وراح يلوح بأنه سيدخل إلى حقل الألغام. رعب المرء بالمدافع والثقب في ظهره لابد أنه شيء مريع. بعد نصف الساعة عادوا وقد اعترف بكل شيء بالتفصيل: أعطوني سيجارة يا شباب، طلب سيجارة وهو يوقع على اعترافاته. على الفور أرسلنا مجموعات خاصة، جمعنا كل المتآمرين، كانوا كلهم ضباطا، حبسناهم في خيمة ووضعنا حولها حراسة مشددة. ألكسندروس وضعناه في حبس انفرادي - من أجل الترفيه في اللواء الثالث.

باكرا في اليوم التالي كانت هناك حادثة عند الخنادق القريبة من سلسلة التلال. شخص إنجليزي غير مرئي بدأ يتحدث اليونانية. لم يرد عليه جنودنا. فجأة قام واقفاً، كان يرتدي بزة رقيب؛ خلفه، كان الجنود الهنود منحنين يتبعونه؛ كانت تبدو ظهورهم المنحنية. قف! قال الجندي اليوناني الشاب ثم أعد سلاحه. الإنجليزي رفع يديه، كان يحمل علبة سجائر وتصنع أنه يقدم له. في تلك الأثناء كان يتقدم وهو يتكلم اللغة اليونانية، زاعما أننا

حلفاء، كلنا إخوة، هيا لنتحاور. قف، قلت لك يا مخنث. سأطلق الرصاص. لم يكن الإنجليزي خائفا، كان صلبا متبسما وراح يتقدم. خلفه كان الجنود الهنود المنحنون يتقدمون بقفزات. قف! قال الجندي اليوناني للمرة الثالثة والأخيرة. لم يعبأ الإنجليزي وتقدم. انطلقت رصاصة ورشقت في صدره؛ اختفى الجنود الهنود.

مرت ساعة. حراستنا المتقدمة شهدت بأن الإنجليز كانوا يلوحون «هدنة». يريدون أن يتسلموا جثة الرقيب. عند طرف الشارع الذي يفصل بيننا ظهرت مدرعة علقت على طرف الهوائي منديلا أبيض. تركناها تتقدم. كل فوهات المدافع كانت متوجهة نحوها. ستصير رمادا إذا حاولت أن تفعل أي شيء. من فتحة المدرعة برزت قبعة بشريط أحمر عليه رتبة ميجور. قلنا له أن يتقدم بسرعة، وضعنا حوله الحراسة، قفز من المدرعة بقوة، كان مبتسما وأصفر اللون. جئنا به إلى الخيمة. بعد الرسميات بدأنا الحوار. أتى كي يتسلم الجثة. كان ينبغي ألا تصل الأمور إلى هذا الحد، كان هذا خطأ كبيرا، قال. الآن سيستغل تشرشل هذا الحدث لأقصى درجة، كان بإمكانه أن يوصل الأمر إلى الأمم المتحدة. وبهذه الفرصة سيحاول أن يتفاوض معكم بشروط مرضية لتسليم السلاح. فضلاً عن هذا كان سعيدا برؤية ضابط عاقل في اللجنة الثورية.

هذا أثار الشكوك في نفسي. نظرت إليه بتمعن. بالطبع، لابد أنه هو. كان يتحدث اليونانية: إنه الميجور الذي يتحدث لغتنا ببراعة. فرجوته أن يتحدث اليونانية كي يفهمه الزملاء. ضحك ورفع كتفيه ثم أكمل حديثه

بالإنجليزية. قلت للحارس أن يحضر ميخاليس ساريذيس على الفور. لم يكن لدي علم بأنه قد عاد، لكنه كان يعرف وجه بيتر، شربا معاً كأسين من الويسكي في إهدن في لبنان قبل عام. على الفور قال الميجور إنه ليس هناك حاجة أن يأتي ساريذيس، سوف يتحدث اليونانية. راح غاريلاس يتنقل بعينيه قلقاً بيني وبين بيتر؛ جحظت عينا الملازم أيضاً؛ وكلاهما شحب وجههما وأحنيا ظهرهما، لم يعجبهما شيء من هذا.

أخرج بيتر من جيبه ورقة وأشار لنا على موقف المدفعية الإنجليزية؛ أشار إلى بعض الأرقام وأعداد الجنود والطائرات: إنه حصار فولاذي. نعم، أعترف، الحصار لم يأت بأي نتائج: وابل قنابل الدخان جعل من صاحب الفكرة أضحوكة إذا نتج عنها أن خمسة رجال فقط مروا إلى صفوف الإنجليز. لكن الآن أوامر الجنرال باي جيد كانت تتنبأ بالمرحلة القادمة: نصف الساعة من الضرب بالقنابل، ساعة من قنابل الدخان، ثم بعدها ساعة من الضرب بالقنابل، ثم ساعتان أخريان من قنابل الدخان، وهكذا دواليك حتى النهاية. كصديق قديم لليونان أنصح بالتالي: لا تدفعوا الأمور. معنويا؛ قد انتصرتم، في رأيي الشخصي أرى أن نضالكم عادل. لكن: أي نضال عادل نجح من المرة الأولى؟ من الناحية الأخرى، رجال الجيش الإنجليزي يحترمون الرجال الشجعان. تسليم السلاح سيتم بكل مراسم التشريف وبشكل مشرف. كما أنني أستطيع أن أؤكد لكم أن أيا منكم يريد أن ينتقل إلى أي ميناء يوغسلافي أو روسي ليستمر في حربه على الفاشية هناك. فليست هناك أي مشكلة.

ـ كنتم قد وعدتم الشيء نفسه جيش التحرير الشعبي في ساموس، قاطعه غاريلاس.

ـ سأحضر لكم هذا الكلام موقعا عليه من الجنرال باي جيد.

ـ لابد أن نفكر بالأمر، قال غاريلاس.

ـ إطلاق النار يمكن أن يبدأ في أي لحظة، قال بيتر. لماذا قتلتم الرقيب؟ خلقتم ذريعة بأنفسكم.

ـ نريد ثمانية وأربعين ساعة مهلة كي نفكر بالأمر، قلت.

ـ اثنتا عشرة ساعة، قال بيتر.

ـ لكن هذا يعد إنذارا، قال الملازم.

ـ مع الأسف، قال بيتر.

ـ نحن لا نتحاور تحت التهديد، قال غاريلاس.

خطا بيتر خطوة للخلف وألقى التحية الرسمية. استدار، اتجه للخارج. رافقته. تجمع الجنود بكل اللافتات والشعارات حول الخيمة. غابة من القوائم واللافتات مكتوب عليها بشكل عشوائي وبأخطاء إملائية. مر بيتر بين حراسة مشددة. خطوة عسكرية، زي رسمية، أزرار لامعة؛ كان يدقق في كل مايراه بنظرات خاطفة إلى العدة والعتاد، بينما كان الجنود يغنون.

ـ لقد أضعفهم الصيام، قال لي بالفرنسية.

ـ لا يبدو عليهم شيء كهذا، أجبته باليونانية.

ـ كيف حال نانسي؟

ـ نانسي من؟

ـ آه، معذرة. لقد تجاوزت حدودي.

عندما غادر، تركنا كاركاليميس يتجه إلى الإسكندرية بكاميون أبو قوة، وميخاليس ذهب بالقطار. معهم تعليمات بأنه: لو لم يعودوا خلال اثنتي عشرة ساعة سيعني هذا أن القيادة المركزية توافق على شروط تسليم السلاح.

مرت عشرون ساعة ولم يظهر أحد.

XVII

كل إنسان ينتمي إلى دائرة وإلى عالم خاص؛ ليس من الجيد أن يتم التشويش عليه. عالمك كان عالم تفكير وتأمل. كانت أمك عندما تمنعك أن تلعب مع أولاد العرب في الحي ممن هم في مثل عمرك في القاهرة، لم يكن دافعها حمايتك من أن تصاب بالبرد لكنها كانت تحميك من رفاق السوء. فور أن فتحت باب بيتك سكن فيه أناس أشراس، وربما غير متزنين وهم يشدونك ويجبرونك أن تتقاسم معهم مصيرهم. شيء بداخلك (حدس، أو إرث من والدتك؟) يقول لك إنه عندما يكون لديك الوقت ستفعل ما هو عاقل: أن تنفصل عن كل هذا. لكن مانوس غائب؛ هو من دمك، كنت ستحكي له بحرية، سوف يفهمك. أنت تخجل من نانسي: انظر، على سبيل المثال، تقول لك مواقفها. صحيح، لكن هي تهتم بهذه القضية بدوافع شخصية؛ أنت ماذا لديك لتكسب أو لتخسر؟ قررت أن تتحدث إلى فانيس. سوف يفهم ما يعذبك، دفع بيده الأوراق التي أمامه وشبك أصابعه. نظر إليك بهدوء، كان مرهقاً، التجاعيد الصغيرة في ركنيّ عينيه زادت، قرأ كل شيء، كان يفهم كل شيء. ترددت، بدأت تتحدث في موضوع آخر، سألته لو كان يشعر بأن الجو مُكهرب داخل البيت في الفترة الأخيرة. أجاب بأن هذا أمر طبيعي، ننتظر من لحظة لأخرى أن نسمع أخبارا ببدء الهجوم. عندها حانت الفرصة لتكمل وتطرح الموضوع بوضوح. لكن، باراسخوس، باراسخوس الأبدي! قلت

إنك تفهم هذا، لكنك حدثته عن الوضع هنا، داخل البيت. تظاهر بعدم المعرفة. فاضطررت، قلت له، ألم تدرك أن جوليا تتسكع ليل نهار مرتدية المايوه، وأينما تبحث عنها تجدها في نيل ثاناسيس، وتلك الابتسامات والضحكات بينهما على الطاولة وخلف الأبواب، ثم أنهما يقضيان الليل على السطح، بعد قليل سيصطحبان فرشتهما إلى هناك، ألا تنتهي تلك التليغرافات من بانديليس أبداً؟ احمَّر وجه فانيس وتجمعت البقع الحمراء التي تجمع الدم فيها على جبهته وخديه. قال إنه شخصيا لا يحب أن يتدخل الحزب أو المنظمة في الشؤون العاطفية للرفاق، لأن هذا بدوره سيعني أن نشتبك في الكثير من الطباع وننبش الكثير من الأسرار والأمور الشخصية، لكن في هذه الحالة سيهمس بكلمتين في أذن الأرملة، إن قوانين الضيافة مقدسة. شكرته، لم تبد حزنك قط، ولا خجلك. فجأة تذكرت تهديد جوليا: إما أن تتركني مع ثاناسيس أو سأخرج إلى الشارع وأجلب أول رجل أقابله. إنها مسألة صحية، أتفهم؟ هذه إذن هي بات، التي كان البرق الذهبي لضحكاتها يشق لياليك لما يقرب من عشرين سنة! ظهر كاركاليميس مرة أخرى متعكر المزاج وحزينا مثل يوم كئيب، بدأ بالقول إن الكيل قد طفح من توني، ولابد أن يخضع لمحاكمة شعبية. لقد وشى بدينوس ابن زوجة ثوماس، كان قد هرب من الكتيبة على كاميون أبو قوة لأنه كاد يموت من الدوسنتاريا، وربما كان في آخر أيامه. ولم يخجل توني أن يظهر وهو محاط بالمخبرين السريين بالجلاليب والشرطة العسكرية الإنجليزية بالقبعات الحمراء. وإيتاليا التي كانت تعمل بالحياكة بأجر يومي هجمت عليه وفي يدها مقص لتنزع عيني حبيبها القديم. كيف آلت بنا الأمور هكذا، قال كاركاليميس وهو يتنهد؛ ماذا

فعل هذا الملعون باركر للناس الطيبة في الساحة؟ وما خفي كان أعظم، ما قاله عن جوليا أزعج جوليا كثيرا. قال، جاءت أمها بعد أن طردها بروكس وجلست على درج كنيسة الرسول إلياس وقالت إنها لن تتحرك من هناك، لم يكن لديها مكان آخر تذهب إليه، حتى إن ابنتها قد هجرتها ولم تعد لها أي حاجة لأن تعيش. أخذتها زوجة القسيس وفرشت لها حصيرة في ركن تحت الدرج المؤدي للجرس وأعطتها بعض أعمال التنظيف لتقوم بها، فهمت، والنساء الأخريات في الفناء كن يتناوبن في إعطائها طبقا من الطعام ورحن يشيعن خبرها يمينا ويسارا عسى أن تظهر الابنة المجنونة، إذ إن توني يحوم في الساحة ككلب مسعور، سترى أن طرد الأم في النهاية سيكون مجرد طعم من بروكس حتى يقبض على زوجته. أتعرف من تأتي وتساعد النساء وتفطنهن وتفتح لهن أعينهن؟ إنها الحمقاء الأخرى، مدام بوفو تسيرفولو التي كانت تحب العم ستماتيس. لابد أن ثمة شخصا قد ثقفها أم تظن أنها قد جنت؟ حملت في سيارتها كل الخيرات، الجبن والأرز والسكر والمكرونة وأخذت معها إيتاليا التي أخذت كل ما في محل بقالة حماها من معلبات وانطلقا في الساحة يجمعن النساء والأرامل والعجائز والمتزوجات والعوانس والفتيات وأخذن الأطعمة وقمن بمظاهرة. انطلقن من كنيسة الساحة وصعدن الشارع وراح العرب ينظرون إليهن ويسألونهن مندهشين، إلى أين تذهبن؟ أجبن بأنهن ذاهبات إلى المقابر، كما هي عاداتنا. وعندما وصلن إلى زيزنيا أمام المدرسة العسكرية التي بها الثمانون مسجونا الذين يتضورون جوعاً، خرج الحراس بقبعاتهم الحمراء وأخذوا يخيفون النساء بأسلحتهم. هجمت النساء عليهم كالوحوش يصرخن، أبناؤنا، ستقتلون أبناءنا أيها

الفاشيون! تنبه الشباب لما يحدث في الفناء، منهم من كان بالفانلة الداخلية ومن كان بسرواله الداخلي وراحوا يصيحون العار على بريطانيا، تسقط بريطانيا العظمى، هل تضربون النساء الآن. إلى كاسينو يا تشرشل، إلى معركة مونت كاسينو عليك أن ترسل رجالك، هناك تكون الحرب. والحمقاء بوفو، امرأة قليلة الحجم تلقت ضربة بظهر البندقية في جبهتها وسالت دماؤها. عندها ثار الأولاد وثارت الفوضى لكن أصحاب القبعات الحمراء إما أنهم خافوا من المسؤولية وخشوا من منظر الدماء أو أنهم احترموا شيبة النساء، أخفضوا أسلحتهم وفكوا الحصار. دخلت النساء إلى الفناء واحتضن المحاصرين الذين راحوا يحملون أجولة الأغذية، وهم يشكرون شعب اليونان الخالد، اليونان أمنا الحنون إلخ، إلخ. وفي هذه اللحظة شرعوا في غناء النشيد الوطني في وضع الانتباه؛ بعدها حاول الجنود الإنجليز أن يفضوا هذا التجمع فإذا بشاب يوناني شجاع هزيل يرتدي فانلة داخلية تصل حتى ركبيه بدأ يغني النشيد الوطني الإنجليزي بصوت حاد؛ فوقف العساكر كلهم في وضع الثبات:

حتى إن فيكتوريا

مريضة بالسيلان

انفجر اليونانيون في الضحك وأمسكوا ببطونهم من فرط القهقهة؛

ولم يفهم الإنجليز أي شيء.

حسنا، جميل كل هذا. أنت يمكنك أن تضيف الأمور الأخرى التي ربما لا يعرفها كاركاليميس. كيف تحمل ثمانون من البشر ثلاثة أسابيع تقريبا دون ماء؟ منذ بداية الشهر قد أغلقت المواسير بأمر من مدير شركة المياه من سلفاجوس نفسه الذي كنت تصفق له قبل بضعة شهور في الإستاد. لكن ماذا كان يستطيع أن يفعل الرجل حتى لو افترضنا أنه كان يبغي المساعدة. الأوامر جاءت من جهات عليا. حسنا كانوا على وشك الموت من العطش، لكن من الذي أنقذهم من مأساتهم ، الأرملة بالطبع. حول المدرسة العسكرية هناك سرايات الباشاوات يحرسها جنود وأغاوات مخصيون وحراس مسلحون: تقريبا مهجورة. لكن هناك فيلا لرجل صناعة يهودي روسي، يعيش مع أولاده ومربية سويسرية. وهي من صوب الأرملة سهامه نحوها، تعقبها عندما خرجت وحدها في ليلة سبت يوم عطلتها. وفي الترام تقرب منها؛ أخذها في البداية إلى السينما ثم إلى بار وإلى الكازينو حيث رقصا التانجو، رافقها حتى خلف الفيلا فصعدت به خلسة إلى غرفتها. كانت ترغب في ممارسة الحب. الليلة التالية قضوها في حفر جحر؛ مرروا من خلاله خرطوم الحديقة والبقية كانت هينة. إن صاحب الفيلا سوف يطير عقله عندما تأتيه فاتورة المياه، لكن متى سيحدث هذا، في شهر مايو. إنجازات كهذه كان ثاناسيس يفعلها دائما، والآن من يدري ماذا يفعل مع جوليا، أي مفاجأة يتم إعدادها. لهذا كان يجب عليك أن تجد الشجاعة لتتكلم. أنتم، ستقول لهم، لقد بات واضحا أنكم خسرتم اللعبة. بددتم بشرا كثيرين. نعم، لم أنس،

أكثر ضباط البحرية إخلاصا... إلخ. لكن الآن، بكل محبة نتكلم بجدية. هو وأنتم، كيفما تأتي الأمور، يوماً ما، ستنتهي بكم الأمور في اليونان. ستصعد بكم الأمور وتهبط، ستكونون في السلطة تارة وتارة أخرى في الحضيض. لعبتم، خسرتم وطنا، لكن اللعبة مستمرة. لكن هؤلاء الذين يعيشون هنا، مع فاروق والإنجليز وبروكس وسلفاجوس وخوريميس وبيناكيس، ماذا سيحدث؟ الآن يتوجب على كل امرئٍ أن يفكر في حياته، في شأنه في المجتمع، ويرتب أسوره كيفما يستطيع. في كل الأحوال ليس من المنطقي أن يدفع ثمن ما يفعلونه الناس الذين ساعدوكم. نعم، لكن، من أين تجد الشجاعة لتقول هذا؟ وكيف ستنجو دون أن تلقى المصير البائس الذي سقط فيه توني؟

كانت ليلة ناعمة مثل ريشة. في الليلة السابقة السائق ذو الشارب القصير أرسل مع الأرملة قنينتين من النبيذ الأحمر ليشربوهما في صحته حيث كان يوم عيده. فتحوا قنينة واحدة في الظهيرة ثم انهمكوا في العمل. كيف مرت الساعات، متى حل منتصف الليل؟ كان فانيس قد أغلق على نفسه غرفة الطعام وانخرط في الكتابة؛ باراسخوس، كان مزاجه متعكرا أغلق على نفسه باب حجرته. أطفأت نانسي أضواء الصالة وخرجت إلى الشرفة. هدوء، كان البحر يلمع هادئاً بلونه الفضي. القمر ساطع خلف البنايات، بدا فقط ضوؤه الذي أحاط بمبنى معهد الثروة السمكية. في الجهة المقابلة تقريباً، ظهرت بيضاء قلعة قايتباي في جزيرة فاروس التي اعتادت نانسي أن تكون على يسارها عندما كانت تسكن في بنسيون «بروتياس». زورق صيد لملم أشرعته واقترب؛ لا يُسمع سوى صوت المجاديف تضرب المياه. على

الكورنيش أحد رجال خفر السواحل راح يحدثهم: وضع سلاحه بميل على الحاجز. كان حذاؤه العسكري يحك في الحجر حتى وقف، الآن نهض ووقف ورفع سلاحه؛ كان يحدثهم بود، لابد أنه يعرفهم. لماذا تشعر بهذا الخفقان في قلبها؟ هل هو نتاج التوتر في هذه الأيام لابد أنها تضرب وتضرب. غياب مانوس، التناحر بين باراسخوس وجوليا؟ لو استمعت لجوليا ستذهب للنوم وتتركهما يحلان مشاكلهم كيفما يشاءان. لكن باراسخوس كان حالة أخرى، تقلصات وجهه وواقعيته كانت تذكرها بتشارلز. لكن هيهات... كيف صارت ظالمة هكذا! أمن أجل بعض الغلايين وبعض الكلاب المنحوتة تسوي بينهما مباشرة. كانت تتحيز فحسب؛ فمما لا يدع مجالاً للشك كانت مع جوليا.

بوم بوم، أصوات نيران مدفعية مضادة للطائرات تأتي من الميناء الكبير. دون صافرات إنذار أو كشافات تنبيه. تدريبات. ستصعد إلى السطح، لديها الآن ذريعة لتصعد. ثم سُمع صوت ثاناسيس يصرخ من بئر السلم. ماذا كان يقول؟ أغلقت نانسي أبواب الشرفة، هرع فانيس إلى أعلى، باراسخوس خرج شاحبا يهرول لكنه كان مرتديا ملابسه. يبدو أن الهجوم قد بدأ، قال وهو يذهب معها. على السطح، أول ما رأوه كان جسد جوليا المشدود على سور السطح الذي صعدت عليه في مقابلة ضوء القمر تنظر في الأفق مشدوهة نحو الميناء: على اليسار، قالت، على رصيف المدفعية هناك شبورة. من هناك في الداخل ظهرت أنوار القنابل. لكن على اليمين خلف زوارق الفحم، كانت سفينة «هيفيستوس» ترسل إشارت طيلة الوقت.

اسألوا ثاناسيس... أخذ فانيس النوتة الأولى ونزل مع باراسخوس. ترددت نانسي للحظة، لكنها كانت تعرف أنه لابد أن تذهب لتعرف ماذا يجري. وهم في منتصف الطريق على الدرج: سُمع صوت صافرات إنذار السفن تنوح.

من المساء، وكان بانديليس يرسل التليغرافات، جاء الطراد «إياس» الإنجليزي ورسا بجوار السفينة «أبوستوليس». على الرصيف نفسه كانت راسية للتصليح سفينة المدفعية «إيراكس» وكاسحة ألغام أخرى وسفينة «ساختوريس». تبادل البحارة مع زملائهم الإنجليز الدعابات والمشاغبات المعتادة. بعد الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، امتلأ الطراد «إياس» بسحب من الدخان. انتبه له الحراس اليونانيون لكنهم لم يعيروه انتباها. في الثانية، ومن داخل سحب الدخان، فُتحت النيران من الطراد «إياس»، فتحطم سطح سفينة «أبوستوليس». في الوقت نفسه كان الطراد دون أن ينتبه أحد قد جاء بجوار كاسحة الألغام ومنه قفز على سفينتنا بعض الرجال السود. حراس الليل، كان بينهم شاب من إيكاروس في السابعة عشرة من عمره ضغط على زناد المدفع. صافرة الإنذار انطلقت، خرج أعضاء اللجنة من مكانهم بالملابس الداخلية، كانوا نياما. على سطح السفينة، كان الدخان وإطلاق النار الصادر من الطراد «إياس» يعمي العيون، لم يعرف رجالنا من أين يبدءون. مدافع الإنجليز التهمت سفينة «ساختوريس». في تلك الأثناء، الرجال السود اتضح أنهم يونانيون. ضباط يلبسون ملابس العمال وقد لطخوا وجوههم باللون الأسود. كان كل منهم يرفع مسدسا ويطلق الرصاص. حدثت اشتباكات جسدا بجسد. المعركة مستمرة على

سفينة «إيراكس». الخسارة: مات منا رجلان. من جزيرة إيكاروس. عشرة مصابين. المهاجمون كان لديهم ضعف خسارتنا، بالتأكيد ثلاثة قتلى حتى الآن.

النوتة الثانية من الأرملة نزلت بها جوليا. رفع فانيس عينيه ونظر إليها ثم سأل: هل يوجد لديكم قليل من الويسكي من فضلك؟ كان غارقا في عرقه. لكنه لم يتوقف عن فك الشفرة، وكان باراسخوس منحنيا فوقه يترجم إلى نانسي.

الرجال السود كان عددهم تقريبا مائتين، بين ضابط وصف ضابط. كثير منهم من خدمات سلاح المشاة، هم رجال الوزير. خسارتهم كانت ضعف خسارتنا، أربعة قتلى وثمانية عشر مصابا، الاشتباكات على سطح «إيراكس» مستمرة. خسارتنا كانت ثلاثة قتلى. أصابت شظية فوتيروس وهو يخرج من خلف أحد السواتر فراح يصيح: يا إخوة، لا تتقاتلوا...

بعد ذلك: سقطت سفينة «إيراكس». خسارتنا نحن وهم: عشرة مصابين وأربعون جريحا. خسارة الشباب الذين راحت أرواحهم سُدى، اللعنة على من تسبب في هذا. بدأنا المفاوضات مع الإنجليز ومع فولغاريس. أتذكرون عندما قال لنا إن بعض طلقات الرصاص في الزجاج لن تضر؟ الآن اتضحت الأمور. نحن من هنا وهو على الجانب الآخر. نستسلم في الصباح في الساعة الثامنة. هل تتخيلون حجم الكارثة بكل المتفجرات التي لدينا و«هيفيستيو» بين أيدينا؟... لو لقيت حتفي قولوا لهيلين. تحيا جبهة التحرير اليونانية.

انتاب الدوار فانيس وسقط على الأوراق. نفث دما. قرب الفجر نزل ثاناسيس لأن التليغراف قد توقف عن استقبال الإشارات. نانسي رأته يأخذ فانيس في حضنه ويهدهده كطفل رضيع. نظر إليها الرجلان بعيون جافة، لكنها كانت تبكي بلا توقف. بعد ذلك أرسلوها لتنام؛ لم يشاءوا أن يتركوها معهم بأي وسيلة حتى تعتني بفانيس. شخص واحد يكفي للبقاء ليعتني به، كان المقصود به الأرملة.

استيقظت متأخراً بعض الشيء لكنها رأت باراسخوس وهو في طريقه إلى المكتب يغلق باب الشقة بقوة. شعرت نانسي بالملل كما لو أنها استيقظت من المرض. هل تشاجرتما ثانيةً؟ سألت نانسي جوليا. هو: صارت غير محتملة، لم يعد شيء يعجبه وكل الأمور تثيره. فانيس نفث دما ثانيةً، وراح هو يقول إن عدوى السل ستصيبنا جميعاً. مسألة عائلية كما ترين، إنهم في العائلة يخافون من المرض. والد توني وأمه القاتلة، ماتوا من السل.

- جوليا! المرأة ميتة، كيف تصفينها بالقاتلة؟

- لأنها كادت تقتلني.

وراحت تحكي لها وهي تقهقه قصة تشبه حكايات الرعب! قرميد الكوخ الذي كان يُنتزع دائماً، إطلاق الرصاص في الليل، الخرطوش، هروبها تحت ضوء القمر، وهي تحاول ألا تترك أثراً من مؤخرتها الدامية...

أسندت نانسي رأسها على ستارة الشرفة. خلف الزجاج كانت ترفرف فراشة. صفراء بنقط سوداء، تصعد لأعلى وعندما تصل إلى الإطار

وتطبق جناحيها لتقف، تسقط. دون تعب ، تحاول مرة أخرى. خلف البحر الأزرق وبعيداً عن جزيرة فاروس. راحت فكرة تتشكل في رأس نانسي دون أن تتزحزح. قصص العشق، القتل، الخيانات، الدراما، الحروب والثورات، بالنسبة لهؤلاء الناس هي المشهد نفسه، الإسكندرية، أو على الأصح حيٍ الرمل. الإشارات نفسها، الذكريات نفسها. نانسي كانت تشعر معهم دائماً بأنها غريبة، دخيلة. حتى لو نجا مانوس وذهبا ليعيشا في كيفسيا. لا يصنع أحد في الثلاثين من عمره ذكريات طفولته، أسطورة كاملة...

أمسك فانيس بالهاتف بعد أن دفع الأرملة من جواره الذي كان يتبعه في كل مكان بدلو مليء بالثلج. اتصل برقم وراح يتكلم.

- إنهم يعدون لعملية قذرة، قال عندما ترك سماعة الهاتف. سيدفنون موتانا بلا أى تشريفات ولا حتى ورود.

ذهب إلى باب الشرفة. كانت الفراشة مستمرة في عملها البطولي. طرق فانيس بإصبعه على الزجاج كما لو أنه بهذا الطرق سيطردها أو سيساعد روحها العنيدة. هدوء. لم يجرؤ أحد أن ينطق بكلمة. من نافذة المطبخ المفتوحة كان يأتي نسيم دافئ محملاً بروائح غريبة، قرنفل وعسل بري. كيف كان وجه فوتيروس؟ والحارسين؟ لم ترهم نانسي أبدا، ولن تراهم أبدا. بين الحين والآخر كان يسمع صوت طرق أظافر فانيس على الزجاج. في العاشرة فتح المذياع. في نشرة أنباء طارئة من محطة القاهرة تم إعلان اتفاقية استسلام الأسطول. في العاشرة والربع تم إذاعتها على راديو

لندن. كان صوت المذيع تشوبه السخرية.

- انظروا كيف يذيعون الخبر، قال فانيس. كأنهم استولوا على حصن للعدو. لكن هذا أفضل من أن يعتَموا على الخبر. الآن يعرف رجالنا في اليونان كيف سيتصرفون.

ثالث مرة ينفث دما. أغلقوا المذياع. راحت نانسي تفكر في الأمر، هل يحضرون طبيبا أم لا؟ وفي الوقت نفسه، طيلة الوقت كان مانوس يسيطر على تفكيرها. ماذا يجري في الكتيبة؟ لماذا لا يخبرها أحد بشيء؟

عندما رأيته يجلس على الأريكة الجلدية التي في الرواق الصغير والمخصصة لصغار العملاء والمتعهدين وقلت إنه لابد أن يكون أحد البدو التابعين للمدير، حارسا على قطعة أرض أو زورقا في بحيرة يستخدم في صيد البط أو ربما يكون لص آثار بائسا جاء بمصابيح فخارية أو جعرانات أو قطع من أكفان المومياوات من أجل طاقم تشكيلات المدير. لكن عندما رأيته نظر لك وكأنه ينتظرك أنت، أصابك الذعر: سيكون من بدو بروكس، قلت؛ الآن، بئس المصير. لكنك انتبهت أنه لا يرتدي البلغة ولكن حذاء الجيش البيج. قلت: إنه أحد رجال أبو قوة وجاء من برج العرب. دخلت إلى مكتبك وأغلقت الباب. زادت سرعة ضربات قلبك وأصابك الدوار. ضغطت على زر الجرس. جاء الفراش النوبي، عجوز يرتدي الجلابية البيضاء، صب لك القهوة بعناية من الأبريق ثم انحنى ليهمس لك بشيء: خواجة باراسخوس، هناك بدوي ينتظرك بالخارج منذ اللحظة التي فتحنا فيها، قال لك. لينتظر،

أجبته دون أن يبدو عليك أي شيء. أنت منشغل كثيراً، فتحت دوسيه المراسلات. قرأت ولم تفهم شيئاً. ماهذه الحالة، لا يكفيهم أن يطردوا المرء من بيته لكنهم يطاردونه في العمل أيضاً، سيقطعون رزقه. لكن لماذا كل هذا؟ من أجل شهر، ولا حتى شهر، عشرون يوماً في الفراش مع جوليا. والآن تراها تعبث مع ثاناسيس، ومن يدري من آخر تُدخله إلى غرفة النوم عندما تغادر. فانيس لا ينتبه على الإطلاق، يستخدم كل الأشياء الأطباق والشوك والملاعق والسكاكين والملاءات، كلها على السواء دون أن ينتبه ما له وما للآخرين، وكأنكم جميعاً تحملون الميكروب. ونانسي تستمع إليك حزينة وباردة وبعيدة، ليس في رأسها شيء سوى مانوس وماذا سيحدث له. لكن أنت وهي لديكما الثقافة نفسها وتؤمنان بالقيم نفسها. في نهاية المطاف ستتضرر بلادها من الحركة، إذا نجحت. بالطبع نعم، أنطوان، أنفاسه، مكانته. الرومانتيكية! هل تود أن تفهم كيف كان سيكون اليوم؟ انظر إلى حال توني، المفضل لديه!

مرت ساعتان. قلت إنه سيمل، ماذا سيفعل، سيرحل. وكأنك قد نسيت طول صبر البدو وعنادهم، الذين لا يعدون الزمن بالسنين ولكن بالأجيال. دخل الفراش الأسود مرة أخرى، ليس من أجل أن يجمع الأكواب والفناجين، لكنه ترك رزمة صغيرة. سألت، ما هذا؟ لابد أن البدوي يريد أن يبيع لك شيئاً، أجاب. قلت له لينتظر ثم صرفت الفراش.

تأخرت في فتحه، وكأن اللحظة التي ستلمس فيها الرزمة سينطلق الشر. راحت تفتح الأوراق التي غلفتها. في النهاية وجدت غليونا، إنه

الغليون الجينوفي الذي أهديته إلى مانوس قبل شهور، عندما جاء إلى بيتك للمرة الأولى. إذن فقد أصاب تخمينك بأن البدوي قادم من برج العرب. نهضت، فتحت الباب، أشرت إليه أن يدخل ثم أغلقت الباب خلفه. أين وجدت الغليون؟ سألته بالعربية. نظر هو حوله، ابتسم ثم قال باليونانية: اسمي كالينكوس باباكالينيكوس! لو أن صاعقة قد سقطت في الغرفة لم يكن رعب كهذا قد أصابك. جلست خلف المكتب ووقف هو منتظراً. تظاهرت بأنك تشعل غليونك لكن يدك كانت ترتعش بشدة ولم يجد عود الكبريت ثقب الغليون. تركته، فهم توترك وقال: لو أضايقك يمكن أن أمر في وقت آخر. أسمعك، قلت له.

ـ أعطوني هذا لأحضره لك مع هذه الرسالة ولو لديك أي مكان أقضي فيه الليلة.

كان يجب ذات مرة أن تبدأ في قول كلمة لا.

ـ لو أنك تطلب مني مكانا تسكن فيه فليس لدي. ولم يحسنوا الفعل بأن أرسلوك إلي. أعطني الرسالة.

كان مظروفا مغلقا ومطويا بدون توقيع. وضعته أمامك برفق، حاول أن يقول شيئا، ابتسم بتسامح ثم غادر.

البردية (ليبيا)، ٢٦ أبريل ١٩٤٤

أحبائي جميعا،

الآلاف من اليونانين المحاربين محبوسون مثل الوحوش في أقفاص من الأسلاك الشائكة، جائعون وعطشى ومتسخون، تارة يحرقهم القيظ وتارة يجمد عظامهم برد الليل، ينتظرون الفرز الثاني بعد أن انهار الأول مما يدعو للأسى الشديد. لو تعرفون الضرب الذي يتعرضون له والتهديد النفسي والمتاجرة بالوطن من القوافل عبر الميكروفون، السباب من كلاب تسولاكوغلوس ورالیس والإنجليز الذين أصابهم الصرع. لا أحد حولنا ولا شاهد سوى الرمال والسحالي، في الظلام تعوي الذئاب دون أن تقترب. الجلادون مدججون بالسلاح يشبهون الكركند، قدور المطبخ تدخن من بعيد في انتظار الخونة. ليس صوتا واحدا؛ بل خمسة آلاف صوت يغنون أغنيات الثورة ويطالبون بوفد المعارضة. متحدون. الطقس ينذر بالخماسين. بعض العواصف والهواء الساخن يرفع الرمال مثل أعمدة نحو السماء. نتنفس بصعوبة، لكنني أفكر، ماذا سيحدث عندما سينكشف غطاء هذا اللهاث الحارق.

كم أن الإنجليز مخطئون، كم أساء تشرشل التقدير. أراد أن يرهبنا كي لا يحدث مرة أخرى ما فعلناه. ينتقم مثل جمل هائج، هو من وعدنا بالعفو والتكريم حتى يضع يده على أسلحتنا. ولا يدري أن هذا يُعد الآلاف من المنظمين في جيش الغد من المناضلين ضد إمبراطوريته، هذا إذا لم يسعفه الوقت أن يطيح بهم ويدمرهم بالطبع. لكن أقذر كلب في العالم هو الميجور بيتر. بعد كلمات الشرف والدموع والسلام الوطني ورفع العلم، عندما وافقنا على تسليم السلاح، ظهر القذر يرتدي زيه الرسمي المبهرج.

كان على وجهه ابتسامة... بما أصفها، ابتسامة الضباع؟ لماذا تحزنون هكذا؟ قال لنا. ألم تتمنوا أنتم هذا؟ أنتم مدينون إليّ بهذا المعروف فلقد ساعدتكم. عن أي مساعدة تتحدث، سأل أحدنا. فأجابه: إيه، هذا الذي يقف بجوارك «كان يقصدني أنا» يعرف عمّ أتحدث، إذا لم تضغط روح ما بأن تشرشل لن يتراجع، لكنتم حتى الآن ترهبوننا بمدافعكم. تدرون من كان يعني هذا الحقير! أجبناه بما يليق به. قلنا له إن طريقنا رسمناه بأنفسنا وبمسؤولية، ولا ترسمه لنا فقاعات تافهة من الاستخبارات؛ وإنه كان خادما أمينا للكاذب الأكبر رئيسه الذي لم يستحِ أن يخرج على الملأ ويدعي بأن حركة المطالبة بالوحدة الوطنية فعلناها لأننا نخاف الحرب على الجبهة. إن كل هذه هي خبرات نكتسبها وسوف نقيمها. غادر بعد أن أمر بحبسنا في السجن الانفرادي العسكري اليوناني. صحت فيه. عاد فقلت له، ابحث في جيب بنطالك الخلفي أين وضعت كلمة الشرف العسكري. هاج وسبني بالإنجليزية: أيها الفاجر، اصمت وإلا أمرتهم أن يجلدوك أمام الكتيبة كلها. قلت له يمكن أن ينتظر المرء أي شيء من شخص تسبب في مقتل أقرب أصدقائه. راح يصرخ ثم رفع يده، لكنه تماسك. خرج من الخيمة، مشى ثلاث خطوات ثم سقط. هرول الجنود الهنود نحوه يصبون عليه دلاء الماء. لم أكن أعرف أنه مصاب بالصرع.

جاءت فرصة أن يهرب شخص واحد. التفاصيل لمرة أخرى، كما نفهم. لشهور عديدة ربما سيكون هذا هو طريقة التواصل الوحيدة. بالإجماع اخترنا حامل الرسالة. أولاً، لأنه شديد التحمل، صلابته وسعة حيلته تم

تجريبهما في ظروف مماثلة. ثانيا لأسباب نفسية: من منا يستحق أن تطأ قدماه أرض الوطن مثل هذا الشخص الذي تحرك من أجلها من هذه المسافة البعيدة؟ إلى المرأة التي تنتظر قولوا لها: تهديدات بيتر ستكون محض هراء في المحكمة العسكرية التي يعدونها. لن يحاكمنا قضاة يونانيون، سيحاكمنا محامون من الاستخبارات. هناك طريقة لنوقف الجلادين وهي أن نحشد الشرفاء في وطننا. هي تستطيع وتعرف ما هو الصحيح لتفعله، تفهم ما أقصده، ستشرحون لها أنتم أيضا: إما الجميع أو لا أحد. لو أنه مقدر ألا نتقابل ثانية، يمكنها أن تعتمد على حامل الرسالة. يعرف جيداً كيف يتخطى حقول الألغام، برا وبحرا.

لم يتبق لدي الكثير من الوقت. من كل الأشياء الكثيرة التي أريد أن أقولها سأختار فقط الطارئ منها. تسليم السلاح تم بسلاسة. كانت هناك حالة انتحار، المسعف ذ. ، بكيناه كواحد منا. علكم تتذكرون أن ذ. كان من المجهولين في ١٩٢١. لكنه كان معروفا لدينا بأنه ينتمي إلى الطبقة الأرستقراطية الأثينية وصوّت لتسارزاليس. كان لديه عقل ووطنية. فوق كل هذا كان لديه روح طبقته. لم يقبل قط ولا بأي وسيلة أن يأتي معنا، رغم أنه في كل حواراتنا كان يؤكد أنه يتفق معنا لكنه يرفض أفعالنا. ثم حدث الشيء الغريب: عندما انسحب الضباط الفاشيون إلى خيامهم وبعد ذلك وضعنا الحراسة حتى نعزلهم، ذهب ذ. وحبس نفسه معهم، لكنه لم يتوقف عن إعلان أن الحق معنا ومحاولة إقناعهم. كانوا يسبونه: يا عميل، يا خائن، ياغبي إلخ.. جاءت أيام تسليم السلاح. كان ذ يرفض تماما وجبات

الطعام التي كنا نعطيهم إياها؛ حتى إن الحراس كانوا يطعمونه من طعامهم المتقشف. بدأ الإنجليز يطالبون بتسليم السلاح ويهددون بضربنا. أعلن ذ أنه يؤيد تماما موقفنا لكن شرف العسكرية يفرض عليه أن يبقى مع زملائه الأعزاء. كان يقول لهم دائما إننا نحن من نحمل روح ١٩٢١. كانوا بالطبع يسخرون منه وكان هو يتحمس أكثر ويقول إنه كان يعرفنا جيدا وإننا نفضل الموت على أن نسلم أسلحة ألبانيا وكريت والعلمين. بالطبع عندما تم إعلان شروط تسليم السلاح زملاؤه الأعزاء راحوا يهللون ويسخرون منه. لم يتحمل وفتح بطنه بمشرط جراحة.

حامل الرسالة سيغادر بعد دقيقتين. قبلاتي للجميع. حبيتي، سنلتقي ثانية. في كيفسيا. شرحت لك كيف ستسألين عن أمي وأخي. أتمنى أن يكونا على قيد الحياة.

م.

ولكن حانت اللحظة التي خالف فيها مسؤول الحراسة الأوامر والقواعد التي وضعها. ذات ليلة، كانت نانسي وحيدة في الشقة. لم تمر نصف الساعة منذ أن غادر فانيس مع الأرملة بعد أن قالا إن الليلة لديهما اجتماع في مكان ما ولن يتأخرا. باراسخوس كان ساهرا في المكتب؛ كان يقول إنهم يعدون تقييم الموازنة. موازنة تحتاج إلى الكثير من الويسكي لتكون صحيحة. هذا على الأقل ما شهدت به رائحة أنفاسه، هكذا قالت جوليا. لكن هي، آه... كانت كالمجنونة، فلت زمامها تماما وتخطت كل

الحواجز. كانت تخرج من البيت فور أن يغادر باراسخوس، لكنها كانت ترتب أمورها إذ إنها كانت تعود للبيت قبل عودته. أين كانت تذهب؟ مرات عديدة كانت ترتدي المايوه الأسود وتختفي. ربما كان لديها عشيق جديد على أحد الأسطح المجاورة. لكن نانسي التي لم يكن لديها دافع لعدم إساءة الظن راحت تعتقد أنها ربما تذهب مع توني. عادت لتشبه الفتاة في الصورة: كانت عيناها تلمعان بعد كل خروج ليلي وأنفها يخرج نيرانا، كل كيانها كان يتنفس سعادة وحشية.

جرس المنزل كان يدق بالطريقة المتفق عليها. تخيلت نانسي أنه مانوس وهرولت. كان الأرملة، هو الذي كان أنيقاً دائماً في ملبسه كان غير مهندم وملابسه متسخة. قال لها مباشرة أن تترك الباب مفتوحاً وتأتي معه ليُحضرا فانيس.

- هل بصق دما مرة أخرى؟

- لا، صدمتنا سيارة.

في الأسفل كان متقوقعا يتأوه في الظلام. سندته نانسي ووضعه ثاناسيس على ظهره مثل الجزارين عندما يحملون الذبائح. صعدوا. قالوا لفانيس أن يكتم تأوهاته وهم يمرون من أمام باب شقة القنصل السويدي. عندما دخلوا الشقة نزعوا له ملابسه وراحوا يتفحصون إذا كان به كسر. كان مجروحا وبه كدمات دامية في وجهه ويديه وقدميه وجانبيه، لكن لحسن الحظ لم يجدا به أي كسر. في بيت باراسخوس كان هناك كل مايلزم:

ضمادات ويود ومطهر وحقن ومراهم. نانسي وثاناسيس راحا يتبادلان في صمت نظرات التأييد لبراعتهما. لكن الذي لم يستطيعا معرفته هو أنه إذا كان فقط الورم هو ما سينبئ بأن ثمة نزيفا داخليا أم لا. لم يكن الارتجاج مهمًا بالنسبة لهما الآن. حقنت نانسي فانيس بحقنة كافور وتيتانوس وأعطته حبتين من الليومينال من التي لديها فنام على الفور.

أحضرا المقاعد وجلسا بعيدا عنه. حكى الأرملة ما حدث لهما، على الكورنيش على بعد مائتي متر من البيت. كانت المحافظة وضعت أكوام التراب والحدائد على الرصيف لإصلاح الشارع. كل ثلاثين مترا كانت كومة من أدوات البناء. الأرملة وفانيس كانا مضطرين بين الحين والآخر أن ينزلا إلى الشارع حتى لا يدوسا على الحجارة المدببة. بعد مرة أو مرتين سمعا خلفهما أصوات ضوضاء من السيارات. توقفا ونظرا. السماء كانت مليئة بالسحب ولم يكن هناك قمر فكان الظلام من هذه الناحية دامساً من الناحية التي ليس بها محال. استمرا في السير في طريقهما وحديثهما. فجأة شعر الأرملة أنه يطير في منتصف الشارع بعد دفعة قوية. سمع السيارة تزيد من سرعتها وتغادر. وصل إلى الرصيف حبوا على أربع، نهض ببطء. كان وسطه يؤلمه بشدة. أين فانيس؟ هل جرته السيارة في طريقها؟ راح ينادي عليه. سمع أول تأوه منه. ثم وجده ملقيا على بطنه فوق كومة الحجارة على الرصيف. تحدث معه. في البداية حاول فانيس أن يسير... على أى حال، مر وقت طويل وهما يقطعان مسافة المائتي متر حتى يصلا إلى البيت.

هل كان السائق أخرق؟ بالطبع لا! لو كان السائق أخرق لما سار

خلفهما بهذا الهدوء، هل كان سيزيد من سرعة السيارة فجأة، لكانت ماكينة السيارة انطفأت منه. لم يكن السائق أحمق على الإطلاق. لكنهما نجيا.

- هل كان هذا اغتيالا؟ ولكن من؟

- هذا سيبقى غير معلوم. أظن أن هذا لو كان فعل الإنجليز أو من الفاشيين منا، لما كانوا سيهربون، كانوا سيقبضون علينا أحياء، هذا في مصلحتهم.

- إذن؟

أغلق الأرملة فمه ونظر بعيدا. لن تأخذ منه كلمة أخرى، هذا ما ظهر على وجهه الجامد.

عندما تجمع الجميع قاموا باجتماع. هل يذهبون به إلى المشفى أم يُحضروا طبيبا؟ كان باراسخوس موافقا على كل شيء، لكن تمت الموافقة على رأي الأرملة بأن يتركوا الأمر على ما هو عليه.

منذ تلك الليلة والحياة في البيت تركزت حول رأس فانيس. أحضروا المذياع بجواره، تولت جوليا مهام المرضة. كل شيء كان يسير في إيقاع هادئ مثل عيادة طبيب.

على الصعيد الآخر، كانت المجموعات تستسلم وتسلم أسلحتها: سفينة «أفيروف»

وسفن حربية أخرى في ميناء بورسعيد، سفينة المدفعية «بينذوس» والسفية الحربية «ليمنوس» في ترينتي بإيطاليا، فرقة المشاة وسرية المدرعات في دمشق. امتلأت أفريقيا بسجون تعج باليونانيين المعادين للفاشية.

تمت إقالة فنيزيلوس من منصب رئيس الوزراء. فعل الإنجليز ما يريدونه، فالآن لم تعد هناك حاجة له. قبل ثلاثة أسابيع وصل بديله من اليونان. لكن لم يكن هناك سياسي يقبل أن يكون وزيرا معه.

تم إعداد مقابلة وفد اليونانيين في سوريا بسرية تامة، والتي دعا إليها فينيزيلوس. بدأ فانيس يخرج في البداية ليلاً ثم صار يخرج بشكل دائم. الآن يستخدم تاكسي يورغيس باستمرار. كان يعود دائما حزينا. عزلوهم تقريبا في القاهرة وبيروت، من المستحيل أن نتواصل معهم، كان يحكي عن وفد ممثلي المقاومة.

جاء بعد ذلك دور لبنان. هناك تم اجتماع المقاومة من أجل الوحدة الوطنية. التصق فانيس بالمذياع، سمع البرامج التي تبث الكلام السام من قبل السياسيين القدامى الذين انتهزوا الفرصة تحت رعاية الإنجليز حتى يغسلوا عارهم وابتعادهم المحسوب عن النضال، وراحوا يسبون المقاومة.

على العكس تماما، كانت الصحافة في بريطانيا تتبنى آراء «هيرميس». كانت تدين نزع السلاح وتدخل تشرشل في الشؤون الداخلية لدولة من الحلفاء التي حقق جنودها بطولات، كانت تطالب بالعفو عن قادة التنظيم. الأخبار الأخيرة التي عن مانوس كانت تقول إنه مع رفاق آخرين على متن

سجن بحري - سفينة فرنسية رست في أحد موانئ أفريقيا الشرقية. عمل المساجين على التوعية وكسبوا تعاطف البحارة الفرنسيين، وكادوا أن يخطفوا السفينة لولا أنهم لم يجدوا ميناءً صديقا على البحر الأحمر لكي ترسو السفينة وينتظرون التفاوض مع السجانين الإنجليز.

فجأة بث راديو لندن كلمة تشرشل من قاعة عصبة الأمم عن «المعاناة اليونانية». أخذ يتحدث عن رسالة بها أنباء سعيدة من المقاومة اليسارية في لبنان، التي كانت ترفض تماماً وبلا أي تحفظات حركة أبريل. ثم حل صمت مميت.

- معذرة، قالت نانسي. لكنه دون أن يفعل هذا كان سيصبح بلا أي غطاء سياسي.

- كذب، قال الأرملة. هذا احتيال لم يحدث له مثيل!

- لكن كيف، كيف فعلوا هذا، يا رفاق؟ سأل السائق يورغيس.

- تصرف سيئ. كان يجب أن ننتظر. أترون أن أحدا من اليسار لا يرغب أن يكون بالحكومة. هدوء. ستتضح الأمور. ماذا أقول لكم؟

- رفيق فانيس، قاطعه ميخاليس ساريذيس، الذي عرف البيت فكان يتردد عليه باستمرار: لو فعلوا هذا فينا فهم يستحقون القتل. إن في أعناقهم آلافا من المناضلين.

وذات مساء حضر شخص مغبر بلباس غريبة، بذقن طويلة ودوائر

سوداء حول عينيه. تصادف أن باراسخوس هو من فتح له الباب.

- أنت هنا مرة أخرى؟

كان كالينيكوس، المبعوث عبد المجيد. دخل، ألقى بعض الأوراق على الطاولة وسقط فوق الأريكة.

- أيّ يونانيين نحن يا أنت؟ سأل وهو يغطي وجهه بكفيه.

اقترب ثاناسيس ونظر على الطاولة بخديه الغائرين. ثم وقف يورغيس وبعده ميخاليس ثم باراسخوس. أمسكت جوليا بذراع نانسي وضغطت عليه بقوة. فتح فانيس الأوراق. كانت واحدة من آلاف النشرات التي تلقيها الطائرات الإنجليزية في أقفاص:

المحبوسون في الصحراء.

الحزب الشيوعي

جبهة التحرير الوطنية

اللجنة السياسية

أدانت

موقفكم الأخير

ثم تلاها قصاصات من رسائل وتوقيعات.

ـ بعد كل هذا، قال فانيس، إن مكاني يجب أن يكون معهم، خلف الأسلاك. لو أن سيارتك جاهزة يا يورغيس، دعنا نذهب على الفور. من الأفضل أن أسلم نفسي في القاهرة لننتهي من هذا. سيستمر الأرملة في عمله في الإسكندرية، وأنت في القاهرة، قال وهو يلتفت نحو ميخاليس.

لم يعترض أحد. فقط عبد المجيد كان يتحرك بقلق على الأريكة.

ـ وماذا عن هؤلاء في السجون؟

ـ لماذا، هل ستقطع الصحراء مرة أخرى؟

ـ نعم! إنهم ينتظرون، يا عزيزي، ماذا سيحدث؟

- قل لهم أن يستمروا في المقاومة. قل لهم أن يطلبوا هؤلاء الذين وقعوا على هذا المنشور ليأتوا معهم في الأقفاص ليشرحوا لهم بأنفسهم وللناس لماذا يدونوننا.

خـــــــاتمة

بعضهم أحياء تماما، وآخرون نيام

مثل خفافيش معلقة في عالم بقيم مقلوبة

LOUS MACNEICE

(«غرفة القراءة في المتحف البريطاني»، يوليو 1939)

في رأسي غابة عذراء من الأصدقاء القتلى

يورغيوس سيفيريس

(«المحطة الأخيرة» ـ Caca dei Tirreni. 5 أكتوبر 1944)

الأحد الأخير من شهر يونيو 1954. الشمس تغلي طيلة اليوم والبحر يتلألأ بلا حركة فيعمي العيون. عيون البشر في المدينة الجديدة تنظر عالياً إلى جبل الخورتياتيس دون جدوى، وكأن النسيم المنشود سيأتي من هناك ليرطب الجو ويبدد الروائح المشبوهة للغبار والمياه. مع حلول الليل تمت إضاءة القلاع: أول مرة بعد الحرب الأهلية. هل بدأ التعافي؟ شعر غاريلاس بحكة في عينيه، حصن الأبراج السبعة كان ينومه مغناطيسياً. الأسوار ذات الفتحات كانت تذكره بأخرى، سوداء مثل خشب الأبانوس فوق سماء زمردية. **ولو نساني ذراعي لن أنساكي أبدا يا أورشليم.** ثم بدأت تتماهى أمام عينيه صور باهتة مرتعشة لوجوه الرفاق: وجوه مسوّدة من الشمس والرمال تعلوها التجاعيد بشوارب كثة مثل الفرش كما اعتادوا آنذاك، وجوه مليئة بالنور وأخرى، مغلقة، أفواه معووجة، أنوف منحوتة، آآخ! كانوا يفتكون بالشرق أوسطيين، ذوي البشرة السمراء كالكلاب المسعورة؛ كانوا يطاردونهم بقوائم مطبوعة على آلات كاتبة إنجليزية. كانوا يقتلونهم في السجون، في الشوارع، يفصّلون الاتهامات من أجلهم ويعدمونهم بالقانون، يا للسماء!

الناس من أعلى المدينة كانوا ينزلون في جماعات يرتدي أغلبهم ملابس الأحد الداكنة. يتسكعون بتمهل على رصيف الميناء متجهين نحو وسط المدينة حيث الأضواء المبهرجة والحدائق ذات الأشجار المغبرة. سكان المدينة الجديدة، فتيات يرتدين ثيابا بلا أكمام، شباب يعلقون صليبا ذهبيا بشكل واضح على صدورهم المشعرة، يستقلون السيارات والتاكسي، أو

يصعدون على الأقدام نحو المدينة القديمة آملين أن يجدوا بعض النسيم على ذاك المرتفع. وصل غاريلاس بعد دقيقة بالتمام من موعده كما كانت عادته. رأى ساريذيس من بعيد، كان يرفع الطاولة بيديه الكبيرتين وينحني ليضعها على طرف الجرف أسفل شجرة التوت الكبيرة. بعدها استقام واقفا إلا أن الحدب على ظهره بقي. تذكار من معتقل ماكرونيسوس. خلفه وصل الجرسون وهو يرفع كرسيين في كلتي يديه. رتب ميخاليس الكراسي حول الطاولة وترك ناحية الجرف مفتوحة بلا مقاعد. أخرج الجرسون من جيب مريلته ورقة بيضاء كبيرة، أشواكا وسكاكين والمملحة ورصهما على الطاولة.

- هل تنتظرون آخرين؟ سأل.

- أنتظر اثنيـ .. واحدا.. واحدا آخر، صحح غاريلاس للجرسون بعد أن لمح بارسخوس يستند بظهره على شجرة التوت في الظلام.

- اللحم نفد، قال الجرسون. لو شئتم لدينا البيض، الجبن المقلي، السردين والسلاطة.

- وماذا عن النبيذ؟ سأل ميخاليس.

- النبيذ لدينا طيب.

دوّنَ الجرسون الطلب وغادر. كان المطعم في مقابلة بيت تركي قديم أبيض ذي طابقين به شرفة واحدة ومصاريع موصدة. بين شجرة التوت

والمطعم كان الشارع. أضواء المطعم كانت تشع ضوءا باهتا على المارة؛ بعض الأولاد كانوا يمرون مهرولين في المنطقة المضاءة فتُسمع أصواتهم الصارخة الملحة في الليل. في الأعلى مثل صرصور الليل في وضح النهار كان هناك صوت شكمان موتوسيكل متقطع.

انحنى باراسخوس نحو الجرف. الضباب الصيفي خانق، أضواء المدينة بيضاء متناثرة. على رصيف الميناء تتضح بلونها الأخضر، وينعكس لونها على مياه الميناء الراكدة فيستحيل لونها عسلياً. لكن بعيداً عند رأس خليج كارابورنو كانت سلسلة من المصابيح المتراصة تومض مثل النجوم؛ لابد أنها فوانيس معلقة. استطاع باراسخوس أن يميز شارع إغناتيا وتسميسكي وميدان أرسطوطاليس والبرج الأبيض الذي كان مضاءً أيضا. كان مهما له أن يميز البرج تحديدا حتى يتعرف على موقعه. وجد موقع المكتب السياحي حيث استطاع أن يجد عملاً من أجل حفنة من الدراخمات مترجمًا ومسؤولاً عن المراسلات ومساعد محاسب وعامل تليفون وفي الاستقبال أيضاً، باختصار: عبد!

- المنظر جميل من هنا، قال. لكنني أفضل المدينة الجديدة، تشبه الإسكندرية بشكل مرعب.

الهواء الذي ملأ رئتيه جعل صوته لاهثا وواهنا. أتم الثانية والأربعين لكنه كان يشبه رجلا عجوزا في الستين أو في الخامسة والستين من عمره. كان يرتدي حلة من الزمن الماضي الجميل، من الصوف الإنجليزي في هذا

الطقس الحار، كانت واسعة عليه ومهترئة. لقد سحقته العذابات. عندما غادرت جوليا، وجدوها بعد ذلك في عيد القديس إلياس مطعونة وملقية على ظهرها في أحراش أرض أنطوان القديمة، تلك الأرض التي أخذتها الجالية فيما بعد وهدمت الأكواخ وقطعت شجرت المستيكة الكبيرة، أحاطت الأرض بسور من الطوب الأحمر حتى لا تطأها أقدام البدو، وتركت الأرض لتعلو قيمتها، وهو كغبي بدلاً من أن يتقي الشر ذهب إلى توني، وقال له إنه يتهم بروكس. وكان هذا ما دمره. تم طرده من العمل دون أن يقولوا له السبب، طرده القنصل من شقته، في عام 1948، قبضت عليه شرطة فاروق ووضعوه في معسكر للاعتقال. في النهاية أخذه تابسيس المقاول ليعمل لديه في كتابة إقرار ضريبي مزدوج ليتهرب من الضرائب. لكنه أفسد الأمر؛ كان شاردا على الدوام ولا يجيد أعمال النصب تلك، حتى إنه قد تم طرده من هناك. أنقذه ميخاليس، عندما تم تسريحه من الجيش عمل في جراج في ثيسالونيكي فكتب له أنه بإمكانه أن يمنحه مأوى ووجبة طعام، حتى لا يظن أنه نسى معروفه السابق والمساعدات التي قدمها لهم. وكيف كانت تهتم به الفقيدة جوليا، لم يعد باراسخوس يذكر شيئاً. استخرج الأوراق اللازمة وجاء إلى هنا. وجد مأوى وأمًّا أخرى: آريان؛ أخذها ميخاليس معه من القاهرة، صارت امرأة مريضة، كانت تعاني من الروماتيزم والتهاب الأوردة، لكن لا تزال ربة بيت تعتني بكل شيء.

أحضر الجارسون الطلبات ونصف أوقية من النبيذ.

ـ هل تنتظران أحدا؟ سأل ثانيةً.

- اذهب أنت وسوف نناديك عندما نحتاجك، قال ميخاليس.

- تأخر عبد المجيد، هل حدث له شيء يا ترى؟ قال غاريلاس.

لكن ها هو قد أتى، كان يرتدي قميصا كاروهًا وبنطالا مبقعا، وبجواره امرأة عجوز طويلة ونحيفة مستقيمة القوام. ترتدي فستانا أسود ومنديلا أسود. عَرَفها كالينكوس لكن أحدا لم يسمع. صوت دراجة بخارية في الجوار انطلق عالياً. من كانت؟ قفز ميخاليس وأخذ مقعداً وأجلس العجوز على رأس الطاولة. لم تشأ أن تتناول أيا من الطعام ولا النبيذ إذ لم تكن تضعه في فمها. قالت لا، لا، أشكركم، وراحت تنظر إلى الأضواء البعيدة من القلاع ثم نحو فوانيس الخليج. من هي؟

رأوا الشخص مع الدارجة البخارية. كان شابا يرتدي سترة البحرية الزرقاء؛ كان يدفع الدراجة بيده اليمنى وباليد اليسرى كان يحتضن امرأة ممتلئة. وقفا أمام المطعم. ترك الشاب المرأة، أمسك بالدراجة البخارية ودون أن يمتطيها داس على البدال. سُمع صوت أشبه بعاصفة رمالية. رفع الجرسون يديه فوق رأسه بغضب. رأت العجوز حيث كان ينظر الجميع فالتفتت بعينيها.

- آه، ياربي، بانديليس!

- صبراً يا عزيزتي، سيدة هيلين، صبرا.

تنهدت. هذا مابقي لي في هذه الدنيا. وأراه هكذا. مثل شبح، ربما هذا

جيدا بالنسبة لي.

- أخذت من على الطاولة كوبا فارغا وأومأت إلى ميخاليس أن يصب لها النبيذ.

- إلى ذكراهم، قال غاريلاس وهو يرفع كوبه. ألم يكن فانيس هو من قال إن أفضل الرجال هم من يموتون؟

- يموتون لكن يبقى السحر، قال كالينكوس وهو يقترب بكوبه ليصحبهم في طقس النخب.

- كان فانيس رجلا قديسا، قال باراسخوس. أذكر عندما جاء لأول مرة في بيتي، لم يكن يعرف بعد أنني والمرحومة...

تلعثم. كان يتحدث بصوت خفيض حتى إن العجوز أحنت جسدها للأمام كي تسمعه. تركت الكوب من يديها التي بقت معلقة، كما لو كانت على وشك أن تنهر أحد كي يتوقف، لكن من ولماذا؟ تراجع باراسخوس للخلف دون أن يشعر.

- كنا نعيش كزوجين بلا أكاليل الكنيسة، أضاف بعد قليل. ناداني ذات يوم إلى غرفة المائدة. لماذا، قال لي، لماذا لا تنجبون طفلاً؟ لكن يا فانيس يا مسكين، قلت له، هل هذه أوقات لإنجاب الأولاد؟ كيف سيتربى الأولاد إذا حدث لي شيء، إننا في حرب، هل يعرف أحد ماذا يخبئ لنا الزمن؟ خسارة، قال، لديكم الكثير من الغرف، أنجب أولادا وأطلقهم في هذا البيت كي يملئوه،

فالأولاد يكبرون دون عناء مثل الأشجار. سألته لماذا، لا ينجب هو أولادا إذا كان يحبهم بهذا القدر؟ قال لي: وهل تركت لي السجون والمنافي فرصة كي أتزوج؟ لم أختر العروس بعد، لكن أعدك فور أن أعود إلى الجزيرة سأجد أي أرملة حرب، لتكن فقط تحت الأربعين وسننجب على الفور.

صمت في انتظار أن يتحدث أحد آخر. صمت. أفرغ كوبه وأكمل.

- في اليوم نفسه أو ربما الذي يليه حدث ذلك الشيء مع الحذاء. كنت قد طلبت زوجين من الأحذية بنعل غليظ من الكاوتشوك وجلد طبيعي. كان الحذاء غالي الثمن لكنني لم أرتده كثيرا لأنه كان ثقيلاً على مما ورَّم كعبيَ قدمي. رآه فانيس وجن جنونه. حمله بين يديه وراح يزنه ويمسده وينظر إلى خياطته؛ في النهاية استطعت أن أقنعه أن يجربه: كان مناسبا له مثل قفاز. لا تتخيل كم أحتاج حذاء كهذا للسير في الجبال، قال. أهديته له من كل قلبي، فقد كان الحذاء لايفيدني في شيء سوى أنه يشغل حيزا في الخزانة. أخذه لكن في اليوم التالي أحضر لي حقيبة صغيرة من الجلد وبها ماكينة حلاقة جيليت، علبة للصابون، فرشاة من شعر الجمال وزجاجة للكولونيا. مازالت لديّ، أستخدمها حتى الآن منذ عشر سنوات.

حكى ميخاليس كل ما سمعه في المنفى، كيف كانوا يعذبون الناس في الجزيرة، حتى يكشفوا من أعطى الحذاء لفانيس، حيث وجدوه على الشاطئ مع بنطاله عندما أطلقوا عليه الرصاص في الماء وأردوه قتيلاً؛ قفز في الماء بذراع مكسورة وراح يسبح كي ينجو إلى الناحية الشرقية. وبعدها قطعوا

له رأسه وغرسوا فيه عصا خشبية وربطوه برباط الحذاء من أسفل وعلقوا جثته في الخلاء، دليلا على "الدعم الخارجي". وراحوا يتجولون بالعصا في الشوارع وكان هناك أناس يخرجون من المحال ويبصقون على الرأس ويصبون اللعنات.

أحضر الجارسون الخبز الساخن، جاء على الفور من الفرن قال: بقى لدينا قليل من الفاصوليا المطبوخة، هل تريدونها قبل أن تطلبها الطاولة المجاورة؟ فعلاً تحت شجرة التوت كانت هناك مجموعات أخرى تجلس على طاولات مجاورة. وكيف بدا لهم النبيذ؟ سأل مرة أخرى. أخذ الإجابة وغادر وهو يفرك كلتا يديه. صفت السماء من السحب وراحت النجوم ترتعش فوقهم وهب نسيم خفيف.

أخفض غاريلاس صوته وهو ينظر حوله نحو الزبائن على الطاولات المجاورة وحكى لهم أن فانيس كان محبوسا في سجون المعادي بالقرب من القاهرة، علم أن رجالنا قد انضموا إلى حكومة الوحدة الوطنية، فأرسل خطابا مع الخياطة إلى المرحوم زيفغو، لابد أنه يوجد في قيادة الحزب، وعندما قال لهم كلمتين رسميتين عن الوزارة والوزراء أخذ يسرد في خطاب عنيف بدءًا من لبنان ومنشور شهر أبريل، ألم تخشوا الرب ولم تحسبوا حسابا لأحد عندما شوهتم كل هؤلاء المناضلين الذين خاطروا بحياتهم لكي يسهلوا لكم عملكم من أجل الوحدة الوطنية، والآن تنصلتم منهم وتخليتم عنهم وتركتوهم تحت مخالب تشرشل الذي يسعى للقضاء عليهم حتى آخر رجل، وأي تكتيك هذا الذي حدث مع زيرفاس، انتبهوا، افتحوا عيونكم. إن

الإنجليز ليس لديهم غالٍ ولا نفيس، ها هو تكتيكهم إذن، ها هو هدفهم إذن؛ وكأنه كان يتنبأ. عندما تم توقيع اتفاقية كاسيرتا، كان فانيس مسجونا في معسكر في شرق أفريقيا، كان ينظم المدارس والمسرح والترفيه حتى يتحمل المساجين الهجوم الذي يشنه عليهم الحراس الإنجليز بشكل يومي. تم إعلان العفو في أبريل، لكن فانيس عاد إلى اليونان في ديسمبر، إلى فاركيزا. سقط هتلر، استسلم الألمان، والأمريكيون وجدوا في معسكرات الموت رئيس الحزب وأرسلوه إلى اليونان. الجميع قالوا إن فترة الأخطاء قد انتهت، والآن عجلة القيادة في يد الحاكم الحكيم. عاد غاريلاس هو الآخر وراح يسأل عن فانيس وكان الجميع يقولون له انتبه إلى عملك، فشهر أبريل هذا به الكثير من المصاعب. تم استدعاؤه في مقر الحزب ليسألوه عن أشياء كثيرة لكن أكثر الأسئلة كانت عن سيميونيذيس وزوجته وعن بيتر وريتشاردز، كانوا يعرفون كل شيء. وغاريلاس لم يمكر وقال لهم كل مايتذكره، ومن يستطيع أن يخفي شيئا عن حزبه؟ عن محاولة اغتيال فانيس، ماذا تعرف؟ سألوه. لم يعرف شيئا في هذا الصدد، قال. حسنا، قالوا له، اكتب لنا تقريرا بهذا وسنستدعيك مرة أخرى. كتب التقرير وأعاد كتابته مرارا وتكرارا، وكتبه مرة أخرى حتى عندما عقد المؤتمر خرج القائد وقال إن الوساوس تدفعه أن يقول إن حركة أبريل كان بها إصبع إنجليزي. خطأ، خطأ، راح غاريلاس يقول لكل من يقابله، إنكم لا تعرفون الأمور جيدا، لماذا لا تسألون فانيس؟ فكانوا يقولون له انتبه إلى عملك فقط. أنت لست مُلما بالأمور وليس لديك إدراك كليّ عن القضية. في اليوم التالي من المؤتمر ظهر على المنصة الضئيل التافه! وقام بعمل نقد ذاتي فهز أرجاء المؤتمر وهو يقول نعم، إن حركة

أبريل كانت إصبعا إنجليزيا، لقد وقعنا في الفخ، وأنا دائما كنت أقول إنه لابد أن نفعل كل ما بوسعنا حتى نصلِ متحدين إلى آخره، والآن، لحسن الحظ، لقد عزلنا العملاء وكل شيء يسير على ما يرام. تتبعه غاريلاس ثم أمسك به عند المدخل. آه، هل أنت هنا؟ قال ولم يكن سعيداً على الإطلاق. لابد أن نتقابل هناك الكثير من الأمور التي يجب أن نتحدث فيها، لكن الآن متعجل. لكن غاريلاس كان عصبيا فأخذه الآخر معه سيراً على الأقدام حتى منطقة موسخاطو، ومع الكثير من الـ قل وقيل اعترف. نعم، لديك حق قال، لم تكن الأمور هكذا بالضبط، لكن كل هذه الأشياء مجرد تفاصيل أمام الواجبات العظمى التي يفرضها علينا الوضع الجديد، لابد أن يكون الصف قوياً وأن تكون الأمور واضحة، الأبيض أبيض، والأسود أسود، الظلال والتدلل والنواح هي للهواة، وكما أقول لك، إن فانيس شخص جيد، لكنه غير مريح، الشرور كلها بدأت من لجنة التنسيق تلك التي اخترعها نيسيريو، دعك من كل هذا الآن حتى لا نقلب المواجع، هناك بعض الأشياء التي بدأت منذ زمن، وإن لم يكن القائد قوياً في عهد ميتاكساس، لن يكون لدينا حزب الآن. قال عندما شعر بالنعاس ، انتظر، هل فانيس أجرب، لماذا لا أجده لأسمع ماذا سيقول؟ بحثت عنه طويلاً حتى وجدته في بدروم مقهى في شارع سينا حيث يجتمع أهل الجزيرة. كان جالساً في أحد الأركان يكتب، كانت هناك حرب ورقية، تقرير بعد تقرير، وضع هدفاً في حياته أن يبرئ حركة أبريل. لقد ذاب الرجل من الإرهاق. كان دائما يعيد فحص الأمور، قالوا له، سوف نستدعيك، لكن لم يوكلوا له أي أعمال، أبعدوه دون أن يعترفوا بعزله. كان أكثر ما يخافه فانيس هو الموت، لا، ليس موته هو شخصيا، لكن أن يلحق به

الموت وهو خارج الحزب. ذكر له غاريلاس عندما سألوه عن محاولة اغتياله وهنا ثار فانيس تماماً، اخرس، صاح فيه، لكنه أمر مشين، هذه أمور لا يجب عدم ذكرها، ثم راح يصب غضبه على الأرملة الذي كان يفعل كل ما يهب برأسه. لكن عندما قال له غاريلاس إنهم سوف يلقون اللوم على نيسيريو، أمسك فانيس بالورق وراح يكتب خطاباً إلى القائد قال فيه تقريباً التالي: لماذا تلقون بالمسؤولية على أكتاف شخص آخر بينما أعلن بكل فخر وسعادة أنني أنا المسؤول؟ كنت أنا السكرتير وإذا كان هناك أي إصبع خيانة أو عمالة فيجب أن يكون هذا الإصبع هو أنا وليس أحدا غيري. ولمرة أخرى أجابوه: صبراً، يتم التحقيق في أمرك. حسناً، قال فانيس، انتظر؛ لكن إلى أن يحدث هذا اعطني أي عمل حزبي، حتى وإن كان تنظيف أرضيات الحزب. لم يقولوا له لا أبدا، فقط، انتظر، صبرا، اضغط على نفسك قليلاً، لقد أغرقتنا خطاباتك الكثيرة. الضئيل التافه كان داخل كل الأمور وخارجها، وضع فانيس كرامته جانبا وذهب إليه، رجاه. نعم، نعم، قال له الآخر، سأعتني أنا بالأمر، لكن لابد أن تعرف، الآن كل شيء يسير بحزم. عندما ستأتي مرة أخرى احضر معك تقرير نقد ذاتي عن نفسك، لا تتعجل، اجلس بهدوء وفكر في كل شيء تحت ضوء الواقع الحزبي الجديد. كتب فانيس، عادت له الخطابات، كتب ثانية، رُدَت إليه. كانوا يريدونه أن يكتب أن حركة أبريل كانت "إصبع إنجليزي". الآن فانيس لم يترك غاريلاس. تعال يا فاسيليس، راح يقول له ، تعال نفحص كل الأحداث من البداية، ربما نكون قد نسينا شيئا، ربما خُدعنا؟ إلا أنه في أحد الأيام، ربما بعد عام، جاء إليه خلسة وقابله أحد شركاء القائد المقربين. كان في عيد القيامة قال له إن موضوع أبريل لن

يفتحوه مجددا، وإن لديه له مهمة خاصة غاية في السرية، ما هي، لم يقل فانيس أبدا، لكن الآن نعرف، موته أوضح كل شيء. هذا الشخص الذي جاء لمقابلته شدد عليه ألا يذكر لأي أحد أنهما قد تواصلا، ولا حتى أن يذكر اسمه. لكن فانيس كان في حالة سيئة وخانه تركيزه. وجد ذات يوم الضئيل التافه وقال له، أشكرك لأنك توسطت لي، كما لو أنني أولد من جديد، لكن لا تقل إنني أخبرتك بشيء وإلا انتهى أمري. ثم جاء شريك القائد إلى فانيس ووبخه توبيخاً شديداً. كاد أن يموت من حزنه، لكن عندما رأى الضئيل التافه مرة أخرى قال له: يا صاحبي، يا صاحبي، لقد مارست دناءتك مرة أخرى. فرد عليه الآخر قائلاً: على كلٍ؛ الصداقة شيء والحزب شيء آخر. ماذا كنت تريد، أن أترك سراً كهذا في رحاب المخاطرة؟

أخذوا يتحدثون في من كان لديه حق وما هي الأولوية، الصداقة أم الحزب، غضب عبد المجيد وذهب يأتي بأوقية أخرى من النبيذ، وعندما عاد كانوا قد انتهوا من حديثهم. جلس وراح يحكي عن مانوس سيميونيذيس. كيف تم الحكم عليه في المعتقل بالإعدام بينما نانسي كانت تعتقد أنه محبوس في شرق أفريقيا، وعندما علمت الحقيقة ذهبت ووجدت زوجها السفير وقالت له كل شيء، إنها حامل في شهرها الرابع، قالت له وطلبت منه المساعدة. هو بدوره، وكما كان فانيس قد قال لها ذات مرة، تصرف كجنتلمان، أرسلها بطائرة إلى إنجلترا ثم بعد ذلك طلقها. وراحت نانسي في لندن تدق كل الأبواب طالبة العفو، وبعد أن أفرجوا عنه كان قد كبر بطنها فراحت تدور تحت أشجار الحور في كيفالاري تبحث عن أم سيميونيذيس. عندما

عاد المسكين وجد في انتظاره اثنتين : أماليّا، أمه وابنته، لكنه عندما ذهب إلى مقر الحزب وجد في انتظاره فخا كبيرا، نصبه له المزعوم التافه. أعلنوا أنه عميل للاستخبارات الإنجليزية وأنه عضو خطير. راح يهرول من هنا وهناك، كان فانيس يتجنبه حتى لا يقولوا عنه إنه انفصالي؛ في النهاية أصابه الضجر، مكث في بيته ولم يقابل أي أحد. وذات يوم راحت نانسي تعلق إحدى اللوحات الزيتية على الحائط لامرأة طويلة ترتدي ملابس قديمة الطراز، وفتحت دون أن تدق الباب ومن وجدت يجلس واضعاً ساقا على ساق في غرفة المكتب؟ الضئيل التافه. بُهتت وأصابها الذعر، ظنت أن الموت بعينه أمامها. وقال الضئيل التافه لمانوس إن الحزب يحتاج إلى ضباط لأن الإرهاب قد وصل إلى مداه، فرد عليه مانوس قائلاً، ألا تقولون عني إنني عميل للاستخبارات الإنجليزية؟ فقال له الآخر، الآن نحن لا ننبش في قصص قديمة. كل أمر في وقته. فقال له مانوس، آسف، أحضر لي في البداية بيانا مكتوبا أنكم مسحتم ما لطختم به اسمي ثم بعد ذلك سآتي. ضحك الآخر ثم قال، اكتب تقريرا ثم تعال لتقوم بواجبك. رد عليه مانوس قائلاً: هل تتغذون على التقارير؟ نظفوا ما لطختموني به أولاً. ضحك الآخر مرة ثانية: هذا يعني أنك كنت دائماً تبحث عن سبب كي تبتعد وتجلس هنا مرتاحا في بيتك وتترك الآخرين يُذبحون كالخراف. فتح مانوس الباب وقال له: اخرج من بيتي الآن بالتي هي أحسن، لأنني لا أريد أن ألطخ يدي بدماء رفيق سابق. لكن بعد شهر تقريبا أرسلوا فانيس إلى مانوس الذي نجح بالطبع في إقناعه بسهولة. تسللا إلى الجزيرة وصعدا إلى الجبل. ثم حدثت الخيانة الكبرى، في النهاية بقيا وحدهما بعد أن وقعا في فخ فأصيب فانيس برصاصة في كوعه

فتهشمت ذراعه، بقي مانوس في الخلف ليغطيه فألقوا عليه قنبلة يدوية ثم بعد ذلك ربطوا جسده في ذيل بغل وراحوا يجرونه على الصخور.

- آخ! قال غارياس مذعورا، رباه! توقفوا من فضلكم، قلبي لم يعد يحتمل. هيا بنا نعد الأحياء، لنرى ماذا سنفعل من الآن فصاعدا.

- عن أي أحياء تتحدث! ضربت العجوز يدها على الطاولة. هل هناك أحياء أكثر من أمواتنا؟

هيلين لم يعنها أن يسمع الناس في الجوار، كانت تتكلم بصوت مرتفع، عن بانديليس الذي قبضوا عليه في "هيفيستو" ومر على المحكمة البحرية مع الآخرين فوكلت له أفضل محامي في الإسكندرية وذات لحظة قال النائب العام الملكي: أطالب بإعدامه، نعم، لأنه متمرد، لكن لم أقل أبدا إنه خائن، الخونة هم هؤلاء الذين يكتبون كل هذه الأكاذيب في الصحف ويشهرون بأمتنا ويقولون عنها إن بها خونة. هؤلاء هنا أعطوا كل شيء من أجل فكرة، أخطئوا، ولابد أن يدفعوا ثمن خطئهم. كم أود لو كنتم رأيتموهم عندما تم الهجوم في عيد القديس يورغيوس في الميناء، كيف أهرعوا ليحموا السفن، كانت سفينة "هيفيستوس" تحمل تسعة وثلاثين طوربيدا، كان بإمكانهم أن ينسفوا أساطيل الحلفاء وميناء الإسكندرية بأكمله. هؤلاء المتهمون هنا حافظوا على النظام وتم تسليم السلاح بشكل طبيعي ثم قالوا بعد ذلك: نحن المسؤولون عن كل شيء، ونحن قادة التمرد، لا تبحثوا عن آخرين، حاكمونا نحن. المجد للرجولة اليونانية التي لم يحالفها الحظ! ثم انهمرت دموعه.

وبناء عليه يا أصدقائي، تم الحكم على بانديليس بالإعدام. دعوكم مما عانيته. تم إصدار العفو بعد ذلك وكل شيء نُسي. وتركني فجأة إلى اليونان ولم أسمع عنه أي شئ لعامين وذات يوم تلقيت خطابا، قبضوا عليه مع الأرملة، وراحوا يجرجرونهما من سجن إلى آخر وسيُعرضان مرة أخرى على المحكمة وتلك المرة لن ينجوا برأسيهما. بعت كل أغراضي وحولتها إلى جنيهات ذهبية وجئت إلى هنا. مسحت أجواخا، صعدت أدراجا، قابلت أكبر الشخصيات. كان في ثيسالونيكي، قيد الانتقال. ملأت الأفواه بالذهب وصعدت. أحد الكبار قال لي إن الأمر ليس صعباً، توقيع صغير سيضعه بانديليس على ورقة وكل العالم والحياة ستكون ملكه، العشق والمال والشباب. تركوني أقابله. فرح كثيرا برؤيتي، بانديليس يا حبيبي، هيلين كيف استطعتِ أن تأتي إلى هنا؟ حدثته عن التوقيع فتغير على الفور، راح يكيل لي السباب، يا خنزيرة يا خائنة لا أريد أن أراكِ مرة أخرى. ملأت الأفواه بالذهب مرة أخرى ووجدت شخصا من داخل السجن ذهب ليقنعه.
حتى جاءت ليلتهما الأخيرة في زنزانة المحكوم عليهم بالإعدام، كان الأرملة في ركن الغرفة جالسا القرفصاء، وقد وضع رأسه بين ركبتيه دون حركة يتصنع النوم. بانديليس كان يسير ذهابا وإيابا والرجل من إدارة السجن أحضر القهوة والحلوى والسجائر وراح يحارب كي يغير رأي بانديليس، حدثه عن المأكولات البحرية بأنواعها في أرتوس التي لم يذقها، نباتات الدرار الرائعة والطواويس الجميلة في فلاتاذيس حيث رائحة البابونج الزكية في الربيع، وحدثه عَنيّ، هذه المرأة بهذا القلب والمال وهذا الجسد الشهي، ماذا تريد فوق هذا، حياة واحدة نعيشها، فلا تخسرها، شوارع العالم،

كل البحار أمامك، ستذهب إلى الإسكندرية مرة أخرى، ستبدأ عملاً هناك، ستبني حياتك من جديد، حياة هادئة متحضرة؛ باندليس لم ينطق بكلمة، فقط كان يروح ويجيء كالوحش الكاسر. الساعات تمر، موظف الإدارة حصل على مال كثير، وعدته بالسماء والنجوم، فلم يقصر ولم يتراجع. توقيع واحد، ماذا يعني توقيع صغير، لقد فعل هذا من قبلك الكثيرون. عن أيَ إيمان وإخلاص تحدثني يا أبله، قال له، أمن أجل هؤلاء الذين وصموكم بتهمة العمالة للاستخبارات الإنجليزية ثم ورطوكم في ذلك التمرد الفاسد فأفسدوا كل شيء ثم تركوكم أنتم تدفعون ثمن كل شيء وهم يتسكعون في تشيكوسلوفاكيا وينعمون بالنساء والنبيذ والجامبون والكافيار؟ اقترب الفجر وفتح باندليس فمه للمرة الأولى وراح يساوم. أيَ؛ ما معناه، كان يبحث عن سبب. بدأ يقول إن حياة مليئة بالعار ليست حياة، ماذا تفعل بكل خيرات العالم إذا كان جبينك ملطخا، وإنه، أيَ الآخر، قاسي القلب متحجر العقل لهذا لا يفهم. وبدلاً من أن يغضب الآخر، تنهد، لأنه بدأ يرى بصيص أمل. راح يبدأ الحوار مرة أخرى ولكن هذه المرة مع الأرملة، الذي فهم جيدا أن الكلام موجه إليه فرفع رأسه وقال: أيا ابن العاهرة، ألا ترى أنك قتلت الرجل بثرثرتك. اللعنة عليك اغرب عن وجهي قبل أن أنهض وأحطم وجهك! فتبدل حال باندليس مباشرة وتصلب عقله ثم أجبر الآخر على الخروج من الزنزانة. بعد ذلك جاءوا وأخذوهما في الصباح، ألصقوهما على الحائط خارج سجن الأبراج السبعة، وأطلقوا عليهما الرصاص. كنت في الخارج، تتبعتهم بسيارة تاكسي فسمعت صوت إطلاق الرصاص. أُغشي علي في التاكسي. وعندما استفقت بدأت أهرول وأسترجي كي يعطوني

باندیلیس حتى ولو جثة كنت أريده. دفنوهما معا. استأجرت غرفة في المدينة القديمة وسكنت فيها. اشتريت مقبرة في مقابر جبانة الكنيسة وبعد ذلك جمعت عظامهما مختلطة ودفنتها حتى يكون خليج الثيرمايكوس تحت أقدامهما كما يقولون، إذ إنه يشبه الإسكندرية كثيرا. لنذهب غداً إذا شئتم لتروا المكان. ليس لدي هدف آخر في الحياة، لم يبق لدي أي شيء أفعله. أهتم بالمقبرة، أشعل القناديل، أصب الماء هناك، أحضر القس ليتلو عليهما الصلوات وأصنع الحلوى للمقابر.

- من أجل الاثنين يا هيلين؟ سأل غاريلاس.

العجوز أفرغت الكوب ومسحت شفتيها باليد الأخرى.

- هل تريد أن تقول أن الأرملة تسبب في مقتل باندیلیس؟

لا يا سيدي! كانا كلاهما رجلين بمعنى الكلمة.

5 مايو 1965

المؤلف فى سطور :

ستراتيس تسيركاس

ناقد وشاعر ومترجم وقصصى وروائى من أهم أدباء اليونان فى العصر الحديث فى مصر واليونان .

- ولد عام 1912 بحى عابدين بالقاهرة .

- أنجز الدراسة بالقسم التجارى بالمدرسة العبيدية بالقاهرة عام 1928 .

- عمل بمحلج للأقطان فى ديروط بالصعيد عام 1929، ثم ترك ديروط وعاش بالإسكندرية منذ عام 1939 إلى أن غادرها إلى اليونان فى عام 1963 .

- تعد ثلاثية «مدن جامحة» (المنتدى 1961 ، آريان 1962 ، الخفاش 1965) من أشهر أعماله الروائية، وقد ترجمت إلى الفرنسية فى عام 1971 وحصلت على جائزة أحسن كتاب ترجم إلى الفرنسية فى نفس العام وحققت نجاحا كبيرا، ثم ترجمت إلى الإنجليزية فى عام 1974، ومن ثم إلى لغات عديدة وصدرت منها عدة طبعات .

- من أعماله الروائية أيضا «ثور الدين بومبة» 1970 و « الربيع الضائع» 1975 و «نومة الحصاد» 1954.

- من أشهر دراساته الأدبية «كفافيس وعصره» 1958، وحصل عنه على جائزة الدولة فى اليونان .

- له عدة دواوين شعرية مثل «الفلاحون» 1937«والرحلة الوجدانية» 1938 و «الوداع قبل الأخير» و «موشحات التأبين الإسبانية» 1946 .

- كتب ونشر أغلب أعماله بالإسكندرية .

- توفى فى سنة 1980 بأثينا .

المترجم فى سطور :

خالد رءوف

- ولد فى الإسكندرية . جمهورية مصر العربية.

- درس الآثار اليونانية الرومانية بجامعة الإسكندرية وجامعة أثينا .

- درس اللغة اليونانية بجامعة أثينا وحصل على دبلوم الترجمة من نفس الجامعة، وكذلك دبلوم فى الترجمة من مدرسة الاتحاد الهلينى الأمريكى .

- حصل على إجازة الماجستير والدكتوراه بمرتبة الشرف من جامعة شيكاغو فى تاريخ الفن الكلاسيكى (اليونانى / الرومانى) .

- ترجم من الإنجليزية إلى اليونانية (الحب الأول) لصمويل بيكيت، والتى قام بعد ذلك بإعدادها للمسرح الشاعر اليونانى ثانوس تاثوبولوس. ثم ترجمها من اليونانية إلى العربية لفرقة ART SYNDYCATE، والتى شاركت بها الفرقة فى مهرجان المسرح التجريبى فى عام 2004 .

- له عدة ترجمات عن اللغة اليونانية لشعراء وروائيين يونانيين، من بينهم نيكوس كازانزاكيس ويانيس ريتسوس وذيميتريس ذيميترياذيس ونيكوس كافاذياس .

التصحيح اللغوى : سـمـاح حـامد

الإشـراف الفنى : حسـن كـامـل